

د. آلان دونو

نظام التفاهة

ترجمة وتعليق

د. مشاعل عبدالعزيز الهاجري

دار سؤال

ألان دونو
Alain Deneault
أستاذ الفلسفة و العلوم السياسية
جامعة كيبيك - كندا

نظام التفاهة
La médiocratie

ترجمة و تعليق
مشاعل عبد العزيز الهاجري
الدكتورة في القانون الخاص
كلية الحقوق - جامعة الكويت



نظـام التفاهـة

La médiocratie

Original title: *La médiocratie*

www.luxediteur.com

الطبعة الأولى، 2020
عدد الصفحات: 368
القياس: 17 × 24

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
بيروت - النويري - شارع سيدي حسن - بناية غلاييني - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 00961 81 883687

www.darsoual.com @darsouall2014
dar_souaal@outlook.com Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-84-1

المحتويات

نظام التفاهة

La médiocratie

إهداء

إلى خالد،

أعيد إليك ساعاتك، بحب.

تحية

هذا كتاب قرأته فأحببته، ثم ترجمت منه فصلاً، كما أفعل بين الحين والآخر مع بعض الكتب التي أجد فيها قيمة، حتى يكون مادة للنقاش مع طلبتي في بعض مقررات القانون في برنامج الدراسات العليا التي أدرّسها في كلية الحقوق - جامعة الكويت.

بعد بضعة أيام، فوجئت باتصال دار «سؤال» اللبنانية للنشر بي، وإلحاحهم عليّ بأن أقبل بترجمة الكتاب كاملاً حتى تقوم الدار بنشره للقارئ العربي.

كنت من الانشغال بحيث اعتذرت كثيراً، وكانوا من الحرص بحيث ألحّوا أكثر.

هذا الكتاب الماثل بين يديك يغنيك عن التساؤل عمن كانت له الغلبة في هذا السّجال المعرفي.

فتحية لدار سؤال.

I. عن الكاتب

مؤلف الكتاب هو ألان دونو Alain Deneault، أستاذ الفلسفة في جامعة كيبيك الكندية. وهو أكاديمي ناشط، معروفٌ بالتصدي للرأسمالية المتوحّشة ومحاربتها على عدة جبهات، لا سيما فيما يتعلق بصناعات التعدين والجنان الضريبية.

وقد كانت مساعيه هذه موجِعةً للأطراف التي حاربها، حتى أنه لوحق قضائياً من قِبَل بعض أقطاب صناعة التعدين عام 2008، وذلك بعد أن أصدر كتاباً في العام نفسه بعنوانٍ مثير، هو «كندا السوداء: النّهب والإفساد والإجرام في إفريقيا» *Noir Canada: Pillage, corruption et criminalité en Afrique*.

II. عن الكتاب

هذا كتاب هام، ينبغي أن يُقرأ. بهدوء.

في عام 2017، أصدر المؤلف كتابه هذا تحت عنوان *La médiocratie*، وقد نجح الكتاب نجاحاً كبيراً فلاقى رواجاً في كثير من دول العالم بسبب من أطروحاته الجريئة وأسلوبه المختلف.

ويدور موضوع هذا الكتاب حول فكرةٍ محوريّة: نحن نعيش مرحلة تاريخية غير مسبوقة، تتعلق بسيادة نظام أدّى، تدريجياً، إلى سيطرة التافهين على جميع مفاصل نموذج الدولة الحديثة.

بذلك، وعبر العالم، يلحظ المرء صعوداً غريباً لقواعد تتسم بالرّداءة والانحطاط المعياريّين: فتدَهورت متطلبات الجودة العالية، وغُيِّب الأداء الرفيع، وهُمّشت منظومات القيم، وبرَزَت الأذواق المنحطّة، وأُبعِدَ الأكفّاء، وخلت الساحة من التحدّيات، فتسيّدت إثر ذلك شريحةٌ كاملةً من التافهين والجاهلين وذوي البساطة الفكرية، وكل ذلك لخدمة أغراض السوق بالنهاية، ودائماً تحت شعارات الديمقراطية والشعبوية والحرية الفردية والخيار الشخصي، حتى صار الأمر يذكّر بما كان مونتسكيو Montesquieu يحذّر منه من وجوب صون الحرية عن الابتذال، عندما قال إن «ممارسة الحرية من قبل أكثر الشعوب تمسكاً بها تحملني على الاعتقاد بوجود أحوالٍ ينبغي أن يوضع فيها غطاءٌ يستر الحرية مثلما تُستَر تماثيل الآلهة».[1]

وقبل أن نبدأ، نحاول هنا ضبط المصطلحات المحورية للكتاب. تُستخدَم كلمة Mediocrity لوصف طبيعة الشخص أو حالته من حيث التفاهة أو الابتذال أو السخافة أو تواضع المستوى، فيما كلمة Mediocracy هي كلمة جديدة على القاموس نسبياً، فلم تظهر إلا حوالي عام 1825، وهي تعني النظام الاجتماعي الذي تكون الطبقة المُسيطرة فيه هي طبقة الأشخاص التافهين، أو الذي تتمّ فيه مكافأة التفاهة والرداءة عوضاً عن الجدية والجودة. وكما هي الحال مع صعوبة ترجمة كلمات أخرى، أجد أن تعريفات هاتين الكلمتين في المعاجم العربية غير مُرضية ولا دقيقة (وهي بذلك تضاف إلى كلمات أخرى مثل كلمتَي sophistication وintegrity مثلا). وعلى أية حال، فالكلمتان، لأغراض هذا الكتاب وبشكل عام، يراد بهما أن تكونا مجرد مقاربة تتعلق بوصف نظام اجتماعي، كما هي الحال مع الديمقراطية والتكنوقراطية مثلاً.

---

(1) مونتسكيو، *روح الشرائع*، الجزء الأول، ترجمة عادل زعيتر وأنطوان نخلة قازان (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2014)، ص. 393.

III. عن ترجمة هذا الكتاب

1. لماذا أترجم هذا الكتاب، تحديداً؟

بالإضافة إلى ما هو متوقّعٌ من إعجابي به كقارئٍ، يتمثل سبب اهتمامي بترجمة هذا الكتاب بكونه يعرض أفكاراً تكاد تطابق ما كنت أكتب فيه لسنوات: موجات التسطيح، تشابه الشخصيات، غياب العقل النقدي، دعاوى الخبرة، الرأسمالية المتوحشة، وَهْم الكاريزما، عطب المؤسسات، الفساد، تسليع الحياة العامة، الفن الرخيص، أثر التلفزيون، التلوث، التخريب لإعادة الإعمار، العلاقة بين المال والسياسة، الحوكمة، ثقافة الإدارة السطحية ومفرداتها الخالية من المعنى («الابتكار»، «التمكين»، «ريادة الأعمال»)، دور الآيديولوجيا، الطبقية المالية، الفضاء الخاص والفضاء العام، الاستعمار الاقتصادي، الأوليجارشية، الأزمة المالية، برامج التقشف، نظم التعليم وجودتها / جدواها، الجريمة المنظمة، العلاقة بين المال والأكاديميا (تسليع الجامعة).

وهكذا، فهذا الكتاب ينقل بدقة ما أعتقده من الانتشار المستشري للتفاهة، مع الإيمان بأنها، وإن عرضت نفسها - لغير المتمعن - على شكل فوضىً متمثلةٍ في حالاتٍ متناثرة، إلا أنها في واقع الأمر نظامٌ مكين، يضرب بجذوره في تربة المجتمع شيئاً فشيئاً، بشيء من المنهجية والاستقرار المرعبين.

وفي الحقيقة، فأنا لو كنت سأكتب كتاباً حول هذا الموضوع، فما أظنه سيكون مختلفاً عن هذا الكتاب إلا من حيث الأمثلة، ولكن ليس من حيث القناعات والنتائج (من الطريف أن أعرف أن المؤلف مولودٌ في ذات السنة التي ولدت أنا فيها؛ ربما كان هذا هو السبب في كوني ألتقي معه فكرياً. أغلب الظن أننا من جيلٍ لا تنطلي عليه التفاهات). ومع ذلك، فأراني فعلت حسناً إذ ترجمت في الموضوع ولم أؤلف فيه؛ إذ ربما كان الأمر يتطلب عيناً أجنبية كي «يرى» الناس في هذه المنطقة من العالم ما ينبغي أن يُرى. في وصفه لكتاب

The Englishness of English Art الذي وضعه في الخمسينات مؤرخ الفنون الألماني Nikolaus Pevsner حول الفن التشكيلي الإنجليزي، كتب الناشر أن Pevsner يكتب من خلال «النظر بعين الغريب غير المُنحازة» the unbiased eye of a foreigner. ما زلت أتذكر هذه العبارة.

وبذلك، فقد كفاني المؤلف مؤونة أن أدبج كتاباً مكرساً لذلك، ومكنني، عوضاً عن إعادة اختراع العجلة، أن أكون مترجماً أميناً - ما استطعت - لأفكار الكتاب، مستحضرةً في ذلك قولاً قرأته ذات مرة للكاتب السوري عبد اللطيف الفرحان:

> «الكتابة عندي فرض كفاية، إذا كتب غيري وأجاد عن الموضوع فلا أجد كتابتى إلا تكراراً. وبالتالى، فعزوفي عن الكتابة عنها ليس موقفاً، بل إيماناً بأنه ليس لدى ما أضيفه لقضية واضحة ومحسومة وصريحة. فالكتابة ليست إثبات موقف، بل إضفاء قيمة معرفية».

ولا يغيّر في الأمر حقيقة أن أمثلة الكاتب كندية وأوروبية على الوجه الغالب، إذ ينبغي النظر إلى كثير منها كمعايير، لا كأمثلة، فهناك معاييرُ ظرفية، تصلح لحالات دون حالاتٍ أخرى، من دون أن يقلّل الأمر من مصداقية تلك المعايير. وللتقريب، فربما كان الأمر يقارب «إسقاط ميركاتور» Mercator projection المُستخدم في رسم الخرائط، الذي وإن كانت حساباته تتسع وتفقد دقتها عند القطبين، إلا أنه قد أصبح الإسقاط القياسي للخرائط فيما يتعلق بالأغراض الملاحية عند الاستواء وفي العروض المعتدلة.

هكذا أرى هذا الكتاب، كقارئ أولاً، وكمترجمٍ ثانيا. لم يختلف عليّ شيءٌ وأنا أخلع قبعة الأول وأرتدي قبعة الثاني.

في الحقيقة، ربما عمّقت ترجمتي للكتاب من إدراكي للأمر، أكثر.

2. منهج الترجمة وتحدياتها

هذا كتاب مُتعِب، من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب معاً.

فأما من حيث الموضوع، فقد تطرّقت له فيما تقدم. ولا شك أن القارئ بعد إحاطته بموضوعه سيرى الأمور في ضوء مختلف. ويهمني هنا أن أذكر بما أشرت إليه فيما تقدم من أنه وإن كانت بعض أمثلة الكتاب كندية وأوروبية، إلا أن أطروحته عالمية.

وأما من حيث الأسلوب، فهو مختلفٌ عما اعتاده القارئ العربي، وفي الحقيقة فإنه يكاد يكون غير مريح من حيث أنه غير معتاد، فالمؤلّف «يتدفق»؛ من خلال عقلٍ ذكي (يرى الارتباطات المعقّدة بين الأشياء)، غاضب (له تعبيرات حادة)، ويكتب بطريقة متداخلة؛ وكأنه يحادث صديقاً في مقهى، مع كوب قهوة بيد وسيجارة بيدٍ أخرى (كما يبدو لي، أحياناً، أنه يدع الكوب من يده أحياناً، فيقوم عَجِلاً، ويتناول قلماً وورقة ليرسم عليها مخططاً توضيحياً ما). وهكذا، يشرح مؤلفنا ويضرب الأمثال ويغضب ويستنكر ويسخر (بل قد يمسك بكتفَي القارئ ويهزهما غضباً أحياناً وكأني به يقول له: «هيه . . . ما لك، ألا ترى؟»). بذا، فأنت قد تفهم ما يرمي إليه أحياناً، وقد يفوتك مقصده في أحيانٍ أخرى. ولكن لا بأس، فأنت وإن فاتتك بعض الجزئيات - ولا أظن أن ذلك وارد، بفضل الهوامش الشارحة التي أرجو أنها تتدارك كل غموض فتشرحه -[1] إلا أن الأطروحة الكبرى للكتاب ستكون مفهومة تماماً، بل إنها قد تلقي شيئاً من الضوء على بقعٍ مظلمةٍ من العقل. بذلك، وبشيءٍ من الصبر، ستكتشف أن كل ما يتحدّث عنه المؤلف في أماكن بعينها، إنما يحدث، في الحقيقة، في العالم بأكمله.

---

(1) لعل من أصعب تحديات ترجمة هذا الكتاب ما يتضمنه من كمية المعارف والمعلومات وأسماء العلم والأماكن والمفاهيم التي يذكرها الكاتب في سياقات نقاشه، مفترضاً معرفة بها.

ومع ذلك، فلنعترف أن الكتاب، في بعض مواضعه، كان صعباً ومعقداً مثل الشطرنج والجبر الفارسيَّين، حتى عليّ أنا؛ مترجمته. لقد مرّت بي فقرات (قليلة، لحسن الحظ) اضطررت معها إلى تفعيل كل ما أدّعي أنه قد يكون لديّ من حدسٍ سليمٍ لتخمين قصد المؤلف. في هذه المواضع، قد ينطبق عليَّ قول فريد الدين العطار النيسابوري في كتابه «منطق الطير»: «وعلى اليُبْسِ قُدتُ سفينتي»؛ فلا بحر أمامي لأمخر عبابه بسلاسة.

إلا أن كل ما تقدّم لا يغير شيئاً من حقيقة أنه يظل على المترجم واجبٌ مزدوج: فمن ناحية، على المترجم الحفاظ على الصياغة الأصلية للكتاب ما أمكن، ومن ناحية، عليه تحويرها بما يلائم ذائقة القارئ العربي بما يضمن وصول المعنى إليه. لذلك، فقد كانت خياراتي الصعبة هنا هي إما الالتزام بأمانة الترجمة ونقل ما كتب المؤلف بالضبط (مع المخاطرة بركاكة أسلوب الترجمة)، وإما الاستفادة من هامش حريّة المترجم والتعبير عن أفكار الكاتب بما يضمن إيصالها للقارئ (مع خيانة النص إلى حدٍّ ما)، وهي المعضلة الكبرى التي يعرفها المترجمون حول العالم (ألم يصف إمبرتو إيكو ما يحدث في عملية الترجمة بأنه تفاوضٌ بين لغتين، تتنازل إثره كل لغة عن شيءٍ ما من كيانها التعبيري؟).

ولكنني، بعد التفكير، استحضرت مقولة والتر بينجامين Walter Benjamin في مقالته الشهيرة «رسالة الترجمان» The Task of the Translator:

> «في الترجمة أكثر من مجرد تبليغ، فإن شئنا صياغة تحديد أدق لهذه النواة الجوهرية، جاز لنا القول إن الأمر لديها لا يقبل الترجمة من جديد. ذلك أنه مهما استطعنا أن ننتزع منها شيئاً من التبليغ حتى نترجمه، فإنه يتبقى دوماً شيء لا يمكن لمسه، عليه ينصب عمل الترجمان الحق».[2]

(2) فالتر بنجامين، «رسالة الترجمان»، ترجمة: فتحي إنقزو، *مجلة العربية والترجمة*، العدد 26، حزيران/ يونيو 2016. ومن حيث الأصل، كان هذا المقال مقدّمة كتبها بنجامين

ثم اخترت العمل من خلال البقاء ضمن المسافة الضيّقة بين الخيارين اللذين أشرت لهما أعلاه، والتي آمل أن تمكنني من أن أكون مترجماً أميناً على كتابات المؤلف فلا أحيد عنها، وذلك من خلال الحفاظ على روح النص الأصلي ما أمكن، مع الحرص على ضبط الأسلوب ما استطعت. وقد طعّمت ذلك باستراتيجية ثلاثية تعتمد على:

أولاً، الحرص على إيراد المصطلح الأصلي بالعربية وإلى جانبه ترجمته الإنجليزية، وذلك لسببين، يكمن أولهما في التسهيل على الباحثين الذين قد يحتاجون الرجوع إلى المصطلح الإنجليزي، ويتمثل ثانيهما في ترسيخ قيمة التواضع العلمي، فربما كان في القراء من هو أقدر مني على ترجمته بشكل أفضل، وهذا أمرٌ يعرفه الباحثون. ثانياً، إدخال الهوامش المفاهيمية الشارحة والمفسّرة التي حاولت من خلالها التوضيح ما استطعت (يذكر أنه فيما عدا الهوامش المرجعية التي تشير إلى بيانات الكتب، فإن النسختَين الفرنسية والإنجليزية خاليتان تماماً من الهوامش التعريفية التي تستكمل النقص المعرفيّ لدى القارئ العربي، حتى وإن كان ذو تعليمٍ عالٍ، الذي لا يفترض به معرفة كل ما ورد في الكتاب، فالمؤلف يشير إلى كثيرٍ من المفاهيم التي أجد أنه من حسن الحظ، حقيقة، أنه صادف أن لي، كمترجمٍ عربي، خلفيةً حقوقيةً حتى يتاح لي التصدي لشرحها كما ينبغي (هناك مترجمون يترجمون الكلمات، ومترجمون يترجمون الأفكار، وآخرون يترجمون الكلمات ويشرحون الأفكار معاً، وهي المهمة الأصعب. وقد أخترت أن أكون من الأخيرين). هذا، وهوامشي مستفيضة؛ فأنا أفترض أن قارئ كتابٍ مزعج فكرياً مثل هذا يريد «معرفة» الموضوع حتى يفهم ما يرمي إليه الكاتب، لا مجرد «العلم» به (في الهوامش، قد أختصر في سير الشخصيات، ولكنني أتوسع - كثيراً - في شرح الأفكار

لترجمة قام بها لديوان الشاعر الفرنسي بودلير Baudelaire «أزهار الشر» *Les fleurs du mal* عندما نقله من الفرنسية إلى الألمانية، إلا أنه أصبح بعدها من أهم القطع النقدية التي تتعاطى مع الترجمة من منظور تأمّلي.

والمفاهيم). وأخيراً، هناك مواضعُ لا يسعني فيها إلا التعويل على ذكاء القارئ، وهو الذكاء الذي يدلّ عليه اختياره أن يقرأ كتاب مثل هذا.

وبعد، فقد سبق لي أن قمت بترجمات كثيرة، ولكن هذه الترجمة بالذات كانت تمريناً استثنائياً في كلٍّ من الصبر (فأسلوب المؤلف صعب) والتواضع (كان عليّ خوض حرب داخلية باستمرار ضد غروري الشخصي، عنوانها «يمكنني أن أقول ذلك بطريقة أفضل»). ولا أجد في وصف الحال أفضل من الأبيات التي وضعها أحمد فارس الشدياق يشكو فيها حاله مع الترجمة:

ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا
ولم يصل نار الحرب إلا المحارب
أرى ألف معنى ما له من مجانسٍ
لدينا وألفاً ما له ما يناسب
وألفاً من الألفاظ دون مرادفٍ
وفصلاً مكان الوصل والوصل واجب
وأسلوب إيجازٍ إذا الحال تقتضي
أساليب إطنابٍ لتوعي المطالب
فيا ليت قومي يعلمون بأنني
على نكد التعريب جدى ذاهب

ولكن هذا قدر المترجم، الذي يحتم عليه واجبه الترجميّ مماشاة المؤلف والحفاظ على خصائص أسلوبه ومميزاته، وبخاصة تلك التي تميزه عن سائر أنداده وزملائه،[3] وإن كان ذلك على حساب أسلوب المترجم نفسه.

---

(3) جون درايدن، «رأي في الترجمة»، ترجمة مبارك إبراهيم، *مجلة الثقافة*، العدد رقم 606، 7 أغسطس 1950، ص. 2.

لكل ما تقدم، أذكّر بما يقال عن الترجمة من أنها كالمرأة؛ إذا كانت جميلة فهي غير أمينة، وإذا كانت أمينة فهي غير جميلة.

قد يكون هذا الكتاب أقرب ما يكون إلى امرأةٍ غير جميلة أحياناً، ولكن الأكيد أنها ذكيةٌ دائماً.

3. منظور إلى الترجمة، عموماً

عقيدتي العلمية بشأن جامعاتنا العربية هي أننا نمر بمرحلةٍ تاريخيةٍ للترجمة فيها أهميةٌ تفوق أهمية البحث العلمي، لا سيما وأن مقدرة من هم خارج أسوار الجامعة على تناول المعارف الأجنبية محدودة بسبب ضعف مناهج اللغات في مدارس العالم العربي، وأنه على أساتذة الجامعات واجب أخلاقي بالقيام يحتم على كل منهم القيام بحصّة من الترجمات المفيدة مجتمعياً، إلى جانب البحث العلمي الذي يبدو أن مهمته الوحيدة - في غياب المؤسسات البحثية الداعمة - تقتصر على التقدم الوظيفي فقط. كان الأديب المصري توفيق الحكيم يقول: «المعنى الحقيقي للحضارة والبلد المتحضّرهو أن توضع كل آثار الذهن وتراث الفكر في متناول الأيدي بلغة البلد».[4]

وبطبيعتها، تنطوي الترجمة - كما يقال - على قدرٍ من الخيانة، وإن حَسُنَت نية المترجم، إذ يصدق عليها، مهما كانت دقيقة، المثل الإيطالي "traduttore traditore" («المترجم خائن»). فالمترجمون إذ يزجّون بأنفسهم في غمار الترجمة، تلك المهمة المحفوفة بالألغاز، فإنهم يشتغلون على العمل نفسه في لغتين غريبتين إحداهما عن الأخرى، وكأنهم يقصدون إعادة بناء برج بابل.[5]

---

(4) توفيق الحكيم، *سجن العمر*، ط. 2 (القاهرة: دار الشروق، 2008)، ص. 116.

(5) موريس بلانشو، *أسئلة الكتابة*، ترجمة نعيمة بنعبد العالي وعبد السلام بنعبد العالي (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2004)، ص. 84. وكلمة «بابل» هنا هي استعارة تشير إلى البلبلة أو الفوضى اللغوية، وليست إحالة إلى المدينة العراقية التاريخية.

إلا أن مساعي المترجم، رغم حسن النوايا، قد لا تكون مطابقة لما أراد المؤلف بالضرورة. فالجاحظ، مثلاً، رغم أنه تشدد في تطلّب المَلَكة الفنيّة للمترجم قال:

«لا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية».

عاد فقرر:

«إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قاله الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيّات حدوده. ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجَرِيّ».[6]

ويكون ذلك أصدق ما يكون في الكتابات النادرة في بابها (مثل موضوع هذا الكتاب).

ولكن الترجمة هي درسٌ بيداغوجي فعلاً[7]، كما يقال. فالمترجم يُحاول: يفكر في الكلمات والجمل والمعاني، ويكتب، ويشطب، ويستبدل، ويسدّد، ويقارب، ويستجمع جميع معارفه اللغوية والمنطقية، حتى يتمكّن بالنهاية من التقريب بين لغتين من خلال بذل قوة توحيديّة هائلة لعلها تشبه - مجازاً - تلك التي يبذلها هرقل وهو يقرب بين ضفتَي البحر.[8]

---

(6) الجاحظ، «الحيوان» ، ج 1، ص 76.

(7) البيداغوجيا هي علم أصول التدريس.

(8) موريس بلانشو، *أسئلة الكتابة*، ترجمة نعيمة بنعبد العالي وعبد السلام بنعبد العالي (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2004)، ص. ص. 85.

ورغم ذلك، فلا يأمن المترجم، لدى التعاطي مع اللغات المقارنة، الوقوع في «الفِخاخ» اللغوية، التي عادة ما تشكل مصدراً خصباً للاضطراب اللغوي في عمله، فالقول الشهير يذهب إلى أن «الترجمة المبسطة هي وصفة للكارثة» (simplistic translation is a recipe for disaster).

من أجل كل ذلك، كان لا بد لي - كمترجم - من الخروج بمنهجٍ يأخذ كل ما تقدم بالاعتبار. ولذلك، فقد وقع اختياري على اتباع أسلوب جورج شتاينر George Steiner الذي يمثل مساهمته الأبرز في نظرية الترجمة،[9] والذي يذهب إلى أن الترجمة تقع على أربع حركات، هي:

1. الثقة (trust): ثقة المترجم وقناعته أن في النص المُختار ما يستحق التوصيل إلى جمهور جديد، يختلف عن الجمهور قارئ النص بلغته الأصلية.
2. العدوان (aggression): وفقاً لشتاينر Steiner، يتعلق الأمر بالعدوان على إقليمٍ ثقافي آخر، لذا فإن المترجم «يغزو، ويستخلص، ويجلب للوطن».
3. الدمج (incorporation): فعمل المترجم يقصد إلى استيعاب وتمثل النص المَصدَر في اللغة والثقافة الهدف ثم إدماجه في اللغة الهدف.
4. التعويض (restitution): وهو الإخلاص في الترجمة إلى حد جعل النص الهدف أقرب ما يكون إلى النص الأصل.

ولا أعرف ما إذا كنت قد نجحت في ذلك، فلا أدّعي أنني ذلك أنني اتّبعت هذه الخطة بدقة، ولكنني تحريتها - بإخلاص - ما أمكن.

---

(9) George Steiner, *Aspects of Language and Translation* (New York: Oxford University Press, 1975).

4. ملاحظات على النسخة الإنجليزية

رغم أنه كان من المفترض أن تتم ترجمة هذا الكتاب عن النسخة الإنجليزية فقط، إلا أنني، بعد الاطلاع على النسخة الفرنسية الأصلية، رأيت أنه من الملائم أن أرجع إلى النسختين معاً، فوضعت النسخة الإنجليزية (المُترجَمة) والفرنسية (الأصليّة) أمامي، وشرعت في القراءة ثم الترجمة من النسختين معاً.

بطبيعة الحال، أتاحت لي هذه الطريقة أن أقف على العديد من الاختلافات، النواقص، وسوء الفهم في النسخة الإنجليزية المُترجَمة. وللعدالة، وبشكل عام، فإن الترجمة الإنجليزية هي ترجمة جيدة جداً، قامت بها مترجمة مقتدرة، إلا انها - مثل أي عملٍ ترجمي، بما فيها هذا العمل الماثل بين يديك لا شك - يعتورها بعض العيب (فقراتٌ تم تجاوزها، ترجمةٌ حرفيةٌ يضيع معها المقصود،[10] سوء فهمٍ للعبارة الفرنسية). لذلك، حاولت ما أمكن تدارك هذه المثالب. ورغم أن النسخة الإنجليزية مُرضيةٌ إلى درجة كبيرة، إلا أن الخروج بنسخةٍ عربيةٍ أفضل وأقرب للأصل هو أمر مُستحق الآن للقارئ العربي الذي لا يجيد الإنجليزية أو الفرنسية.

هذا، وكثير من فقرات النسخة الفرنسية، ومن ثم الإنجليزية، هي فقراتٌ طويلة (قد تمتد الى أكثر من صفحة أحياناً). ورغم أنني لا أرتاح إلى هذه الطريقة في الكتابة، ولا أظنها مريحة للقارئ، إلا أنني التزمت ما استطعت - وإن لم يكن دائماً - بذلك (هناك أحيانٌ قمت فيها بتجزئة هذه الفقرات الطويلة إلى عدّة فقرات، كلما وجدت الأمر لازماً لحسن السبك وسرد الأفكار بوضوحٍ

(10) في بعض الأحيان كانت الترجمة حرفية إلى درجة يضيع معها المقصود، لاسيما في الأمثلة والتعبيرات ذات الدلالة، مثل «إعادة اختراع الماء الساخن» ص. 137 في النسخة الإنجليزية مثالاً (و هي العبارة التي يفترض أن تترجم إلى «إعادة اختراع العجلة»)، وكذلك مسمى «المربعات الحمراء» *carrés rouges* ص. 143 في النسخة الإنجليزية (وهو المصطلح السياسي الذي كان يتطلب مني توضيحه في هامش).

وسلاسة). كما أن هناك فقراتٍ تم تجاوزها في النسخة الإنجليزية، فلم يتم ترجمتها، وقد حاولت استكمال هذا النقص ما أمكن.

وفيما عدا البيانات المرجعيّة للكتاب، فإن النسختين الفرنسية والإنجليزية تخلوان تماماً من الهوامش التوضيحية، مما يجعل من قراءتهما غير ذات جدوى لكثير من القراء، الذين رغم كونهم مهتمين بالموضوع، قد يعوزهم العلم بكثير من أسماء العلم أو الأماكن أو الأحداث أو المفاهيم التي يشير إليها الكتاب، وهي كثيرة جداً.

IV. الأطروحات الكبرى للكتاب

تدور فكرة الكتاب حول عدة أطروحاتٍ متداخلة، أناقشها هنا على خلفية من الكتاب المترجَم، ولكن من منظور شخصي يمثل وجهة نظري الخاصة، وبمنظورٍ انطباعيٍّ حر (تماماً).

1. الإطار العام: اللعبة

تتمثل أطروحة الكتاب في أن كل نشاطٍ في الفضاء العام (سياسة أو إعلام أو أكاديميا أو تجارة أو عمل نقابي أو غير ذلك) صار أقرب لـ «العبة» يلعبها الأطراف فيه، يعرفها الجميع رغم أن أحداً لا يتكلم عنها. ولا قواعد مكتوبة لهذه اللعبة، ولكنها تتمثل - أو ترِد أو تُستشعر - في انتماءٍ إلى كيانٍ كبيرٍ ما، تُستبعَد القِيَم فيه من الاعتبار، فيُختزل النشاط المتعلق به إلى مجرد حسابات مصالح متعلقة بالربح والخسارة الماديين (كالمال والثروة) أو المعنويين (كالسمعة والشهرة والعلاقات الاجتماعية)، وذلك إلى أن يصاب الجسد الاجتماعي بالفساد بصورة بنيويّة، فيفقد الناس تدريجياً اهتمامهم بالشأن العام،

وتقتصر همومهم على فرديّاتهم الصغيرة. وهكذا، فنحن نلعب لعبةٍ أعظم من أنفسنا أو نتظاهر بالخضوع لها، ونوسّع من نطاق قواعدها طوال الوقت، أو نخترع لها قواعد جديدة حسب الحاجة.

ورغم أنه عادةً ما يكون بين الأشخاص الطموحين أناسٌ ذوو معايير عالية تنشد النجاح الرفيع وآخرون ذوو أخرى متدنية يبحثون عن النجاح السهل، فإن من يُدير اللعبة هي الفئة الثانية عادة، لأن أفرادها أقرب إلى ما تتطلبه الطبيعة اليومية للحياة من التبسيط ونبذ المجهود والقبول بكل ما هو كافٍ للحدود الدنيا. فإن لم يرتفع الثانيين إلى المرتبة العالية للآوائل، حرصوا على أن ينحدر هؤلاء إلى دركهم، والانحدار - إن لم يتنبّه أصحاب المعايير العالية - هو أمرٌ يحدث بسرعة، وبشكلٍ مخاتل، لا يلبث المرء معه إلا وقد وجد نفسه قد سقط من عليائه، فانضمّ إلى من في السفح، هناك، بالأدنى، فـ «التسفّل أيسر من الترفّع»، كما قال جمال الدين الأفغاني. هذا، لأن للأمر تفسيراً فيزيائيّاً معروفاً: فكل مرتفعٌ يقاوم الجاذبية الأرضية، فيما كل منحدِرٍ يسلم نفسه بيسرٍ إليها.

ولعل السر في انخراط الناس في «اللعبة» وحداناً وزرافات يكمن في التبسيط، في كل شيء. فالسلوك السياسي، مثلاً يسعى باستمرار إلى تبسيط الأوضاع الفردية المُعقّدة إلى أقصى حدود التبسيط (حماية الصحة، مثلاً، هي غاية نبيلة، ولكنها، إن لم تقترن بخطط وأدوات وإحصائيات ونتائج، فإنها لا تعدو أن تكون مفهوماً مفرّغاً من كل معنى).[11]

وبالنهاية، فلا أهمية لأي شيء، كما تم إيهام الناس، فلا سياسة ولا جامعة ولا إعلام، بل ولا حتى شؤون الصالح العام هي أمرٌ مهم، إذ تقتضي التفاهة أن نتذكر أن الأمر بالنهاية لا يعدو أن يكون «لعبة».

---

(11) باسكال سلان، *الليبرالية*، ترجمة تمالدو محمد (عمّان: منبر الحرية، 2010)، ص. 411.

2. لغة خطاب التفاهة

على خلاف ما تُفهِمُنا النظم الآيديولوجية، فإن السلبيّة قيمة. تدفع التعاليم الآيديولوجية الناس دفعاً إلى اتخاذ موقفٍ ما نحو المناطق الفكريّة الخلافيّة، فتحثّهم إما على تكوين رأيٍ جديدٍ او اعتناق رأيٍ سائد، مع التعبير السياسيّ الواضح عن ذلك (من خلال النقاش / الكتابة / التظاهر / الاضراب / الاعتراض / الاعتصام).

ولكن هذه الأيديولوجيات تنسى - أو تتناسى - أن قدرات الناس محدودة، إما طبيعةً (معدلات ذكاء ضعيفة) وإما إعداداً (جهل معرفي) وإما كَسلاً (تقاعس) وإما تأثراً (ضعف شخصية) وإما خوفاً (خشية الانتقام). إن المهارة الأوليّة التي ينبغي تعليمها للناس ليست مهارة اعتناق الرأي، بل مهارة «لا-اعتناقه»: أي القدرة على ترك مسافةٍ بين النفس والرأي، مع مقاومة إغراء الانتماء إلى معسكرٍ فكريٍّ رغم عدم القدرة على اتّخاذ القرار.

فعندما تحضر نقاشاً ما، لا يكون عليك أي التزامٍ أخلاقيّ أو قانونيّ بتأييد أي طرف؛ وإنما كل ما عليك هو ممارسة قدرٍ من العدالة الفكريّة والقيمة الأخلاقيّة التى تتطلّب منك الاعتراف بجهلك بموضوع النقاش (حتى ولو كان هذا الاعتراف سرياً في داخل نفسك ودونما إفصاحٍ عنه للآخرين)، ثم التفضّل على الحياة باتخاذ موقفٍ سلبيٍّ منه.

بعبارة أخرى، العارفون لا يطلبون الدّعم من غير العارفين؛ كل ما يحتاجون إليه منهم هو أن يَكْفوهم عبء إرباك المشهد بتدخلاتِهم غير المُستنيرة، حتى وإن كانوا حسني النية. فالطريق إلى جهنّم محفوفٌ بالنّوايا الطيّبة.

ولكن هذا ليس موقف نظام التفاهة؛ إنه يريد مناصرين. ويتعلق الأمر، خاصة، ببعض زوايا النظر:

أ. القصّ (ميثوس) أسلوباً

من المنظور البيداغوجي البحت، علّمنا سقراط أن هناك ثلاثة مرتكزاتٍ للإقناع: العقلانية logos (معالجة الحقائق والشواهد الملموسة والمدركة)، المصداقية ethos (شخصية الخطيب ومصداقيته وتوجهاته وقدراته فيما يخص الحس الجماعي)، والعاطفة pathos (تحريك مشاعر الجماهير واستمالتهم). كما يمكن إضافة الأسلوب القصصي أيضاً (methos) الذي كثيراً ما يثبت نجاحاً فائقاً مع المجاميع العقائدية، وهو الأسلوب المفضل لرجال الدين عادةً، بالنظر لحجم المخزون القصصي الديني.

ولنعترف أنه في حين أن «اللوغوس» logos المجرد لا يصل إلا إلى القليلين من ذوي الفكر الحر المستنير، فإن أغلب الناس يؤثر فيهم «الميثوس» methos المدرسيّ المبسّط إلى درجة تدعو للدهشة (الخطاب الديني المعاصر هو مثال ممتاز على ذلك). شخصياً، أفقد ثقتي - فوراً- بالسياسيين والثيولوجيين المتصدّين للموضوعات الكبرى إن أكثروا في خطابهم من أسلوب القصّ الساذج. المسألة توحي بأمرين لا ثالث لهما: إما ضحالة المتحدّث، وإما افتراض المتحدث لضحالة المتلقي. كلاهما لا يعجبني.

ب. اللغة الخشبية

للتّفاهة أداةٌ لغويةٌ هامة هي «اللّغة الخشبية» *langue de bois* التي يتحدّث عنها المؤلف في بعض مواضع الكتاب، وهو يشير بذلك إلى اللغة الجوفاء المحمّلة بالحقائق والتأكيدات التوتولوجيّة Tautology، أي النطق بتحصيل الحاصل الذي يقوم على الحشو أو مجرد التكرار بألفاظٍ مختلفة، وكأن في الأمر قضيّةً جديدةً تدفع بمعرفتنا إلى الأمام، رغم أنه لا يضيف عما هو معروفٌ عن الشيء أساساً، بما يعني أنها محض ألفاظٍ زائدةٍ على أصل المعنى من دون فائدة.[12] بذلك،

(12) عقيل يوسف عيدان، *أوجه المكعب الستة: ألعاب اللغة عند فتغنشتاين* (القاهرة: دار العين للنشر، 2011)، ص. 55.

فالمقصود بهذه اللغة هو «الخطاب الأجوف، الصّالح لكل زمانٍ ومكان»، الذي هو في حقيقته «فنٌّ لا يحذقه - عكس ما يُظَنّ - إلا قلةٌ من الناس».(13)

ويذكّر الأمر بما كتبه أبو حيان التوحيدي عن رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (و هم جماعة من فلاسفة المسلمين العرب الذين نشطوا في القرن الثالث الهجري):

«قد رأيت جملة من رسائل الإخوان، وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وهي خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام، وعرضتها عليه، فنظر فيها أياماً، وتبحّرها طويلاً، ثم ردّها عليّ، وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجروا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا».

وفي زمننا المعاصر، ربما كانت هذه اللغة الخشبية هي ما قصده الكاتب الجزائري مالك بن نبي تحديداً عندما قال:

«لكم رأينا أناساً يتصدرون الحياة العامة، فيتناولون الأشياء لمجرد التفاصح والتشدق بها، لا لدفعها ناشطةً إلى مجال العمل. فكلامهم في هذا ليس إلا ضرباً من الكلام، مجردٌ من أية طاقة اجتماعية، أو قوة أخلاقية، على الرغم من أنَّ هذه القوة هي الفيصل الوحيد بين المواقف الفعالة، الأخلاقية والمادية».

وهكذا، فما المقصود من الحديث باستخدام لغةٍ كهذه إلا المزايدة اللغوية لكسب الرهان بإيقاظ اهتمام الرأي العام،(14) إذ لا هي تعدو بالنهاية أن تكون

---

(13) عبد الفتاح كيليطو، *أنبئوني بالرؤيا*، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي (بيروت: دار الآداب، 2011)، ص. 95.

(14) أولريش بيك، *مجتمع المخاطر*، ترجمة جورج كتورة وإلهام الشعراني (بيروت: المكتبة الشرقية، 2009)، ص. 255.

محض لغو، بل إنها قد تفوق ذلك أيضاً وتصل إلى حد التكلف والتحمل والادّعاء والتخمين والاستنتاج من مقدماتٍ غير ثابتة.

ومن أجل مقاربةٍ أدبيةٍ لهذه اللّغة الخشبيّة، قد يكون في استحضار ما يعرف بـ «نيوسبيك» Newspeak أمرٌ ذو علاقة، فهي لغةٌ ابتدعها الكاتب البريطانيّ جورج أورويل George Orwell في روايته «1984»، لتكون لغةً مليئةً بالاستعارات والكلمات الطّنانة التي لا معنىً لها. يُذكر أن لأورويل Orwell أيضاً مقالاً شهيراً بعنوان «السّياسة واللّغة الإنجليزية» (1946) Politics and the English Language، أورَد فيه أن عادات الكتابة الخشبيّة مُستفحلة، أكثر ما يكون، في أوساط السّياسيين.

ج. التبسيط الخطر

في هذا الزمن، ازداد المعقد تعقيداً، لا سيما مع تطور المعارف وتداخلها. ففي مجال القانون مثلاً، هناك الآن ما يُعرف بالعقود المركبة complex contracts؛ تلك العقود التي ظاهرها عقد واحد ولكن فحواها يتضمن أكثر من عقد، كعقد البيع بالإيجار (الإيجار التمويلي) وعقد الفندقة والعقد السياحي وعداها. ومع مثل هذا التعقيد، فإننا نصبح بصدد إشكالية تحملنا على التساؤل عما إذا كان ينبغي الوقوف عند الرأي القائل بأن هذا النوع من العقود يُنظر فيه إلى العنصر الغالب (العقد الأقوى) ومن ثم تطبيق أحكام هذا الأخير فقط، أن نطبق أحكام كل عقد على حدة، أم أنه لا بد من وضع نظام قانوني مستقل لهذا النمط من العقود؟

كما أن الكتابات الأكاديمية تبالغ أحياناً في التعقيد، حتى كاد الأسلوب الجاف والمستغلِق يتحول إلى ما يشبه الموضة في الأوساط الفلسفية، إلى درجة صارت معها الكتابة الواضحة عرضة للاشتباه بالسطحية وغياب أصالة الفكر.[15]

---

(15) كارل بولانيي، *البحث عن التاريخ والمعنى في الدين*، ترجمة سعود المولى (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص. 104.

ولا شك أن التبسيط في حالاتٍ مثل هذه مطلوب ويعمل بمثابة «خيط أريان» المنقذ للمشتغل بهذه الأنشطة.[16] وهناك مساعٍ جادة كثيرة ومستحقة للتبسيط المنطقي، ومن مثل ذلك ما يقوم به فريق نيكولا بورباكي Nicolas Bourbaki، وهو اسمٌ مستعارٌ لمجموعةٍ من الرياضياتيين، الفرنسيين في أغلبهم، التي تقوم منذ عام 1934 بتحرير كتابٍ في الرياضيات بعنوان *Éléments de mathématique* وتلقي حوله محاضرات باستمرار في باريس، وذلك بهدف تبسيط المسائل الرياضية المعقدة بطريقة لا يعود معها القارئ محتاجاً إلى مصادر إضافية لفهم المادة، حتى صارت أنشطة فريق بورباكي Bourbaki تُفهَم من غير المتخصصين.

ومع ذلك، فالتبسيط إن تجاوز حدوده - مثلما يدفع نحوه نظام التفاهة - صار خطراً، لأنه يؤدي إلى خفضٍ لدرجة الجودة. ففي كتابه «فلسفة العمل»، كتب هنري أرفون:

> «نشاهد ازدهاراً موصولاً لأساطير جوفاء، ولأهواءٍ جمعيةٍ غير معقولة، ولتزييفات عقائدية دامية. ثمة مذاهب عابرة تطرح نفسها على أنها حقائق مطلقة وتزعم، بهذا الاعتبار، أنها توجه حياة البشر. وهي وليدة فكر التجمّع، وتحمل علاماته: التبسيط، الذي هو عدو كل إرهافٍ وكل احتياط».[17]

والحقيقة هي أن كل ما حولنا يشي بتسطيح الهام وتسخيف المُعتبر، من خلال الاستخدام المبالغ فيه للّغة والخطاب الساذجين، بدعوى التبسيط.

---

(16) الأميرة أريان ابنة مينوس ملك كريت هي شخصية من الميثولوجيا الإغريقية. أحبت أريان البطل تيزي الذي جاء إلى جزيرتها ليقتل المينوتور (وحش له جسد إنسان برأس ثور) المحاصر داخل متاهة. وحتى لا يضل تيزي طريقه، زودته أريان بعدة النجاة: سيفاً وكومة من الخيط. صار تعبير «خيط أريان» يستخدم بعدها ككناية عن الوسيلة اللازمة للاهتداء إلى الطريق القويم أو الاختيار الصحيح في الظروف الصعبة.

(17) هنري أرفون، *فلسفة العمل*، ترجمة عادل العوا، ط 2 (بيروت: منشورات عويدات، 1989)، ص. 115.

والحقيقة هي أن هذا التبسيط، إن بولِغ فيه، يمكن أن يصل إلى درجة لا يُرتجى منها التطور العقلي المجتمعي الصحي، بل يصير مهدداً له (أُثِرَ عن آنشتاين قوله: «كل شي ينبغي أن يكون في أبسط أشكاله، لكن يجب أن لا يكون أبسط مما هو عليه»).

كما يتعلق الأمر بخرافة التبسيط العلمي في مجال التخصص. ففي المجال البيداغوجي،[18] قد لا تكون هناك جريمة أكثر فداحة من جريمة التبسيط العلمي الساذج، الذي ينزل بالمعرفة إلى مستوى قدرات غير العارف، عوضاً عن أن يرفع قدرات الأخير بما يليق بمستوى المعرفة التي كان ينبغي نقله إليها (لقد روى لنا برتراند رسل أنه عندما طلب ملك مصر الى إقليدس أن يعلمه الهندسة في دروسٍ قليلة سهلة، كان الردّ الشهير الذي أجاب به هو أنه «لا يوجد طريقٌ ملكيٌّ إلى الرياضيّات»).[19]

وللتقريب، ولأغراض النقاش فقط، لنستخدم المصطلح السوسيولوجي الدارج، ولنقل إن التعليم هو مجال طبقي - معرفياً - بطبيعته؛ شريحتاه هما الأرستقراطيون (طبقة عليا/ شهادات عليا)،[20] والبروليتاريا (طبقة دنيا/ شهادات

(18) البيداغوجيا هي علم أصول التدريس.

(19) برتراند رسل، *حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي*، الجزء الأول، ترجمة فؤاد زكريا، ط. 2 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009)، ص. 176.

(20) هناك مثلٌ لاتيني يقول «يُستدل على الأسد من مخالبه» *ex ungue leonem*. أضاف إليه شوبنهاور عبارة *ex aure asinum* في سياق نقده لهيجل، التي تترجم إلى «يُعرف الحمار من أذنيه». لذلك، لا يُنبئك عن الأكاديميين مثل إنتاجهم العلمي، فتكون الأبحاث المحكّمة المنشورة هي نواة التخصّص بالدرجة الأولى، وكل ما عدا ذلك يجب أن يكون نتاجاً لها (محاضرات / مؤلفات / مشاريع / مقابلات). أما الجوائز العلمية، فهي نتيجة طبيعية لهذه الأنشطة. من هنا، ينبغي أن نكون حذرين ممن يكثرون من التصدي لموضوعات أكاديمية من دون أن يكون في ترسانتهم العلمية أبحاث منشورة تعمل كأساس قاعديّ لمعارفهم (و هو ما ينطبق، تحديداً، على الأكاديميين ذوي النشاط اللفظي والشفاهي المحموم).

دنيا). وأبرز الفاعلين في الشريحة الأرستقراطية معرفياً هم المعلّمون، وهم كُثُر، إلا أن «الحقيقيين» من المعلمين هم أشخاص ديمقراطيون بطبيعتهم.[21] أكثر من ذلك، فالمعلم الحقيقي هو ثوري، لا يحتمل الفروق الطبقية (المعرفية)، فيسعى لتحطيمها بكل ما أوتي من قوة.

ابتداءً، يقف المعلم على ربوة عالية، يشرف منها على معارف كثيرة، تتاح له وحده بسبب امتياز وضعه (العلمي) كأرستقراطي، دون طلبته. ولأنه، كمعلمٍ حقيقي ثوريٌّ بالضرورة، فهو عوضاً عن أن يريح نفسه بأن يبقي طلبته - البروليتاريين معرفياً - في مكانهم بالأسفل فيكتفي بأن يصف لهم ما يراه هو من موقعه العالي على تلك الربوة (بدعوى تبسيط المعارف)، فإن دوره الحقيقي هو أن يتجاوز أنانيته المريحة، فينبذ مسوح الأرستقراطي بأن يشمّر عن أكمامه، ثم يمد كلتا يديه لطلبته حتى يساعدهم جميعاً على تسلق تلك الربوة العالية، واحداً تلو الآخر، فيروا بأعينهم المنظر البانورامي المعرفي الجميل، الذي كان يراه وحده. إن مواجهة مثل هذا التحدي الثوري الكبير لا تكون إلا من خلال مواجهة العقبات المعرفيّة بحجمها الطبيعي، لا ذاك المُختزل بدعوى التبسيط.

وعندما يساعد المعلم الحقيقي جميع طلبته على ارتقاء تلك الربوة المعرفية فإنه سيتعامل مع حمل ثقيل؛ سيؤلمه ساعداه، وستنغرز قدماه بالوحل، كما سينتهي به الأمر بأن يقف طلبته إلى جانبه تماماً، على ذات الأرض العالية التي كان ينفرد بميزة الوقوف عليها وحده دوناً عنهم. وبذلك، فإنه سوف يحيل طلبته

---

(21) يُعرف عن الصوفي الفارسي شمس الدين التبريزي (1185-1248) قوله «يوجد في هذا العالم معلمون مزيفون أكثر عدداً من النجوم في هذا الكون المرئي. فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السلطة وبين المعلمين الحقيقيين. فالمعلم الروحي الصادق لا يوجه انتباهك إليه، ولا يتوقع طاعة مطلقة له أو إعجاباً تاماً منك. بل يساعدك على أن تقدر نفسك الداخلية وتحترمها. إن المعلمين الحقيقيين شفافون كالبلور، يعبر نور الله من خلالهم».

من بروليتاريا خاضعة إلى أرستقراطية متطلّبة، تتكوّن في مجموعها من نظراء له؛ يناقشونه، يُتعبونه، بل وقد يتفوقون عليه معرفياً.

ومع ذلك، فإن المعلم الحقيقي يُدرك أنه الفائز دائماً، مهما تجاوزه طلبته: بالمنظور المثالي المعلن، وعلى المدى القصير؛ لقد انتصرت ثورته وحققت أهدافها. أما بالمنظور النرجسيّ السري؛ وعلى المدى الطويل؛ فهو يدرك تماماً أن النتاج الحقيقي لجهده هو تحويل طلبته من«أنداد» إلى «امتداد». سيعيش إلى الأبد، هذا المعلم الثوري.

3. الأكاديميا

يدور أحد فصول الكتاب حول الاعتبارات الأكاديمية ومدى تأثرها بما يشيع من أجواء تافهة تحيط بها من كل جانب، وفيما يلي، نناقشها من حيث الجامعة أولاً ثم من حيث الخبير ثانياً.

أ. الجامعة

يتحدث المؤلف، باستفاضة، عن الأحوال المؤسفة للجامعات في زمننا هذا. والحقيقة أن كثيراً مما يناقشه هي أمور تعرفها جامعاتنا العربية، وأكثر، ولعلنا نزيد على ما ذكر ظاهرة طلب العلم لأغراض المظهر الاجتماعي، لا طلباً للحكمة العالية.

وبما يذكّر بظاهرة الهَوَس بالحصول على الشهادات العلمية العالية من ماجستير ودكتوراه لأغراض الظهور الاجتماعي وحده، كتب الجغرافي والمؤرّخ العثماني حاجي خليفة (المعروف بكاتب جلبي) الذي عاش في القرن السابع عشر الميلادي، والمعروف كأبرز كاتبٍ موسوعيّ بين أقرانه العثمانيين:

«... ومنها أن يقصد بالعلم غير غايته، كمن يتعلّم علماً للمال أو الجاه. فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب، بل الاطلاع على الحقائق، وتهذيب الأخلاق. على أنه من تعلّم علماً للاحتراف لم يأت عالماً، إنما جاء شبيهاً للعلماء. ولقد كوشِف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، فأقاموا مأتم العلم، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العالية، والأنفس الزكية، الذين يقصدون العلم لشرفه، والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخِسّاء وأرباب الكسل، فيكون سبباً لارتفاعهم».[22]

والمقصود ببلاد ما وراء النهر - أي نهرَي سيرداريا وآمورداريا اللذين يحدّان هذه المنطقة من الشرق والغرب - هو منطقة آسيا الوسطى، التي كان من أهم حواضرها مدن بخاري وسمرقند وخوارزم وطشقند ومرو وترمذ وفرغانة وبلخ (تقع هذه المنطقة الآن ضمن أراضي دول أوزبكستان وكازخستان وقرغيزستان، وجوانب من أفغانستان). ولا غروَ أن يُؤخذ قول علماء ببلاد ما وراء النهر بجديّة واعتبار، فمن هذه المنطقة تحديداً ينحدر أبرز علماء الحضارة الإسلامية قاطبة، كابن سينا والخوارزمي والبيروني والفارابي والترمذي والبخاري والجرجاني والسجستاني، وغيرهم كثير.

ولكن أبرز ما ناقشه المؤلف في كتابه هذا هو مسألة تسليع المعرفة الأكاديمية وبيعها للجهات الممولة للجامعات، من خلال سلسلة تبدأ أولى حلقاتها في سعي الأستاذ الجامعي للحصول على المنح من هذه الجهات الممولة. وهكذا، ينحدر العمل بالجامعة إلى درك التفاهة، فتتحول فيه من منتجٍ للمعرفة إلى تاجرٍ فيها، يعمل في وسطٍ من الاعتبارات الكميّة والقِيَم الزبائنيّة.

---

(22) حاجي خليفة، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، ج. 1، ص. 22.

ولعل استنتاج ماكس فيبر Max Weber يصل إلى نفس النتيجة عندما يناقش الجامعة، فالتفاهة فيها أصبحت دارجةً إلى درجة أن الخيارات المؤسّسية صارت تقع ضمن محيط كلٍ من «الحظ» و«الصدفة» العشوائيين. وهذه الأيام، وجد أسلوب المخاطر طريقه إلى الإدارة وصار يلعب دوراً رئيسياً فيها، إذ يجادل فيبر Weber «إنه ليس من العدالة أن نُسائِل القصور الشخصي لأعضاء هيئة التدريس أو لوزارات التربية فنجعلهم مسؤولين عن حقيقة أن هناك تفاهات عديدة تلعب دوراً مؤثراً في الجامعات. إن شيوع التفاهة إنما يُعزى إلى قوانين التعامل البشري، لا سيما تعامل عدة أطراف معاً [. . .]»، كما ذكر في كتابه «العلم بوصفه حرفة» *Science as a Vocation*،[23] الذي نُشر عام 1919.

إن تحليل فيبر Weber هذا ما زال يثبت صحةً حتى اليوم، فأسلوب الإدارة بالمخاطر ما زال مسيطراً على المؤسسة. فالباحث المُقاد بشغفٍ مسيطر، حدسٍ قويّ، خيالٍ مُتملّك وفهمٍ لطبيعة العمل لن يكون بوسعه النجاح إلا إذا حصل على منحةٍ تُمكّنه من المناورة وسط التعقيدات المؤسّسية، حيث تكون السيادة للمعايير الكمية واعتبارات الرعاية. إن هذه لا تعدو أن تكون بعضاً فقط من «الظروف الخارجية لمهنة الرجل الأكاديمي»، وفقاً لتعبير فيبر Weber.

أما عن المبالغة في الإكثار من خلق التخصصات الجامعية الدقيقة، فهذه أيضاً يرى فيها المؤلف سبباً آخر للتفاهة، فالجامعات الآن تسطّح المعارف من خلال اهتمامها بتعميقها بدلاً من توسعتها، فلا تُعنى - في معرض تدريس العلوم الموضوعية - بترسيخ القيم العلمية في طلبتها من تفكير نقدي والوقوف على العلاقات بين الموضوعات المتفرقة والفضول المعرفي، وغيرها.[24]

---

(23) ماكس فيبر، *العلم والسياسة بوصفهما حرفة*، ترجمة جورج كتورة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2011). عنوان الكتاب في نسخته الإنجليزية هو *Science as a Vocation*.

(24) لعله من المفيد هنا إيراد ما قاله عبدالله العروي حين سُئِل عن نصيحته للطلبة، إذ قال: «لا تتخصّص. خذ (أو تسلّح بـ) اللسانيات والفلسفة والأدب بجانب التاريخ، وخذ التاريخ مأخذ الجد ولا تتخذه هواية. إن كنت مؤرخاً فحسب فسوف تكون مؤرخاً سيئاً. يوجد في

والحقيقة هي أن هذه مادةٌ للتفكير فعلاً، إذ ما هو التحدي العلمي الأعظم: أن تحفر، عميقاً، في تربة علمك الدقيق، مثل قُندس - فلا ترى إلا جزيئاته - لتتخصّص؟ أم أن تحلّق، عالياً، في سماء مجاله الأرحب، مثل نسرٍ يُشْرِف على المشهد بأكمله - على أن تفوتك منه دقائقه - لتتفلسف؟

ب. الخبير

بدعوى التخصص، كانت الفلسفة كلاً، ثم تفكّك: فك إقليدس الرياضيات عن الفلسفة، فك كوبرنيكوس علم النجوم عن الفلسفة، فك نيوتن الميكانيكا أو علم الحركة عن الفلسفة، فك داروين البيولوجيا عن الفلسفة، فك فرويد علم النفس عن الفلسفة، والآن صارت العلوم الإدراكية cognitive science تنفك تدريجياً عن الفلسفة. لا ريب أن الفقر الفكري صار مُدقعاً؛ هذه من أهم أصول التفاهة.

وبعد أن مضت الجامعات على طريق التخصص المبالغ في دقته، صارت الجامعات مموَّلة من قِبَل الشركات التجارية، التي تقدم منحاً تُملي من خلالها إرادتها على الجامعة، فيعمل بذلك كل من الأساتذة والطلبة على الموضوعات والمشروعات التي فرضتها هذه الشركات، لينتهي الأمر بهذه المؤسسات الأكاديمية العليا إلى إنتاج «الخبراء» ذوي التخصّص الضيق الذين يخدمون السوق، لا العلماء ذوي الأفق الواسع القادرين على مواجهة المشاكل الحياتية.

المغرب تخصص زائد عن الحد في المنظومة التربوية المغربية. يقضي الطلبة سنوات في دراسة التاريخ وحده، القديم والوسيط والحديث، والمعاصر. كيف يمكنك أن تفهم الثورة الصناعية من دون اقتصاد؟ كيف يمكنك أن تفهم أدب العصر الوسيط من دون لسانيات؟ من الصعب تفسير القرن التاسع عشر في المغرب لطلبة ليس لديهم أية فكرة حول النظام الرأسمالي». نانسي جلاجير، «حوار: حياة عبدالله العروي وأزمنته»، ترجمة الحسين سحبان، *مجلة يتفكرون* (تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث)، العدد 7، 2015، ص. 298.

والأمر لا شك مهم، إذ لا يجد المؤلف أفضل من حضور «الخبير» كمثال لنظام التفاهة، باعتباره ممثلاً للسلطة، في مقابل «المثقف» ذي الفكر الحر وما يمثله من التزام بالقيم والمبادئ. وعلى خلاف المثقف (و ما يحركه من الحوافز الاخلاقية والدوافع النضالية)، فللخبير هوية مؤسساتية، ومن ثم فإن ظهوره يرتبط بالشروط الموضوعية لمؤسسته، التي تحدد مهامها وترعى ازدهارها، ولذلك فهو يلتزم بأهدافها في ما ينتجه من أفكار مقابل ما يحصله منها من مكافآت.[25] إن دوره وعلاقاته جميعها تتسم بالمصلحية الواضحة والبحتة.

وقد ورد في بعض كتابات إخوان الصفا وخلان الوفا:

«إن أشدّ بليّةٍ على الصّناعة (أي التخصص العلمي) وأعظم محنة على أهلها، هو أن يتكلم عليها من ليس من أهلها، ويحكم في فروعها ولا يعرف أصلها، فيسمع منه قوله، ويقبل منه حكمه، وهذا الباب من أجلّ أسباب الخلاف الذي وقع بين الناس في المجالس ويتكلمون في الآراء والمذاهب، ويناقضون بعضها بعضاً وهم غير عالمين بماهياتها، فضلاً عن معرفتهم بحقائقها وأحكامها وحدودها، فيسمع قولهم العوام ويحكمون بأحكامهم، فيَضِلّون ويُضَلّون وهم لا يشعرون».

وفي نقد التخصّص، كان باسكال يقول:

«بما إنك لا تقدر أن تكون شاملاً وأن تعرف كل ما يمكن معرفته من كل شيء، فاعرف من الكلّ بعضه. فأجمل لك أن تعرف البعض من كل شيءٍ من أن تعرف الكل من شيءٍ واحد. إن هذا الشمول لأجمل، ولو تيسّر لك الأمران لكان أفضل لك، ولكن إن تَعيَّن

(25) عبد السلام بنعبد العالي، *سيميولوجيا الحياة اليومية* (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2016)، ص. 50.

الخيار فاختر هذا؛ فهو ما يشعر به الناس ويعملونه، يعمله والناس مصيبون في الحكم غالباً».[26]

ولا شك أن ما أراده المؤلف في هذا الكتاب ليس نقد الجامعة من حيث تقديمها للتخصصات إطلاقاً، وإنما أراد أنها هي من يُسأل - حقيقة - عن بروز ظاهرة الخبير بما شجّعته من تقسيمٍ مستمرٍّ للمعارف إلى مستوياتٍ دُنيا أدت إلى تعميق معارف الطلبة بتخصصاتهم (مع خلق تخصصاتٍ صغيرة أكثر فأكثر إلى درجة العبث وانعدام الجدوى)، وذلك عوضاً عن توسعة هذه المعارف بما يحقق لهم الإحاطة من كل علم بطرفٍ ما، مع التركيز على تخصّص بعينه بدرجة معقولة، وقبل كل ذلك التركيز على قيم التفكير العلمي (الفضول، التقسيم، التصنيف، الفك والتركيب، الفكر الناقد، التحليل، المقارنة، الارتباط، الاستخلاص، وغيرها).

4. التجارة والاقتصاد

في كتابه هذا، يذكرنا المؤلف بالمسؤولية المباشرة للممارسات التجارية عن كثير من أوجه الانحطاط المجتمعي والأخلاقي التي آلت إليها حياتنا المعاصرة، والتي أدت إلى تمكن نظام التفاهة من مفاصل هذه الحياة. وأشير بهذا الصدد إلى بعض الملاحظات.

أ. الحوكمة

نظرياً، تهتم الحوكمة المؤسسية بتحقيق التوازن ما بين الأهداف الاقتصادية للمؤسسة والأهداف المجتمعية، فالأمر يتمثل بالنهاية في الموائمة كل من

---

(26) بليز باسكال، *خواطر: سمات في الفكر والأسلوب والخلقيات والمعتقد*، ترجمة إدوار البستاني (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2015)، ص. 34.

مصالح الأفراد والمؤسسات والمجتمع بشكل متسق بقدر المستطاع، وفق ما خرجت به تقارير العديد من المنظمات والهيئات الدولية، التي حثت على تطبيق هذا المفهوم في المؤسسات الاقتصادية المختلفة. ولعل أهم هذه التقارير وأكثرها انتشاراً هو التقرير الذي وضعته لجنة كادبوري Cadbury Committee والتي تم تشكيلها لوضع إطار لحوكمة الشركات إثر الأزمة الاقتصادية التي ضربت بريطانيا آنذاك فأطاحت بالعديد من كبريات الشركات فيها، إذ خرجت هذه اللجنة عام 1992 بتقرير صار يعرف باسم Cadbury Best Practice، إضافة إلى تقرير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) والتي قامت بوضع مبادئ حوكمة الشركات Principles of Corporate Governance عام 1999.[27]

بذلك، ترتبط الحوكمة بالإجراءات الخاصة بتنظيم أعمال الشركة، فتساهم في تنظيم العلاقة بين كل من مجلس الإدارة والإدارة التنفيذية والأطراف ذوي العلاقة من موظفين وحملة أسهم وعملاء وموردين وأصحاب مصالح على أساس من مبدأ المساءلة، وذلك من خلال الالتزام بالقواعد والتعليمات الصادرة عن الجهات الرقابية، مع ما يتطلبه ذلك من تطوير نظم إدارة فعالة للمخاطر. وهكذا، فالحوكمة تتعلق - بالنهاية - ببناء مجلس إدارة موهوب، منضبط، وأخلاقي.

وفي حين أن الحوكمة بهذا المعنى هي مفهوم مصمم للبيئة التجارية بشكل خالص، إلا أن لعبة التفاهة قد ظهرت إرهاصاتها مع حكم التكنوقراط الذي بدأ عهده مع تقلد مارغريت تاتشر Margaret Thatcher رئاسة الوزراء في بريطانيا. فعندما وصل فريقها التكنوقراطي إلى الحكم، نقل فكرة «الحوكمة» إلى المجال السياسي واستبدل الحوكمة بالسياسة، ففُرّغت السياسة بذلك من الأفكار الكبرى كالحق والواجب والعمل والالتزام والقيمة والصالح العام، واستعيض عن ذلك

---

(27) انظر، بشكل عام: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «حوكمة قطاع الطيران بين الكائن والممكن: دراسة حالة لشركة الخطوط الجوية الكويتية»، *مجلة كلية الحقوق العالمية* *KILAW* (الكويت)، العدد 15، السنة الرابعة، سبتمبر 2016، ص. 335-413.

بمفهوم الحوكمة، وتم استبدال مفاهيم «الإرادة الشعبية» و«الناشطون السياسيون» و«المواطن» و«المريض» بمفاهيم «المقبولية المجتمعية» و«اللوبيّات» و«الشريك» و«المريض»، تباعاً.

وشيئاً فشيئاً ، تحوَّل الاهتمام بالصالح العام من شأن سياسي قيمي إلى مجرد إدارة عملية، فخلا العمل العام من منظومات الأخلاق والمفاهيم والمثل العليا والمواطنة والالتزام، وصار الهم العام هو الخصخصة وتحويل المشروعات العامة إلى القطاع العام، بهاجس تحقيق الربح فقط، وكأن الدولة محض شركة تجارية.

وأرى مفارقتين بشأن الحوكمة أجد انني لا بد أن أشير إليهما هنا :

فأما المفارقة الأولى، فتتمثل في أنه رغم موضة الشفافية الشائعة الآن مع شيوع الحوكمة، ينبغي أن نعترف بأن ترك مساحةٍ للتخمين والحدس المعقول هو أمرٌ كثيراً ما يُضفي طابعاً مرناً (و سحرياً، ومباركاً) على أي شأنٍ. لا أفج من الوضوح القاطع.

وأما المفارقة الثانية، فهي أنه، حول العالم، ما ازداد استخدام كلمات مثل الحوكمة والشفافية والمساءلة وما انتشرت أدبياتها مثلما انتشرت الآن. ومع ذلك، فلم يسبق لظاهرة الفساد أن ازداد حجمها مثلما ازداد الآن، ولا أن بلغت هذه الأبعاد المخيفة.

يبدو لي أن محاولات العالم للالتفاف على «القيمة» والاستعاضة عنها بـ «الحوكمة» ليست مجدية. ولكن البشرية لا تتعلم إلا بالطرق الصعبة.

ب. تنميط العمل: اضمحلال الحرفة وظهور المهنة

لعل سبب اقتران نظام التفاهة بالنظام الرأسمالي البحت يكمن في موقف الأخير من مسألة تنظيم السوق وضبطه أخلاقياً، حيث تتبنى الرأسمالية الصرفة

فلسفة فريدريك فون هايك Friedrich von Hayek، الذي نادي بفكرة النّظام التلقائي للسّوق الحرّة المدارة بأقل قدرٍ من التنظيم الرسمي، أي تحجيم دور الدولة بحيث تقوم بأقل الوظائف minimal state، فتقتصر على السّهر على المرافق الأساسّية الثلاثة، وهي الأمن الخارجيّ والأمن الداخليّ والقضاء، أو ما يُعَبّر عنه بـ «وظيفة الحارس الليلي» night guard model، وترك كلّ عدا ذلك لآليّات السّوق (وذلك مقارنة بالفلسفة التدخليّة لجون كينز John Keynes، التي تؤيد تدخّل الدولة في السّوق بناءً على وظيفتها «الحمائية» protectionism).

لكل ذلك، أثرت حرية السوق على نظم العمل، إلى درجةٍ يناقش معها المؤلف التحول الكبيرالذي طرأ على مفهوم العمل، الذي تراجعت معه «الحرفة» فصارت مجرد «مهنة» يعمل فيها الفرد كمحض مصدر للرزق:

> «لقد فُقِدَت الحِرفة. يمكن للناس الآن إنتاج الوجبات على خطوط الإنتاج assembly lines من دون أن تكون لهم معرفةٌ بالطبخ في البيت؛ إعطاء تعليمات على الهاتف للعملاء رغم أنهم هم أنفسهم لا يفهمونها؛ بيع كتبٍ أو صُحفٍ هم أصلاً لا يقرأونها. إن الفخر بالعمل المُنتَج جيداً صار أمرٌ في طور الاضمحلال».

بذلك، صارت المهنة بعيدةً كلياً عن الحرفة كما تُفهم بالمعنى الفيبري،[28] فانحدرت إلى مستوىً متدنٍّ، متوسط، تافه.

ولكن لماذا يبدو لنا، رغم انتشار «المهنة»، أن الفقراء يزدادون فقراً، وأن الأثرياء يزدادون ثراء، بما يبدو معها أن المهنة لا تقدم فرصاً حقيقية للإثراء؟ هذا لأن الأمر، بشكلٍ عام - وبعيداً عن أية عاطفة أو فكرٍ آمل - صحيح، وهو يسمى بـ «تأثير مَتّى» (The Matthew effect)، والتسمية تعود إلى عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون Robert Merton (1910-2003) الذي كان أول من

(28) نسبة إلى عالم الاجتماع ماكس فيبر Max Weber.

درس هذه الظاهرة علمياً فأطلق عليها هذا الاسم، في إشارةٍ إلى آية من الإنجيل وفق القديس مَتّى، تقول: «من كان معه يُعطى ويُزاد، ومن ليس معه يؤخذ منه حتى كل ما في حوزته».

وبشكل عام، فلعل الأمر لا يتعلق برأس المال الاقتصادي بقدر ما يتعلق برأس المال الاجتماعي، وفق الفكرة التي ناقشها الفيلسوف الفرنسي بيير بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002)، والتي يكمن معها تفسير الأمر بكون الثري يُمَكّنه ثراؤه من التمتع بعلاقات اجتماعية مفيدة يوضع بفضلها في مراكز حياتيةٍ تتيح له فرصاًعديدة للاستفادة والربح والنمو والتوسع، وهو ما لا يتوفر للفقير الذي ينتهي معه الأمر إلى تآكل ما لديه من رأس مال ضعيف، أصلاً.[29]

5. الثقافة

يولي المؤلف أهمية كبرى لموضوعات الثقافة، ويلفت أنظارنا إلى كونها صارت أداة هامة في توطيد أركان نظام التفاهة كما يحيط بنا اليوم، رغماً عن التسميات المؤثرة والهالات اللامعة التي تحيط بكل ما هو ذو علاقة بالثقافة. ولعلي أضيف التصورات التالية توضيحاً للفكرة.

أ. اللغة

سُئِلَ الباحث السيميائي والروائي الإيطالي الشهير أمبيرتو إيكو Umberto Eco عن الدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة في النضال ضد العنصرية والكراهية،

(29) مراد دياني، «اتساق الحرية الاقتصادية والمساواة الاجتماعية في نظريه العدالة: استقراء معالم النموذج الليبرالي المستدام لما بعد الربيع العربي»، *عمران للعلوم الاجتماعية والانسانية*، العدد 5، المجلد الثاني، صيف 2013، ص. 27.

فقال: «علموا الطفل الفرنسي أن كلمة *lapin* (أرنب) الفرنسية ليست سوى كلمة ضمن آلاف الكلمات المنتمية إلى لغات أخرى تستعمل من أجل الإحالة إلى الشيء نفسه في العالم الخارجي». والإحالة - كما يدرس النصيّون - هي العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء أو المواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه الكلمة او العبارة. وبذلك فإن ما يقصده إيكو Eco هو إفهام الطفل أن كلمة *lapin* هي كلمة «تُحيل» إلى ذلك الحيوان الأليف المعروف، وأن كلمة *lapin* ليست، مع ذلك، الكلمة الوحيدة التي تحيل إلى الحيوان نفسه، بل إن هناك آلاف الكلمات المنتمية إلى آلاف اللغات مما تحمل نفس معنى الإحالة إلى ذات الحيوان (مثل كلمات «أرنب» بالعربية، rabbit بالإنجليزية، conejo بالأسبانية، إلخ)، وكل ذلك لحمل الطفل على فهم معنى التعدّدية.

ولكن عربياً، هناك أزمةٌ مفاهيميةٌ الآن. لقد تم تشويه الوعي العربي تماماً خلال العقود الأخيرة، حتى صار لا يجيد التعاطي مع المفاهيم المجردة، مما جعله يستعيض عن فهم عمق المفهوم برفض بساطة المصطلح (ربما لأن في الأول قلق الفكر وفي الثاني اطمئنان اليقين)، فانتهى الوضع بنا إلى أن أصبح لدينا مصطلحات يرفضها العقل الجمعي العربي ابتداء، حتى أن باب النقاش بشأنها صار يقفل من قبل أن يبدأ. من هنا، ولضمان السلامة، أصبح من الأسلم الاستعاضة عن كلمة «علمانية» بكلمة «مدنية»، وعن «الفلسفة» بـ «التفكير النقدي»، واحتالت بعض الدول العربية على الحساسية الدينية فاستبدلت كلمة «قانون» بكلمة «نظام» وكلمة «فائدة» تحولت إلى «مرابحة»، وهكذا دواليك. وفي الحقيقة، فأن تكون لك ترسانة من المصطلحات الفلسفية واللغوية والقانونية هو أمر مفيد جداً، بل إنه قد يسهل لك القيام بتصرفات هي من حيث المبدأ لا أخلاقية (في اللغة العسكرية مثلاً، لا يستخدمون لفظ «قتل» وإنما يتحدثون دائماً عن «تصفية» العدو).

ولكن ربما كان ذلك مقبولاً ومحتملاً عندما يتعلق الأمر بالموضوعات الدقيقة (كالقانون مثلاً)، ولكن عند التعاطي في الفضاء العام (و ليس القانوني

المتخصص)، فلا بد من وضع حدٍّ فكريٍّ معين يكون من المقبول والمتوقع أن يلتقي عنده الجميع، وهو ما أسميه «الاحساس الاجتماعي السليم» common sense. فعندما نكون في منطقة الإحساس بالمسلمات، لا منطقة الانضباط الاصطلاحي، فإن ما أعنيه عندما أستخدم أي مصطلح هو - ببساطة - ما تفهمه أنت عن هذا المصطلح بعمومية فكرته. إن النقاش الحياتي، الطبيعي، حسن النية، لا يحتاج إلى معاجم لشرح الأفكار الإنسانية. هنا، لا بد من تعلم لغة عالمية يتكلمها الجميع؛ هذه اللغة تسمى المنطق، وأبجديتها هي الأفكار، أما حروف العلة فيها التي تربط بين حروف هذه اللغة وكلماتها فيسمون فلاسفة وأدباء.

وعن منطق المسلّمات هذا، كتب ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton في كتابه «الأوراق الفيدرالية» *The Federalist Papers* عام 1788:

> «في جميع أنواع المقولات هناك حقائق أساسية معينة، أو مبادئ أولية عليها تعتمد المناقشات القديمة اللاحقة. تلك الحقائق في ذاتها، هي التي تتحكم في قبول العقل لأية فكرة أو ترابط فكري. وحيث لا تتحصل هذه النتيجة، فإن ذلك لا بد أن ينشأ إما عن بعض الاضطراب في الحواس المدركة، أو من تأثير المصلحة الخاصة أو الهوى أو التحامل. من هذا النوع هي المسلّمات في الهندسة بأن الكل أكبر من كل من أجزائه، وأن الأشياء التي تساوي الشئ نفسه أشياء متساوية، وأن الخطين المستقيمين لا يحصران حيزاً محدوداً، وأن جميع الزوايا القائمة تساوي الواحدة منها الأخرى. ومن النوع نفسه تلك المسلّمات في علم الأخلاق والسياسة، مثل لا معلول بدون علّة، وأن على الوسيلة أن تكون متناسبة مع الغاية، وأن كل صلاحية يجب أن تعادل الهدف المنشود من ورائها، وأنه لا يجوز أن يكون هناك تقييد لسلطة تكلّف بأن تحقق غرضاً تعجز هي عن تحديده. وهناك حقائق أخرى في مجالي العلمين هذين، قد تقصّر عن الارتقاء حتى تصطف ضمن فئة المسلّمات لكنها تظل مشتقات مباشرة

منها، وواضحة في ذاتها، ومقبولة تماماً لدى ما يمليه طبيعة الحس العام البسيطة. حتى أن تلك الحقائق تتحدى موافقة العقل السليم وغير المتحيز وبدرجة من القوة والتقبّل تجعلها قاهرة لا يمكن مقاومتها.»[30]

ب. الصحافة

للصحافة طبيعةٌ اختزاليّة؛ فهي تبخّر ما يقع تحت يدها من أخبار، ثم تكثّفه، ثم تقتطِع منه، ثم تصيغه وفق ما يلائم مصالح ملاكها وتوجهاتهم السياسية أو الاقتصادية، ثم تبسّطه بحيث تكون قراءة الموضوع مناسبةً للسواد الأعظم من قرائها، ثم تضع له عناوين عريضة تضخ فيها الكثير من الانفعالات (الأمر يذكرني بما كان يُروى عن الصحافة الفرنسية إثر حقبة الحروب النابوليونية؛ فعندما هرب نابليون من منفاه في جزيرة ألبا Alba الإيطالية كتبت الصحف الفرنسية في عناوينها «الوحش يهرب من ألبا»، وعندما اقترب من فرنسا كتبت «نابليون يهرب إلى فرنسا»، ولكنه عندما دخل فرنسا فعلاً كتبت «الإمبراطور يدخل البلاد»). لنتذكر أن الصحافة صناعة بالنهاية، والصناعة يحركها هاجسَا المصلحة والتسويق دائماً.

ويلفت المؤلف النظر إلى صحافة التابلويد Tabloid تحديداً، وهي النمط الصحفي الذي يهتم بموضوعات الفضائح والترفيه وقصص الاهتمام الإنسانيّ وأخبار المشاهير (الذين يأتون من مجالات الترفيه على الأغلب، والذين تجتذب حياتهم الخاصّة اهتماماً يتساوى مع أو يفوق حياتهم المهنية)، إدراكاً من ووسائل الإعلام للعوائد التجارية التي تجنيها من وراء إشباع شهيّة

(30) ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton (1755-1804) هو أحد واضعي الدستور الأمريكي، أول وزير لمالية الولايات المتحدة، ومؤسس البنك المركزي الأمريكي (صورته تظهر على العملة الأمريكية من فئة 10 دولار).

الجمهور لقصص المشاهير وصورهم. إن صناعة صحافة التابلويد ككل تقوم في جانب كبير منها على ممارسات تتفق جميعها على نشر المادة التافهة للقراء، وأغلبها يتعلق بملاحقة المشاهير وتصويرهم والتنصّت عليهم. ولكن المرء هنا لا يملك إلا أن يتساءل: ما هي حدود حرية التعبير؟ هل هناك سقفٌ أعلى لحرية تدفق المعلومات؟ ما هو نطاق سرية المعلومات الخاصة؟ هل يمكن تعيين الحد بين المعلومات المتاحة للعامة وتلك القاصرة على أشخاص معينين؟ ما هي نقاط التّماس بين حق القراء في معرفة الحقيقة من جهة وحق الأفراد في الخصوصية من جهة أخرى؟ إلى أي مدى يكفل الدستور هذه الحقوق؟ ثم كيف هي فعالية النظام القضائي بهذا الصدد؟ لا شك أن التعاطي التافه مع هذه الموضوعات يُهدر أسئلتها الكبرى هذه، مما يجعلها منطقة خصبة جداً للبحث القانوني.

ولعل لهذا التعاطي التافه الذي أُشير إليه آثاراً فادحة على ضحايا هذه الصحافة. فللروائي الألماني باتريك زوسكيند قصة بعنوان «هوس العمق»، تعطي مثالاً واضحاً على مثل هذه النتائج المحزنة، وهي تسرد حكاية عن فنانة شابة تقيم معرضها الأول، فيكتب عنها أحد النقاد في الصحف واصفاً إياها بكونها فنانة موهوبة «ينقصها بعض العمق». وسرعان ما ردد هذه العبارة كتّاب أفاقون، فانتشرت في الصحف والمجلات بسبب الكتّاب الذين كانوا فقط يكررون ما يسمعون عن غير علم، حتى أصيبت هذه الفنانة الشابة بالاكتئاب الذي انتهى بها إلى الانتحار، لتنشر الصحف في اليوم التالي عن «انتحار فنانة واعدة كان ينقصها بعض العمق». وهكذا، صارت العبارة التافهة الصادرة عن كاتب تافه أداة قاتلة قضت على شابة في بداية حياتها.

ولكن اعتبارات التفاهة لا تتعلق بنوعية الصحافة فقط، بل بنوعية القراء أيضاً. ففي مقالٍ شهير له حول هذا الموضوع، يحذر الشاعر الأسباني بيدرو ساليناس Pedro Salinas من صحافةٍ تؤدي إلى إنتاج من أسماهم بـ «الأميّون الجدد»، فيقول:

«ثمة أيضاً نوعٌ من الأميين الجدد جزئياً الذي يمكن رؤية أصحابه يحومون حول أكشاك بيع الصُّحف كنحلاتٍ طنانة تحوم حول زهرةٍ نضرة، بحثاً عن المقادير التي ستصنع بها عسل حياتها الفكرية. إنهم لا يقرأون الكتب ولكنهم مفتونون بتكاثر المجلات وبمواضيع أغلفتها. هؤلاء أهلٌ للشفقة لأنهم بعيداً عن إعفاء أنفسهم مشقة العناء كقرّاء، فهم في غاية السخاء والكرم حين يتعلق الأمر بها. يقرأون الأعمال الضعيفة بشراهة، يعودون لمنازلهم محمّلين بالمجلات التي يحرثون فيها بعيونهم لساعات، دون أن يحصلوا بالنهاية على أكثر مما يحصل عليه طفلٌ يلهو بأحجية بانورامية لا يبدو أنها ستنتهي، عاجزين عن رؤية الصورة الكبرى التي يبدو فيها كل شيءٍ في مكانه الصحيح... إن هذه المجموعة الجديدة تنمو ببطء، وقد حان الوقت لتسميتها ولإعطاء المنتمين لها وضعاً اجتماعياً. إنهم الأميّون الجدد (the neo-illiterates)، وهم على درجةٍ من التأثير والخطورة تتجاوز كثيراً الأميين أميّة بحتة. فهم يرفضون البقاء في الدرك الأسفل مع الشيطان في ظلمات الجهل، إلا أنهم لا يطمحون للوصول إلى ضوء المعرفة المقدس. إنهم قادرون على كل شيء، ولا يجازفون بشيء... تعليم الناس كيف يقرأون ليس كافياً في أغلب الأحيان لينتزعهم من فقرهم الروحي الأساسي أو، وكما قال ت. س. إليوت بأن «التعليم لا ينتج الثقافة إلا في أضيق الحدود»... إن هؤلاء الصغار يبدأون حياتهم وهم مسلّحين بمهارات القراءة والكتابة الأولى فقط، واثقين من أنهم قد تمكنوا من السيطرة على جهلهم الأوّلي، ثم يفاجأون لاحقاً بأن غريماً قوياً ينتظرهم عند الزاوية. إن هذه القوى الشريرة سوف تجذبهم إليها فتحوّلهم إلى مخلوقات بسيطة؛ أميّين جدد يعيشون راضين في أمان الوعي المغيَّب، مستمتعين بملذات الحياة الاستهلاكية التي يوفّرها العصر الحديث، ومع ذلك فهم محكومون بحكمٍ مؤبدٍ للعيش مدى الحياة في شكلٍ مختلفٍ من تخمة الجهل».[31]

---

(31) Pedro Salinas, 'The New Illiterates', reproduced in: *The UNESCO Courier*, no. 242, July 1990, pp. 42-45.

وهكذا، فإن أكثر الناس يقيناً هم عادة أكثرهم جهلاً، فهم على ثقة كاملة من صحة الأخبار المنشورة في الصحف، فيرونها عنواناً للحقيقة.[32] وفي الواقع، فإن نظام التفاهة لا يثبت فعاليته القصوى إلا مع مثل هؤلاء الناس.

ج. الكتب

يُصنّف الأدب عادةً إلى أدب رفيع *circuit lettrè*[33] وأدب شائع *circuit populaire*. وقد ظهر هذا الأخير في نهاية القرن الماضي وهو يرتبط بالظهور الاقتصادي للطبقة الوسطى وبزوغها كواقعٍ اجتماعيٍّ جديدٍ ومستمرٍّ إلى زمننا الحاضر. وفي العالم العربي، كانت بدايات الأدب الشائع من خلال الترجمات والمسلسلات والروايات التاريخية (روايات جورجي زيدان مثالاً) وقصص محمود كامل المحامي وعبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس، وغيرهم من كتّابٍ مكثرين ذوي إنتاج غزير، لأنه يخلو من الصعوبة والتحديات. ولهذا الأدب مفاهيم عامة مطلقة، وهو يقصد بالنهاية إلى إشباع مشاعر القراء ومخاطبة وجدانهم. لكل ذلك، فهو يتسم عموماً بالبساطة والمباشرة والنمطية والتكرار. أما فنياً، فهو يرد على شكل حلقات متتابعة تتضمن جملة من المواقف والعواطف التي هي أقرب ما تكون إلى القوالب

وقد سبق لي ترجمة هذا المقال منذ بضع سنوات، بالاشتراك مع أحد الزملاء، انظر: ثابت خميس ومشاعل الهاجري، «الأمّيون الجُدُد» (في طور النشر).

(32) الفقرة لأستاذ الفلسفة الراحل د. فؤاد زكريا (1927-2010)، أكاديمي وأستاذ جامعي مصري متخصص في فلسفة المعرفة. أظن أن من يقرر ولوج الحياة الأكاديمية لا يمكنه أن يفهم ما هو مقبل عليه إذا لم يقرأ كتابه هذا: فؤاد زكريا، *التفكير العلمي*، ط. 3 (الكويت: ذات السلاسل، 1989).

(33) الأدب الرفيع *circuit lettrè* هو الأدب الذي لا يتوجه إلى الجمهور بل يتوجه الى قارئ واحد افتراضي، احتمالي وغير محدّد. كان أحد الفنانين الفرنسيين من أصدقاء الشاعر مالارميه Mallarmé - لا أتذكر اسمه - يقول «إن الجماهير لم تُخلق كي تفهم الفنانين ناهيك عن أن تُطلق عليهم الأحكام؛ يكفي أن يفهمنا بعض الأصدقاء الأذكياء والمتنورين».

الجاهزة، المألوفة والمريحة، التي لا تتطلب عظيم جهد للفهم والمتابعة. لكل ذلك، فإن النقد عادة ما يشيح بوجهه عن مثل هذه الكتابات فلا يحملها على محمل الجد، ولذلك فالكتابات النقدية عنها - إن وُجِدَت - قليلة.[34]

وينعكس ذلك على قوائم «الكتب الأكثر مبيعاً» التي هي في الغالب أقلها قيماً فكرية. وأنا كثيراً ما أعطي هذه الكتب فرصة، ولكن قليلاً ما تخيب توقعاتي بشأنها. بالنسبة لي الآن، صار مجرد وجود الكتاب على رف «الكتب الأكثر مبيعاً» هو دلالة مبدئية على ضحالته، إلى أن يثبت العكس. في الحقيقة، تبدو لي الفلسفة القيمية للكتب المعروضة للبيع في المكتبات وكأنها تعتمد هندسة المحور والقطر: محور المكتبة هو رف «الكتب الأكثر مبيعاً»، وقطرها مصمّم بحيث إننا كلما كنا بقرب محور القطر أو مركزه كنا في منطقة الكتب ذات القيم الفكرية المتواضعة، وكلما ابتعدنا عنه تجاه أطراف القطر ارتفعت القيم الفكرية للكتب المعروضة. شخصياً، صارت لدي عادة التوجه التلقائي نحو أطراف المكتبات وجوانبها فور دخولي لها. لا دلالة موضوعية للتصدّر، حتى في المكتبات.

د. التلفزيون

تصم التلفزيون اليوم وصمتان كبيرتان. تتعلق الأول بمذيعيه، والثانية بضيوفه:

فأما عن مذيعي التلفزيون، لنلاحظ أن الحياة العامة في السابق كانت لا تقبل إلا من يحدّدون - بدقةٍ هندسيّةٍ صارمة - ما هو القالب العام الذي يودون أن يطرحوا أنفسهم من خلاله (غناء، تمثيل، شعر، رياضة، سياسة). أما الآن،

---

(34) ناجي نجيب، *كتاب الأحزان* (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1983)، ص. 204-205.

ومع الاكتفاء بمعيار الجمال وحده (طبيعياً كان أو صناعياً)، فقد اختلف الأمر: صار يمكن لأية جميلةٍ بلهاء أو وسيمٍ فارغ أن يفرضوا أنفسهم على المشاهدين من خلال عدة منصّات عامة، هي في أغلبها منصات هلامية وغير مُنتجة، لا تخرج لنا بأي منتجٍ قيميٍّ صالحٍ لتحدّي الزمن (كأغنية، قصيدة، لوحة، أو حتى دور صغير في فيلم ذي ميزانية متواضعة). لذلك، صرنا نرى المذيعات يتقافزن من فقرات الربط إلى المسلسلات إلى الفوازير، ولاعبي الكرة (المصابين في أربطتهم الصليبية) يكتشفون في أنفسهم فجأة مهارة تقديم برامج المسابقات. يقيني أن ما شجعهم على ذلك هو أمران بالدرجة الأولى: افتقارنا لثقافة الجمال الحقيقي، ثم أتون الفضائيات التلفزيونية المُستعر الذي يتطلّب مادة تلفزيونية يومية كوقود لازم للحفاظ على استمرارية هذا الموقد الجهنمي.

وأما عن ضيوف التلفزيون، فقد كان صانعو الملوك في الماضي هم رجال الدين ورجال السياسة وحاشية البلاط. أما الآن - في ثقافتنا العربية على الأقل - فإن الاستديو التلفزيونيّ هو الصانع الجديد للملوك (حتى ولو كان هذا الاستديو لا يعدو أن يكون غرفةً صغيرةً لا تضم سوى مقعدين، آلة تصوير، أوراق مليئة بما يشبه الأفكار، مذيعة بثيابٍ مزركشة، وظِلّ مصورٍ فاشلٍ لا يعرف كيف يخفي ظلّه). لا يهم ما إذا كان مشاريع الملوك هؤلاء شخصيات معتبرة أم مجرّد أصفارٍ متحرّكة، ولا يعنى نيافة الاستديو البتّة ما إذا كانوا يحملون معهم الكفاءة، الإنجاز، القدرة، أو الضّمير (و في الحقيقة، كلما تخفّف الملك الجديد من هذه التركات الثقيلة، ازدادت حظوظه في الحكم)، بل كلما انحدر مليكنا هذا أكثر في مقياس الذوق، الأدب والحسّ السليم، تم تسويقه بشكلٍ أفضل. ما يهمّ الاستوديو هو تقديم هؤلاء الملوك الجدد لنا (نحن، شعوبهم) من خلال التفعيل الذكيّ لـ «أدوات الحكم» المعاصرة. كل ما يتطلّبه الأمر هو أن يقوم الاستديو بإجلاس الملك الجديد على كرسي المقابلة (العرش)، وأن يضع في يده المايكروفون (الصولجان)، ويثبّت على صدره السّماعة (الوسام)، ثم يعيد ويكرر مطالباتٍ شعبويّة (الدستور)، ويثير الأنصار

(الجيش). بعدها، يصير مخولاً شرعاً لمخاطبة رعيّته وتوجيهها من موقع السلطة هذا. وما هي عدّة الصّنعة الملكيّة إذا لم تكن عرشاً وصولجاناً ودستوراً وجيشاً؟ لقد كثُرَت الاستوديوهات فكثُرَت الملوك. وهذه مشكلة: إن تعدّد الملوك، فولاؤنا لمن؟

هـ. الشبكات الاجتماعية

الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل (مثل تويتر وفيسبوك وإنستاجرام)، هي مجرد مواقع للّقاء الافتراضي وتبادل الآراء؛ forums لا أكثر. فيها، يتكون «عقلٌ جمعي» من خلال المنشورات المتتابعة. هذا الفكر التراكمي السريع الذي يبلور - بسرعة وبدقة - موضوعاً محدداً، نجح في اختصار مسيرة طويلة كان تبادل الفكر فيها يتطلب أجيالاً من التفاعل (المناظرات والخطابات والمراسلات والكتب والنشر والتوزيع والقراءة والنقد ونقد النقد). ورغم كل هذه الفرص، فقد نجحت هذه المواقع في «ترميز التافهين» كما يقال، أي تحويلهم إلى رموز.

ما يجعل من كثير من تافهي مشاهير السوشال ميديا والفاشينستات يظهرون لنا بمظهر «النجاح»، هو أمر يُسأل عنه المجتمع نفسه، الذي دأب على التقليص التدريجي لصور النجاح التي تعرفها البشرية ككل (العمل الجاد والخير للأهل والمواطنة الصالحة وحسن الخلق والأكاديميا والآداب والفنون والرياضة إلخ)، فألغاها جميعاً من قائمة معايير النجاح، حتى اختزلها في المال فقط، فلم يُبقِ إلا عليه وحده معياراً. لقد حذرنا من ذلك كثيراً. من يُنكر الآن أن المشاهير والفاشينستات قد حققوا «النجاح» فعلاً، وفقاً لمعيار المال؛ وهو المعيار الوحيد الذي وضعه مجتمعنا نصب أعين شبابه؟

و. الفن

بخلاف ما هو دارج من الإشارة إلى عروض الموسيقى الرخيصة باعتبارها فناً، فإن ما نراه الآن ليس كذلك. إن سبب الخلاف القائم حول كنهه هو أن الناس صاروا ينظرون للفن الساقط والقبيح ويضربون به المثل على الانحدار والقبح. والحقيقة أن الأمر يتمثل في الخطأ في التصنيف، فهناك معايير جمالية للفن في العلم والفلسفة (و هو علم يدرس ضمن فلسفة الجمال aesthetics). لقد غيّبنا علوم الجمال من موسيقى وفن ومسرح ورسم لقرونٍ طويلة، وها نحن نعاني تبعات هذا التغييب الآن، فما نمر به حالياً هو الضريبة التي ندفعها نتيجة السنوات الطويلة التي مضت في التضييق على الفنون.

ويتعلق الأمر بفهم طبيعةِ الفن. فالفن يكاد يكون المجال العملي الوحيد الذي يُقبل فيه الإسقاط تجريبياً، من دون أخذ الضمانات المنهجية في الاعتبار (حتى الحرفة، لكونها تتطلب اتباع الأصول والقواعد، لا تقارب الفن في ذلك). فعروض الأزياء مثلاً - لا سيما فيما تتضمنه من شطحات فنية وملابس استعراضية غير قابلة للارتداء عملاً - هي أكثر من جنون فني أو عرض مظهري أو إغراق في الجماليات الشكلية. فهذه العروض هي استعراض عضلات حقيقي للحدود الفنية القصوى لذهنية المصمم. الأمر، في عمقه، هو تعبير سوسيولوجيٌّ آخر عن النزعة الفردية individualism في أكثر تمظهراتها تحدياً ونرجسية (المفارقة هنا أن ما يبدأ من هذا المنطلق «الفردي» ينتهي، في آخر الأمر، إلى تطبيق جمعي/ قطيعي لهذه الأفكار، متمثلاً في تكالب الجميع على الموضة؛ تفاهة أخرى).

ولكن الفن - إن فُهِمَت فرادته - شكّل دفقة روحية رفيعة. من ذلك أن للرسام السويسري بول كلي Paul Klee (1879-1940) لوحة صغيرة بعنوان «الملاك الجديد» Angelus Novus، رسمها عام 1920. اشترى الفيلسوف الألماني فالتر بنجامين Walter Benjamin (1892-1940) هذه اللوحة في العام

نفسه، وعلقها في مكتبه، ليتبين فيما بعد أنها مثلت مادة حفازة حقيقية لفكره. لقد تمثلت قراءة بنجامين Benjamin للوحة في أنه رأى فيها ملاكاً ينظر إلى الأمام والخلف معاً، وبذلك فهو يتأمل في تاريخٍ حافل بالحروب والدمار وفي ما هو آت، أي أن ملاك التاريخ هذا يعبّر عن ذاكرة لماضي البشرية الحزين وعن قلق على مستقبلها الغامض في الوقت نفسه. عندما كتب بنجامين أطروحاته الشهيرة حول مفهوم التاريخ، كان مصدر إلهامه في العديد منها هذه اللوحة صغيرة، حتى أنه كان يوقّع كتاباته باسم Angelus Novus. لقد كان مقاس اللوحة هو 31×24 تقريباً. صُغْرها كبير.

6. السياسة

يشكل العمل السياسي - بما ينطوي عليه من سلطة وخطاب ومال وجماهير - المساحة الخصبة لازدهار نظام التفاهة. وتمثل الديمقراطية، بما تنطوي عليه من مراكمةٍ لكل هذه العناصر، بالضرورة، المجال الأخطر لذلك.

ومن أهم الانتقادات التي توجه إلى الديمقراطية، باستمرار، والتي لا تخلو من صحة، هو الخطر المتمثل فيما يمكن أن تؤدي إليه من طغيان الأغلبية على الأقلية.[35] ذلك أن الدساتير ما وُضِعَت إلا لحفظ حقوق الأقلية قبل الأغلبية، فالأغلبية هي تكتل وتفاهم لا يُخشى عليه من إجحاف، وإنما الأقلية هي من يحتاج إلى الضمانات السياسية كما تقدمها الدساتير. إن القول بغير ذلك يعني أن الدولة ما هي إلا أداة بيد الأغلبية لقمع الأقلية، وبذلك فإن القانون يتم تجييره لأهدافٍ مختلفة، مع فصله عن العدالة.

---

(35) كان أول من خرج بهذا المصطلح هو الدبلوماسي والمنظّر السياسي الفرنسي ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville (1805–1859) في كتابه «الديمقراطيّة في أمريكا» *De la démocratie en Amérique* (1835).

ولكن من حيث المبدأ، فالديمقراطية هي أداة ذات دورٍ وظيفيٍّ محدّد، هو كفالة وضمان بنيةٍ أساسيةٍ من القِيَم التي لا علاقة لها بالأغلبية أو بالأقلية من حيث التصويت، فهي قِيَمٌ ينبغي أن تُحترم وأن تُقدّس أياً ما كانت مخرجات الانتخابات. هذا هو بالضبط السّبب الذي يجعل تداول السلطة سلساً في أوروبا، مثلاً. فالفرقاء السياسيون هناك، على اختلاف منطلقاتهم ا؟يديولوجية، يقفون في خططهم التغييرية دائماً عند حدٍّ لا يتجاوزه أيٌّ منهم حال تسلمه للسلطة. حائط الصدّ هذا يتمثل في الضمانات الدستورية، قيم المواطنة السويّة، والحقوق والحريات.

ولا شكّ أن اختزال الأمر بالعدد وببساطة العدد فيه من الخطورة ما فيه (هل أحتاج للتذكير بأن هتلر وحزبه النازي بقيمهما المريضة إنما وصلا الى الحكم بعمليةٍ ديمقراطيةٍ كاملة من انتخاباتٍ وتصويتٍ وأغلبية؟). وقد لاحظ المؤرخ الهولندي الشهير يوهان هويزنجا Johan Huizinga أن للثقافة الجماهيرية سمة الصبيانية puerility فعلاً، من حيث لها ذات السمات العقلية لمرحلة المراهقة، كالعاطفة القوية والتسلية المبتذَلة والميل للأحداث المثيرة والشعارات المؤثرة الاستعراضات الشعبية والانفعالات العاطفية وغيرها من مبالغات. ولعل في الديماغوجية بما تستتبعه من تحفيز العواطف الجمعية ثم تعبئتها مثالاً جيداً على ذلك (طائفية، رأي عام شعبي، عصبيات قبلية، سلوك قومي عدواني، أخويّات طبقية، وتكتلات فئوية).

والحقيقة أنه يكثر الحديث عما يسمى بـ «الحكمة الجماعيّة» mass wisdom. وفي حين أنه قد يكون هناك صحة ما في حديث مثل هذا، إلا أن الاتجاهات الشعبية ليست اتجاهات رشيدة بالضرورة فقط لكونها تعبر عن رأي الغالبية، كما أنه لا شك أن هناك اشتراطات معينة ينبغي التثبت من توافرها قبل أن يضع المرء ثقته فيها. فقبل أن ينساق المرء لأي توجه شعبي لا بد أن يعرف ما هي مسطرة هذا التوجه (منطق؟ علم؟ مصلحة؟ حدس؟ غيبيات؟)، ثم يقرر بعدها ما إذا كان يراه توجهاً رشيداً أم لا.

وليس الحديث هنا عن الأفكار؛ بل عن مساطر الأفكار أو الهياكل التي يمكن أن تعيش فيها، من حيث إنه يمكن للشخص أن يختلف مع الكثيرين ممن لا يلتقون معه فكرياً، ولكنه يظل رغم ذلك يثق برشد منطلقاتهم وحكمتها، لأنه يعرف أنهم قد عرضوها على مساطرَ منضبطة (و لعل هذا هو السبب، تحديداً، وراء صعوبة أن تكون للمفكرين الحقيقيين انتماءات حزبية، فالأحزاب عادة ما تتحرى توحيد الرأي الداخلي فيها تحقيقاً للترضيات الشعبية وضماناً للعملية الانتخابية، وهذا ما يصعب على المفكر الحر قبوله عادة).

إن أزمة العالم العربي هي أزمة مفاهيمية conceptual crisis بامتياز، وعن أزمة هذا الحديث المتعقل في ظل الأوضاع السياسية العربية، كتب الشاعر اللبناني الراحل أنسي الحاج:

> «في هذه الظروف التاريخيّة يتّخذ حديثٌ كهذا طابعاً غريباً عجيباً:
> شذوذُ الوقاحة، عزفٌ منفردٌ أشبه بالمرض النفسي، كلّ يومٍ ينقضي
> يُشعرني بأنّي أزدادُ أقلّويّة؛ كنتُ واحداً وأمسيتُ ربع واحد».

يظهر أننا الآن - جميعاً - ندفع ثمن سنوات طويلة من الثقافة الطَرَفيّة، التي قامت على السخافة والتسطيح (سواء انغلاقاً أو انفتاحاً، لا فرق).

ولكن بالرغم من الخطر الحقيقي التي تأتي به الديمقراطية عادة والمتمثل بـ «طغيان الأغلبية»، إلا أن هناك خطراً آخر مضاداً يتمثل بـ «سيطرة الأقلية»، وهو ما يُعرف بـ «القانون الحديدي للأوليجارشية» The Iron Law of Oligarchy (الأوليجارشية هي حكم القلة كما ناقشها المؤلف)، الذي وضعه الألماني روبيرت ميكيل Robert Michels في كتابه «الأحزاب السياسية» *Political Parties* (1911)، والذي صاغ فيه نظريةً مفادها أن الديمقراطية التمثيلية تنطوي على قصورٍ بنيويٍّ يتمثل في أن الجماهير بحاجة دائماً إلى زعماء قادرين على تعبئتها، وهذا لا يكون إلا من خلال هيئةٍ حاكمةٍ تتكون من أقليةٍ ذات تنظيم وسلطة. إلا أن هذه الهيئة بمجرد أن تتشكل، يظهر من داخلها زعماءٌ ذوو

سلطاتٍ تؤدي بهم، في النهاية، إلى العمل - شيئاً فشيئاً - نحو تعزيز مصالحهم الشخصية، بدلاً من خدمة مصالح الجماهير. وهكذا، ينشأ التباعد والانفصال، تدريجياً، بين القلة المسيطرة والجماهير، إلى أن ينتهي الأمر بهذه القلة إلى العمل المصلحي الذاتي البحت.

إن هذا يعني أنه رغم ادعاء أي تجمع أو حزب أو برلمان كونه ممثلاً لإرادة الأغلبية، فإن مرور الوقت سوف يؤدي به إلى الاستئثار بعملية صنع القرارات المجتمعية الكبرى، وهي العملية التي ستنحصر بيد مجموعة صغيرة من الأفراد، أي أقلية، حتى وإن أتت عبر صناديق الاقتراع (زعماء أحزاب، رؤوس معارضة، قادة عماليون، نواب برلمان). وفي ذلك، أورد ميكيل Michels القانون الآتي:

> «لا يمكن لأي مجتمع الوجود من دون طبقة . . . مسيطرة . . . أو . . . سياسية . . . فالحكومة، أو . . . الدولة، لا يمكن أن تكون إلا هيئة مكونة من أقلية. وتهدف هذه الأقلية إلى إلى أن تفرض «نظاماً قانونياً» على بقية المجتمع، هو في حقيقته محصلة مقتضيات السيطرة على الجماهير واستغلالها . . . وحتى عندما يُكلل عدم رضاء الجماهير بمحاولة ناجحة لحرمان البرجوازية من السلطة، فإن هذا . . . لا يكون إلا من الظاهر فقط؛ إذ تبرز دائماً وبالضرورة أقلية منظمة جديدة ترتقي بنفسها إلى مرتبة الطبقة الحاكمة».(36)

---

(36) "Society cannot exist without a dominant... or... political class, and that the ruling class, while its elements are subject to frequent partial renewal, nevertheless constitutes the only factor of sufficiently durable efficacy in the history of human development. [T]he government, or, ... the state, cannot be anything other than the organization of a minority. It is the aim of this minority to impose upon the rest of society a legal order which is the outcome of the exigencies of dominion and of the exploitation of the mass ... Even when the discontent of the masses culminates in a successful attempt to deprive the bourgeoisie of power, this is ... effected only in appearance; always and necessarily there springs from the masses a new organized minority which raises itself to the rank of a governing class...". Robert Michels, *Political Parties*, 1911, pp. 353-354.

لذلك، قد انتهى ميكيل Michels، في هذا القانون، إلى نتيجةٍ مفادها أن الديمقراطية التمثيلية قد تحدّ من حكم الأقلية، لكنها لا تستطيع أن تمنعه. هذا، علماً بأن هذا القانون قد وُصِف بالقانون «الحديدي» لأنه لا استثناء فيه، بل ينطبق على التنظيمات السياسية بصرامة تامة.

وفي جميع الأحوال، لنتذكر أن الحديث عن طغيان الأغلبية أو حكم الأقلية لا يكون إلا في المجتمعات ذات الوعي بأهمية الأدوات السياسية، ولا أدري إن كان يمكن وصف مجتمعاتنا العربية بذلك. فما ألحظه هو انشغال الناس في منطقتنا بشيئين بالدرجة الأولى، وهما شؤون المعيشة والترفيه. في الأمر، حقيقة، ما يذكرني بثنائية «الخبز والألعاب» *panem et circenses*؛ هذه العبارة اللاتينية التي ذهبت مثلاً للتعبير عن نمط حياة الشعب الروماني في فترة الانحطاط قبيل انهيار روما، عندما كان الرومان مأخوذين تماماً بالمتع الحسية من لذائذ وترف وطعام («الخبز» *panem*) وبألعاب المجالدين الدموية في الملعب («الألعاب» *circenses*)، والتي دخلت القاموس السياسي الحديث فصارت تستخدم للدلالة على الأولويات التافهة للسياسيين المُضلِّلين للشعوب، الذين يشغلون شعوبهم بالمطالبات الشعبوية عوضاً عن وضع السياسات الحصيفة، فينجحون في اشغال الناس بشؤون المعاش من جهة (النزعة الاستهلاكية ونقاشات الأسعار والرسوم والرواتب والتموين والصحة والتأمين)، وبأنشطة الفرجة من جهة أخرى (الترفيه وكرة القدم).

V. الهدف النهائي: إسباغ التفاهة على كل شيء

يقصد نظام التفاهة إلى إسباغ التفاهة على كل شيء. وتكمن الخطورة الحقيقية للأمر في كون هذه المهمة سهلة وممكنة التحقق بسلاسة.

وفي ظل ما يحاصرنا من دعاوى التسليم والانقياد الفكري الأعمى تحت مسمياتٍ إطلاقية كالحرام والحلال والعيب والتقاليد وتقديس الأشخاص والرأي العام والشعبوية، علينا أن ندرّس التفكير الانتقادي critical thinking القادر على التعرف على كل دعوى تافهة مثل هذه، بل وأن نستحضر جميع نماذج التفكير الانتقادي الصرف (الذي يراد إفهامنا أن حضارتنا لا تعرفه)، فنبث الحياة فيها.

من ذلك:

> «لم أكتب هذا لتقرّ به، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل، وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضعِ اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف، ولما قال أبو الجهم للمكي: أنا لا أكاد أشك، قال المكي: وأنا لا أكاد أوقن، ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين».[37]

لنا أن نتخيل أن كاتب هذا الكلام ليس الفيلسوف رينيه ديكارت René Descartes صاحب نظرية الشك المنهجي الذي عاش في فرنسا القرن السابع

---

(37) الجاحظ، *الحيوان*، ج 6، ص 10.

عشر الميلادي، بل هو الأديب العربي الجاحظ الذي عاش في بغداد القرن التاسع الميلادي، أي قبل ديكارت بثمانية قرون. كتب الجاحظ هذه الفقرة بعد أن روى في فقرة سابقة ما كان سمعه عن نوعٍ من الثعابين قيل إنه يلد، وعن نوعٍ من الوعول قيل إن أنثاه تلد مع كل ولد تضعه أفعى، وهو ما كان يصدقه عموم الناس في ذلك الزمن، ولم يصدقه هو بسبب تفكيره الانتقادي الذي يعرض المعارف على مسطرة العقل أولاً.

وبذلك فإن الدرس هنا هو أن عقلك هو قدس الأقداس، فلا تسمح لأي فكر أن يدخله ما لم تطهّره بنار الشك.

وتجدر هنا الإشارة إلى وسيلتين يبدو لي أنهما تمكنان نظام التفاهة من ترسيخ نفسه في واقعنا، والتنبيه إلى خطورتهما كأداتين تخدمان هذا النظام:

1. البهرجة والابتذال

يسعى البعض لتخليد اسمه بأي شكل من الأشكال، أياً ما بلغ من فجاجة هذا الشكل أو سطحيته بل وقبحه أحياناً، والأمثلة كثيرة:

ففي سبيل الشهرة الأنانية، يصبح هؤلاء مثل هيروستراتوس Herostratus، ف «يحرق كل معبد»، كما يقال. والإشارة هنا هي إلى الشخص الذي قام بحرق معبد «أرتيمس» Artemis في آسيا الصغرى (تركيا اليوم)، وهو عجيبة من عجائب الدنيا السبع، فقط رغبةً منه لتخليد اسمه في التاريخ، وإن كان ذلك من خلال عملٍ سلبي.

وكتب موليير مسرحية «البرجوازي النبيل» *Le Bourgeois gentilhomme* وعرضها أمام بلاط لويس الرابع عشرعام 1670، ناقداً فيها ما ينتشر في الطبقة الوسطى من محاولات التسلق الاجتماعي مع السخرية من سوقية وبهرجة بعض أفرادها من جهة، ومن غرور وتعالي الطبقة الأرستقراطية من جهة أخرى.

وللداهية تاليران - وزير خارجية نابليون وأسطورة الدبلوماسية الفرنسية - مقولةُ ألمعية: «كل ما يُبالغ فيه هو أمرٌ غير ذي أهمية» (*tout ce qui est exagéré est insignifiant*). هذه هي فلسفة القيمة في السياسة، مُلَخّصةٌ في بضع كلمات، خادعةٌ بمظهرها الاعتيادي.

وكان بورخيس ينبه إلى أن على كل ذي ذوق رفيع نبذ البهرجات غير المجدية التي لا تصلح إلا في إنتاج المتعة العامّية.[38]

وأخيراً، ففي فيلم «الكيف» الذي أنتج عام 1985، يحضرني دائماً مشهدٌ قاطعٌ يجمع محمود عبد العزيز بأحد الشعراء، وكان قد طلب من الشاعر أن يكتب له كلمات أغنية لينتجها، فلما وجدها أغنيةً جادّةً رفضها بشدة، طالباً منه أن يكتب له أغنية أخرى، لأن «الناس لا تريد ذلك». كانت تعليماته للشاعر قصيرة، واضحة، ومحددة: «أريد كلمات تافهة، يا سيدي».

أورد كل هذه الأمثلة، حتى أقول إنه ما من سمة تنبؤك بكونك محاطاً بالتفاهة أوضح من أن ترى نفسك وسط أجواء من البهرجة والابتذال، فهذه كلها مؤشرات على غياب العقل وعلى الحاجة إلى إذهال العين للفت الأنظار وشغلها عن إدراك الفراغ الكبير الذي تركه غياب العقل.

2. المبالغة في التفاصيل

إن كل ما تقدم لا يعني أن التافهين لا يعملون. في الحقيقة، هم يعملون بجد، وبمبالغات بروزوبوغرافية أحياناً،[39] «فالأمر يتطلّب مجهوداً للخروج ببرنامجٍ تلفزيونيٍّ ضخم، أو لتعبئة طلب منحةٍ بحثيةٍ مموّلةٍ من وكالةٍ حكوميّة، أو لتصميم أكوابٍ صغيرةٍ وجذابةٍ وذات مظهرٍ إيروديناميكي للبن الرائب، أو

(38) خورخي لويس بورخيس، *سداسيات بابل*، ترجمة العربية حسن ناصر (بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013)، ص. 78.

(39) البروزوبوغرافيا Prosopographia هو علم الوصف الدقيق.

لصياغة المُحتوى الخاص بمراسم اجتماعٍ وزاريٍّ مع وفودٍ نظيرةٍ ما»، كما لاحظ المؤلف. ولكنهم يقومون بهذه الأشياء بجدية، حتى يُصدّق الناس، وحتى يقنعون أنفسهم قبل كل شيء، بأنها أعمالٌ هامة، مقتربين في ذلك ممن انتقدهم نيتشه من الشعراء المدّعين، غيرالأنقياء، الذي كان كل ما يفعلونه في قصائدهم هو أنهم كانوا «يُكدِّرون مياههم، كي تبدو عميقة».(40)

ومع ذلك، فهذا العمل هو محض مجهود مجرد من القيمة، بسبب من تفاهته وعدم الحاجة إليه (ألم يكن المَثّالون في العصور القديمة يعرفون ثماني عشرة وسيلة لتصفيف شعر الآلهة منيرفا؟).(41)

ويذكّر الأمر بفن الكيتش Kitsch، أي الفن المتعلق بالأغراض التزيينية السيئة الذوق، والتي ينتج عن تراكمها خليط من عناصر غير متجانسة وغير متوافقة مع المعايير الجمالية، والتي يبلغ من شيوعها أن تكون من الرخص بحيث تدمج في الحياة اليومية فتصبح جزءاً من إطارها.(42)

ولكن الأمر يمكن أن يتعدى ذلك. فالكيتش Kitsch، كما كتب الكاتب التشيكي/الفرنسي ميلان كونديرا: «هو موقف ذاك الذي يود أن يجلب الأنظار وينال إعجاب أكبر عدد من الناس وبأي ثمن. إنه ترجمة بلاهة الأفكار الجاهزة إلى لغة الجمال والوجدان».(43)

---

(40) فريديريش نيتشه، *ديوان نيتشه*، ترجمة محمد بن صالح (بغداد: دار الجمل، 2005)، ص. 142.

(41) جول فيرن، *حول العالم في ثمانين يوماً* (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2003).

(42) جاك رانسيير، *سياسة الأدب*، ترجمة رضوان ظاظا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ص. 89. يذكر أن حارب جميع الأعمال الفنية التي كان يراها معادية له أو غير مفيدة لأغراض دعاباتها السياسية من خلال وصمها بصفة الكيتش Kitsch تمهيداً لإعدامها، وهو ما حدث فعلاً خلال الثورة البولشفية في روسيا وعلى يد النظام النازي في ألمانيا استخدمها ذريعة لحرق ونهب وتخريب كثير من الأعمال الفنية آنذاك.

(43) عبدالسلام بنعبد العالي، «خداع»، *مجلة الدوحة* (قطر)، العدد 53، مارس 2012، ص. 76.

وهذا، بدوره، يذكّر بما أورده المغربي عبد الفتاح كيليطو في الفصل الأخير من كتابه «أنبئوني بالرؤيا»، عندما وصف، من خلال راوي الحكاية، ما يقترن بنجاحات الكتب من لقاءات ومقابلات في المراكز الثقافية والبرامج الإعلامية، وما يقترن بذلك من صورٍ وأضواءٍ بأنه «ابتذالٌ Kitsch صِرف» من حيث إنه بؤرة تجمّع لمن يصِفَهم بـ «طفيليي الثقافة» الحاضرين في كل «تدشينات المعارض الفنية، والحفلات الموسيقية، والمحاضرات، والندوات، والموائد المستديرة، والأيام الدراسية»، الذين لا تعدو هذه المناسبات أن تكون «حدثاً اجتماعياً» بالنسبة لهم. لذلك، فإنهم «حين يدخلون، يتظاهرون بالنظر إلى اللوحات، ولأنهم يعرفون أن الآخرين يلحظونهم، يؤدون تمثيلية المبالغة في إبداء اهتمامهم. بعد تأدية هذا الواجب، يبحثون عن معارفهم. المعرض بالنسبة لهم حدثٌ اجتماعي، مكان للقاءات». وهم لا يعبأون إطلاقاً بالأدب والفنون، ولكنهم إن رأوا شاعراً سيصرخون «الشاعر! كيف حال شاعرنا؟».[44] لكل ذلك، فقد حاول الراوي تجنب كل هذا الابتذال من خلال «عدم الظهور في الواجهة، عدم ارتداء ألوان صارخة، الزهد في الاحتفاء، والهروب من الأضواء».[45] كل ذلك هذا الصّعود للابتذال، في مقابل الاستبعاد والعزل المُمَنهجين لكل ما يمت بصلةٍ للكفاءة والقدرة والجودة والذكاء وحريّة الرأي.

في الأمر - من حيث الالتفات عما هو مهم وإسباغ الأهمية على كل ما هو عرضيٌّ وغير مؤثرٍ وتافه - ما يذكّر بشخصية الأمير أوبلونسكي Oblonsky في رواية الكاتب الروسي ليو تولستوي Leo Tolstoy الشهيرة «أنّا كارنينا» *Anna Karenina*، الذي كان شخصيةً شغوفةً بالتفاصيل («كيف طُبِخَت السمكة؟» «ما هي درجة حرارة الشّمبانيا؟»). إن وجهة نظره هي أنه «ما الغرض النهائي من

---

(44) عبد الفتاح كيليطو، *أنبئوني بالرؤيا*، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي (بيروت: دار الآداب، 2011)، ص. 91.

(45) عبدالسلام بنعبد العالي، «خداع»، *مجلة الدوحة* (قطر)، العدد 53، مارس 2012، ص. 76.

الحضارة إلا تحويل كلّ شيءٍ إلى مصدرٍ للمتعة» فحسب، فلا شيء عدا ذلك مهم.

كما أن ثورستين فيبلين Thorstein Veblen (1857-1929)، عالم الاقتصاد والاجتماع الأمريكي، أوضح في كتابه الرائع «نظرية الطبقة الغنية» *The Theory of the Leisure Class* أن النشاط الرئيس للطبقة الغنية هو «الاستهلاك المظهري» (conspicuous consumption). لذا، ينخرط كثير من أفراد هذه الطبقة في مساعٍ عبثية لا هدف من ورائها سوى إظهار فائض الوقت لديهم كدليل على عدم حاجتهم للعمل، كالتقعر في تعلم اللغات الميتة (الإغريقية واللاتينية). وفي ذلك، تحضرني رواية «أنّا كارنينا» *Anna Karenina*، مرة أخرى، وأتذكر تحديداً شخصية الموظف البيروقراطي عالي الرتبة، الذي يطيل أظفاره ويعتني بها فقط كدلالة على عدم انخراطه في أي صورةٍ من صور العمل اليدوي. كما تحضرني أيضاً رواية بينجامين دزرائيلي «الدوق الشاب» *The Young Duke*، والتي كان بطلها يأكل العصافير ملفوفةً بأوراق البنكنوت.

وفي كتاب «رحلة في حجرة نومي» *Voyage autour de ma chambre* لزافييه دي ميستر Xavier de Maistre (1763-1852) مثال ثالث. ففيه يقوم الكاتب - وهو نبيل شاب كان حبيس حجرته - برحلة تستغرق أسبوعين في حجرة نومه وكأنه يزورها لأول مرة. مدققاً بكل ما هو اعتيادي ودارج إلى حدّ التوغل في التفاصيل، يصل إلى استكشاف خباياها التافهة بعدسة منظوره الممتع. وهكذا، ومن خلال الحيز الصغير الداخلي، يحدد العلامات البصرية التي يمكن الاستدلال منها على السياق الأكبر الخارجي: المدينة/ العالم.

إن كل ما تقدم يذكّرنا بقلب نظام التفاهة والهمّ الأول للتافهين، وهو الانشغال بالتفاصيل التافهة وإظهارها بمظهر الأهمية. هنا، قد يسعفنا ما خرج به المفكر الإغريقي Theophrastus من لفظٍ مفيدٍ هو microphilotimos، والذي يعني «إسباغ الأهميّة على الصغائر».

لنحفظ هذا اللفظ في مفكراتنا؛ سنحتاج إليه لفهم كثير من أوجه الخطاب المحيط بنا.

VI. وأخيراً...

عرض المؤلف لنظام التفاهة من خلال السياسة والتجارة والأكاديميا والثقافة. وأنا، وإن كنت أجد كل هذه الجوانب هامة لفهم ما يحيط بنا، إلا أنني لا أعوّل عليها كثيراً في الفهم، لأنني أجدها أعراضاً، لا مرضاً؛ نتائجَ، لا مقدمات. فبرأيي، الخجول، المتواضع، إن حالة القلق والاضطراب الإقليمي (و التفاهة) التي يمر بها العالم اليوم لن تُفهم إلا من خلال النظر إلى الأشياء من خلال عدسة الفلسفة وحدها.

كانت النظرة الأساسية للفيلسوف والتر بنجامين Walter Benjamin هي أن التاريخ ما هو إلا حلقة مستمرّة من الطوارئ، وبذلك فإن لحالة الطوارئ - على خلاف ما هو شائع - منطق القاعدة، وليس الاستثناء. ربما كان الحق مع الرجل في تصوّره هذا. فكّر بالتاريخ: أليس كرنفالاً مستمراً من احتفالات المنتصرين المنتصبين على منصة الظفر بنشوة، على حساب المهزومين المندهشين؟ ثم أليست النتيجة الطبيعية هي أن يعيد الأخيرون ترتيب صفوفهم لإعادة اعتلاء هذه المنصة، وهكذا تغلق الدائرة بحتمية مستمرة؟ يبدو أن التاريخ ما هو إلا حلقة لولبية من القلق والاضطراب، وما الهدوء فيه إلا «عارض» لا يدوم.

إن معنى ذلك هو أن حركة التاريخ دائرية، وأنه وإن كانت الغلبة الآن هي للأذواق المُنحطّة بسببٍ من شيوع التفاهة في حياتنا، إلا أنه يمكن جداً تكون ألا تكون هذه إلا مجرد مرحلة.

ولكنَّ في الأمر ضرباً من التنبؤ بالمستقبل، الذي لا يليق إلا بكاساندرا، التي كانت، في الأساطير الإغريقية، ابنة بريام ملك طروادة ومحبوبة الإله

أبولّو، والتي وعدها أبولّو بنعمة التبصّر إن هي استجابت لرغباته فوافقت، ولكن ما إن حصلت على تلك المَلكة حتى سخرت منه. كان انتقام أبولو خبيثاً: لقد جعل الناس يُكذّبونها دائماً، رغم أن جميع تنبؤاتها صحيحة. صارت كاساندرا النبيّة التي لا يصدقها أحد.

قد لا يصدّق أحدٌ ما أقوله، ولكنني أؤكد لذوي الرأي الحر، المخالف/المختلف، المُعلَن: إلى أن تنتهي هذه المرحلة، لا يوجد دعم، أياً ما كان وزنه، يمكنه أن يحميك من عذابات الحياة اليومية التي تتطلب احتكاكاً - على مستوى التفاصيل - مع التافهين وضيقي الأفق. كل اتصال اجتماعي، كل اجتماع عمل، كل معاملة رسمية، كل مشوار للسوق، بل وكل توقف قصير في إشارة المرور، سوف يحمل معه تحدياً حقيقياً. أنتم فدائيون.

وبعد،

بقي أن أقول كلمة أخيرة بشأن هذه الترجمة:

فأما فكر المؤلف وأسلوبه فستراه في متن هذا الكتاب كما ترجمته، وأما فكري أنا وأسلوبي - ككاتبٍ وليس كمترجم - فأنت قد وقفت عليه سلفاً في هذا المقدمة، وهذا يكفي، فلن تجده مرة أخرى إلا في شروحاتي (المستفيضة أحياناً) في الهوامش. فالكتاب، بالنهاية، للمؤلف وليس لي.

هذا، وأيّ خطأ أو نقصٍ أو تقصيرٍ قد تجده في هذا الكتاب هو مني وحدي، لا شك، فلا يُسأل عنه سواي.

وأنا أطلب من القارئ الكريم أن يقبل اعتذاري عنه، سلفاً.

مشاعل عبد العزيز الهاجري
الكويت، 27 أكتوبر 2019
mashael.alhajeri@ku.edu.kw

نظام التفاهة

La médiocratie

مُقدّمة

ضع كتبك المعقّدة جانباً، فكتب المُحاسبة صارت الآن أكثر فائدة. لا تكن فخوراً، ولا روحانياً، ولا حتى مرتاحاً، لأن هذا يمكن أن يُظهرك بمظهر المغرور. خفّف من شَغفِك، لأنه مُخيف. وقبل كل شيء، لا تُقدّم لنا «فكرة جيّدة» من فضلك، فآلة إتلاف الورق ملأى بها سلفاً. هذه النّظرة الثّاقبة فى عينيك مُقلقِةٌ: وسّع حَدَقتَي عينيك، وأرْخِ شَفتَيك. ينبغي أن تكون للمرء أفكارٌ رخوةٌ، وينبغي أن يُظهر ذلك. عندما تَتَحدّث عن نفسك، قلّل من إحساسِكَ بذاتك إلى شيءٍ لا معنىً له: يجب أن نكون قادرين على تصنيفك. لقد تغيّر الزمان؛ فلم يعُد هناك اقتحامٌ للباستيل *Bastille*،[1] ولا شيء يُقارن بحريق الرايخستاغ *l'incendie de Reicshtag*،[2] كما أن البارِجة الروسيّة «أورورا» *l'Aurore* لم تُطلِق طلقةً واحدةً باتّجاه اليابان.[3] ومع ذلك، فقد تم شنّ الهجوم بنجاح: لقد تبوّأ التافِهون موقِع السّلطة.

---

(1) اقتحام سجن الباستيل *Bastille* هي الحادثة الشهيرة التي وقعت في باريس في يوليو من عام 1789، والتي كانت بمثابة الشرارة لاندلاع الثورة الفرنسية، التي استمرت للفترة من عام 1789 وحتى عام 1799. - [المُترجِمة].

(2) بتاريخ 27 فبراير من عام 1933، شب حريق في مبنى البرلمان الألماني (الرايخستاج Reichstag). وبذريعة الإجراءات الأمنية، وما تلاها من ملاحقات واعتقالات، كان هذا الحريق سبباً لإحكام قبضة الحزب النازي على السلطة بقيادة زعيمه أدولف هتلر Adolf Hitler ووصوله إلى سدّة الحكم في ألمانيا. - [المُترجِمة].

(3) كانت البارِجة «أورورا» *l'Aurore* إحدى قطع الأسطول البحري العسكري الروسي، وقد

ما هو جوهر كفاءة الشخص التافه؟ إنه القدرة على التعرّف على شخصٍ تافهٍ آخر. معاً، يدعم التافهون بعضهم بعضاً، فيرفع كلٌّ منهم الآخر، لتقع السلطة بيد جماعةٍ تكبُر باستمرار، لأن الطيور على أشكالها تقع. ما يهمّ هنا لا يتعلق بتجنّب الغباء، وإنما بالحرص على إحاطته بصور السّلطة. «إذا كان المظهر الخارجيّ للغباء لا يشبه التقدّم، المهارة، الأمل، أو الرغبة الدائمة في التعديل، فإن أحداً لن يرغب في أن يكون غبياً»، كما لاحظ روبرت موسل Robert Musil.[4] كُن مرتاحاً في إخفاء أوجه قُصورك في سلوكِك المعتاد، ادّعِ دائماً أنك شخصٌ براغماتي، وكن مستعداً للتطوير من نفسك؛ فالتفاهة لا تعاني من نقصٍ لا بالقدرة ولا بالكفاءة.

ينبغي أن يكون المرء قادراً على تشغيل تطبيقات الحاسب الآلي، ملء استمارةٍ ما من دون شكوى، ترديد عباراتٍ مثل «المعايير العُليا لحوكمة الشركات» و«مقترحٌ قيّم» مع توجيه التحيّة فى الآن ذاته للأشخاص المناسبين. ولكن - وهذا أمرٌ مهم - لا ينبغي القيام بما هو أكثر من ذلك.

إن التفاهة (بالفرنسية *médiocrité*) هو الاسم الذى يشير إلى ما هو متوسّط، تماماً مثلما تشير كلمات *supériorité* و*infériorité* إلى ما هو أعلى وما هو أدنى. ليس هنالك لفظٌ مثل *moyenneté* (التوسّط) بالفرنسية. ولكن مصطلح «نظام التفاهة» *la médiocratie* يفيد المرحلة المتوسّطة خلال فعلٍ ينطوي على ما هو أكثر من التوسّط: إنه يعني هذه الدرجة الوُسطى بعد رفعها إلى مصافّ السلطة. بذلك، فإن «نظام التفاهة» *la médiocratie* هذا إنما يؤسّس لوسطٍ لا يعود فيه المُعتاد هو محض توليفٍ مجرّد synthesis يسمح لنا بالوقوف على كُنه الأمور، بل يصبح هو المعيار الذي نُضطّر للخضوع له. وهكذا، فأن يظنّ المرء نفسه

شاركت في الحرب الروسية-اليابانية التي وقعت في الفترة من عام 1904 إلى عام 1905. - [المُترجِمة].

(4) Robert Musil, *The Man without Qualities*, tr. Sophie Wilkins (New York: Vintage International, 1996), p. 57.

«حراً» *libre* ضمن نظامٍ مثل هذا هو أمرٌ لا يعني، في حقيقته، إلا فعاليّة هذا النظام.

إلى حدٍّ كبير، ساهم تقسيم العمل وتصنيعه - اليدويّ منه والفكري - في ظهور السلطة التافهة mediocre power. إن إجادة كل مهمّة لجعلها نافعةً لمنتجٍ نهائيٍّ، أحدٌ لا يعرف ما هو، هي مسألةٌ قد ساهمت في ظهور «خبراءٍ» فارغين، يهرفون بخُطبٍ جيّدة التوقيت ومتضمنة لشذراتٍ من الحقيقة، فيما يتم اختزال العمّال إلى أدواتٍ «لا يعدو فيها العمل الدائم مدى الحياة . . . أن يكون محض وسيلةٍ لضمان وجودهم ذاته».[5]

هكذا لاحظ ماركس عام 1849،[6] الذي لاحظ أيضاً أن رأس المال - من خلال اختزاله للعمل labour إلى مجرد قوّة عمل labour power أولاً، ثم إلى وحدةٍ مجرّدةٍ للقياس، وأخيراً إلى تكلفته (بحيث يكون الأجر مساوياً لما يحتاج إليه العمّال لإنتاج قوّة عملهم) - قد جعل من العمال غير مُبالين بالعمل ذاته. لقد فُقِدَت الحِرفة:[7] يمكن للناس الآن إنتاج الوجبات على خطوط الإنتاج assembly lines من دون أن تكون لهم معرفةٌ بالطّبخ في البيت، إعطاء تعليماتٍ على الهاتف للعملاء رغم أنهم هم أنفسهم لا يفهمونها، وبيع كتبٍ أو صُحفٍ هم أصلاً لا يقرأونها. لقد صار الفخر بالعمل المُنتَج جيداً أمرٌ في طور

---

(5) Carl Marx, *Wage Labour and Capital*, www.marxists.org.

(6) كارل ماركس Karl Marx (1818-1883) هو فيلسوفٌ ألمانيٌّ وعالم اجتماعٍ واقتصاديٌّ مبرّز، كان له دورٌ ضخمٌ في الفكر الاقتصاديّ والسياسي، فوضع النظريّة الاشتراكيّة، التي كانت أساساً لكثيرٍ من الحركات السياسية، والتي كانت وراء العديد من الأحداث التاريخية الكبرى حول العالم. ما زال كتابه العَلَم، «رأس المال» *Das Kapital*، يُعتبر من أهم المراجع في علم الاقتصاد. - [المُترجِمة].

(7) الحرفة أو الصّنعة تعني عملاً يدوياً يتعلمه الناس ويتناقلونه بأسلوب التّلمذة الصّناعية، سواء في نطاق الأسرة التي تختصّ بعملٍ مُتوارثٍ أو في نطاق الرابِطة الحرفيّة التي اهتمت بتنظيم العمل وتقاناته. انظر: هاشم الطويل وعباطة التوايهة، «أثر بعض المتغيرات الديموغرافية في المكانة الاجتماعية للمهن»، *مجلة العلوم الاجتماعية* (جامعة الكويت)، العدد 3، المجلد 29، خريف 2001، ص. 123. - [المُترجِمة].

الاضمحلال، كما أوضح ماركس في كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» *Contribution to the Critique of Political Economy* (1857):

> «إن اللّامبالاة تجاه عملٍ معيّنٍ هو أمرٌ يناسِب المجتمع الذي ينتقل فيه الأفراد بسهولة من نوع معيّن من العمل إلى نوع آخر، والذي يكون فيه هذا العمل عَرَضياً للأفراد ومن ثمّ غير ذي أهميّةٍ لهم. وهكذا، ففي نظام مثل هذا فإن الوسائل التي يراد من خلالها الوصول إلى هذه الأهداف صارت موحدة. بذلك، يبدو العمل - ليس من حيث فئاته ولكن من حيث واقعه ذاته - مجرد وسيلةٍ لانتاج الثّروة بشكلٍ عام».[8]

إن العمل المنزوع الحيويّة، الذي يراه العمال باعتباره «محض آليةٍ لتأمين وجودهم نفسه»، هو الوسيلة التي يضمن فيها رأس المال نموّه. هكذا، يتّفق كلٌّ من أرباب الأعمال والعمّال على شيءٍ واحدٍ على الأقل: لقد تحوّلت كل حرفةٍ craft إلى وظيفة job، وصارت كلّ وظيفةٍ تُرى باعتبارها «وسيلة» means.

تميل اللغات المُشتقّة من اللّاتينية إلى استخدام كلماتٍ متشابهةٍ عادةً بشأن الشيء الذي يُستخدم للوصول إلى هدفٍ ما: فالكلمة بالفرنسية هي *moyen* أو *moyenne*، وبالإيطالية *media* أو *mezzo*، وبالإسبانية *medio* أو *promedio*. وبالإنجليزية، فإن كلمة mean هي المنطقة الوسطى بين نقيضين كما أن الكلمة التي تصف طريقةً للوصول إلى هدفٍ هي ذاتها: means. إننا نقول إن العمل أصبح مجرد وسيلة means عندما يتم تعييره للوصول إلى الهدف. إن هذا ليس لعباً أو صدفةً لغويّة، فالعمل يكون مجرّد وسيلةٍ بسيطةٍ عندما نقوم بتعييره بشكلٍ يصبح معه كذلك. إن جعل أيّ فعلٍ يمتثِل لوَسَطِه الأبسط - في حال ما إذا كان ذلك شيئاً عاماً وإجبارياً- هو أمرٌ يُحيل المجتمع ككلٍّ إلى التفاهة. بالفرنسية،

(8) Karl Marx, *A Contribution to the Critique of Political Economy*, Appendix 1.3: 'The Methods of Political Economy', tr. S. W. Ryazanska (Moscow: Progress Publishers), www.marxists.org.

فإن الكلمة التي تعني وسيلة *moyen* أو *moyenne* ترتبط - إيتومولوجياً -[9] بكلمة *milieu*، التي تفيد معنى «البيئة» و«الوسط» معاً، ويمكن أن تعني البيئة المهنيّة تحديداً كموضعٍ *locus* لتسوياتٍ (غير شريفةٍ أحياناً)، لا تنطوي على أيّ عملٍ حقيقيّ *œuvre*.

ومع ذلك، ينبغي التنويه إلى أن التافهين لا يجلسون خاملين؛ إنهم يؤمنون بأنهم يعرفون كيف يعملون بجهد: فالأمر يتطلّب مجهوداً للخروج ببرنامجٍ تلفزيونيٍّ ضخم، أو لتعبئة طلب منحةٍ بحثيةٍ مموّلةٍ من وكالةٍ حكوميّة، أو لتصميم أكوابٍ صغيرةٍ وجذابةٍ وذات مظهرٍ إيروديناميكي للبن الرائب، أو لصياغة المُحتوى الخاص بمراسم اجتماعٍ وزاريٍّ مع وفودٍ نظيرةٍ ما. ولا يمتلك الجميع الوسائل للوصول إلى هذه الغايات، فالجودة التقنيّة لازمةٌ لإخفاء الكَسَل الفكريّ العميق الذي تنطوي عليه العديد من المِهن ذات العقيدة الامتثاليّة *professions de foi conformiste*. في التزامهم بالمتطلّبات الدقيقة لعملٍ لا يعود لهم في الحقيقة، وفي انغماسهم في فكرٍ يأتيهم من الأعلى، فإن ابتذال الأشخاص التافهين هو أمرٌ يغيب عن أنظارهم هم أنفسهم.

من حيث الطّريقة، فإن التطوّر لا يمكن وقفه. في الماضي، كان التافه يُصَوّر وكأنه عضو أقليّة. بالنسبة لجان دي لابروير Jean de La Bruyère،[10]

(9) الإتيمولوجيا Etymology هو علم بَسطِ أو تعليل أصول الألفاظ. - [المُترجِمة].

(10) Jean de La Bruyère, *The Characters*, p. 39, tr. Henri Van Laun, Project Gutenberg ebook, www.gutenberg.org.

وجان دي لا بروير Jean de La Bruyère (1645-1696) هو أديبٌ وكاتبٌ فرنسيّ، وكتابه الكاريكاتوري الساخر هذا هو كتابٌ شهير سجّل فيه انطباعاته الشخصيّة حول طبائع الناس، وملاحظاته المجتمعية العامة حول ظهور طبقاتٍ اجتماعيةٍ جديدةٍ وما ارتبط بها من طُرُزٍ متغيّرةٍ في نمط الحياة والطبائع والفكر والملابس. - [المُترجِمة]. للمزيد، انظر: عبد الرزاق الأصفر، *المذاهب الأدبية لدى الغرب* (دمشق: اتحاد الكتّاب العرب، 1999)، ص. 53. وانظر أيضاً:

Raymond Couallier, 'Naissance et origines de La Bruyère', *Revue d'Histoire littéraire de la France*, Juillet-Septembre 1963.

فإن التّافه - في كثيرٍ من الأحيان - يتمثّل في مخلوقٍ منحطّ، يستفيد من معرفته بالأخبار الداخليّة والدسائس في أوساط ذوي السلطة لاستغلال كلّ موقف:

> «كان سيلسي Celse ينحدر من خلفيةٍ تافهة، ومع ذلك فإن أشخاصاً من ذوي المراتب الاجتماعية العُليا كانوا يتأثّرون به: لم يكن عالماً ولكنه كان ذا علاقةٍ بالعلماء، كان قليل الجَدارة ولكنه كان يعرف أشخاصاً ذوي جَدارةٍ كبيرة، لم يكن حاذقاً ولكنه كان ذا لسانٍ يجعله مفهوماً وقدمين تحمِلانه من مكانٍ إلى آخر».

أما وقد أصبحوا جماعةً مسيطرة الآن، فإن «سيلسيّي» العالم هؤلاء ما عاد أمامهم أحدٌ يحاكونه سوى أنفسهم. لقد صاروا يقبضون على السلطة تدريجياً، من دون علمٍ منهم، تقريباً، بهذا الذي يفعلونه. إن كلاً من المزايا غير المُستَحقّة، التواطؤ والتآمر هي أشياءُ قد جعلتهم يتربّعون على قمة المؤسّسات.

لقد كانت هذه ظاهرةً مُستنكرةً في كل جيل. مُقتبِساً ما وَرَدَ في دفاتر صديقه الشاعر لويس بوييه Louis Bouilhet،(11) أورد الروائي جوستاف فلوبير Gustave Flaubert:(12)

> «آهٍ أيتها التفاهة المُنتِنة، الشِّعر النّفعي، أدب البَيادق، الثّرثرة الجماليّة، القيء الاقتصادي، المُنتَج المُقزِّز لأُمّةٍ مُستَهلِكَة، إنني أكرهك بجميع قواي الروحيّة! إنك لست بالغرغرينا، بل أنت ضمورٌ عضوي! إنك لست بالالتهاب السّاخن الأحمر للأزمنة المَحمومَة، بل

---

(11) لويس بوييه Louis Bouilhet (1821-1869) هو شاعرٌ وكاتبٌ مسرحيٌّ فرنسي، كان صديقاً للروائي الفرنسي جوستاف فلوبير Gustave Flaubert. - [المُترجِمة].

(12) جوستاف فلوبير Gustave Flaubert (1821-1880) هو روائي فرنسي، وضع روايات شهيرة، منها «سالامبو» *Salammbô* و«التربية العاطفية» *L'Éducation sentimentale* و«مدام بوفاري» *Madame Bovary* التي تعتبر من عيون الأدب الفرنسي. - [المُترجِمة].

أنت الخُرّاج البارد ذو الأطراف الباهِتة، الذي يَقْطِرُ كما النّبع الذي يَجِدُ مصدره في تجويف تسوّسٍ عميق!»(13)

ومع ذلك، فقد كان ذلك لا يعدو أن يكون رفضاً للادّعاء وللخيلاء آنذاك: إن ما كان يُنزع عنه القناع هنا هو الرّغبة العاجِزة بالتّظاهر بالعَظَمَة وقتها، إذ لم تكن هذه مجرد نظامٍ يُرضيه الصِّغَر؛ بل كان يتطلّبه أيضاً، كما هي الحال الآن.

كان لورنس ج. بيتر Laurence J. Peter وريموند هال Raymond Hull من أوائل من لاحظوا التطوّر التدريجيّ للتفاهة، إلى أن أصبحت نظاماً متكاملاً. كان جوهر أطروحتهما يتمثل في «مبدأ بيتر» the Peter Principle، الذي طوّراه بعد الحرب العالمية الثانية، والجليّ في وضوحه:(14) يتمثل هذا المبدأ في أن العمليّات النظاميّة تساعد الموظفين من فئة ذوي الكَفاءة الاعتياديّة على الترقّي حتى يصلوا إلى شَغلِ مواقع السلطة، مزيحين بذلك كل من المُنتمين لفئة ذوي الكفاءة العالية وفئة غير الأكفاء، معاً. لدينا مثلٌ واضحٌ لذلك فى المؤسسات التدريسيّة، إذ سوف تقوم المدارس بفصل المدرسين الذين يضربون صَفحاً عن الجداول والذين لا يعرفون شيئاً البتّة عن موضوع المقرر الدراسي، ولكنها، وعلى المنوال ذاته، سوف تقوم أيضاً بفصل المدّرس المتمرّد الذي يُغيّر من بروتوكولات التّدريس بعمقٍ بحيث يوصِل التلاميذ الذين يعانون من صعوبات التّعلم إلى مستوىً يُعادل ذاك الخاص بأفضل التلاميذ فى المدرسة. وبنفس الطريقة، سوف تقوم المدارس كذلك بفصل المدّرس الذي يُساعد طلبته على إنجاز عمل سنتين أو ثلاث خلال سنةٍ واحدةٍ فقط.

في هذه الحالة الأخيرة، فإن المدرّس - وفقاً لبيتر Peter وهال Hull - مُلامٌ من حيث إنه أربَك نظام الدّرجات التقليدي، لاسيّما وأنه بعمله هذا يتسبّب

(13) Gustave Flaubert, 'Préface aux Dernières chansons De Louis Bouilhet', http://flubert.univ-rouen.fr.

(14) Laurence J. Peter and Raymond Hull, *The Peter Principle: Why Things Always Go Wrong* (Cutchogue, New York: Buccaneer Books, 1969), p. 45.

في «اضطرابٍ كبيرٍ للمدرّس الذي سوف يقوم في السنة التّالية بالتعامل مع الأطفال الذين قاموا بتغطية المقرّر سلفاً».[15] وهكذا، فهذه هي العملية التي يتم من خلالها خلق ما يسمى بـ «الأميّ ثانوياً» the secondary illiterate،[16] وهو التّعبير الذي خرج به هانز ماجنوس إيزينسبرجر Hans Magnus Ezensberger والذي يُشير إلى طبيعة مُخرجات مؤسّسات التعليم، التي صارت تنتجها بالجملة. إن هذا الإنسان الجديد - «الأمي ثانوياً» - هو شخصٌ مكونٌ من معارف عمليّة، من دون أن تقوده معارفه هذه إلى مساءلة ما تستند إليه من ركائزٍ آيديولوجية.[17]

يصِف إينزينسبرجر Ezensberger «الأميّ ثانوياً» كما يلي: «إنه يعتبر نفسه عالماً بالأمور، يستطيع أن يتعامل مع التعليمات والرسومات التخطيطيّة والشبكات. أما الوسط الذي يتحرّك بداخله، فهو يحميه - مثل سورٍ عازل - من كلّ ما قد يخترق وعيه».[18] الباحثون التافِهون لا يفكّرون لأنفسهم: لأغراض الترقية المهنيّة، هم يفوِّضون قِواهم الفكريّة إلى سلطاتٍ أعلى تُملي عليهم استراتيجيّاتِهم. ومع ذلك، فالرّقابة الذاتيّة هى أمرٌ لازمٌ وينبغي أن تقدّم وكأنها دليلٌ على المكر.

(15) Laurence J. Peter and Raymond Hull, *The Peter Principle* (Cutchogue, New York: Buccaneer Books, 1969), 45.

(16) Hans Magnus Enzensberger, 'In Praise of the Illiterate', tr. Martin Chalmers, in *Zig Zag: The Politics of Culture and Vice Versa* (New York: The Free Press, 1997), p. 281.

(17) «الآيديولوجيا» Ideology هي علم الأفكار، المتعلّق بدراسة مجموع الاعتقادات الخاصّة بمجتمعٍ أو بطبقةٍ من الناس. وعندما تتعلق بمذهبٍ سياسيٍّ أو اجتماعي، فإن الآيديولوجيا تتمثل بتأييد الأعمال التي تقوم بها سلطة حاكمة، أو حزب، أو طبقة اجتماعية (فالماركسية، مثلا، هي آيديولوجيا). جبور عبدالنور، *المعجم الأدبي* (بيروت: دار العلم للملايين، 1984)، ص. 44. - [المُترجِمة].

(18) Enzensberger, 'In Praise of the Illiterate', p. 280.

منذ صدور كتاب «مبدأ بيتر» *The Peter Principle* فإن الميل إلى إقصاء غير التافهين صار يتأكّد بانتظام، ولكن الأمر قد وصل بنا اليوم إلى مرحلةٍ تتعدّى ذلك؛ لقد صارت التفاهة مطلوبةٌ بالفعل. لقد بلغ من الأمر أن علماء النّفس - الذين أصبحوا يشعرون أنهم في مكانِهم الطّبيعي عندما يكونون في كليّات التجارة - صاروا يقلِبون علاقات القيمة value relationships رأساً على عقب، فيُعرّفون أشكالاً معيّنةً من الكفاءة باعتبارها فائضاً من «السّيطرة على النفس» excess of self-control.

في هذا الصدد، فإن كريستي زو كوفال Christy Zhou Koval - التي تتولى التدريس في كلية Fuqua School of Business في جامعة Duke University، والكاتبة الرئيسيّة لمقال بعنوان «ثقل المسؤولية: التكلفة عبر-الشخصية للثقة العالية بالنفس» *The Burden of Responsibility: Interpersonal Costs of High Self-Control*[19] - تناقش أوضاع العمّال الذين يتحمّلون مَطالِب العمل العالية فيأخذونها على عواتقهم وتُقدّمهم باعتبارهم مسؤولين بشكلٍ ما عن الاستغلال الذي يتعرّضون له. إن الأمر مُناطٌ بهم لتعلّم كيف يحِدّون من نشاطاتهم فيضعونها في إطارٍ ضيق. فنزوع هؤلاء إلى العمل المُتقن وشعورهم الرّفيع بالمسؤوليّة هو أمرٌ يُنظر إليه باعتباره مشكلة، من حيث إنه يؤثّر على تحقيقهم لما يُسمى «بالأهداف الشخصية» خاصتهم، أي أهدافهم المهنيّة كما تعرّفها المؤسّسات التي ينتمون لها.

من هنا، فإن «نظام التفاهة» Mediocracy هو المصطلح الذي يشير إلى النظام التافه، الذى يتم نَصْبُه كنموذج. كان عالم المنطق ألِيكساندر زينوفييف Alexander Zinoviev[20] يصِف السّمات العامّة للنظام السوفيتي بألفاظٍ يظهر

---

(19) C. Z. Koval, M.R. Vandellen, G.M. Fitzsimons, and K.W. Ranby, 'The Burden of Responsibility: Interpersonal Costs of High Self-Control', *Journal of Personality and Social Psychology*, 108, 5 (May 2015), pp. 750-66.

(20) أليكساندر زينوفييف Alexander Zinoviev (1922-2006)، فيلسوفٌ روسيّ وكاتب وعالم اجتماع، كما كان يتعاطى الصحافة. - [المُترجِمة].

معها التّشابه مع نُظمنا الديموقراطيّة الليبراليّة. «إن التافه هو من ينجو» و«للتفاهة فرصةٌ أفضل في النجاح»، كما كانت شخصية الدهّان Dauber تقول في تأمّلاتها الواردة في رواية «المرتفعات المتثائبة» *The Yawning Heights*، وهي الرواية الساخرة التى نشرها زينوفييف Zinoviev عام 1976 تحدياً للسّلطات السوفيتيّة. كانت النظريّات التي خرجت بها الروايّة من خلال شخصيتيّ واهِنُ الأَعْصاب والوصوليّ تتضمن الآتي:

«أنا أتحدّث عن التفاهة، كأمرٍ معتادٍ وعام، ؛ ليس عن النّجاح فى مجال عملٍ معين، وإنما عن النّجاح الاجتماعى. هذان أمران مختلفان تماماً [...] فالمؤسّسة التى تبدأ بالعمل بطريقةٍ أفضل مما عداها سوف تَستقطِب الاهتمام لنفسها بالضّرورة. فإذا تم الاعتراف رسمياً بلعِبها لمثل هذا الدور، فإنها سُرعان ما تتحوّل إلى شيءٍ مزيفٍ أو إلى نموذجٍ اختباريٍّ تجريبيّ. ثم تبدأ فى التراجع بعدها، حتى تنحدر إلى محض خدعةٍ بصريةٍ تجريبية تافهة».[21]

ما يتبع ذلك إذن هو مجرد تقليدٌ للعمل، فلا يُنتج إلا نتائج موهومة، ليصبح الاختلاق قيمةً في حدّ ذاته. وهكذا، فإن نظام التفاهة يقودنا إلى تسليم مَلَكَة الحكم السليم إلى نماذجٍ اعتباطية arbitrary models مُسوّق لها من قِبَل السلطة. واليوم، تضمّ هذه الأعراض المَرَضيّة: سياسياً يوضّح لناخبيه وجوب التسليم لإرادة حَمَلَة الأسهم في وول ستريت Wall Street Shareholders؛ أستاذاً جامعياً يُقيّم الورقة العلميّة التي يقدّمها له طالبٌ لديه - عندما تكون قد تَجاوَزَت فذلكات العروض التوضيحيّة لبرنامج Power Point - باعتبارها «مُبالِغَةً في التّنظير أو في جانبها العلمي»، مُنتِجاً سينمائيّاً يُصمّم على إيكال دورٍ أساسيٍّ في فيلمٍ تسجيليٍّ لشخصٍ لا علاقة له بهذا الفيلم؛ أو خبيراً ما يثبت «عقلانيّته» من خلال الإطناب بشأن نموٍّ اقتصاديٍّ ذي طبيعةٍ غير عقلانيّة.

---

(21) Alexander Zinoviev, *The Yawning Heights*, tr. Gordon Clough (London, Sydney and Toronto: The Bodley Head, 1979), p. 279.

لقد كان زينوفييف Zinoviev واعياً سلفاً بقدرة العمل المُبهرَج على أن يكون ذا قوّةٍ نفسيّةٍ ذات قدرةٍ على تشكيل العقول:

«إن التّظاهر بالعمل لا يتطلّب سوى نتيجةً ظاهريةً - أو بالأحرى محض إمكانيةٍ لتبرير الوقت المُنقضى: فالتّحقق من النتائِج وتقييمها إنما يتمّ من قِبَل أشخاصٍ متورّطين فى هذا التّظاهر، مرتبطين به، وذوي مصلحةٍ فى استمراره».(22)

إن من يشتركون في هذه السُلطة يُظهرون ذات الابتسامة المتواطِئة. معتقدين أنهم أذكى من الجميع، هم يستمتعون بترديد عباراتٍ حكيمةٍ مثل «عليك أن تلعب اللّعبة». اللّعبة - وهو تعبيرٌ ذو غموضٍ ملائمٍ تماماً للفكر التافه - يتطلّب منك في عدة أوقات أن تَمْتَثِل بتزلّفٍ للقواعد التي ما أُرْسِيَت إلا لهدفٍ وحيدٍ هو شَغل موقعٍ هامٍ على رقعة الشّطرنج الاجتماعي، أو للتملّص من هذه القواعد بتعجرُف، مع الحِفاظ على المظاهر، من خلال أفعالٍ تآمريّةٍ تنحرف بنزاهة العمليّة.

إن تعبيراً ساذجاً مثل «لَعِب اللّعبة» هو مجرّد دهانٍ مُلطّفٍ لضمير اللّاعبين المُدلّسين. بعد هذا الأمر المُلزِم والباسِم: فإن شركات الأدوية تضمَن أن سرطان البروستاتا لن يُعالج إلا بكُلفةٍ كبيرة، رغم أن المرضى لا يُتوَقّع أن يواجهوا مشكلاتٍ جادةً إلا في سن 130 عاماً، والأطباء يُعطون أدويةً عديمة الجدوى لمرضىً لا يحتاجون إليها، مع معرفتهم أنهم سوف يكافأون عقدياً مع كل إجراءٍ طبيٍّ يتخذونه بهذا الصدد، وبذات الموقف المُخادع، فإن مأموري الضّرائب - المؤهّلين جيداً لضبط الأطراف المُتّهمة بالمخالفات الاقتصاديّة الكبرى - يُفضّلون مطاردة نادلات المطاعم اللاتي أغفلن التّصريح عما حصلن عليه من عطايا صغيرةٍ جرّاء خدمة الزبائن، وكذلك يحفَظ ضبّاط الشرطة

---

(22) Alexander Zinoviev, *The Yawning Heights*, p. 281.

التحقيقات بمجرد أن يُدركوا أنهم إنما يتّبعون أُناساً ينتمون إلى الدّائرة الضيّقة لرئيس الوزراء، والصّحافيون يُعيدون إنتاج ذات اللّغة المُغرِضة للتّصريحات الصُّحفية الصّادرة عن ذوي السُّلطة، وهم يعومون - مُغمَضي الأعين - في تيارات الحركات التاريخيّة التي يُفضّلون أن لا يفكّروا فيها.

ويتم إخضاع الشخص المؤهَّل جديداً لدرجة الأستاذ الجامعيّ لطقوس عبورٍ ترهيبيّة، initiation rites [23] مُصممّةٍ لجعله يفهم أن ديناميكيّات السوق لها الأولويّة على المبادئ الأوليّة للمؤسسة، وأن هذه المبادئ ينبغي التغاضي عنها: إذ إن «اللعبة» يمكن أن تشمل تحويل مراكز الرّعاية اليوميّة المُدارة بدعمٍ من الدّولة إلى أعمالٍ تجاريّةٍ غير مَعنيّةٍ بما يحدث للأطفال، تزوّد الموظفين بدورةٍ يتعلمون فيها كيف يخدعون بعضهم بعضاً كجزءٍ من علاقاتهم الشخصية، أو تسمح باللّعب على مشاعر الموظّف بعباراتٍ مثل «ما هويّتك إلا أحد الأصول التي تعود إلينا». جَمعيّاً، فإن «لَعِب اللّعبة» يعني التّظاهر بعدم الاكثرات بما إذا كنا نلعب الروليت الروسية Russian Roulette، [24] مراهنين بكل ما نملُك، أو مراهِنين بحياتِنا.

---

(23) «طقوس العبور» (و تسمى أيضاً «طقوس الاستهلال» أو «طقوس الابتداء») initiation rites هي مجموعةٌ من الأعمال، الممارسات أو الإجراءات التي قد تفرضها جماعةٌ ما على من يرغب في عضويتها، أو اللازمة لاعتبار شخصٍ ما قد انتقل من مرحلةٍ إلى أخرى. من ذلك، ما تفرضه بعض الجماعات العشائرية أو القَبَليّة على الشباب فيها كطقوسٍ ينتج عن اجتيازها إعلان انتقالهم من طور الطفولة إلى طور الرجولة، أو ما قد تتطلبه بعض المنظّمات السريّة من طالبي عضويتها (كالجمعيّات الماسونيّة masonic societies أو الأخويّات الجامعيّة fraternities). - [المُترجِمة].

(24) «الروليت الروسيّة» Russian Roulette هي لعبةٌ من ألعاب المقامرة الخَطِرة، القائمة على الشجاعة المتهوّرة. فيها، يتم وضع رصاصةٍ واحدةٍ في مسدّس، مع تدوير الأسطوانة بحيث لا يُعرف ما إذا كانت ستُطلَق أم لا، ثم يبدأ اللّعب بين شخصين يتناوبان الإطلاق بحيث يأخذ كل منهما المسدّس على التوالي ويصوّبه نحو رأسه ويقدح الزِناد، مع احتمال انطلاق الرصاصة - ومن ثمّ موته - في كل مرة. تنتهي اللعبة بوفاة أحد اللاعبين، مع استحقاق اللاعب الآخر للأموال محل المقامرة. - [المُترجِمة].

إننا نلعب فحسب، فالأمر مسلٍّ، خفيف الظّل، وليس بالحقيقي؛ إنه مجرد ادّعاءٍ كبير، ولهذا السبب فنحن نصخب بضحكٍ مُنحرِف. إن اللّعبة التي يُفترض بنا لعِبُها تُقدّم دائماً - مع غَمْزة - كحيلةٍ قد ننتَقِدُها إلى حدٍّ ما، ولكننا نقبل سلطتها رغم ذلك. وفي الآن ذاته، فإننا حريصون على عدم إظهار قواعد اللّعبة بجُملَتها، لأن هذه القواعد متشابكةٌ مع استراتيجيّاتٍ هي غالباً شخصيّةٌ واعتباطيّة، إن لم تكن تعسّفيةٌ أيضاً. في عقول من يظنّون أنفسهم أذكياء، فإن الخَتَل والخِداع يتمّ إعدادهما كلُعبةٍ مُضْمَرَةٍ على حساب من يرونهم مغفّلين. أن تلعب اللّعبة، رغم أنك قد تتظاهر بخلاف ذلك، يعني الاستسلام لقانون الجَشَع دون سواه. هذه الطّريقة بالتفكير تعكِس علاقتنا بالانتهازية من خلال تعريفها كشيءٍ غريبٍ عن الذات،[25] ولكنه مطلوبٌ من قِبَل المجتمع.

بطبيعة الحال، فإن «الخبير»، الذي يتعرّف غالبيّة أكاديميي الجامعات اليوم على أنفسهم فيه، يُمثل النموذج المركزيّ للتفاهة. إن تفكيره لم يكن بالأمر الخاص به قط، وإنما هو نظامٌ منطقيّ تُمليه مصالحُ خاصة، رغم أنه يتجسّد فيه. فوظيفة الخبير هي تحويل الاعتبارات الآيديولوجيّة والأفكار الصوفيّة إلى عناصر معرفيّة ذات مظهرٍ نقي. لهذا السبب، لا يمكننا أن نتوقع منه أن يقدّم لنا مُقترحاً قوياً أو أصيلاً، وهذا ما يأخذه عليه إدوارد سعيد Edward W. Said[26] في محاضرته التي ألقاها ضمن محاضرات ريث Reith Lectures السنوية التى

---

(25) «الذات» Subject هي فكرة تأمّلية قديمة، حيث يذهب الفكر الفلسفي - بشكل عام - إلى أن الذات هي ما يعارض «الظاهرة» Phenomenon؛ فالظاهرة هي تَصوّر المرء عن الشيء، في حين أن الذات هي الشيء نفسه. - [المُترجِمة].

(26) كان إدوارد سعيد Edward W. Said (1935-2003) مثقفاً بارزاً وأستاذاً جامعياً للغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا Columbia University في نيويورك، وله العديد من الكتب حول الأوضاع العربية وسياقها الكولونيالي، من أهمها «الاستشراق» Orientalism. كما كان مدافعاً قوياً عن القضيّة الفلسطينيّة في الوسطين الأكاديمي والسياسي. - [المُترجِمة].

أنتجتها قناة الـ BBC عام 1993.[27] فالخبير - هذا السفسطائيّ[28] المُعاصِر الذى يُدفع له لكى يفكّر بطريقةٍ معينة - لا يُسْتَحثّ بفضوليّة الهواة: إنه ليس مهتماً بما يتحدّث عنه، وإنما يتصرّف ضمن إطارٍ ميكانيكيّ بحت. وفقاً لسعيد Said «بصفةٍ خاصة، فإن الخطر الذي يتهدّد مثقف اليوم - في الغرب كما في بقيّة أنحاء العالم - لا يكمُن في الجامعة، ولا في الأحياء المُحيطة بالمدينة، ولا في التّسليع الشّنيع للصّحافة ودور النّشر، وإنما يكمن في موقفٍ عامٍّ شاملٍ سوف أسميه المهنيّة professionalism».[29]

لقد صارت هذه «المهنيّة» professionalism تُقدّم نفسها وكأنها اتفاقٌ ضمنيٌّ بين مُنتجي المعرفة والخِطاب العام من جهة وبين مُلّاك رأس المال من جهةٍ أخرى. في ظلّ هذا العقد، فإن الفئة الأولى - من دون أيّ التزامٍ روحيّ - تقوم بالتنسيق لمصلحة الفئة الثانية وبتزويدها بالمعلومات العلميّة والنظريّة التي تتطلّبها لإضفاء الشرعيّة عليها. بذلك، فإن إدوارد سعيد Edward W. Said يتعرّف، بداخل الخبير، على سِمات التفاهة: إن الخبير يتصرّف دائماً وفق «ما يُعتبر

(27) محاضرات ريث Reith Lectures هي مجموعةٌ من المحاضرات السنويّة التي تقدمها شخصيّات شهيرة، والتي تنظمها هيئة البثّ البريطانية BBC وتذاع من قِبَلها. بدأ البثّ الإذاعي لهذه المحاضرات منذ عام 1948، وهي تحمل اسم اللورد ريث Lord Reith الذي كان أول مديرٍ لهيئة بثّ BBC. على مرّ السنين، شارك في هذه المحاضرات العديد من ألمع الشخصيات وأبرز المفكرين. - [المُترجِمة].

(28) «السفسطة» Sophism هي منهجٌ فكريٌّ في الجدل، ظهر في بلاد اليونان القديمة بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، وهو يعتمد على الحجج العقلية المقبولة ظاهراً والمغلوطة واقعاً، التي تقصد إلى الإرباك الفكري بقصد الخلط. بذلك، يقدم الجدل السفسطائي حججاً تنطلق من مقدماتٍ صحيحةٍ وتنتهي إلى نتائج تبدو منطقيةً ولكنها ليست كذلك من حيث إنها لا تترتّب على المقدّمات بالضرورة (مثل القول بأن شبه الجزيرة العربية هي منطقة جغرافية حارة، وبما أن الصومال هي منطقة حارة، فهذا يعني أن الصومال تقع في شبه الجزيرة العربية). وقد كان بين الفيلسوف أفلاطون والسفسطائيين خصومات فكرية معروفة، قصد من ورائها إلى تعرية منهجهم الفكري هذا وتوضيح ألاعيبه للناس. - [المُترجِمة].

(29) Edward W. Said, *Representations of the Intellectual: The 1993 Reith Lectures* (New York: Vintage books, 1996, pp. 73-74.

سلوكاً مناسباً، مهنياً؛ فلا تُربك الأمور، ولا تشرد بعيداً عن النماذج والحدود المقرّرة، مع جعل نفسك قابلاً للتسويق، وقبل كل شيءٍ صالحاً للظهور، ومن ثمّ غير مثيرٍ للجدل، وغير سياسيّ، وموضوعيّاً».[30] لمن هم في مواقع السّلطة، فإن الإنسان التافه هو الشّخص المُعتاد الذي يستطيعون نقل تعليماتهم من خلاله، بما يسمح بترسيخ نظامهم.

ضمن هذا السياق الاجتماعي، فإن الفكر العام يُطوِّر، لا محالة، درجةً من الامتثال تركِّز - ويا للدهشة - على اللّحظة المتوسِّطة، المركزيّة، التي تُطرح باعتبارها برنامجاً سياسياً. إن الوسط the centre هو موضوعٌ للتمثيل الانتخابيّ الذي ينتمي الى حزبٍ واسعٍ ومُستعرِضٍ transversal،[31] ذي عناصر تأسيسيّةٍ كانت ستكون غير قابلةٍ للتمييز لولا التمائِم fetishes التي وصفها فرويد Freud[32] بأنها «فروقاتٍ صغيرة» small differences. إن ما يبدو من شِقاقٍ بداخل الحزب المُستعرِض هو مسألة رموز، لا ركائز. ومن المهم ملاحظة كيف أنه في أهم مؤسّسات السلطة - كالبرلمانات والمحاكم والمؤسّسات الماليّة والوزارات الحكوميّة وغرف الصّحافة أو المختبرات - سادت تعابيرُ مثل «التدابير المُتوازِنة» balanced measures، «الوسط السّعيد» *juste milieu*،[33]

---

(30) Edward W. Said, *Representations of the Intellectual*, p. 74.

(31) المراد هنا أن هذا الحزب مُشتركٌ بين كثير من القطاعات. - [المُترجِمة].

(32) كان سيغموند فرويد Sigmund Freud (1865-1939) طبيباً نمساوياً ورائداً للتحليل النفسي. عرف بالتجديد في هذا المجال من خلال تقديم أفكار غير معروفة فيه من قبل مثل الكشف عن اللاوعي، والرغبة الجنسية كدافع أولي، والتجديد في التقنيات العلاجية، وحلقات العلاج النفسي وتكوين الجمعيات التخصصية. له كتابات عديدة هامة، مثل «دراسات في الهستيريا» Studies on Hysteria، «موسى والتوحيد» Moses and Monotheism، «الطوطم والتابو» Totem and Taboo، «قلق في الحضارة» Civilization and its Discontent، وغيرها. - [المُترجِمة].

(33) «الوسط العادل» Golden Mean هي مفهومٌ أخلاقيٌّ قديم، يسمى باللاتينية *Aurea Mediocritas*. وقد وردت الإشارة إلى هذا «الوسط العادل» في قصائد الشاعر الروماني الشهير هوراس Horace (65 قبل الميلاد)، وتحديداً في قصيدته Odes, 2, 10، التي كانت

«التسوية» compromise، حتى أصبحت كالتمائم. لقد وصلنا إلى نقطةٍ ما عُدنا نستطيع معها مجرّد تخيّل مواقعٍ تحيد عن الوسط، وهي المواقع التي (إن وُجِدَت) كانت ستمكّننا من المشاركة في العمليّة الرفيعة القاصدة لإيجاد التوازن.

اجتماعياً، فإن الفِكر لا يمكن أن يوجد إلا في المرحلة التي تأتي قبل التوازن. وفيما يتكوّن هذا الفكر، فإنه يبدأ في موضعة نفسه ضمن حدود المُعتاد، لأن العقل، بنيوياً،[34] يُحَيّد بواسطة جملةٍ من الكلمات الوسطيّة، من ضمنها، صارت كلمة «الحوكمة» governance - رغم أنها أقلّ هذه الكلمات أهمية - شعاراً. إن حقيقة هذا النظام الوسطيّ المُتطرّف قاسيةٌ ومميتةٌ معاً، إلا أن تطرّفه هذا يُخفي نفسه تحت صورة «الطريق الوسط»، فيحملنا على أن ننسى أن التطرّف لا يقوم على حدود الطيف السياسيّ لليسار واليمين إلا حيثما يوجد التعصّب ضد كل ما هو غير مشابهٍ للذات. بذلك، فوَحْدَهُ التقليدي، الرمادي،

تدور حول الغاية الأخلاقية المتمثلة في الوصول إلى المنطقة الوسط الفاضلة بين نقيضين خاطئين (و هي فكرة ذكرها قبله العديد من الفلاسفة، وعلى رأسهم أرسطو). فالقاعدة الفلسفية في هذا الشأن هي أن «كل فضيلة إنما تقع بين رذيلتين، هما الإفراط والتفريط»، فبمقدار ما يكون الفعل أقرب للوسط منه إلى أحد الطرفين يكون فعلاً فاضلاً، أما قربه من أيٍّ من الطرفين فيجعل منه مرذولاً (فالإنفاق لا يستحيل كرماً - أي فضيلة - إلا إذا وقع في المنتصف بين طرفين، هما البخل والإسراف). كثير من الكتابات العربية يشير إلى هذا المفهوم تحت عنوان «نظرية الأوساط». - [المُترجِمة].

(34) رغم أنه يصعب الخروج بتعريفٍ محدّد لها، فإن «البنيوية» Structuralism هي اتجاهٌ فكريٌّ واسعٌ يتضمن الكثير من النظريات، ذاع في مجال علم اللغة والنقد الأدبي ابتداءً، ومنه انتشر إلى كثير من الحقول المعرفيّة. والبنيوية - بشكلٍ عام - مقاربةٌ تقوم على أساسٍ من فكرة الكليّة أو المجموع المنتظم، حيث تذهب إلى أن كلّ ظاهرةٍ من الظواهر الإنسانية تشكل «بنية» (structure)، فتتكون من جملةٍ من العناصر المتماسكة أو المتضامنة، يرتبط كل عنصرٍ فيها بالعناصر الأخرى، فلا يتمتع بأية دلالةٍ إلا ضمن النطاق العام لهذا الكل. وبذلك، فإن البنية هي النظام المنسّق الذي تتّحد كل أجزائه المتضامنة وفق رابطةٍ تجعله متفاعلاً بعضه مع بعض، بحيث يستند كل هذه الأجزاء إلى الآخر لتشكل في مجموعها كلاً واحداً. - [المُترجِمة].

الاعتيادي، المُعاد إنتاجه والتصريحات الفارغة التي تتناول ما هو بديهيّ هو ما يُسمَح به.

تحت رعاية التفاهة: يشنق الشّعراء أنفسهم في زوايا شققهم الفوضويّة، يقدِّم العلماء ذوو الشَّغَف إجاباتٍ عن أسئلةٍ لم يسألها أحد، يبني الصناعيّون اللّامعون معابد خياليّة، فيما يناجي العِظام من راسمي السّياسات الكبرى أنفسهم فى أقبية الكنائس. هذا هو النظام السياسيّ للوسط المتطرّف extreme centre. إن سياساته لا تجسّد موقعاً محدّداً على مِحور اليسار-اليمين بقدر ما تعبّر عن قمعٍ لهذا المحور، الذي يتم استبداله بمقاربةٍ وحيدةٍ تدّعي فضائل الحقيقة والاضطرار المنطقي. تُكسى هذه المناورة بكلماتٍ فارغة، بل أسوأ من ذلك، فإن السلطة تُعرَّف بالكلمات التي تشعر نحوها بالقدر الأكبر من الرعب: الابتكار، التعاون، الجَدارة، والالتزام. يتبع ذلك أن كل من لا يُشارك فى هذا الفِكر المُدَلِّس سوف يُواجَه بالنّبذ والإقصاء، وهو أمرٌ سوف يتم، بطبيعة الحال، بطريقةٍ مبتذلةٍ تقوم على الإلغاء، الإنكار، والرفض. إن العنفَ الرمزيَّ من هذا القبيل هو أمرٌ مُثبت.

وبعد، فإن التفاهة تشجّعنا، بكل طريقةٍ ممكنة على الإغفاء بدلاً من التفكير، النّظر إلى ما هو غير مقبولٍ وكأنه حتميّ، وإلى ما هو مُقيتٌ وكأنه ضروري: إنها تُحيلنا إلى أغبياء. فحقيقة أننا نفكّر بهذا العالم باعتباره مجموعةً من المُتغيّرات المتوسّطة average variables هو أمرٌ مفهوم، وأن بعض الناس يشابهون هذه المتوسّطات إلى درجةٍ كبيرةٍ هو أمرٌ طبيعي، ومع ذلك، فإن البعض منا لن يقبل أبداً بالأمر الصامت الذي يطلب من الجميع أن يصبحوا مماثِلين لهذه الشخصيّة المتوسّطة.

لقد فَقَد تعبير «نظام التفاهة» mediocracy المعنى الذي كان له في الماضي، عندما كان يصِفُ قوّة الطبقة الوسطى، إذ صار الآن يعني سيطرة الأشخاص التافهين، باعتبارها حالة سيطرة خلقتها الأشكال التافهة ذاتها، حالة سيطرة

تُرسخ هذه الأشكال باعتبارها عملةً للمعنى وأحياناً مفتاحاً للنجاة، إلى درجة أن من يأملون بالأفضل ويدَّعون التفوق صاروا يمتثِلون للكلمات الفارغة التي يخلقها «نظام التفاهة» هذا.

الفصل الأول

«المَعْرِفَة» والخِبرَة

يتحدث الصحافي الأمريكي كريس هيدجيز Chris Hedges مباشرة، فهو لا يحوم حول الموضوع عندما يقول إن الأكاديميين هم المسؤولون عن عللنا الاجتماعية. فكلما حاولنا فحص أسباب مخاطرنا الجَمْعيّة درسناها ونحن: مقطوعو الصلة بالعالَم، متخصّصون في مجالاتٍ معرفيةٍ فرعيّةٍ متناهية الصغر، فاقدون للقدرة على التفكير النقديّ، مهووسون بالتطوّر الوظيفيّ، وموالون لشبكاتنا الاجتماعية من الزملاء التي تبدو إلى القبائل أقرب. فما تمّ العمل عليه في الجامعات من أبحاثٍ ومن تدريبٍ هو من ضمن العوامل التي خلقت مشكلاتٍ مثل: الأزمة الإيكولوجية الحالية ecological crisis، تباين الدخل المُسبّب للإقصاء وطنياً وعالمياً، اعتمادنا على الوقود الأحفوريّ fossil fuels، الاستهلاك المُتزايِد، التقادُم المُخطّط له planned obsolescence،[1] الطريقة

(1) «التقادم المُخطّط له» planned obsolescence هو ظاهرةٌ اقتصاديّةٌ تتعلّق بالتخطيط الإنتاجيّ لدورة حياة المُنتج الاستهلاكي، بحيث يتم طرح هذا المُنتج في نقاط البيع السوقيّة لفترةٍ محدّدةٍ من الزمن، ثم استبداله بمنتجٍ استهلاكيٍّ آخر يؤدي نفس وظيفته، عن طريق وقف تسويق الأول أو التوقف عن إنتاج قِطع غيارٍ له أو طرح بديلٍ مطوّرٍ عنه، وذلك لحمل المستهلكين على تغييره وشراء البديل الجديد، رغم كون الأول مازال صالحاً للاستعمال. تبدو هذه الظاهرة أوضح ما يكون في مجال الأجهزة التقنيّة وطُرُز الملابس (الموضة). انظر:

J. Longmuss and E. Poppe, 'Planned obsolescence: Who Are Those Planners?', PLATE Conference, Delft University of Technology, 8-10 November 2017.

يُذكَر أن «التقادم المُخطّط له» planned obsolescence هو ممارسة مُجَرّمة في بعض البلدان.

التي تم بها قلبُ الثقافة رأساً على عقِب إلى أن تحولت إلى مجرّد صناعةٍ للترفيه، استعمار العقول من قِبَل الإعلان التجاريّ، سيطرة نظام التمويل الدوليّ على الاقتصاد، وعدم استقرار هذا النظام. بالنهاية، أليس أعضاء هيئة التدريس في الجامعات والعاملين في الأقسام العلمية والمعامل هم «النخبة» elites؟ ألا يقوم الرياديّون من صُنّاع القرار وطواقمهم بتشكيل العالم الذي نعيش فيه وتحديده من خلال المعارف المُتحصّلة أو المُطوَّرة في الجامعة، والمُدَعَّمَة بالشهادات المُبهِرة؟

في كتابه «إمبراطوريّة الخيال» *The Empire of Illusion*، يُصِرّ هيدجيز Hedges على أن هناك سبباً جديّاً للقلق، لأن «جامعات النخب قد قامت بنبذ كل نقدٍ ذاتي، فهي ترفض مساءلة هذا النظام القائم على التبرير الذاتيّ self-justifying system. فبداخل هذه المؤسسات، ليس هناك ما يهمّ إلا المنظّمة، التكنولوجيا، الترقيات الشخصيّة، ونُظُم المعلومات».[2] لقد أصبحت الجامعة أحد مكوّنات جهاز اليوم الصناعيّ، المالي، والإيديولوجيّ؛ هذه هي الطريقة التي تستطيع من خلالها أن تدّعي لها مكاناً ضمن «اقتصاد المعرفة» knowledge economy. إذ ترى الشركات الكبرى الجامعة كجهةٍ ذات تمويلٍ حكوميٍّ مزودة بما تحتاج إليه تلك الشركات من عاملين ومعارف متقدّمةٍ. فمقابل 500 مليون دولار، مثلاً، يقوم معهد الطاقة والعلوم الحيوية Energy Biosciences Institute في جامعة بيركلي UC Berkley بتزويد شركة بريتيش بتروليوم British Petroleum

---

فقد أصدرت فرنسا مؤخراً قانوناً يقرّر اعتباره جريمة يعاقب عليها بالسجن والغرامة. كما أنه بموجب هذا القانون، تلتزم الشركات الفرنسية بإبلاغ المستهلكين حول المدد التي ستكون قطع غيار المنتجات التي اشتروها متوفرة خلالها، وذلك تحت طائلة الغرامة أيضاً. - [المُترجِمة]. انظر:

Homa Khaleeli, 'End of the line for stuff that's built to die?', *The Guardian*, 3 March 2015.

(2) Chris Hedges, *Empire of Illusion: The End of Literacy and the Triumph of Spectacle* (Toronto: Alfred A. Knopf Canada, 2009), p. 90.

BP - بالمعدّات ونتائج أعمال الباحثين. ويختم هيدجيز بأن «شركة BP يمكنها أن تغلق مركزاً بحثياً آخر، فتنتقل منه إلى مركزٍ مدعومٍ بالمال الحكوميّ».[3] في كل من الولايات المتحدة وكندا - ولا شك أن الفكرة سوف تكتسب قبولاً في أوروبا قريباً - تُسمّى الجامعات باسم روكيفلير Rockefeller،[4] وتعرِض مباني الحرم الجامعي اسم مونسانتو Monsanto،[5] وتحمل كراسي البحث العلمي

---

(3) Hedges, *Empire of Illusion*, pp. 93-94.

(4) عائلة روكيفلير Rockefeller الأمريكيّة هي عائلةٌ تجاريةٌ بارزة، عمِل أفرادها في مجال استخراج النفط في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فكوَّنوا ثروة كبيرة منه عن طريق شركة Standard Oil التي تم تأسيسها عام 1870، والتي من خلالها سيطرت هذه العائلة على الحصّة الأكبر من صناعة تكرير النفط في الولايات المتحدة. كما كانت لعائلة روكيفلير Rockefeller استثماراتٌ هامة في قطاعيّ الصّناعة والصيرفة. وقد انتقل بعض أفرادها إلى العمل السياسي، وما زالت لها يدٌ طويلة في قطاع المال والاستثمار، تمكّنت معه من السيطرة على بنك تشيس مانهاتن Chase Manhattan Bank (تم تغيير اسمه إلى بنك تشيس Chase Bank الآن)، والذي يُعتبر واحداً من أهمّ البنوك في الولايات المتحدة الأمريكيّة. - [المُترجِمة].

Chernow, Ron, *Titan: The Life of John D. Rockefeller, Sr*, 1999, Vintage Books, Random House Publishing.

(5) مونسانتو Monsanto هي شركة عملاقة متعدّدة الجنسيات، تعمل في مجال التكنولوجيا الحيوية الزراعية bio-agricultural farming، وتعد واحدة من أكبر أربع شركات المنتجة للبذور المُعدّلة جينياً والمصمّمة لمقاومة أفضل لكل من الآفات الطبيعية والمبيدات الحشرية والأنواء الجوية، وذلك بهدف تحسين إنتاجية المحاصيل الزراعية (الشركات الثلاث الأخرى هي «نوفارتيس» Novartis و«دوبون» Dupont و«أفنتيس» Aventis). وشركة مونسانتو Monsanto مسؤولة عن إنتاج 90 % من العضويات المعدلة جينياً في العالم (لا سيما الذرة وفول الصويا ومشتقاتهما)، ويقوم عملها على استخراج وفصل الجينات المقاومة للبكتيريا الضّارة بهذه الزروعات، ثم زرعها في الحمض النووي للبذور المختلفة. وبعدها، تسجل شركة مونسانتو Monsanto براءة اختراع لذلك، وتحتفظ بحقها الحصري عليه، مما يعني أن المزارعين الراغبين في الاستفادة من هذه البذور المعدلة وراثياً يكون عليهم التعاقد مع الشركة، وفق شروطٍ عقديّةٍ صارمة، من أبرزها منع المزارع المتعاقد من الاحتفاظ بالبذور لسنةٍ أخرى، وكذلك إلزامه بعدم استخراج بذور من محصولٍ حاليٍّ لاستخدامها في موسمٍ زراعيٍّ قادم. ولضمان الالتزام بذلك، فقد تعاقدت الشركة مع شركة تحقيقاتٍ خاصةٍ لهذا الغرض، هي شركة «بينكرتون للتحقيقات» Pinkerton Investigators (أوالشرطة

اسم تكساس إنسترومنتس Texas Instruments،[6] والفصول التي كانت تعرف بالأرقام سابقاً صارت الآن تُعرَف باسم برايس ووترهاوس كوبرز Price Waterhouse Coopers،[7] وتُسمّى المِنَح بالاسم المُخَلَّد لراعيها، بوش Bosch.[8]

إن علاقة الخضوع هذه، التي صارت تربط الجامعة بعملائها الذين يشترون عقولها المُنتِجة بشكلٍ دوريٍّ، هي من طبيعةٍ ما كان ماكس فيبر Max Weber

---

الجينيّة Gene police، كما يسميها المزارعون). وقد أدت هذه الممارسة إلى الإضرار بكثير من المزارعين، سواء من تعاقدوا مع شركة مونسانتو Monsanto (لأن المزارع يخضع بذلك للشركة التي اعتمد على بذورها من حيث ما تفرضه من شروطٍ قاسيةٍ وأسعارٍ مبالغٍ فيها) أو من اختاروا الزراعة التقليديّة (لأن البذور التي تنتجها شركة مونسانتو Monsanto تتميز بقابليةٍ عاليةٍ للتطاير، ومن ثم التغلغل في تربات حقولهم من دون علمٍ منهم أو رغبة، مما يعرّضهم للمسؤولية. هذا، ناهيك عما يعنيه ذلك من تأثر المحاصيل بهذه البذور لسنوات مقبلة). لقد بلغ من الحذر العالمي المتزايد من ممارسات هذه الشركة أن بعض الدول - مثل البيرو والمجر - منعت مزارعيها من استيراد البذور المُعدَّلة وراثياً للسنوات العشر المقبلة، إلى أن يتم إجراء الدّراسات العلميّة الكاملة حول الأثر الحقيقيّ لهذه البذور. بشكل عام، انظر: جيريمى ريفكين، *عصر الوصول*، ترجمة صباح صدّيق الدملوجي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009). - [المُترجِمة].

(6) شركة تكساس إنسترومنتس Texas Instruments Inc. هي شركة أمريكية كبرى، تمارس نشاطاً ضخماً في المجال التقني، ومقرها في دالاس، تكساس، الولايات المتحدة.- [المُترجِمة].

(7) برايس ووترهاوس كوبرز Price Waterhouse Coopers - PWC هي شركة متعدّدة الجنسيات ذات نشاطٍ مهني، يقع مقرها في لندن، المملكة المتحدة. يعود تاريخ إنشاء الشركة إلى القرن التاسع عشر، وهي تعد واحدة من الشركات العالمية الأربع الكبرى المتخصصة في مراجعة الحسابات (الثلاث الأُخَر هي شركات هي «ديلويت» Deloitte، «إرنست ويونج» Ernst & Young، و«كي بي إم جي» KPMG). - [المُترجِمة].

(8) بوش Bosch هي واحدة من كبريات الشركات الصناعية الألمانية، وهي شركة قابضة لحوالي 350 شركة أخرى، ويمتد نشاطها في حوالي 150 بلداً، وذلك في عدة مجالات، أبرزها هي صناعة قطع غيار السيارات، السلع الاستهلاكية، الطاقة وتكنولوجيا البناء. - [المُترجِمة].

ليتخيلها،[9] رغم أنه كان يرفض - منذ مائة سنة - التفاهة التي كانت الجامعة تغرق فيها من خلال تسليم نفسها لإغراء العلاقات التجاريّة ذات الطبيعة الاختراقية. آنذاك، كان الزبائن هم الطلبة ومحتوى المقرّر هو السّلعة التي يُفترض أن تلاقي قبولاً لديهم، وكان المدرّسون على استعدادٍ للتفاوض لجذب الطلاب المتردّدين بين المعاهد المتنافسة. لقد أدى ذلك إلى إفساد العلاقة بالبحث العلمي، حتى أن خيارات المعاهد، وفقاً لفيبر Weber، صارت محكومةً بالحظ. وهكذا، فإن الباحث - المدفوع بشغفٍ استبدادي، معهدٍ قوي، خيالٍ واسع وحبٍّ للعمل - صار لا يمكنه أن يأمل بالنّجاح المهنيّ إلا إذا أظهر مجموعةً مختلفةً من المهارات التي تمكّنه من الملاحة عبر الألغاز الغامضة لمعهده.

من خلال الخروج بشيءٍ جوهريٍ ما من هذه «الظروف الخارجيّة على مهنة الإنسان الأكاديمي the academic man's vocation» كما وصفها فيبر عام 1919، كانت المؤسسة تشجّع التفاهة:

> «سيكون أمراً مُجحِفاً أن نجعل الدونيّة الشخصيّة لأعضاء هيئة التدريس أو وزارات التربية مسؤولةً عن حقيقة أن كثيراً من التفاهات يلعب دوراً هاماً في الجامعات بلا شك. إن سيطرة التفاهة هي أمر

---

(9) ماكس فيبر Max Weber (1864-1920) هو عالم اقتصادٍ واجتماعٍ وسياسيٌّ ألماني. درس الحقوق من حيث الأصل، ولكنه ترك بصمات كبرى في مجالات الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والنقد والإدارة واللاهوت وعلم الجمال. تمثل دوره الأبرز في مؤلفاته الهامة في علم الاجتماع، حتى صار يعد واحداً من العلماء المُؤسِّسين لهذا الحقل العلمي، إلى جانب كارل ماركس Carl Marx وإميل دوركهايم Émile Durkheim. في دراساته، كانت الفكرة المركزيّة لدى فيبر Weber تدور حول العلاقات التبادليّة بين البِنى الثقافية من جهة (لا سيما القانونية والإدارية والسياسية)، والنشاط الاقتصادي من جهةٍ أخرى. من أبرز مؤلفاته: «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*، «كتابات في السوسيولوجيا» *Essays in Sociology*، و«الاقتصاد والمجتمع» *Economy and Society*. - [المُترجِمة].

يُعزى إلى قوانين التعاون البشري laws of human cooperation، لا سيما تعاون الأجهزة المختلفة».[10]

لقد كان ما لاحظه فيبر Weber أمراً لا يُذكر بالمقارنة بما نشهده الآن. فاليوم، ما عاد الطلبة مُستهلِكين للتدريس وللشهادات المُقدّمة في الحرم الجامعي؛ لقد صاروا هم أنفسهم سلعاً. فالجامعة تبيع ما تصنعه منهم إلى زبائنها الجُدُد، وتحديداً، إلى الشركات وغيرها من المؤسسات المُموّلة لهذه الجامعة. كان رئيس جامعة مونتريال *Université de Montréal* يؤمن أنه إنما يُوضّح مُسلمةً عندما صرّح في خريف عام 2011 بأن «العقول ينبغي أن تُفَصّل وفق احتياجات سوق العمل». صحيح؛ لقد كانت الجامعة تُدار، آنذاك، من قبل مدراءٍ من أوساط البنوك (البنك الوطني National Bank)، شركات الصيدَلة (شركة جان كوتو Jean Coutu)، الصناعة (SCN Lavalin)، الطاقة (Gas Metro)، والإعلام (باور كوربوريش Power Corporation وترانز كونيتنتال Transcontinental) الذين كانت لهم مقاعدٌ في مجالس صنع القرار فيها وفي لجانها ذات السطوة. ومع ذلك، فقد كانت جامعة مونتريال *Université de Montréal* ممولةً من قِبَل الدولة إلى درجةٍ كبيرة، لذلك فلا شكّ أنه كان من الغريب لخطّة العمل الخاصة بمعبد المعرِفة هذا أن تُجسد - فجأةً - أهدافاً تشابه أهداف مجرد شركة بث عام public broadcaster، فقد كان البعض مندهشاً من التشابه بين إعلان رئيس الجامعة هذا وتلك الملاحظة الشهيرة لباتريك لو روي Patrick le Roy، المدير التنفيذي لشبكة TFI التلفزيونية[11] التي أبداها عام 2004، حين قال «إن ما نبيعه لشركة كوكا كولا Coca-Cola هو الوقت المُتاح للدماغ البشري».

---

(10) Max Weber, 'Science as Vocation', I From Max Weber: *Essays in Sociology*, ed. And tr. H. H. Gerth and C. Wright Mills (New York: Oxford University Press, 1946), pp. 129-56.

(11) شبكة TFI هي قناة تلفزيونية فرنسية. - [المُترجِمة].

وقد سجل ليبيرو زوبيرولي Libero Zuppiroli ظاهرةً مماثلةً في سويسرا. فحين تحوّلت مدرسة لوزان للعلوم التقنية *École polytechnique de Lausanne* إلى المعهد السويسري للتكنولوجيا في لوزان Swiss Institute of Technology Lausanne، لاحظ بعدها فيضاً من التخصّصات الغريبة التي ظهرت فجأةً باسم الابتكار، التميّز، والإنتاجية. بطبيعة الحال، كانت هذه التخصّصات مكرّسةً تماماً لمصلحة جهات الأعمال. وقد تمثّلت واحدةٌ من هذه التخصّصات بالدراسات الماليّة العصبيّة neurofinance، حيث أوضح زوبيرولي في كتابه *La bulle universitaire* الصادر عام 2010، أن هذا القطاع البحثيّ الجديد إنما يقصد إلى «اكتساب فهمٍ أفضل لعمليّات التفكير التي تقود إلى إبرام الصفقات التجارية».[12]

وتُطبّق المؤسّسات معاييرَ مختلفةً لتقييم الجامعات، بما في ذلك المعايير الكميّة quantitative (منشورات أعضاء هيئة التدريس، الدرجات العلمية المُتَحصّلة، نسب التعيين)، المعايير «الفيتيشية fetishistic»[13] (تصنيف الدوريّات الأكاديمية، الموضوعات الدارِجة، شبكات العلاقات الشخصية، المنشورات باللغة الإنجليزية)، والعوامل المتعلّقة بالدعاية publicity (الرعايات، الشراكات، الحضور الإعلامي). هذا الضرب من «الحوكمة» governance للجامعة ليس بمجرد موقفٍ فارغ: إن له أثراً مُفسِداً بشكلٍ عميق. يُعطي السوسيولوجي جيل جانيه Gilles Gane، من كيبيك، المثال التالي:

---

(12) Libero Zuppiroli, *La bulle universitaire Faut-il poursuivre le rêve américain?* (Lausanne: Éditions d'En Bas, 2010).

(13) كلمة «فيتش» Fetish تشير إلى الوثن المعبود الذي عادة ما يكون موضع اعتقاد لكثير من الشعوب البدائية، التي تؤمن بقدراته السحريّة أو الغيبيّة على الحماية أو التوفيق أو الشفاء، كما قد تشير الكلمة إلى تميمةٍ أو تعويذةٍ تؤدي ذات الغرض، والاثنان يُستخدمان في الطقوس الجماعيّة عادة. يذكر أن سيغموند فرويد Segmund Freud، رائد التحليل النفسي، قد وضع عام 1927 دراسةً حول الموضوع بعنوان Fetishism، مع ربطه بعناصر اللاوعي لدى الإنسان - [المُترجِمة].

«إنني إن اخترعت طريقةً لصنع طماطم مربّعة، ورأت شركةً ما أنها عظيمةٌ فاشترتها مني لأنها ملائمةٌ لشطيرةٍ مربّعة، فهل أكون قد ساهمت في التعليم بذلك؟ لا. إنني بذلك أكون قد ساهمت فقط في تعليم الشخص الذي سيعمل في صناعة الشطائر المربّعة للشركة التي موّلت البحث الذي تمّ على هذه الطماطم».[14]

أن تفقِد عقلَك

يُصبح التفكير تافهاً حين لا يهتمّ الباحثون بالملاءمة الروحيّة لمُقترحاتهم البحثية. كان جورج سيميل Georg Simmel،[15] وهو مفكرٌ ألمانيٌّ مبكرٌ آخر عاش في أوائل القرن العشرين، كان يتنبّأ بأن مصير الباحثين الذين يستمرون باتباع هذا المسلك سوف يكون مأساوياً. حينما يُوظَّف لخدمة الاقتصاد، فإنه يبدو محتماً على الفِكر أن يُجسّد، في واقعه، عيوب مؤسّسته. إذ على الفكر أن ينتج المعرفة بغضّ النظر عن التكلفة وعن أثر هذه المعرفة في العالَم: إن النظريّة ذاتها يعتورُها التضخّم. تصفُ مقالة سيميل، «فكرة وتراجيديا الثقافة» The Fate and Tragedy of Culture،[16] تصِفُ إنتاجاً حتمياً يبلغ من قوّته أن العقلَ لا يعود قادراً معه على الفهم أو الكلام. بتسارعها الخارج عن السيطرة، تُنتج الآلة

---

(14) Lisa-Marie Geravais, 'Malade, L'université', *Le Devoir*, March 10, 2012.

(15) جورج سيميل Georg Simmel (1858-1918) هو أستاذٌ جامعيٌّ وفيلسوفٌ وعالم اجتماعٍ ألماني. له اهتمام خاص بتحليل الحياة الحَضَريّة في فترات التحوّل من القرية إلى المدينة الحديثة metropolis في بدايات القرن العشرين، وما اختلط بها من تطوّر التصنيع، ثم ما نتج عن ذلك من مظاهر عدّها سلبيّة، كالاستلاب والعزلة والاستقلال الفردي والعقلنة والفكر الحسابي وتقسيم العمل والاقتصاد النقدي. - [المُترجِمة].

(16) Georg Simmel, 'The Concept and Tragedy of Culture', tr. Mark Ritter and David Frisby, in *Simmel on Culture: Selected Writings*, ed. David Frisby and Mike Featherstone (Landon, Thousand Oaks and New Delhi: SAGE Publications, 1997), pp. 55-75.

القيمة فقط حتى تُرضِي القدرة الإنتاجية للنّظام، الذي لم تعد له أيّة علاقةٍ بفعل التفكير الفرديّ. والسبب الأوّل لذلك هو الوفرة المُتعاظِمة للعناصر الموضوعيّة التي تعمل كوسيطٍ ناقلٍ للفكر: الكتب، التقارير، الأعمال المستندة إلى النظريّات، المفاهيم، والمعلومات الواقعية. هناك الكثير مما يجب أخذه بالاعتبار هنا، حتى أن العقل يجد نفسه مُثقلاً وهو يمضي في الطريق الذي يقوده إلى إنتاج أي شيء. غارقاً في مدٍّ من المنشورات العلمية، يخشى العقل أنه لن ينتج إلا محض عنصرٍ آخر يزيد من فداحة الظاهرة.

لقد ابتعدنا كثيراً عن عملية المعرفة the process of knowing، أي العملية التي نكتشف بمقتضاها وعينا وما هو قادرٌ عليه من خلال «سعادة الشخص المُبتكِر بعمله، صغيراً كان أم كبيراً». فعندما يتعلق الأمر بالشخص المُبتكِر، فإنه، وفقاً لسيميل Simmel:

> «بالإضافة إلى تفريغ توتّره الداخلي، إثبات القوّة الشخصيّة، والرضى الناجم عن إشباع حاجة، هناك أيضاً ضربٌ من الرضى الموضوعيّ بحقيقة أن هذا العمل صار الآن موجوداً، وأن عالَم الأشياء ذات القيمة أصبح الآن أكثر غنىً بهذه القطعة الخاصّة».[17]

ما عادت عملية الوحيّ الهيغليّ Hegelian inspiration[18] التي يصفها

---

(17) Simmel, 'The Concept and Tragedy of Culture', p. 60.

(18) نسبة إلى الفليسوف جورج هيغل Georg Hegel (1770-1831)، وهو من كبار الفلاسفة الألمان ومن مؤسّسي الفكر المثالي الألماني. كان أثره الأكبر يتمثل في ترسيخ أسس «المنهج الجَدَليّ» Dialectics الذي يتمثل في «الأطروحة» thesis (الفكرة الأصل التي تمثل منطلق الجدل)، «الأطروحة النقيضة» antithesis (أي التعارض أو التنازع بين قانونين أو مبدئين فلسفيين عند تطبيقهما عملياً، شريطة أن يكونا قائمين، أصلاً، على مقدمات مُتعادلة في الصّحة)، ثم «التوليف» بين الاثنين synthesis. ويُنظر إلى هيغل Hegel باعتباره آخر الفلاسفة الكبار، ولأفكاره أثرٌ ملموسٌ في كثير من أعمال الفلاسفة الذين أتوا بعده. كان كتابه «فينومينولوجيا الروح» *Phénoménologie de l'esprit* واحداً من أهم أعماله وأشهرها. - [المُترجِمة].

سيميل Simmel هذه مُمكِنة. لقد وصلنا إلى درجة الحمولة القصوى: صار الطريق نحو تحقيق الفِكر مسدوداً. لقد انتصرت النّزعة الإنتاجيّة وما يصاحبها من عملياتٍ تراكميّة. فعمل العقل، هذا الذي يتطلب استيعاباً بطيئاً وحميماً، قد تمت إعاقته بواسطة مراجعِ متكاثرةٍ إلى حدٍّ مُديرٍ للرؤوس. صارت التفاهة غالبة. والباحث - الذي يشلّه ما يواجه من جبل المراجع التي تسبقه، رغم الصِّغَر اللامتناهِ للسؤال الذي يُتوقّع منه البحث فيه - صار يمرّ بتجربةٍ يفقد فيها عقله.

لا يبدو أن هنالك طائلاً وراء التأمّل فيما فعله القدماء من قبلنا من أجل إضافة قطعة عملٍ جديدةٍ إلى ثقافةٍ قائمةٍ سلفاً. عوضاً عن ذلك، نحنللا متناهِطةإلى الم موجوداً، ب مكتب ترجمة بالترجمة الكاملةجاة، رى ما هو غير مقبول لذي يتم استبداله بمقاربه وحيدة تدعي فضائل ا نرى جحافلَ من المُخربِشين الراضين بأخذ دورٍ في إنتاج معارفَ مُتسلسِلة، دونما اهتمام بالمعنى العميق الذي يمكن لعملهم أن يجسّده. يعطي سيميل Simmel مثالاً لغوياً معروفاً، يطرح للنقاش مسألة هذا القدر العظيم من المعارف الخَليّة من أيّ منظور:

«من ناحية، طُوِّرَت التِقنيّات اللغوية philological techniques إلى درجةٍ غير مسبوقةٍ من التنقيح والكمال. ولكن، من ناحيةٍ أخرى، فإن عدد الأشياء ذات الأهمية الحقيقيّة للثقافة الذكيّة التي تتطلّب مُعالجتها بهذه الصورة لا تزداد بذات المعدّل. وبذلك، فإن المجهود اللغويّ كثيراً ما يُصبح عِلماً للمجهريّات، تحذلُقاً ينصبّ على معالجة ما هو غير ضروريّ: مثل فهمٍ للمنهج ولكنه عقيمٌ من حيث إنه يقود إلى الفراغ، أو قاعدةٌ موضوعيةٌ ولكنها تعمل بطريقٍ مستقلٌ باستمرارٍ فلا يلتقى بالثقافة باعتبارها انجازاً حياتياً. بهذه الطريقة، فإن ما يمكن تسميته بالمعرفة غير اللازمة هو أمرٌ يتراكم في العديدِ من مناطق البحث والعلوم... إن الإمداد المُتعاظم من الأشخاص الراغبين في الانخراط بالإنتاج الثقافيّ، والذين غالباً ما يكونون موهوبين في هذا الشأن - وهو إمدادٌ تدعمه عواملُ اقتصاديّة - قد قاد إلى تقييمٍ ذاتيّ

لجميع الأعمال البحثيّة التي لا تعدو قيمتها أن تكون محض شيءٍ قد تواضَع الناس عليه a convention؛ شيءٌ أقرب ما يكون إلى مؤامرةٍ خاصةٍ بالطبقة العلميّة».[19]

هنا، يدخل البحث مرحلة مأساويّة، فكلما زادت المؤسّسات من إنتاجها، بدا من المستحيل استيعاب إنتاجها هذا لإحداث مساهمةٍ معقولة، وهكذا تستمرّ العملية. إن الإنتاج الثقافيّ ينفلت من عقاله الذاتي، فيصبح خاضعاً للحتميّات الآليّة للبحث المُدار مؤسسياً.

صُنّاع الرأي العِلميّ

ضمن اقتصادٍ كهذا، فإن الجامعة ما عادت اليوم تبيع نتائج أبحاثها، وإنما تبيع علامتها التجارية تحديداً، تلك العلامة brand التي تختِم بها التقارير والتي تمتلك حقوقها التجاريّة. كانت شركة إيديلمان Edelman للعلاقات العامة - التي عملت لمصلحة ترانزكندا TransCanada بصفتها الشركة التي تمتلك حقوق النفط الرئيسيّة - كانت تنظر إلى هذا الأمر كحقيقةٍ راسخةٍ فيما يتعلّق بوضع خطّة الاتصال communication plan الخاصّة بمقترحها بشأن خط بترول Energy East، لجعلها مقبولة للناس في كيبيك.

لقد أشارَ استراتيجيّو إيليدمان Edelman على شركة ترانزكندا TransCanada بتمويل إحدى جامعات كيبيك Quebec[20] التي كان باحثوها سيقومون من ثَمّ بتقديم وصفٍ للمشروع باعتباره «آمناً بيئياً» environmentally safe. فوفقاً لشركة إيديلمان Edelman، «إن دعم حملة تمويلٍ كبرى» سوف يكون كافياً للحصول على هذه النتائج، إذ إن حملةً مثل هذه «يمكن أن تساعد في توضيح مدى جديّة شركة TransCanada بشأن الموضوع، كما أنها قد تُسهِم في خلق صورةٍ أكثر

---

(19) Simmel, 'The Concept and Tragedy of Culture', p. 71.

(20) كيبيك Quebec هي إحدى مقاطعات كندا، وأكبرها مساحة. - [المُترجِمة].

إيجابيّةٍ عن الشركة».[21] لقد تمّت تغطية وثائق شركة إيديلمان Edelman هذه من قِبَل راديو كندا Radio Canada وجهاتٍ إعلاميّة أخرى، بعد أن أفرَجت عنها منظّمة السلام الأخضر Green Peace عام 2014.[22] لم يسمع الناس إنكاراً للموقف أو نقاشاً للطبيعة الخياليّة لهذه الفرضيّة من أستاذٍ جامعيّ واحدٍ أو من مديرٍ في الجامعة أو من إداريّ فيها. ولم يشعر إداريّو الجامعة بمساسٍ بالسمعة إثر نشر هذه الوثيقة، رغم أنها أظهرتهم كفاسدين.

بربط أنفسها بالأعمال الكبرى وبمؤسّسات السلطة من دون أن تُبقي شيئاً، لا تقوم المؤسّسات البحثيّة ببيع المعرفة للزبائن فقط، بل إنها تصبح شريكةً في التّلاعب أيضاً. إذ تُعتبر الجامعات أداةً أساسيةً لشركات الضّغط السياسي lobbying firms، بالرغم من الطبيعة الإشكاليّة لنشاطِ هذه الشركات. وعندما يتعلّق الأمر بالتماس الأصوات الانتخابيّة للمسؤولين المُرشّحين، فإنه من الخطأ الإيمان بالضّغط السياسيّ lobbying وحده، فباعتبارهم متخصّصين بالرأي، يلجأ أعضاء جماعات الضّغط lobbyists إلى أخذ مقاربةٍ أكثر اتساعاً: إنهم يعملون على خلق سياقاتٍ تؤدّي إلى إرغام المسؤولين المنتخبين على اتّخاذ قراراتٍ بعينها، دونما حاجة لأن يقوم أعضاء هذه الجماعات بعمل أيّ شيءٍ. ومن خلال العمل على التأثير على الواقع ذاته، يحاول أعضاء جماعات الضّغط lobbyists هؤلاء صناعة مناخٍ مواتٍ لمصالح عملائهم، وتتمثل إحدى طرق القيام بذلك بالتّحريك العام «للخبراء» experts - المُمَوّلين من قِبَل القِطاع الصناعيّ - للقيام بعروضهم.

في سردٍ شخصيٍ نشر عام 2002، بيّن عضو جماعة الضّغط المهنيّ career lobbyist إريك يوجين Éric Eugène أن وظيفته كانت تتمثّل بإيجاد طرقٍ متعدّدةٍ

---

(21) Edelman, 'Strategic Plan: Québec, May 20, 2014, www.greenpece.org/canda, p. 25.

(22) Greenpeace Canada, 'Leaked Documents Show TransCanada Planning Dirty Tricks Campaign to Support Energy East Pipeline', Nov. 18, 2014, www.greenpeace.org/canada.

للوصول إلى هدفٍ واحد: شراء النّتيجة المُترتّبة على القرار الصّادر عن مؤسّسةٍ عامةٍ ما. وقد شملت هذه الطرق المتعدّدة أشياءَ مثل الفساد، التّخويف، التّلاعب، والتّحقيق. وفقاً ليوجين Eugène، يمكن التعرّف بسهولةٍ على الباحثين المشاركين بمثل هذه الألعاب. فكما كتب يوجين Eugène التائب:

> «من أين يأتي الخبير وما هى خطته المهنيّة؟ هل يعمل في القطاع العام؟ إن كان الأمر كذلك، فهل يعتزِم البقاء فيه حتى نهاية مسيرته المهنيّة، أم أنه يرغب بالانتقال إلى القطاع الخاص؟ من يموّل المختبر الذي يعمل فيه، سواء كان هذا المختبر عاماً أو خاصاً؟ من الواضح أن الخبير ليس مستقلاً، وأن عمله ينبغي تشكيله وفق طبيعة التمويل الذي يحصل عليه».[23]

قامت شركة إيديلمان Edelman للعلاقات العامة بإخبار شركة ترانزكندا TransCanada بأنها سوف تتحقّق من الناشطين البيئيّين المعارضين لخطوط نفط Energy East فتسعى لإماطة اللثام عن أية معلومات مالية أو قانونية ذات علاقة، بهدف نزع المصداقيّة عنهم. كما دعت إيديلمان Edelman أيضاً إلى أن تقوم شركة ترانزكندا TransCanada بتنظيم فعاليات «شعبيّة» مؤيدة للأنشطة النفطيّة، يقوم بها «ناشطون» activists مُمَوّلون من قِبَل شركة ترانزكندا TransCanada مباشرة. كما كانت هنالك فكرةٌ أخرى تمثّلت بأن تقوم ترانزكندا TransCanada بالدّفع لجحافلَ من مستخدمي الإنترنت لنقل رسالة الشركة عبر وسائل الاتّصال الاجتماعي. ولو لم تكن الخطّة قد سُرِّبت إلى وسائل الإعلام، لكانت ترانزكندا TransCanada قد طلبت العون من سياسيّي كيبيك Quebec البارزين الذين دعموا خط النفط هذا، مثل بيير-مارك جونسون Pierre-Marc Johnson، لوسيان بوشارد Lucien Bouchard، ومونيك جيروم-فورجيه Monique Jérôme-Forget. هذه هي طبيعة الحملة جيّدة التنسيق التي غالباً ما يُتوقع من

(23) Éric Eugène, *Le lobbying est-il une imposture?* (Paris: Cherche-Midi, 2002).

الأكاديميّين أن يلعبوا دوراً فيها. وللحفاظ على المظاهر، فكل ما عليهم فعله هو أن يلعبوا «اللّعبة» من دون التّساؤل حول الخطّة العامّة التي يشاركون فيها.

إنه مُمِلّ، إنه علميّ

إن غرور مديري المعرفة knowledge managers يقودهم للاعتقاد بأنّهم يستطيعون السيّطرة على اللغة؛ هم يظنّون أن بإمكانهم اختزالها إلى إشاراتٍ يمكن التّلاعب بها بسهولة، بغرض إقناع نظرائهم بتحويل قنوات المال باتّجاههم: سوف تُرفع الكلمة من الاستعمال إن لم تعُد دارجة، والمرجِع الذي يدور على شفاه الجميع حالياً سوف يُضخّم، حتى وإن لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً؛ في النموذج الذي يجب ملؤه بقدرٍ محدودٍ من الكلمات، سوف يقومون بشيء أشبه بالتّزلج اللغوي، يتعرّجون فيه بين الحار والبارد، الملائكة والشياطين، الفساد والأخلاق، التوافق والثورة؛ وأخيراً، سوف يُأكّدون - بتباهٍ - أن موقفهم يكون مختلفاً تماماً في اليوم الذي ستتم فيه السيطرة أخيراً على هدفهم اللغوي! «بطبيعة الحال، فإن اقتراحي الذي تقدّمت به لطلب المنحة ليس سوى اختلاقٍ، ولكن أعطِني النقود فقط وسوف نرى ما الذي أستطيع فعله!»،[24] وكأننا أقوى من الكلمات التي استخدمناها لعقدِ هذه الصفقات، أو كأننا نحكُم اللغة عِوضاً عن أن نكون مَحكومين بها. ولكننا لم نقرأ بلانشو Blancho،[25] تجنّبنا دريدا

---

(24) الأصل كما ورد في النّص الفرنسي هو *on verra de quel bois je me chauffe* (الذي يُترجم إلى: «سنرى من أيّ حطبٍ سأتدفأ»)، في إشارةٍ إلى المثل الفرنسي *montrer de quel bois on se chauffe*، وهو يُستخدم للتعبير عن المَحكّ الذي يُظهر قدرات الفرد، أو التصرف وفقاً للظروف المتغيّرة. - [المُترجِمة].

(25) موريس بلانشو Maurice Blanchot (1907-2003) كاتب وروائي وناقد فرنسي، له رؤىً فلسفية كانت ذات تأثير بارز على فلاسفة ما بعد الحداثة، مثل ميشيل فوكو Michel Foucault وجيل دولوز Gilles Deleuze ورولان بارت Roland Barthes وجاك دريدا

Derrida،[26] أخفقنا في فهمِ لاكان Lacan،[27] وازدرينا كريستيفا Kristeva.[28]

وما إن تتم مكافأة مُرتَزَقة الكلمة هؤلاء على جبنهم حتى يصبحوا أكثر شراسةً وجدباً، مُغفِلين للتفكير الانتقادي (الذي أداروا له الآن أظهرهم)، ملتزمين تجاه شركائهم التجاريين وكأن حياتهم تعتمد على ذلك، مركّزين على رد الجمائل إلى نظرائهم، وهي الجمائل التي سيعتمد تطبيقها على ذات الدلالات الأيديولوجية المُشتَرَكة.

لقد كانت الجامعة تعمل لعقودٍ الآن لجعل نفسها قابلةً للتلاعب من قِبَل أي طرفٍ على استعدادٍ لتمويلها. وإلى حدٍّ ما، ربما كانت تقوم بذلك منذ تأسيسها في التاريخ الحديث. في مقالةٍ له بعنوان «في مديح الأُميّ» In Praise of the

---

Jacques Derrida. من أبرز أعماله «توما الغامض» *Thomas l'Obscur*، «الإنسان الأخير» *Le Dernier homme*، و«كتابات الفاجعة» *L'Ecriture du désastre*. - [المُترجِمة].

(26) جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004) فيلسوف فرنسي من يهود الجزائر ومن مواليدها. اشتهر بتقديم مفهوم «التفكيك» Deconstruction في تحليل النصوص والخطاب. تناول الكثير من القضايا الإشكالية بالدراسة والتحليل، مع تركيز خاص على اللغة والأدب والسياسة والأديان والجماليات والأخلاق وعلم النفس. كان لدريدا Derrida أثرٌ كبيرٌ على معاصريه وعلى من جاؤوا بعده من الفلاسفة والمفكرين، إذ كان خصب الإنتاج، فكتبه تنيف عن الأربعين كتاباً (من أهمها «في علم الكتابة» *Of Grammatology* و«الكتابة والاختلاف» *Writing and Difference*)، إضافة إلى الكثير من المقالات. - [المُترجِمة].

(27) جاك لاكان Jaques Lacan (1901-1981) هو واحدٌ من أهم أعلام التحليل النفسي في فرنسا. كان متخصصاً في القراءات التفسيرية والنقدية - والتحويريّة أحياناً - لأفكار رائد التحليل النفسي سيغموند فرويد Sigmund Freud (حيث بدأ من شعار «العودة إلى فرويد»)، وعرف بإحداث تغييراتٍ عميقةٍ وهامةٍ في هذا العلم وفي طرائقه. - [المُترجِمة].

(28) جوليا كريستيفا Julia Kristeva (1941 -) هي فيلسوفة فرنسية من أصلٍ بلغاري، ذات اهتمام بالأدب والنقد واللسانيات وتاريخ الفنون والتحليل النفسي. تعتبر كريستيفا Kristeva من من أبرز مُنظّري الحركة البنيويّة Structuralism، كما أنها ناشطةٌ في الفكر والحركة النسويين Feminism. - [المُترجِمة].

Illiterate، يستحضِر هانز ماغنوس إنزنسبيرجر Hans Magnus Enzensberger الأصول البعيدة للمشكلة:

«العمل على جعل الشعب متعلماً لا علاقة له بالتنوير. كان محسنو الثقافة وراهبوها الذين دعوا إلى ذلك مجرّد شركاءَ للصّناعة الرأسماليّة، التي كانت تتطلّب من الدولة أن تُعِدّ لها عمالةً ماهرةً جاهزةً لها . . . كان ضربٌ آخرٌ من التطوّر على المحك. لقد كان الأمر يتعلق بترويض الأميّين، هذه «الطبقة الأدنى من الناس»، باستبعاد خيالهم وعنادهم. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتم استغلال قوة عضلاتهم ومهاراتهم الجسديّة فقط، بل وعقولهم أيضاً».(29)

تتمثّل الحالة الأكاديميّة academic habitus، بطبيعتها، بالسّماح بجعل ذاتك قيد السيطرة. فعادةً ما يكون الأكاديميون مشوّشين بالكامل؛ وحده المال ما يبدو أنه يُضفي على ممارساتِهم بعضاً من الاتّساق. لقد استسلموا، وهذا أمرٌ يُشكّل منظورهم نحو الكيفيّة التي ينبغي لهم فيها استخدام اللّغة في البحث. فالكتابة الأكاديمية تقوم على قاعدةٍ ضمنيةٍ تتحوّل إلى علنيةٍ في حال خرقِها: وحده الأسلوب المُحايد، الهادئ، والمُعيّر measured هو ما يجعل من نشر المرء جديراً بالعلم. كلما كان ذلك ممكناً، ينبغي أن تكون الكتابة مُمِلّة. أسلوبياً، ينبغي على الكتابة التي تدّعي ارتباطاً بالمعرفة أن تدور دائماً حول المنطقة الوسطى: كل ما عدا ذلك سوف يُتسبّب في حالةٍ من عدم الارتياح.

---

(29) Enzensberger, 'In Praise of the Illiterate', pp. 279-80.

من الجدير بالذكر أن هناك مقالاً شهيراً بهذا المعني للشاعر الأسباني بيدرو ساليناس Pedro Salinas، يحذر فيه من وضعٍ تعليميٍّ مشابه، يؤدي إلى إنتاج من أسماهم بـ «الأميّون الجدد». أنظر:

Pedro Salinas, 'The New Illiterates', reproduced in: *The Unesco Courier*, no. 242, July 1990, pp. 42-45.

وقد سبق لي ترجمة هذا المقال منذ بضع سنوات، بالاشتراك مع أحد الزملاء: ثابت خميس ومشاعل الهاجري، «الأمّيون الجُدُد» (في طور النشر). - [المُترجِمة].

فالأستاذ المُميّز سوف يشعر بالقلق من أيّ مقترح علميٍ إن لم يُقدم وفقاً لمتطلّبات الفِكر الموضوعي. وإذا تبدّت له صلاحية فِكرةٍ ما من دون أن يجدها مصاغةً بطريقةٍ ملائمةٍ للبيئة الأكاديميّة، فإنه يمكن أن يكرّرها بالنهاية من دون ذكر مصدر حصوله عليها؛ فالأسلوب هو كل شيء.

يتعلق الأسلوب، قبل كل شيء، باختيار الكلمات. من المُفضّل اختيار كلماتٍ تبدو علميّة، وإن لم يكن ذلك إلا للإيحاء بأن أفكارك ليست ذات علاقةٍ بالمكان ولا بالزمان. بدلاً من «النقود» money، على سبيل المثال، ناقش «العملة» currency. أيضاً، عليك بتجنّب الكلمات المشحونة بالعاطفة نتيجةً لما هي مثقلةٌ به من تاريخ: لا تقل «ثورات سياسية» political revolts، وإنما تحدّث عن «الصمود» resilience؛ لا تناقش «الطّبقة» class، وإنما حلّل «الفئات الاجتماعية» social categories؛ بل إن البعض يشيحون بأوجههم امتعاضاً لدى استخدام تعبير «العدالة الضّريبية» tax justice لأنهم يعتبرون أنه «سياسي إلى درجةٍ كبيرة».

بعد ذلك، من المهم ألا تُستَخدم لغةً خشنةً للسخرية من لاعبين سياسيّين بارزين، لا سيما إذا كانوا من ذوي النفوذ. إن الشركات متعدّدة الجنسيات تخطر على البال هنا. فوفقاً لقراءةٍ ضيقةٍ لماكس فيبر Max Weber، فإن مثل هذا الإظهار العلني للرّفض سوف يُضعِف من ادّعائك بالحياد الأخلاقي ethical neutrality. لتجنّب خلق مثل هذا الانطباع غير المحبّب، من الأفضل تجنّب مفردات القانون الجنائي بالكامل، والتصرّف وكأن هذه المفردات هي منطقةٌ خاصةٌ بالقانونيين وحدهم. وإذا ما قابلتك ظواهرُ معيّنة، فتحدّث عن «تصرفاتٍ مريبة» dubious acts أو «حوكمةٍ سيئة» bad governance عوضاً عن استخدام مفرداتٍ مثل «جرائم» crimes أو «نهب» plundering. بذلك، فإن الألفاظ المأخوذة من القانون الجنائي تُحفظ حصراً للأفعال المُعرّفة من القضاء باعتبارها كذلك: فعمليات بيرنارد مادوف Bernard Madoff،[30] مثلاً، يمكن أن توصف

(30) برنارد مادوف Bernard Madoff (1938–) رجل أعمال أمريكي، قام بعملية احتيال ضخمة

بأنها «إجراميّة» criminal. من خلال القيام بذلك، علينا أن نتصرّف وكأن جميع الحقول العلميّة scientific disciplines تخضع لتخصّص القانون، المناطقي والجزئي إلى درجةٍ كبيرة. وهكذا، فنحن نُغفل تحليل عالم الاجتماع إيميل دوركهايم Emile Durkheim،[31] الذي يذهب إلى أن كل مجالٍ فكريّ وثقافيّ لديه تعريفه الخاص للجريمة.

ويرافق هذه النّبرة المعياريّة normative tone إحالاتٌ إلى أفكارٍ راسخة: علينا أن نتمسّك بفكرة أمن الدولة state security أو العَقْد الإجتماعي social contract المُعرّفتين تقليدياً،[32] عوضاً عن تبنّي الأفكار الجدليّة للويز ميشيل

جداً خلال الأزمة المالية عام 2008، من قبيل النمط المعروف بـ «خطة بونزي» Ponzi Scheme (و هي عملية احتيال ذات طبيعة هَرَمية، فيها، يقوم المشغّل المحتال بدفع العائد لمستثمريه القديمين ليس من الأرباح، التي لا وجود لها، ولكن من خلال رأس المال الجديد المدفوع من قبل مستثمريه الجدد، وهكذا دواليك)، وهي عملية تسبّبت في ضياع المليارات على الأطراف الضحايا، وتضرّرت منها بنوكٌ في عدّة دول، مثل سويسرا وفرنسا وأسبانيا وعداها. وقد ألقت السلطات الأمريكية القبض على مادوف Madoff، وتمت محاكمته، فصدر الحكم عليه عام 2009 بالحبس لمدة 150 عاما، وهو الحدّ الزمنيّ الأقصى الذي يسمح القانون للمحاكم الأمريكية الحكم بالحبس في نطاقه. - [المُترجِمة].

(31) عالم الاجتماع الفرنسي المبرّز إميل دوركايم Émile Durkheim هو مؤسّس علم الاجتماع الحديث كما نعرفه اليوم. نتيجة لعدم إيمانه بالعلم التأملي الخَليّ من النتائج، فقد كان منهج دوركايم يقوم على التنظير والتجريب معاً، وقد تعلّقت أهم مباحثه بموضوعات التربية والعمل والانتحار. له عدّة مؤلفات، من أهمها «في تقسيم العمل الاجتماعي» *De la division du travail social* و«قواعد المنهج السوسيولوجي» *Les Règles de la méthode sociologique*. - [المُترجِمة].

(32) «العَقْد الاجتماعي» Social Contract هي نظريةٌ سياسيةٌ تذهب إلى أن الفرد وُجِدَ تاريخياً قبل المجتمع، وكان يعيش حياةً حرّةً بالكامل الى أن قرّر بإرادته التنازل عن جزءٍ من حريته للسلطة من أجل تأمين احتياجاته، وذلك لاضطراره إلى العيش المُشتَرَك مع الآخرين بما يخلق «مجتمع»، وأن هذا المجتمع - لتأمين أمنه ومعيشته - قد تنازل بدوره لأحد أفراده عن جزءٍ من حرياته مقابل اضطلاع الأخير بهذه المهام، مما ولد عَقْداً اجتماعياً سياسياً واقعياً يعطي هذا الفرد السلطة والسيادة على المجتمع، مقابل أن يكون هو مسؤولاً أمام المجتمع بشأن أداء مهامه هذه، وهو العَقْد الاجتماعي الذي يؤدي إلى إنشاء الدولة أو

Louise Michel، [33] أو هربرت ماركيوز Herbert Marcuse. [34] علينا أن نفكّر بمشكلاتٍ متعلقةٍ بما ينبغي أن يكون العالم عليه، مركّزين على أفكارٍ مجرّدةٍ حول المعايير، العدالة، أو الأخلاقيات الاتصالية، بدلاً من وضع أسسٍ للتفكير المفاهيميّ أو السياقيّ حول ما آل إليه العالم (أوليغارشية oligarchy، [35]

الكيان السياسي، فيصبح الحكّام مجرد منفذين لإرادة الشعب الذي يكون له الحق في إسقاطهم في أي وقت. كان كل من جون لوك John Locke وجان-جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وإيمانويل كانط Immanuel Kant من أبرز من نادوا بهذه الفكرة، ولا شك أن في ذلك خروجاً عن فكرة «الحق الإلهي» Divine Right التي كانت مطبّقةً في أوروبا قبل ذلك، والتي كانت تذهب إلى أن الملوك إنما يأخذون سلطاتهم من الرّب مباشرةً - مما يعني أنهم مسؤولون أمامه فقط - وليس من الشعب. - [المُترجِمة].

(33) كانت لويز ميشيل Louise Michel (1830-1905) ثوريةً فرنسيةً من معتنقي الفكر اللاسلطوي (الأناركية Anarchy). وقد عملت بالتدريس، إلا أنه بسبب إصرارها على اتباع أساليبها الخاصة في تعليم الأطفال فقد فُصِلَت من عدة مدارس. لاحقاً، أصبحت إحدى ناشطي الحركة الراديكالية في باريس، ومن خطبائها المفوّهين. شاركت ميشيل Michel في أحداث كوميونة باريس Paris Commune عام 1871 (وهي الحكومة الشعبية التي سيطرت على باريس لفترة قصيرة، غضباً من خسارة فرنسا في حربها ضد بروسيا). وقد عاقبتها السلطات الفرنسية بأن نفتها إلى المستعمرات للعمل هناك، ثم سجنتها إثر عودتها إلى فرنسا. يؤثر عنها أنها كانت على فراش الموت حين علِمت بخبر اندلاع الثورة الروسيّة عام 1905، فقامت، ورقصت، ثم عادت فاستلقت على فراشها، قائلة: «الآن، أنا جاهزة للموت». - [المُترجِمة].

(34) هربرت ماركيوز Herbert Marcuse (1898-1979) هو مفكرٌ ألمانيٌّ أمريكي، كان عضواً في «جماعة فرانكفوت الثقافية» Frankfurt School of Critical Theory (إلى جانب ماكس هوركهايمر Max Horkheimer وثيودور أدورنو Theodor Adorno)، ومنظراً لليسار الراديكاليّ وحركات اليسار الجديد. كما كان ناقداً حاداً - ومتشائماً - للهيمنة الصناعيّة باعتبارها تحوّل الإنسان إلى محض آلةٍ انتاجيّة ومن ثم تنتهي به إلى وضع الاستلاب. من أهم كتبه «العقل والثورة» *Reason and Revolution* و«الحضارة والرغبة» *Eros and Civilization*. - [المُترجِمة].

(35) «الأوليغارشية» أو «الأوليغاركية» Oligarchy هي صورة من صور الحكم تكون السلطة السياسية فيه محصورة بيد قلة متنفذة؛ هم إما ذوو مال، أو أملاك، أو نسب، أو نفوذ متوارث، أو مناصب عسكرية، دعم من جهات أجنبية، أو متحكمين في وسائل إعلام، أو أحزاب، أو طوائف دينية. وفيها، تقوم هذه القلة بتسيير كل مقدرات الدولة من موارد

بلوتوكراسية plutocracy،[36] أو شموليّة ماليّة financial totalitarianism[37]).
في اللغة الفرنسية، يُعتبر استخراج الأسماء من صيغة الفعل gerund، علامةً على التحديث: *migrance, consultance, survivance, governance*، وهي أسماءٌ مبنيّةٌ للهجرة، الاستشارة، النجاة، والحوكمة. وصيغة الفعل هي gerund وهو فعلٌ ماضٍ يعود إلى حالةٍ واقعيّةٍ خليّةٍ من التاريخ؛ بمجرد أن يصبح اسماً، فإنه يتعامل مع الأشياء بطريقة مُجهّلة.

وأخيراً، لا تَذكر الأسماء عندما يكون اللاعبون منخرطين في تصرفاتٍ غير قانونية: فعدم الإدلاء بالمعلومات يظهرُك بالمظهر العلميّ. لا شك أن هذا يفسّر فشل الجامعات الكنديّة، على مدى خمسين عاماً، في إنتاج أية أطروحةٍ حول

وخطط بما يخدم مصالحها وأهدافها دون بقية الشعب. وكان الفيلسوف اليوناني أفلاطون Plato هو أول من قدم هذه الفكرة في كتابه «الجمهورية» *The Republic* الذي أشار فيه إلى ثلاثة أنظمة للحكم؛ هي الدولة المثالية (الجمهورية) ثم الدولة الديمقراطية وبعدها حكم الأوليغارشية، التي عادةٍ ما تنتهي إلى حكم للطغيان يسعى دائماً إلى الاستئثار بالسلطة. هذا، ويلاحظ أن الأوليغارشية لو اقتصرت على ذوي الأملاك (كرجال المال أو الصناعة أو أصحاب الأراضي الزراعية) لكانت تعني «حكم الأثرياء» فقط (بلوتوقراطية)، كما يلي أدناه، ولكن الأوليغارشية أوسع من ذلك، كما تقدم. - [المُترجِمة].

(36) «البلوتوقراطية» plutocracy أو plutarchy هي حكومة الأثرياء، وهي تقوم على يد ذوي الثروات الضخمة، الذين يُملون إراداتهم على سياسات الدولة من خلال ما يمتلكونه من وسائل المال والإعلام المؤثرة والفاعلة، على اختلافها. [المُترجِمة].

(37) « الشمولية» totalitarianism هي مفهومٌ سياسيٌّ يُطلق على الدولة التحكميّة، التي تحاول السيطرة الآيديولوجية والفعلية على كافة جوانب الحياة في المجتمع من خلال السيطرة على حياة الأفراد الخاصة والعامة معاً (مثل النظم الشيوعية والنازية والفاشستية)، وذلك من خلال التحكّم التام بمسائل الاقتصاد والتعليم والفنون والسلوكيات العامة، أو، وفقا لتعبير الزعيم الإيطالي الفاشي بينيتو موسوليني Benito Mussolini: «كل شيء داخل الدولة، لا شيء خارج الدولة، لا شيء ضد الدولة». وبمقاربةٍ أدبية، لعل في الرواية الشهيرة للكاتب الإنجليزي جورج أورويل George Orwell «1984» صورةً سياسيةً جيدةً حول طبيعة الحياة في ظل النظام الشمولي - [المُترجِمة].

أثر إمبراطورية عائلة ديسماريه Desmarais[38] على مؤسّساتنا العامة - رغم أهمية هذا الموضوع - في حين تمّ الخروج بأعدادٍ لا حصرَ لها من النّقاشات حول المعايير المُجرّدة التي ينبغي وضع أُسُسِها في العالم.

ليست النّبرة tone مجرد مسألة اختيارٍ للكلمات، وإنما لها علاقةٌ بالإيقاع rhythm أيضاً. إن نوعيّة الكتابة الطاغية في المجال العلمي اليوم تُطبّق ذات البناء اللغويّ في جميع الظروف. وهذا النمط يعارضه التحوير modulation الذي وصفه جيل دولوز Gilles Deleuze في كتابه «نظامان للجنون» *Two Regimes of Madness*. في كتابه هذا، كان دولوز يحيل إلى فريديريش نيتشه Friedrich Nietzsche[39] (وهو كاتبُ ما كان أيّ أكاديمي ليكون مستعداً لتحرير كتاباته فيما لو كان معاصراً لنا)، عندما كتب أن «التحوير» إنما «يتقفّى أثر السطر المتشعّب والمكسور باستمرار، السطر الإيقاعي»[40]، أي السطر الذي يُمكّننا من التفكّر في الصفة العارضة للتّاريخ، التقلّبات الاجتماعية، والعوامل الأخرى غير القابلة للقياس والتي تحيل الذوات المُهتمّة، في المآل الأخير، إلى أن يكونوا هم مفكّري العالم. فالنّبرة، ما إن نعترف بخصوصيتها، تتكيّف مع

---

(38) عائلة ديسماريه Desmarais هي عائلةٌ ثريّةٌ تسيطر على أكبر مؤسّسات المال والإعلام في كندا، وطالما لعبت دوراً بارزاً في الحياة السياسية فيها. - [المُترجِمة].

(39) فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) هو فيلسوف ألماني وأستاذ جامعي وعالم لغويات، كان مفكراً متفرداً، ذو تأثير كبير على الفلسفة الغربية كما نعرفها اليوم. انتقد نيتشه Nietzsche الفكرين المسيحي والمثالي وعارض القيم السائدة، حتى اعتبر البعض فكره من الإرهاصات المبكّرة للنازية والفاشستية. كان صديقاً للموسيقار ريتشارد فاجنر Richard Wagner، حتى أنه وضع كتاباً عن موسيقاه، ولكنهما تخاصما فيما بعد وانقطعت العلاقة بينهما. في أربعيناته، فقد قواه العقلية، وعاش في رعاية أسرته حتى توفي. من أبرز مؤلفاته: «هكذا تكلم زرادشت» *Thus Spoke Zarathustra*، «هو ذا الإنسان» *Ecce Homo*، «ما وراء الخير والشر» *Beyond Good and Evil*، «أفول الأصنام» *Twilight of the Idols*، إضافة إلى أعمالٍ هامةٍ أخرى. - [المُترجِمة].

(40) Gilles Deleuze, *Two Regimes of Madness*, ed. David Lapoujade, tr. Ames Hodges and Mike Taormina (New York: Semiotexte, 2006), p. 369.

الموضوع، تتعرّف على قدراته التخيّلية، وتعيد تعريف القالَب الذي تم تشكيل الفكر وفقه. هذه الصيغة، أو القالَب، ينبغي اختراعها أيضاً، فبمجرد أن نحيلها إلى شيءٍ بلاستيكيّ مُشكّل من خلال فعل الكتابة، فإنها - في الآن ذاته - تحدّد كلاً من شكل ومحتوى ما نقوله. يستدعي دولوز Deleuze هنا جورج بوفون Georges Buffon (وهو بيولوجيٌّ ومؤلف لكتابٍ شهيرٍ حول الأسلوب)، الذي صاغ قياساً بين مظهر النص the appearance of the text وبين مورفولوجيّة الحيوان morphology of the animal،[41] ليخرج منه بتعبير «القالب الداخلي» the inner mould. إن الشكل شاهدٌ على ما يقدر عليه كلٌّ من الجسد أو النص.

تختار معاهد البحث أن تقيّد نفسها بنبرةٍ وعالَمٍ ضيّقين إلى حدٍّ كبير. في هذه البيئة السطحيّة، هناك ألف تفصيلٍ وتفصيلٍ لتحديد ما إذا كانت نظرية ما سوف تُقبل أو تُرفض، بما في ذلك طريقة لباس الأشخاص، مظهرهم، سلوكهم، نبرة أصواتهم، وتيرة حديثهم، مدى تحكّمهم بالضّغوطات، طريقة تعاملهم مع الأفكار، المراجع التي يختارون الاقتباس منها، بل وربما حتى لهجتهم، الأصل، النوع الاجتماعي، والسن. هذه هي الحال تحديداً مع المِنَح grants وطلبات العمل job applications. إن الحدود الرسميّة الضيّقة تتعامل مع هذه الطلبات بطريقة عُصابية neurotic sense، ضامنةً بذلك أن بعض الأفكار لن يتم التصريح بها أبداً.

من ذا الذي يودّ أن تبقى الأمور على هذه الشاكلة، ومن هو المستفيد من هذه النّبرة الإلزامية؟ أحد كِبار السوسيولوجيين الأمريكيين الذين تصدّوا للإجابة عن هذا السؤال، وليس من مفاجاةٍ في ذلك، هو أحد عِظام الكُتّاب في هذا في

---

(41) «المورفولوجيا» Morphology هي علم التشكّل، الذي يعنى بدراسة الشكل والبنية، دونما اعتبار للوظيفة. بذلك، فموضوع الدراسة فيه يختلف باختلاف التخصّص. وغالباً ما تتعلق المورفولوجيا بدراسة الأشياء العضوية، مثل موضوعات علم الخليّة أو علم الأنسجة أو علم التشريح. ومع ذلك، فقد تتعلق بدراسة أشياءَ مثل غير عضويةٍ كما هي الحال مع الجيولوجيا (دراسة بُنية الصّخور)، أو حتى اللّغويات أو النّحت أو الحوسَبَة. - [المُترجِمة].

الحقل المعرفي. في كتابه «الياقة البيضاء: الطبقة الوسطى الأمريكية» *White Collar: The American Middle Class*، ذكر تشارلز رايت ميلز[42] Charles Wright Mills ما وصفه بأنه «خوفٌ غامضٌ عام - يُسمى أحياناً بـ «السلطة التقديريّة» discretion و«الحُكْم السليم» good judgment - يقود إلى التخوّف الذاتي ويصبح بالنهاية مُعتاداً إلى درجةٍ كبيرةٍ حتى أن الباحث لا يعود مدركاً له». إن هذا ما هو إلا أثرٌ لـ «بقرطة»[43] bureaucratization مهنة الباحث. يحدث ذلك لأن «اتفاق الرجال المهذّبين الأكاديميين agreement of academic gentlemen يمارس سيطرةً تلاعبيّة manipulative control على شخصيّة الثوري».[44] إن هذه النّبرة الموصوفة تحمي الأكاديميين الذين يتبنّونها، فتُبقيهم في المسار المحدّد وتقيهم خطر الجنوح عن أطراف الآيديولوجيا المُسَيطِرة. واليوم، تُستخدم هذه النّبرة من قبل الأستاذ الجامعي/ رائد الأعمال professor/ entrepreneur الذي يتواجد زبائنه في عالَم الشركات وغيرها من المؤسّسات ذوات السلطة التي تحتاج دائماً إلى نتائج الأبحاث، تصريحات الخبراء، وغيرها من رموز. يوضّح كريس هيدجز Chris Hedges هذا الأمر بشكلٍ أكثر فجاجة:

> «هذه المفردات، باعتبارها علامةً على كل من «المتخصّص» specialist و«النخبوي» elitist، تعرقِل الفهم العام universal understanding. إنها تردع قليلي الخبرة عن طرح الأسئلة غير المُستحبّة. إنها تُدمّر البحث القاصد للخير العام the common good. إنها تُقطّع كلاً من الحقول المعرفية disciplines والكليات

---

(42) هناك تفرقةٌ عرفيّةٌ في مجال العمل بين العمّال «ذوي الياقات البيضاء white-collar» الذين يغلب وجودهم في قطاع الخدمات (كالأطباء والمهندسين والمدرسين والمحاسبين وموظفي المكاتب)، وبين العمال من «ذوي الياقات الزرقاء blue collar» الذين يعملون في مجال الإنتاج السِّلَعي عادة (كعمال الورَش والمصانع). - [المُترجِمة].

(43) الكلمة مشتقة من كلمة «بيروقراطية» bureaucracy. - [المُترجِمة].

(44) C. Wright Mills, *White Collar: The American Middle Classes* (New York: Oxford University Press, 1953), p. 151.

> والطلبة والخبراء إلى شُقَفٍ تخصّصيّةٍ صغيرة. إنها تسمح للطّلبة ولأعضاء هيئة التّدريس بالانسحاب إلى تلك الإقطاعيّات المفروضة ذاتياً وإهمال الأسئلة الأكثر إلحاحاً، أخلاقياً وسياسياً وثقافياً».[45]

الكتابة على طريق الخراب

ليت هذه النّبرة المعياريّة normative tone تُنتج لغةً متماسكةً، على الأقل. على العكس، إن قواعد الكتابة الأكاديمية تنحدر بالطلبة الذين يُرغمون أنفسهم على الامتثال لها أثناء وجودهم في الجامعة؛ فيصير عليهم أن يعيدوا تعلّم كيف يكتبون بمجرد تركهم لمقاعد الدراسة.

وفقاً لكريستين ر. جودسي Kristen R. Ghodsee، أستاذة الدراسات النسوية في كلية بودوين Bowdoin College الواقعة في ولاية مين Maine الأمريكية، فإن «الأكاديميين مسؤولون جَمْعِياً عن إنتاج بعضٍ من أكثر النثر بلادةً وعدم قابليةٍ للاختراق في اللغة الإنجليزية». معربةً عن غضبها، كتبت جودسي Ghodsee على الإنترنت:

> إن الطُرُز الخطابيّة rhetorical fashions تجيء وتغدو، ولكن الميل نحو الغموض صار سِمةً مميزةً للكتابة العلميّة المعاصرة . . . إن اللغة الأكاديمية Academese هي الشّفرة السريّة التي يستخدمها بعض الباحثين كي يبعثوا برسالةٍ مُرمّزةٍ تفيد كونهم أعضاءً بالنادي. إنها تضمن أن أحداً لن يستطيع أن يجزم - على وجه التحقيق - ما إذا كانت أفكارهم هذه مبهرة، سيّئة، أو أنها لا تعدو أن تكون محض كتاباتٍ تافهة.[46]

---

(45) Hedges, *Empire of Illusion*, p. 90.

(46) Kristen R. Ghodsee, 'Ethnographers as Writers: A Light-Hearted Introduction to Academese', *Savage Minds: Notes and Queries in Anthropology* (blog), https://Savageminds.org, Jan 4,2015.

كما أن جودسي Ghodsee تُظهِر انزعاجها من تقليعاتٍ fads مثل رفض الكلمات التي تنتهي بـ ism-، التي أصبحت الآن شيئاً من الماضي، والتي صار ينبغي استبدالها بأخرى تنتهي بـ ality-؛ المسألة التي يبدو أنها تمثّل تفرقةً دقيقة، لا يُعرف لأيّ شيء. لقد لاحظت ميلاً «تضخميّاً» نحو استخدام الألفاظ المبنيّة على اللاحِقة suffix الدارِجة: فدراسة القمع الاجتماعي والسياسي صارت تُعرف بدراسة «القمعيّات» oppressivities، بينما يصبح الإصلاح التربوي علم «التربويات» educativities. وهناك كذلك السابِقات prefixes المسايرةٌ للموضة بشكل مساو، بحيث ينضم مصطلح «عبر-تربوية» intereducationality إلى العديد من الألفاظ التي تبدأ بـ bio- (حيوي)، cyber- (افتراضي)، hetero- (مغاير)، homo- (متماثل)، أو techno- (تكنولوجي). «لا تقلق إن لم تكن متأكداً تماماً من معنى لفظٍ ما»، تكتب جودسي Ghodsee بشكلٍ مُطمئِن، «فمع التركيبة الصّحيحة من السابِقات prefixes واللواحِق suffixes، فأغلب الظن هو أنك سوف تصل إلى شيءٍ ما، هو، إن لم يبدُ عميقاً، فسيكون مسايراً للطُرُز المُتّبعة حالياً، على الأقل». وفوق كل هذه التشنّجات في الكتابة، يمكن دائماً إضافة عادةِ جَمْعُ المفاهيم pluralizing، إذ يشعر الأستاذ أنه متمردٌ فخورٌ فقط لأنه كتب كلمة «انبعاث» resurgences مع حرف s- الذي يفيد الجمع، مما يُضفي هالةً من التعقيد على الكلمات، رغم أننا نعرف جيداً أنه، بالتعريف، فإن هذا الحرف يُستخدم فقط لوصف التّعدد.

«الكتابة الأكاديمية هي كتابةٌ متعفّنة». كاتب هذه العبارة المُحبَطة - ولكن الصادقة - هو أستاذٌ لعلم النفس في جامعة هارفرد Harvard University. فستيفن بنكر Steven Pinker، في مقالٍ له مُعنوَن بـ «لماذا الأكاديميون سيّئون في الكتابة» Why Academics Stink at Writing،[47] يجد في النصوص الأكاديميّة

(47) Steven Pinker, 'Why Academics Stink at Writing', *Chronicle of Higher Education*, Sept. 26, 2014.

تشكيلةً واسعةً من الأخطاء التي كانت ستُقابل بالرفض من قِبَل أيّ محرِّر فيما لو لم يكن عضواً متواطئاً من الوسط الأكاديمي. وتشمل أمثلة بنكر Pinker: الميتا-خطاب MetaDiscourse[48] (وهي العادة المُضجِرة المتمثلة في إدخال علامات مثل «في الفقرة السابقة، حاولنا إثبات X، في هذه الفقرة، سوف نركز على السؤال Y»)؛ النرجسيّة المِهنيّة (أي تلخيص كل شئ كان مطلوباً منك قراءته بغرض إعداد أطروحةٍ هى في حقيقتها بسيطة جداً، ولكنك عاجز عن شرحها في فقرةٍ واحدة)؛ المنظور المبالَغ فيه حول صعوبة موضوعٍ ما (كالتفكير بأن الكيفية التي يتعلّم فيها الأطفال هي أمرٌ في منتهى الصعوبة)؛ استخدام علامات التّنصيص للكلمات العادية («التعليم» و«الأطفال»)؛ التحويط أو الاستخدام المبالغ فيه لأقواس التنصيص (من خلال الإفراط في كتابتها في عباراتٍ عاديةٍ مثل «كما يقال»، «إلى حدٍّ ما»، «إلى درجةٍ ما»، «جزئياً»، «على ما يبدو»، «لعلّي أجادل هنا») وذلك من أجل اتخاذ مسافةٍ شخصيةٍ من عبارةٍ أنت لست مستعداً لدعمها؛، الميتا-مَفْهَمَة Metaconceptulization (كقول «مقاربة هذا الموضوع من منظور تطبيق القانون» عوضاً عن قول «الاتصال بالشرطة» ببساطة، أو القول باستخدام «نموذج خفضِ التحيّز» بدلاً من «خفض التحيز» فقط)، الأمر الذي يجعل من أقل نشاطٍ أو واقعٍ أمراً يبدو وكأنه مساوٍ

---

(48) في عام 1959 خرج عالم اللغة زيللج هاريس Zellig Harris بمصطلح «الميتا-خطاب» metadiscourse، الذي استخدمه للإشارة إلى المعلومات ذات الصفة الثانوية في النص. وبذلك، فإن مصطلح «الميتا-خطاب» هو مصطلحٌ شاملٌ يضم جميع الأدوات اللّغوية التي يستخدمها الكاتب لتنظيم نصه والتفاعل مع القارئ، وذلك من حيث إبداء آرائه وتوجّهاته بشأن كلٍ من النص الذي يكتبه وبشأن القارئ معاً. ويتعلق مفهوم «الميتا-خطاب» بوجود نوعين من المعاني، هما المعنى الموضوعيّ propositional meaning أولاً (و هو المعنى الذي يزوّد القارئ بالمعلومات الأساسية عن الموضوع)، والمعنى الميتا-خطابيّ metadiscoursal meaning ثانياً (أي الأدوات اللغوية التي يستخدمها الكاتب لنقل اتّجاهاته أو آرائه إلى القارئ أو لتوجيه القارئ)». انظر: هالة راشد حسني، *الميتا خطاب في قسم المناقشة في البحوث اللغوية الإنجليزية والعربية: دراسة لغوية مقارنة* (الفيوم: جامعة الفيوم، كلية الأداب - قسم اللغة الإنجليزية، 2015)، ص. 2. - [المُترجِمة].

لمفهومٍ ما. وأخيراً، يشير بنكر Pinker إلى عجز الكاتب عن أن يقود القارئ في النقاشِ بسلاسة، عن طريق تقديم خطوةٍ متبوعةٍ أخرى.

وفي نقده لنظرائه، يتحدّى بنكر Pinker الاعتقاد العام الذي يذهب إلى أن كل خطابٍ علميّ هو شأنٌ داخليٌّ غامض، كما أنه يرفض الاتّهام التقليديّ الذي يذهب إلى أن الباحثين يتعمّدون جعل لغتهم غامضةً بحيث لا يفهمها أحد. وفي حين أن هذا الشك قد يكون مبرّراً في بعض الأحيان، فإن الأمر، بالنسبة لبنكر Pinker، يتعلّق بعوامل أخرى أكثر أهمية. وواحدٌ من هذه العوامل يتمثل في حقيقة أن الباحثين محبوسون بداخل الاقتصاد المؤسسيّ والفكرة المقدّسة للأعمال العلميّة المُراجَعَة من قِبَل الأقران peer-reviewed scientific work، مما يقودهم إلى تطوير أسلوب كتابةٍ لا يهدف إلى الاتصال أو التبادل، وإنما إلى عرض الذات بطريقةٍ تتوافق مع بيئتهم.

يمكننا أن نضيف إلى ذلك عدم الاهتمام، أو حتى الاحتقار الذي يستشعِره الباحثون - كجماعةٍ مهنيّةٍ - تجاه العامّة، رغم أن هؤلاء العامّة يموّلون أكثر أنشطتهم. غالباً ما تُكتب المقالات، تُحرّر، تُطبع، وتُوزّع (على من شاركوا فيها، بالدرجة الأكبر) حتى يتمكّن المؤلفون من إضافة سطرٍ إلى سِيرهم الذاتيّة. مع مرور الوقت، لا يعود الباحثون يهتمون بمهارات الكتابة أو القراءة، الحقيقيّة منها أو الموهومة: إنهم يجدون استحالةً في تخيّل عمليّة التفكير التي يمارسها أيّ شخصٍ غير منغمسٍ في مجالاتهم المعرفيّة disciplines. لهذا نتيجةٌ تراجعيّة، ذلك أن «الطفل ذا الثلاث سنوات الذي يرى لعبةً يتم إخفاؤها فيما طفلٌ آخرٌ خارج الغرفة، سوف يفترض أن الطفل الثاني سوف يبحث عنها في مكانها الأخير عوضاً عن البحث في المكان الذي شاهدها فيه هذا الطفل الأول آخر مرّة»، كما كتب بنكر Pinker، مبيناً الحالة الطفوليّة للعديد من الباحثين، الذين يعجزون عن تخيّل حالة وعيٍ مختلفةً عن وعيهم.

وفي الحقيقة، فإن الكتابة الواضِحة هي أصعب بكثير من تلك الغامِضة. كتب نيكولاس بوالو Nicolis Boileau «كل ما يتمّ التفكير فيه جيداً يُقال

بوضوح، والكلمات التي يُقال بها تتدفّق بسهولة». ويُظهر بنكر Pinker سلبيةً أكبر هنا، ذاكراً أنه «عندما شرح كالفن Calvin الأمر لهوبز Hobbes قائلاً بأن القليل من التدريب يمكن أن يجعل من الكتابة ضباباً مخيفاً لا يمكن اختراقه، فقد فهِم الأمر بالعكس. إذ إن الضباب يأتي إلى الكُتّاب بسهولة، إن الوضوح هو ما يتطلّب التدريب». ورغم حقيقة أن الكتابة لا يمكن فصلها عن الفِكر، فإن الأكاديميين يهملونها، ولذلك ينتهي بهم الأمر بسوء فهم لمهنتهم ذاتها. بل إن البعض يستشعِر الاحتقار للأعمال الهامة، المكتوبة خارج الأكاديميا، الموجّهة لمن هم في الداخل وللعامة معاً. ومع ذلك، فكم من أساتذة الجامعات يمكنهم مقاربة مهارة كاتبٍ مثل ناومي كلاين Naomi Klein(49) في مساعدة المواطنين على زيادة معرفتهم وتعميق فكرهم؟ قد ينظر الأكاديميّ بدونيةٍ إلى كتابات صحفيٍّ استقصائيٍّ مثل جريج بالاست Greg Palast(50) من دون التفكير في قدرته هو على إنتاج أي شيءٍ ثاقب النّظر ومُلقياً للضوء على الموضوعات مثله.

ليس من المُستغرب إذاً أن الأساتذة ينفقون جلّ أوقاتهم وهم يكتبون العروض التوضيحيّة multimedia slideshows عِوضاً عن الكتب. ماذا يمكننا أن نتوقّع من أناسٍ يحتاجون إلى الكثير من العكّازات التكنولوجيّة حتى يتحرّكون في مجالهم؟ مثلما أشار فرانك فرومر Frank Frommer في كتابه «كيف يجعلك برنامج باور بوينت غبياً» *How PowerPoint Makes You Stupid*، فإن تقنيّات

---

(49) ناومي كلاين Naomi Klein (1970–) هي صحفيةٌ وكاتبةٌ كندية، لها مواقفُ مناهضةٌ للسياسات النيوليبرالية، وكتاباتٌ تحليليةٌ عن العولمة والشركات متعدّدة الجنسيات. أصدرت كلاين Klein عدة كتبٍ شهيرةٍ حول هذه الموضوعات، منها «من دون علامة تجارية» *No Logo* و«أسوار ونوافذ» *Fences and Windows* و«عقيدة الصدمة» *The Shock Doctrine*. - [المُترجِمة].

(50) جريج بالاست Greg Palast (1952–) هو صحفيٌّ يعمل في مجال الصّحافة الاستقصائيّة investigative journalism لكلٍّ من هيئة الإذاعة البريطانية BBC وصحيفة الجارديان *The Guardian* الإنجليزية في عدّة موضوعات، مع تركيزٍ خاصٍّ على اتحادات العمل، حماية المستهلك ومخالفات الشركات الكبرى. - [المُترجِمة].

الاتّصال هذه - في حقيقتها - لا تُصاحِب أفعال الاتصال فقط، بل إنها تحوّل من طبيعتها؛ إنها تفرِّغها من الفعاليّة. بمجرد أن تَعتمِد على هذه العكّازات، فإنك ستُضطرّ فعلاً إلى تأسيس تدريسك على كليشيهاتٍ لن تتعدّى أبداً المفردات الآيديولوجية الشائعة، مستخدماً أمثلةً ذات قيمةٍ سرديةٍ محضةٍ وقوائم نُقَطيّة bullet lists تنحدِر بالأفكار إلى مجرد تراتبيةٍ hierarchy من الشِعارات المُبسّطة. وأخيراً، فإن الجُمَل ذاتها تختفي من الجامعة، مع كل ما يتعلق بهذه الجُمَل من ارتباطاتٍ منطقيّة، علاقاتٍ خفيّة، مفارقات paradoxes، وما تسمح به من فروقاتٍ دقيقة nuances. إن الصِّفة البيانيّة لمواد العروض التوضيحية Power Point تُغرِق العقل في بلبلةٍ من الرّموز غير المفهومة. على سبيل المثال، ما هو المعنى الحقيقيّ للأُطر التي توضع بداخلها شرائحُ كاملةٌ من العناصر، أو الأسهم الخاصّة بجدولٍ تنظيميّ الذي يُفترض به أن يُوضّح الديناميكيات المؤسّسية؟ بملاحظتنا للتّوتر الذي يبديه الأكاديميون في المؤتمرات نتيجة لاعتمادهم على هذا البرنامج، لا يمكننا إلا الخروج بنتيجةٍ مفادُها أن العروض التوضيحيّة المُقدّمة بواسطة برنامج Power Point إنما تحرِم الفكر من كل استقلالية.

متقّفون صِغار

عام 1951، وجد أستاذ اللغة الإنجليزية مارشال ماكلوهان Marshal Mcluhan في كلارك كينت Clark Kent رمزاً لأكاديميّ القرن العشرين. لقد كان البديل المدنيّ لسوبرمان Superman هو البطل الحقيقيّ للقصّة، التي تم تخيّلها، أصلاً، من قِبَل فتيّين مراهقين.[51] يبدو الصحفي المُتَلعثِم وكأنه يُجسّد

(51) سوبرمان Superman هي شخصية قصصيّة لرجل جبار آتٍ من كوكب آخر وذي قدرات جسدية وفكرية خارقة، يعيش حياةً مزدوجةً يكون في الجانب السريّ منها رجلاً مسالماً (هو كلارك كنت Clark Kent الخجول، الذي يخفي جانبه القوي). وقد وضع هذه الشخصية

الأكاديمي الأخرق في ذلك الوقت، ولأنه ينظر إلى نفسه على أنه نَكِرَة، فقد انزلق إلى أوهام العظمة (التي يُعَبّر عنها اليوم بالامتياز والمرتبة الرفيعة). وسواء كان مواطناً مثيراً للشفقة أو بطلاً خارقاً ذا رداءٍ مميزٍ ويرمي بنفسه إلى المخاطر، فإن افتتان القارة الأمريكيّة بهذه الشخصيّة يشير إلى استقالة الفكر المُنَظّم، إذ وفقاً لتحليل ماكلوهان Mcluhan في كتابه «العروس الميكانيكيّة» *The Mechanical Bride*، يجسّد سوبرمان التخلّي عن مسؤولية التفكير. وفي جانبه البطوليّ، يّظهر هذا التخلي من خلال شخصيّة سوبرمان الأحادية، وبالطريقة التي يختزل فيها العدالة إلى محض شأنٍ للقوة، وبادّعائه، من دون تعليم أو خبرة، «بالمعرفة الخالِصة حول كل شيء». إن نفاد صبره بشأن «العمليّات الشّاقة للحياة المتحضّرة» وميله الواضح إلى «الحلول العنيفة» هما أيضاً مظاهرُ واضحةٌ لهذا الخيلاء. وكفشلٍ للحياة المدنيّة، فإنه يمثّل «الهزيمة النفسيّة للإنسان التكنولوجي».[52]

يشير ماكلوهان Mcluhan إلى هذه الفترة باعتبارها فترةً تتّسم بفقدان مؤسّسات البحث والتعليم لكل احترامٍ للذات. فمن خلال مشاركة هذه المؤسّسات «في التعليم التكنولوجيّ والمتخصص»[53] - المدفوع باقتصاد الحرب أولاً، ثم بالنظام الاقتصاديّ الذي برمَجَ تقادم السلع الاستهلاكية obsolescence of consumer goods لضمان تجدّدها المستمر - وجدت الحياه الثقافية نفسها في حالٍ من الفوضى الشاملة. «الإنتاج من أجل الاستخدام؟»

الخيالية كل من الأمريكيين جيري سيغل Jerry Siegel وجو شستر Joe Shuster، ونشرتها منشورات دي سي كوميكس DC Comics في قصصٍ مصوّرة للأطفال، عام 1938. وقد نجحت شخصية سوبرمان Superman نجاحاً كبيراً، حتى أنها تُرجِمت إلى كثيرٍ من لغات العالم، إضافة إلى ما تم إنتاجه عنها من مسلسلاتٍ تلفزيونيةٍ وأفلامٍ سينمائية. - [المُترجِمة].

(52) Marshall McLuhan, *The Mechanical Bride: Folklore of Industrial Man* (Berkeley: Gingko Press, 2002), pp. 102-103.

(53) McLuhan, *Mechanical Bride*, p. 126.

نعم. ولكن لأقصر فترةٍ ممكِنةٍ وبشكلٍ متسقٍ مع مساعي التّلاعب بالسوق، بغرض مراكمة الأرباح. لقد بلغ من الجدب الأخلاقيّ للبحث العلمي الناجم عن هذه العملية حتى أنه، في النهاية ، كان الشيء الوحيد الذي عُنِيَ به الباحثون هو حجم تمويل أبحاثهم، معاملهم، ومؤسساتهم. كانت حياتهم المهنيّة - التي لم تعد مهنة - محدودةً إلى درجةٍ كبيرة، مثلما كانت حياة كلارك كينت Clark Kent. وكما يشير ماكلوهان Mcluhan، «كلما كان الرجل أكثر صِغَراً ولؤماً، اشتهى أن تكون له . . . قوّة سوبرمان Superman». بالنسبة إلى ماكلوهان Mcluhan، «فإن المفتاح لسوبرمان Superman هو كلارك كينت Clark Kent عديم الجدوى».

عندما لا يرى المواطنون والمفكّرون والعلماء في أنفسهم سوى تروسٍ في آلةٍ كبرى، فإن هذه الآلة تأخذ بُعداً بطولياً، فيما تجمع في ذاتها جميع قوة العمل المتاحة لها. هذا، لأن «السلطة الفيزيائيّة والصناعيّة العظيمة» تعرف كيف تُخضِع الأكاديميين لسلطانها حتى يصيروا موظفين عندها، فيعملون لزيادة أرباحها:

> «من يخضعون للتدريب (الجامعيّ)، لا لسببٍ إلا لكونه سيربطهم بطريقةٍ أكثر فعاليةٍ بالميكانيكيّات الاقتصاديّة والبيروقراطيّة، لا يفعلون سوى أنهم يكرّسون أفضل سنواتهم وقدراتهم كأدواتٍ لاستعباد أنفسهم. إنهم يصطادون الفرص حتى تكون لديهم الوسائل الاقتصادية لكي يصبحوا تماماً مثل الجميع».[54]

فالباحثون الذين يختارون البقاء في الحدود «العملية» pragmatism[55] إنما

---

(54) McLuhan, *Mechanical Bride*, p. 128.

(55) «البراغماتية» Pragmatism (وتسمى أيضاً العملانية أو الذرائعية) هي اتجاهٌ فلسفيٌّ يربط بين كل من النظرية والتطبيق ولا يفصل بينهما، فيقرر أن الأفكار لا تتحدّد قيمها إلا من خلال جدواها كما تبينها الممارسة العملية. ساد هذا الاتجاه في الفكر الفلسفي الأمريكي، فكان

يحكمون على أنفسهم بالصِّغَر. إنهم يرون الصّناعات الكبرى، الجيش، بيروقراطية الدولة، ومؤسسات التمويل العالمية كقوىً عظمى هم مجرد رعايا لها، مثل «حشدٍ من الأفراد عديمي الحيلة، الذين يرفض كثيرٌ منهم أوضاعهم رفضاً عميقاً».[56]

إن سوبرمان هو صورةً لبطلٍ بُنِيَ على أساسٍ من المهارات الأكاديمية، إلا أن ليفياثان Leviathan[57] الحقبة الصناعيّة هذا يجعل من الأكاديميين صغاراً ومَدعاةً للاحتقار. ليس من المفاجئ، إذاً، أن موضوع الرّغبة المظلمة هذا قد اكتسب أهميةً فجُعلَت له الأرجحيّة من خلال مساعي خريجي الجامعة. لقد طبّقوا خبراتهم ومعارفهم على منتجاتٍ جماليّةٍ إلى درجةٍ جعلت شعار المُعاناة

شارل ساندرس بيرس Charles S. Peirce (1839-1914) هو أول من ابتكر كلمة «البراغماتية»، وذلك في مقالته الشهيرة «كيف نجعل أفكارنا واضحة؟» How to Make Our Ideas Clear، وكان أبرز المُنظّرين له هما وليام جيمس William James وجون ديوي John Dewey، ثم تلاهم آخرون مثل ريتشارد رورتي Richard Rorty وهيلاري بتنام Hilary Putnam وغيرهم. - [المُترجِمة].

(56) McLuhan, *Mechanical Bride*, p. 128.

(57) كان الكتاب الشهير «ليفياثان» Leviathan (و التسمية مُستقاة من الوحش التوراتي المشار إليه في العهد القديم) هو المساهمة الأهم للفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1679)، الذي يعتبر من أبرز فلاسفة القرن السابع عشر في مجال الفكر القانوني، حيث وضع أسس الكثير من الأفكار القانونية التي لاقت الانتشار في كثير من نظم العالم. يناقش الكتاب فكرة الدولة المُسيطِرة، من خلال مقدماتٍ تتمثل في فكرة «القانون الطبيعي» natural law. ويذهب هوبز Hobbes إلى أن الناس في حالة الطبيعة - أي الحالة السابقة على تكوين الدولة السياسية - يبحث واحدهم عن مصالحه الخاصة بأنانية، وعلى رأسها البقاء أولاً ومن بعده المغانم والمجد، فيستأثر كل منهم بما يتمكن منه، ومن هنا خرج بفكرة «أن الإنسان ذئبٌ لأخيه الإنسان» *homo homini lupus*. وهكذا، فهوبز Hobbes يرى أن الإنسان ليس مَدَنياً بطبعه (بخلاف ما يذهب إليه أرسطو)، إذ لو تُرِكَ الناس دون قانون فسيصبح «الكلُّ في حالة حربٍ مع الكل» the war of all against all. من هنا، لابد من نزول الأفراد عن حقوقهم لسلطةٍ مركزيةٍ تتمثل في السلطان باعتباره مصدر الحُكم والعدالة، وهكذا فإن كل شيء، وفقاً لهوبز Hobbes، يخضع لإرادة السلطان وحُكمَه المُطلَق. - [المُترجِمة].

المقموعة لهذه الحقبة يزداد سِحراً. لقد قامت شركات الإنتاج الرأسمالية بتمويل شخصية المغامرات المصوّرة هذه فحوّلته إلى بطلٍ إذاعيٍّ ملحميّ، وبعدها جاء الكارتون والمونتاج التلفزيوني المثيران للشفقة: في البداية، تمت تجربة موثراتٍ صوتيةٍ بدائيةٍ على الأفلام، وفي آخر الأمر خلق العِلم مفاخر صور الكمبيوتر التي ذاعت شعبيّتها في القرن الواحد والعشرين.

إن المعارِف التكنولوجيّة قد جعلت من جماليات شخصيّة سوبرمان Superman هذه شيئاً «حقيقياً» أكثر فأكثر، وكأن الهدف كان يتمثل بالانتقال من التمثيل إلى التقديم، من السّرد إلى الهلوسة. فالعرض الأولي preview لنسخةٍ شهيرة من هذه الأفلام، تعود إلى العام 1978، كان قد شدّد سلفاً على التطوّرات الميديولوجية mediological («تكنولوجيا الأفلام الرائعة») التي جعلت من الشخصية - فجأةً - أكثر معقوليّة. وفي عام 2013، طغى نفس الخطاب: سَخِرنا من الاستخدام ذي الطراز القديم لعلم الخصائِص الميكانيكية pneumatics والصور المتراكِبة super imposed، فيما أثنينا على المآثر التِقنية التي جعلت من سوبرمان يبدو الآن حقيقياً تماماً. وفجأة، صارت هذه المآثر في مرتبة سوبرمان ذاته.

وفي حين يلعب فنيّو الجرافيكس graphic technicians دورهم، فإن هناك آخرين منخرِطين في ذلك أيضاً. فاختصاصيو علم وظائف الأعضاء physiologists واختصاصيو علم الأعصاب neurologists يرصدون أثر الحبكة الدّرامية على المشاهدين. كما أن القصص ينبغي تغييرها وفق مناخ اليوم السيكولوجيّ والسياسي، من أجل المحافظة على أوهام الجمهور. هل ينبغي أن يكون سوبرمان قاسياً أم حسّاساً، عُرضةً للخطأ أم معصوماً منه، مرناً أم غضوباً؟ يعمل العلماء مع مجموعات تركيز focus groups وبالاستعانة باستبياناتٍ وتحليلاتٍ ونظريات من أجل تشكيل الشخصيّات وفق الطّرق الأكثر ملاءمة. وقد قامت ماري بينيلد Marie Bénilde بتشريحٍ قاسٍ للدّور الذي لعبه البحث الجامعي في مداهنة عقولنا والتّلاعب بها، وذلك بواسطة علم النفس

psychology، علم الأعصاب neurology، والسيميائيات semiology،[58] ناهيك عن علوم الحاسب الآلي computer science، الهندسة engineering، التسويق marketing، وإدارة الأعمال business management.[59] والأمر صحيح، فمع ظهور العمليات العصبيّة neuro-aesthetics - وخصوصاً السينمائيّات العصبيّة neurocinematics المطوّرة من قبل عالِم النفس يوري هاسون Uri Hasson من جامعة برنستون Princeton University - ما عاد القَصّ يستند إلى «الشفقة والرعب»، هذه العناصر ذات الطراز القديم التي ادّعت لنفسها

(58) «السيميولوجيا» Semiotics (وتسمى أيضاً السيمياء أو السيميائيات أو علم العلامات، من الكلمة الإغريقية *semeîon* التي تعني «العلامة») هو علمٌ ظهر في بدايات القرن العشرين، ليدرس أنساق العلامات والإشارات، سواءٌ كانت لغويةً أم رمزية، وسواءٌ كانت طبيعية (كأصوات الحيوانات أو ظواهر الطبيعة) أم اصطناعية (كاللغات والأيقونات والحركات والتعليمات والرقص والطقوس). وفي حين أن «السيميولوجيا» Semiotics تدرس العلامات أو الأدلة اللغوية وغير اللغوية، فإن «اللسانيات» Linguistics تعد جزءاً من السيميولوجيا، إلا أن هذه اللسانيات لا تدرس سوى الأدلة أو العلامات اللغوية وحدها، مما يعني أن المنهج السيميائي اللغوي - تحديداً - يقوم على تفكيك النّص ودراسة بُنيته باعتباره نظاماً من العلامات اللّغوية، التي تستند إلى «علم الدلالة» Semantics الذي يدرس المعنى، والقائم على ركيزتين دلاليتين أساسيتين، هما «الدال» (signifier) الذي يمثل الشكل/ الصوت و«المدلول» (signified) الذي يمثل المعنى/ الفكرة (فذكر الشمس الساطعة هي علامة حرارة الطقس، والإشارة إلى انتشار البثور على الجسد هي علامة المرض). والرائد المؤسّس لهذا العلم هو السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure، كما يعتبر كل من تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce وفلاديمير بروب Vladimir Propp ورولان بارت Roland Barthes وأومبيرتو إيكو Umberto Eco من أبرز من ساهموا في تطويره. ومن المثير للاهتمام ما يبدو من أن هذا العلم، الجديد، كانت له إرهاصاتٌ ما في الموروث العربي، إذ ورد في القرآن الكريم «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» (سورة الفتح، الآية 29)، كما قال الشاعر أرطاة الفزاري (الملقب بالبكاء): «غلام رماه الله بالخير يافعا / له سيمِياءٌ لا تشقّ على البصر»، وقال النابغة الجعدي: «و لهم سيما إذا تبصرهم / بيّنت ريبةَ من كان سأل». هذا، وفي مقدّمته الشهيرة، الخاصة بكتابه المُعنوَن «تاريخ العِبَر وديوان المُبتدأ والخَبَر»، وتحت عنوان «علم أسرار الحروف»، أشار ابن خلدون إلى «علم السيمياء» باعتباره علماً للطلاسم يستخدمه بعض المتصوّفة. - [المُترجِمة].

(59) Marie Bénilde, *On achète bien les cerveaux: La publicité et les médias* (Paris: Liber/ Rasion d'agir, 2008).

قوىً تطهريّة cathartic power[60] لخلق حالةٍ يمكن أن يتماهى معها المشاهد، وإنما صار يستند إلى تحليلٍ ثاقبٍ لقِشرة الفصّ الجبهيّ medial prefrontal cortex، هذا الجزء من الدّماغ الذي يضيء في اللّحظة التي يقول فيها المشاهد لنفسه «هذا أنا بالضبط!»، حتى عندما ينظر إلى مشاهدَ وقصصٍ مختلفةٍ بدرجةٍ كبيرة. إن مجموعات التركيز focus groups ما عادت تمثل استطلاعاً لما يحبّه أو ما لا يحبه مُشاهدون مُختارون بعناية. وبخلاف ذلك، صار التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي functional magnetic resonance imaging يُستخدَم لدراسة استجابات عقول المشاهدين.

يُذكر أن أغلب هذه الدّراسات بعيدٌ عن كونه غير ذي مصلحة: فالهدف هو اكتشاف كيف يمكن جعل هذه العقول تنظر بشكل إيجابيّ إلى الشخصيّات التي عادةً ما تكون آيديولوجيّةً إلى درجةٍ عميقة، فترتبط معها. وتحديداً، فإن الفنيين

(60) «التطهير» Catharsis هو مصطلحٌ يجد أصله في اللفظ اليوناني Katharsis، ويفيد معاني التنظيف أو التنقية النفسيّة. ويقوم هذا التطهير على المفهوم الفلسفيّ الذي خرج به أرسطو، والذي يذهب إلى اعتبار الانفعال الذي تستثيره كل من الفنون (كالمسرح والموسيقى) أو الآداب أو الاحتفالات الطقوسيّة هو في حقيقته ممارسةٌ تطهريّةٌ تخلّص النفس من المشاعر الضارّة وتفرّغها من الانفعالات المكبوتة، وذلك لدى الطرفين، الممارس والمتلقي معاً. وقد كان المعنى القديم للكلمة يرتبط بلفظ Pharmakos اليوناني الذي يعني العقار والسّم معاً، أي معالجة الداء بالداء، ويعود ذلك إلى زمنٍ أسبق، هو زمن الأساطير والقصائد الأولى وما كان يصاحبها من ممارساتٍ طقوسيّةٍ ذات وظيفةٍ علاجيّة، الأمر الذي أدّى لأن يقال معه إن «الفنون صيدليّة». انظر في ذلك: رضا الأبيض، «الأدب علاجاً»، *مجلة الجديد*، سبتمبر/أيلول 2018 ، العدد 4، ص. 118. هذا، وقد قام الفيلسوف الألماني فريديريش نيتشه Friedrich Nietzsche (1844–1900) بربط مفهوم التطهير بالطقوس، كما أدخله عالِم النفس النمساوي سيغموند فرويد Sigmund Freud (1865–1939) في مجال التحليل النفسي. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نجد الفكرة ذاتها عند الفيلسوف المسلم الفارابي (874–950)، الذي كان يسمى «المُعلّم الثاني» (بعد أرسطو؛ «المعلم الأول»). - [المُترجِمة]. انظر:
Zere S. Shakerimova et al, 'Psychotherapeutic Function of the Kazakh Traditional Music', *International Journal of Environmental & Science Educ*ation, 2016, Vol. 11, No. 17, p. 10322.

المُدرّبين جامعياً ساعدوا في تطوير صورة البطل الجبّار المُقدر له، رمزياً، أن ينقذ المؤسّسات. وبهذا المعنى، فإنهم يحرِمون أنفسهم من أن ترتبط ممارساتهم بالأغراض الرّفيعة، فيما لا يستفيد من أبحاثهم إلا شركات هوليوود Hollywood وحدها.

أن تلعب اللعبة

إنه لشيءٌ محزنٌ حقاً أن نقرأ الكثير من الكتابات حول الدّراسات العلميّة عديمة الجدوى والرّقابة الذاتيّة التى تحكُمُها والإساءات المتعدّدة المُلاحَظَة في الحَرَم الجامعيّ. وفيما تصبح معتاداً على التقارير المُعاصِرة والكتب والمستندات حول الأكاديميا، يمكنك أن تتنبأ، عندها، بأن المؤسّسة لن تثير أي اعتراضٍ بهذا الصّدد. لقد مرّت الجامعة بتحوّلٍ واسعٍ وجانح. وهو تشخيصٌ تتأكّد دقته بعدم قدرة المؤسّسة على الردّ على منتقديها، بمن في ذلك عددٌ من الأساتذة الشجعان الذين يتحدّثون من داخل الجامعة.

لقد صارت العلاقات بداخل الجامعة مؤذيةً إلى درجةٍ كبيرةٍ حتى أن عالم الاجتماع أليكساندر أفونسو Alexndre Afonso - الذي يُدرّس في قسم الاقتصاد السياسيّ في كينجز كوليدجز King's College في لندن، والذي دَرَسَ بِنى تهريب المخدرات - لا يتردّد في مقارنة الأنماط المؤسّسية للجامعة بتلك الخاصة بالجريمة المُنظّمة organized crime. فبحثه المُعنوَن «كيف تشبه الأكاديميا عصابة المُخدِرات» How Academia Resembles a Drug Gang، والمنشور عام 2013 على موقع جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية على الإنترنت London School of Economics and Political Science، يُقارن بين الدخول المتفاوِتة بشكلٍ كبيرٍ في شبكات التهريب - التي يكسب فيها بائعو الشوارع «أجراً» بائساً فيما الأرباح يحصِدها الزعماء الكبار - ونظام التعويض المالي السائد في الجامعة. ويتساءل أفونسو Afonso عن السّبب الذي يدفع

الباعة الصّغار للعمل مقابل أجرٍ يقلّ أحياناً عن الحدّ الأدنى للأجور minimum wage.[61] ويكمن الجواب، كما يقول، في أن « الدافع الأساسيّ للناس للبقاء في هذا المجال هو فرصة الثّروة المستقبليّة، بدلاً من المدخول الحاليّ وظروف العمل. فباعة المخدّرات من المرتبة الأدنى يتنازلون عن المدخول مقابل ثروةٍ مستقبليّةٍ (غير محقّقة) . . . إنهم على استعدادٍ لواحدةٍ من اثنتين؛ إما أن يصبحوا أغنياء وإما أن يموتوا وهم يحاولون تحقيق ذلك».[62]

هذا الأمل يجتذِب ما يكفى من المرشّحين للعمل، فيتحقّق الضمان بأنه سيكون هناك دائماً من يقوم به. ومثل زعماء المخدّرات، فإن مُدراء الجامعات وشاغلي الكراسي الجامعيّة والأعضاء الأساتذة لا يشعرون بأيّة حاجةٍ لضمان أن يتم توزيع ما يتقاضونه من ثروةٍ بشكلٍ أكثر عدالة. مشيراً إلى هذه «الازدواجية»، يُقارِن أفونسو Afonso النّظام بالقلعة: من يتمكّنون من الدخول إلى داخلها يتمتّعون بكافة المزايا، تاركين الآخرين من خلفهم فارغي الأيدي إلا من أمل التمكّن من اللحاق بهم. خلال انتظارهم، يتمكن كلٌّ من بائعي المخدّرات وخريجي الجامعات الذين تم تركهم بالمؤخرة من كسب مبلغٍ قليل قد لا يتجاوز تسعمائة دولارٍ شهرياً. للباحثين المقصيّين القلقين، فإن العقود تجيء وتغدو،

(61) مبدأ «الحدّ الأدنى للأجور» minimum wage يعني قيمةً ماليةً تُحددها تشريعات العمل للعمل المُؤدى خلال عددٍ معينٍ من الساعات، فلا يكون لرب العمل أن ينزل عنها في الأجر الذي يدفعه لعامله، حى وإن اتفق الطرفان على أقل منه. وهذا الحدّ الأدنى للأجور يتقرر لحماية العمال من آثار التّضخم في الاقتصاد، من خلال الرّبط بين مستوى الأجر ومستوى الزّيادة في الأسعار، وكذلك لتحقيق التّكافؤ في المنافسة بين المشروعات (فتكون المنشآت على قدم المساواة في ميدان المنافسة من حيث عدم وجود تفاوتٍ واضحٍ في الأجور المدفوعة للعمال الذين يقومون بذات العمل). انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، *قانون العمل الكويتي الجديد - السّمات المنهجية والمُستحدثات الموضوعية: دراسة انتقادية للقانون رقم 6 لسنة 2010 في شأن العمل في القطاع الأهلي* (الكويت: شركة آفاق للنشر والتوزيع، 2017). - [المُترجِمة].

(62) Alxandre Afonso, 'How Academia Resembles a Drug Gang', LES Impact Blog, http://blogs.lse.ac.uk/impactofsocialsciences, Dec. 11, 2013.

ويتخلّل ذلك مُدَدُ فراغٍ مُرعبةٍ بين واحدها والآخر، وذلك في فترةٍ حرجةٍ من حياتهم يكونون فيها بحاجةٍ ماسةٍ إلى التقدّم في أبحاثهم وإلى إنشاء العائلة.

وفقاً لماري-إيف مايه Marie-Éve Maillé، التي تحمل درجة الدكتوراه في الاتصالات، فإن طلبة الدّراسات العليا يتم استخدامهم كأدواتٍ من قبل أساتذتهم الذين يكونون بحاجةٍ إلى الاستعانة بمصادر خارجيّة لأعمالهم الإضافية، نظراً لقلّة الراتب:

«يعمل أساتذة الجامعة بشكلٍ كبيرٍ سلفاً، وهم مُطالبون بالقيام بالمزيد دائماً. ينجم عن ذلك أنهم يصبحون بحاجةٍ لقيام طلبة الدكتوراه بكتابة أجزاءٍ كبيرةٍ من أبحاثهم الأكاديمية التي ينبغي عليهم تسليمها كل سنة، وكأن الأمر يتعلق بمعرفةٍ يمكن إنتاجها بذات المعدّل الذي تُنتج فيه النقانق الرخيصة. ويحتاج الأساتذة إلى طلبة الدكتوراه أيضاً في تدريس العديد من المقرّرات التى لا يعود باستطاعتهم تدريسها لكونهم مشغولين بحضور اجتماعات القسم ولجان الكليّة وغيرها من اجتماعاتٍ كثيرةٍ تزدحم بها أجنداتهم. كما يحتاج الأساتذة إلى طلبة الدكتوراه لكتابة جوانبَ مستفيضةٍ من طَلَبات المِنَح grants التي يستمرّون بتقديمها باستمرار مثل مقامرين قهريين compulsive gamblers: يجلسون أمام شاشة فيديو لليانصيب، وما إن يصِلَهم التمويل حتى يكون عليهم البحث عن المِنْحة التالية. في ظلّ نظامٍ مثل هذا، ليس من الواضح متى سيكون لديهم الوقت لإنفاق كلّ هذه الأموال التي يحصلون عليها».[63]

يميل العالَم الأكاديميّ إلى خلق حالةٍ من الاستياء لدى طلبة الدكتوراه. لتجّنب هذا المنزلق، قامت تيفين ريفيير Tiphaine Rivière، طالبة الدراسات العليا التي فشلت في تقديم أطروحتها، قامت بكتابة روايةٍ مصوّرةٍ لاذعة،[64]

---

(63) Marie-àve Maillé, 'Ma réaction à la table ronde sur le doctorat envoyé à l'équipe de *Médium large*', letter published on social media, May 20, 2015.

(64) Tiphanie Riviere, *Carnets de thèse* (Paris: Editions du Seuil, 2015).

تصف فيها الجوانب التعسفيّة العديدة للحياة الجامعيّة. لقد صوّرت ريفيير Rivière الخصومات الداخليّة القاتلة بين الأساتذة الذين يستخدمون الطلبة كوكلاء عنهم، العلاقات الثقافية مع الأساتذة المبنيّة على المراوغات الخطابيّة، المقرّرات الصغيرة التي تُدرّس على أساسٍ تطوعيّ، والعمل الإداريّ ذا الأجر المتواضع. هناك انفصالاتٌ رومانسيّة، عزلة، قدرٌ كبيرٌ من الغرور، واكتئابٌ متكرّر.

بطبيعة الحال، فإن حقيقة أن هناك الكثيرين من حملة شهادات الدكتوراه في الدول الغربية - وهو عددٌ مُتزايِد - يمكن أن تفسّر السّبب وراء كون العديد منهم عاطلين عن العمل. ولكن الظروف الموضوعيّة لسوق العمل تغيرت بدورها على مرّ السنين: ففي ألمانيا، وفقاً لأفونسو Afonso، هنالك القليل من البرامج أو البِنى التي تسمح للأشخاص الذين حصلوا على الدكتوراه لتوّهم بالعمل. وفي الولايات المتحدة هناك «أكثر من 40% من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات ممن يعملون بدوامٍ جزئيٍّ من دون تثبيتٍ وظيفي tenure، أو ممن يعملون كمحاضِرين باعتبارهم أساتذةً مساعدين يُدفع لهم على المقرّر، دونما تأمينٍ صحيٍّ أو عداه من المزايا المرتبطة بالعلاقة الوظيفيّة النمطيّة».[65] وفي كندا، يبلغ عدد حملة شهادات الدكتوراه ثلاثة أضعاف الوظائف التدريسية المُتاحة في الجامعات. ووفقاً لمصدرٍ حكوميٍّ فرنسيّ، فإن معدّل البطالة في أوساط حَمَلَة شهادة الدكتوراه هو أعلى منه في أوساط حملة شهادة الماجستير،[66] ومن بين

---

(65) Afonso, 'How Academia Resembles a Drug Gang'.

(66) ترتبط «البطالة» unemployment بالدّورة الاقتصاديّة للدول economic cycle، حيث تزداد نسبها في حال حدوث أزماتٍ اقتصاديةٍ مؤقتة، سواء كانت ناتجةً عن عوامل داخلية (الركود الاقتصادي، إجراءات التوظيف، عدم التوافق بين مخرجات التعليم وسوق العمل)، أو عوامل خارجية (كتأثير منظومة الاقتصاد الدولي). فإذا ما نشطت الدّورة الاقتصادية، انعكس ذلك على الاقتصاد المحلي، فتتوفر فرص العمل وتنخفض نسبة العاطلين عن العمل في المجتمع. أنظر: محمد عبدالله البكر، «أثر البطالة في البناء الاجتماعي للمجتمع»،

حملة شهادة الدكتوراه الذين يجدون عملاً فإن 32% يعملون في وظائفٍ لا تتطلّب مهاراتهم البحثية.[67] إن التركيز الملحوظ اليوم بشأن الحصول على المِنَح ونشر الأعمال الرفيعة يقود كلاً من مُدراء الجامعات وأعضاء هيئة التدريس إلى التقليص من قيمة التدريس وإيكال مثل هذا العمل إلى موظفين متواضعي الأجر.

في قيامه بعددٍ من المقارنات بين الجامعة والمافيا،[68] كان يمكن لأفونسو Afonso أن يضيف أيضاً خطاب «اللّعبة» the game السائد في كلٍّ من البيئتين. ففي حين أن «لعب اللّعبة» هى عبارةٌ دارجةٌ في الأكاديميا، فإن الإحالة إلى «اللّعبة» في العالم الإجراميّ هى إحالةٌ ذات طبيعةٍ ميثولوجيةٍ على وجه الخصوص. في مسلسل «واير» The Wire التلفزيوني،[69] الذي يُراد به أن يكون قصةً من طبيعةٍ سوسيولوجيّةٍ حول تهريب المحتويات وسُبُل قمع هذا التهريب، تُقدَّم دراسةً حول المعنى الإشكاليّ والذي لا ينضب معينه لمؤسسةٍ قائمةٍ على فكرة «اللّعبة». فبين التراتبيّة الصارِمة لدوائر كلٍّ من مُهرّبي المخدّرات والمؤسّسات الرسمية (الأحزاب السياسية، قوى الشرطة، الإعلام، والعالم الأكاديمي)، تفرض «اللعبة» قانونها الأعمى وبديهيّاتِها الجبانة. أن يفكّر المرء بعلاقاته بالعالم على هذه الشاكِلة هو أمر يتطلّب إقصاءً للعقل، فلعب «اللّعبة» يشمل الكثير من المعاني المُتناقِضة القاصدة للسماح بالهرب من الواقع

مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، العدد 2، المجلد 32، 2004، ص. 264. - [المُترجِمة].

(67) Mohamed Harfi, *Les difficultés d'insertion professionnelle des docteurs*, Bureau du premier ministre de la la République française, Commissariat général à la stratégie et à la prospective, Oct. 2013, www.letudiant.fr.

(68) المافيا Mafia هو اسم يطلق على العصابات الإيطالية، لا سيما تلك التي تمارس نشاطها في صقلية Sicily. وبمرور الوقت، صار هذا الاسم تسمية جامعة تطلق على عصابات الجريمة المنظمة حول العالم بشكل عام. - [المُترجِمة].

(69) Paul Allen Anderson, 'The Game is the Game: Tautology and Allegory in *the Wire*', *Criticism* 52, 3-4 (Summer-Fall 2010).

الاعتباطيّ للعلاقات العارية للسلطة والمعاملات الخفيّة المُخجلة. ورغم ذلك، فإن تعبير «لعب اللّعبة» يغطّي الموقف الحقيقي: هاتان الكلمتان البسيطتان تجعلان الأمور تبدو غير مؤذية، لعوباً، بل وطفوليّة.

تبدو «اللّعبة»، في المقام الأول، وكأنها مجموعةٌ من القواعد والإجراءات غير المكتوبة ذات الطّبيعة المعتادة، وإن كانت غير رسميّة، والتي يجب اتّباعها في بيئةٍ معينةٍ حتى يمكنك تحقيق أهدافك. ويشمل «لعب اللعبة» المشاركة في بعض الطقوس (كالظهور في فعاليةٍ مسائية، التبرّع بشكلٍ علنيٍّ لجهةٍ خيريةٍ معيّنة، تهنئة زميلٍ على كتابة مقالٍ ممتازٍ أنت لم تقرأه أصلاً)، ورغم أن هذا ليس إلزامياً، إلا أنه سوف يُثبت ولاءك للمجموعة، الشبكة، أو المؤسّسة. ومع ذلك، فالجانب الخفيّ من هذه الطقوس الاجتماعية هو جانبٌ عنيفٌ. فعدم الولاء يُعاقب بالموت، إما رمزياً أو برصاصاتٍ حقيقية، إذ إن هذه القواعد غير المكتوبة تُطبّق على يد سلطةٍ عديمة الرحمة. ولأن القواعد ليست واضحةً دائماً، فإن «اللّعبة» ذاتها ليست واضحة؛ بل إن حتى وضع قواعد «اللّعبة» هو - بحد ذاته - لعبة. وأخيراً، فإن «اللّعبة» هي أقرب ما تكون كمجموعةٍ من القواعد منها إلى ديناميكيات سلطةٍ وضعها لاعبون يحاولون فرض قواعدهم على الآخرين.

و«اللّعبة»، في حقيقتها، تأتي على وجهين. إنها تبدو كرياضة، أو كحربٍ (مُستتِرة)، ضمن إطارٍ لا وضوح فيه. وفي هذه «اللّعبة» الخالية من القواعد عموماً، فإن كل شيءٍ يُقبل. نحن نعرف سلفاً بأن «لعب اللّعبة» يعني الابتعاد عن المجال المعتاد: فقد تنطوي على غش، أو التصرّف وفق نهجٍ أخلاقيٍّ قاسٍ قد ينطوي على عنفٍ علنيٍ أو حتى جريمة. ومن المسلّم به أن البعض سوف يتم الإمساك بهم، ومع ذلك فالخسارة لا تضع حداً للّعبة؛ على العكس، إنها جزءٌ منها، فالأمر أشبه بالوقوف في مربّع «اذهب إلى السجن» Go to Jail، [70] لأن

---

(70) يراد بهذا التشبيه الإشارة إلى لعبة «مونوبولي» Monopoly (الاحتكار)، وهي لعبة لوحيّة board game شهيرة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1904، وتدور فكرتها

السجن أو الخطر هما أمران لا تعدو معهما أن تكون مجرّد احتمالاتٍ يوميّة. فإذا تبين أن خطّة أحدهم قاتلةٌ لنا، فإننا سنسقط ونحن نحاول كسب المنحة أو المنصب الذي نستحقه قانوناً. «هييه، إنها اللّعبة» Yo, it's the game. وتتضمن «اللّعبة» تراتبيّات hierarchies من القواعد، تتراوح من النُّظُم التقليديّة الحازمة إلى تلك العدوانيّة. وقد تكون هنالك مجموعةٌ من القواعد ذات العلاقة بالولاء، وأخرى من الإجراءات العقابيّة للتعامل مع الأخطاء، وطردٌ عشوائيّ عندما يُداهمك أمرٌ معادٍ يفرض عليك مجموعةً جديدةً من القواعد المطبّقة على «اللّعبة» ككل. وبصورةٍ أكثر قسوة، تنطوي «اللّعبة» على سلطةٍ خالصةٍ مُطلقةٍ من أيّ عنان، وذلك من خلال نظامٍ تنافسيّ يتجسّد بكلٍّ من الرأسمالية وسلطة المافيا. فالاثنان يمكن أن يغرسا أنظمةً تشمل القوانين ومواثيق الشرف، ولكنهما يفعلان ذلك بغرض الإرباك.

وفي الواقع، فإن اللّعب باتباع القواعد لا يكون إلا للضّعفاء فقط. أما لأولئك الذين يفكّرون بشكلٍ أوسع، فإن «اللّعبة» تعني مسحاً للموقف بأكمله، من الأعلى، بهدف السيطرة عليه من خلال التحديد الاعتباطيّ لقواعده. وكما يقول البروفسور بول ألين أندرسون Paul Allen Anderson من جامعة ميتشيجان University of Michigan في مقاله حول The Wire، فإن الأمر يعني «أن تبقى متقدماً في اللّعبة من خلال تأكيد أن تكون لك سلطةً تفسيريةً عليها». أما بالنسبة لمن يهيمنون عليها، فإن للّعبة طبيعةً تنافسيّةٌ بصورةٍ شرسة: إنه صراع سلطة يعتمد على طرقٍ اعتباطية تتحدّد كيفما اتفق، وهذه الطرق تقرّر من الذي سيمكنهم السماح للآخرين باللّعب، من خلال تعيين ديناميكيات سلطة شبه مؤسسية، ضمن

حول قيام اللاعبين ببيع وشراء عقارات وشوارع ومعالم مدنية أخرى، وبناء البيوت والفنادق عليها، مع المخاطرة المستمرّة بالتعرّض للخسارة من خلال الإلزام بدفع الضرائب أو الحكم بالذهاب إلى السجن، وكل ذلك من خلال رمي اللاعبين للنرد بحركاتٍ متتابعة. ويتمثل غرض هذه اللعبة بفوز اللاعب الذي يتمكن من مراكمة القدر الأكبر من الثروة، ومن ثم فإن هذه اللعبة رمزٌ للرأسمالية في أوضح حالاتها. - [المُترجِمة].

إقليمٍ أو حقل نفوذ يفرضون فيه قانونهم غير المكتوب. يقول فارلام شالاموف Varlam Shalamov، الذي يعرف عمّا يتحدّث، إنك لا تستطيع أن ترتجِل طريقك إلى الأعلى في «اللّعبة»؛ فالبراعة هي مسألةٌ لا بدّ من التمكّن منها. في مقالٍ له بعنوان «سكيتشات من عالم الجريمة»، كتب شالاموف Shalamov:

> إنه لشيءٌ غير كافٍ أن تسرق فقط، إذ ينبغي أن تنتمي إلى «نظامٍ» (من الدجّالين بالوراثة)، وهو أمرٌ يتحقّق ليس فقط من خلال السرِقة أو القتل. بالتأكيد، لا يُمنَح كل صاحب «وزنٍ ثقيلٍ» وكل قاتلٍ مرتبة شرفٍ بين الدجّالين فقط لأنه اتّفق أن كان سارقاً أو قاتلاً. فلهؤلاء (أي القائمين على اللّعبة) «حماةٌ» خاصون للنقاء الأخلاقي، كما أن لديهم «أسرارَ المهنة» ذات أهميةٍ كبرى وهي التي يعملون وفقاً لها . . . إن القوانين العامة لهذا العالَم (هي، مثل الحياة ذاتها، عُرضةٌ للتّغيير).[71]

«اللّعبة» هي كنايةٌ euphemism عن نظامٍ سياسيٍّ آخر: نظامٌ ذو بنيةٍ قائمةٍ بشكلٍ سيّئ، لا يمكن الحديث عنه حتى من قِبَل من يقومون على حِفظه سنةً بعد أخرى، اعتباطي، غير قابلٍ للتوقّع، وطبعاً: غير ديمقراطيٍ إلى حدٍّ كبير. فالديمقراطية تعني القدرة على مناقشة القواعد مع الآخرين، تبريرها، وتوضيح مدى شدتها عند التطبيق. إن نموذجنا، الدّجال الأستاذ، يموضِع نفسه أولاً في علاقةٍ مع نظامٍ نفسيٍّ لصنع قانون ينتمي إليه وحده: إنه مبنيٌّ على ديناميكيات السلطة التي يمكنه تأسيسها. فالقواعد الرسميّة من قوانين ولوائح وبروتوكولات يمكن أن تستمرّ في الوجود، طبعاً، إلا أنه من المقدّر لها إما أن تُخرق وإما أن تُوَظّف كأداة. في جميع الأحوال، فإن اللاعبين ذوي النفوذ هم في موقعٍ يسمح لهم بالإشراف على «اللعبة». ويمكن لهؤلاء، باعتبارهم المؤسسين لديناميكيّات

(71) Varlam Shalmov, *Ocherki prestupnogo mira* (Sketches of the Criminal World), https:// Shalmov.ru. This Paragraph was translated from the Russian by John Woodsworth.

«اللّعبة»، استخدام القوانين الرسميّة للتغلب على الخصم، أو للطعن في مصداقيّة فكرة، أو لسحق حركةٍ شعبية. وكل من يقول لنفسه «أنا لا أعيش بالطريقة التي تعيش وفقها أنت، فلدي حياتي الخاصة ذات القوانين الأخرى، والاهتمامات الأخرى، والتعريفات الأخرى للشرف» فإنه، بطريقته الخاصة، دجّال أستاذ آخر. وفقاً لشالاموف فإن «الأخلاق» المترتبة على هذه الطريقة في الحياة تنطوي على تعسّف ضد الآخرين وفقاً لفلسفةٍ تحطّ من قيمتهم.

للخاضعين لها، تتكون «اللّعبة» أساساً من ترطيب علاقاتهم مع من استحدثوها اعتباطاً. ولكونهم قد دخلوا متاهةً محيّرةً من القواعد، فإنهم يحاولون عدم البروز بأيّ شكلٍ، تجنباً للجزاءات التي ستُفرض عليهم إما من أقرانِهم أو من السلطات. وفي أفضلِ الفروض، سوف يحاولون البقاء واقفين على أقدامهم، أن يُظهروا استحقاقاً لموقعهم، وأن يبقوا فيه في ظروفٍ لا سيطرة لهم عليها، مع الامتثال دائماً للتوقّعات كما يفهمونها. إن «لعب اللّعبة» يعني إعادة تأسيسها بطريقتك الخاصة، أن تدّعي جزءاً منها لنفسك، أن تعزّز ما تعتقد أنه من قواعدها، وأن تسجّل النقاط من خلال إيجاد أشخاصٍ آخرين تتعسّف ضدهم أو تخدعهم. يستمر الأشخاص التافهون بطلب المزيد؛ إنهم يحبون أن يُبيّنوا أن أحداً لا يستطيع أن يُظهِرهم بمظهر المغفّلين، وهم سيقومون بأي شيء لتجنّب أن يُلقى بهم خارج «اللّعبة». هذه هي العقول القويّة التي «تفهم» المطلوب. بطبيعة الحال، فإن مقاربتهم الاستراتيجية - والعُدوانيّة أحياناً - تزيل من «اللّعبة» كل احتمالٍ للفكر النزيه. إن سيطرتهم تقود إلى الموت الاجتماعيّ للفكر، لا محالة.

أين سينتهي بنا الأمر عندما تُطبّق المبادئ «الليبراليّة» liberal principles (ذات العلاقة بالسوق) على مناطقَ هي غير ذات علاقةٍ بها؟ خطوةٌ إثر أخرى، يقوم مديرو الجامعات بعمل الأشياء بطرقٍ تنتهي بهم إلى عملياتٍ هي إما على حافّة ما هو قانونيّ أو ما هو غير مشروعٍ تماماً. استجابةً لعددٍ من الفضائح في كيبيك Quebec، التي كشفت التمويل غير المشروع للمؤسسات السياسيّة من قِبَل

منظماتٍ إجراميّةٍ في مجال صناعة الإنشاءات، كان ميشيل سيمور Michel Seymour، أستاذ الفلسفة في جامعة مونتريال Université de Montréal، يرصد التطوّرات، مع تذكيرنا بشكلٍ دؤوب بأن أغلب الاستثمارات التي قامت بها الجامعات وحكومة كيبيك Quebec في السنوات القليلة الماضية كانت تتعلّق بالأبحاث في المجال العقاريّ.[72] لقد شملت هذه المشروعات مستشفيَين جامعيّين، حرم جامعة مونتريال Université de Montréal الجديد (الذي سيقع على مساحةٍ مُحوّلةٍ كانت سابقاً محطّة قطارٍ في بلدة أوتريمونت Outremont Borough)، مشروع جزيرة فوياجير Ile Voygeur العقاريّ الكارثيّ (الذي دشّنته جامعة كيبيك في مونتريال L'Université du Québec à Montréal - UQAM)، وناطحة سحابٍ (كانت ذات الجامعة ترغب في بِنائها بجانب حيّ مونتريال كارتييه دي سبيكتاكل Montreal's Quartier des spectacles). ويمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة مبانيَ شيّدتها جامعاتٍ في مواقعٍ بخارج مناطقها الطبيعية، مثل حرم جامعة شيربروك Université de Sherbrooke (الواقع على شاطئ مونتريال الجنوبي)، أو حرم جامعة ريموسكي Université du Québec à Rimouski (الواقع عبر النهر من مدينة كيبيك، كجانبٍ من منافسةٍ لا معنىً لها بين مؤسسات تخدم ذات المجموعة المُتوَقّعة من الطلبة). يمكننا أن نذكر أيضاً المبالغ الهائلة التي قرّر مديرو عدة جامعاتٍ دفعها لأنفسهم: ففي مارس 2012، قدّر راديو كندا Radio-Canda أن رؤساء جامعات كيبيك Quebec كانوا يتلقّون ما يتجاوز نصف مليون دولار سنوياً على هيئة رواتبَ ومزايا أخرى، في حين أنه في دولٍ مثل فرنسا، فإنهم يقبضون مبالغ تتراوح بين 60,000 و150,000 يورو. بذلك، يبدو رؤساء الجامعات شمال الأمريكية مقتنعين بأن المعايير المتطرّفة التي تمارسها مجالس إدارة الشركات متعدّدة الجنسيات ينبغي أن تُطبّق عليهم هم أيضاً.

---

(72) Michel Seymour, *Une idée de l'université* (Montreal: Éditions du Boréal, 2013).

هناك أيضاً حالات فشلٍ ذريع تتعلّق ببعضٍ من أكثر الجِنان الضّريبيّة tax havens إثارةً للجدل في العالم.[73] إذ يمكن أن تثور المشكلات بسهولةٍ عندما تُقاد الجامعات من قبل خرّيجها الموثوقين. فقد تسبّب إداريو جامعة مونتريال Université de Montréal بخسارة الجامعة لمبلغ مائة مليون دولار كانت خاصة بخطّة التقاعد الجامعيّة pension plan - RPUM - التي تعود إلى موظفيها العشرة آلاف - عندما عهِدوا بهذا المبلغ إلى مديرٍ مالي يقع مقره في الجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands. لقد كان برجوازيٌّ ألمانيٌّ مسؤولاً عن استثمارات الجامعة من عام 1998 إلى عام 2000، وفي خمس مناسباتٍ استثمر هذا المدير الماليّ مبلغ خطّة التقاعد في صندوق تحوّط hedge fund مقرّه في تلك الجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands، وهو صندوق مُدار من قِبل مجموعة لانسر The Lancer Group، التي هي عبارة عن مجموعةٍ أُسِّسَت في ديلاوير Delaware، الولاية الأمريكية التي تعمل كجنةٍ ضريبيّة tax haven. وقد استمرّ مدير صندوق التحوّط هذا، ميشيل لوييه Michel Lauer،

(73) «الجنة الضريبية» tax haven (وقد تسمى أيضاً الملاذ الضريبي) هي بلد أو منطقة في بلد يتقرّر جعلها ذات نظامٍ ضريبيٍّ مرن، سواءٌ عن طريق فرض معدلات ضرائبَ منخفضة القيمة أو منح إعفاءاتٍ ضريبيّةٍ على أسسٍ تشجيعيةٍ أو عدم فرض أية ضرائب على الإطلاق، مما يشكّل عامل جذبٍ للعملاء حول العالم. إذ يقوم الأفراد والشركات الراغبون في التخلّص من دفع الالتزامات الضريبيّة في دولهم بنقل رؤوس أموالهم إلى تلك الجنان الضريبيّة ويودعونها في مصارفها، التي عادةً ما تكون نظماً مصرفيةً عديمة الشفافية وذات سريةٍ عالية، بحيث يصعب على الجهات الضريبية الدولية اختراقها والوقوف على ما أودع فيها، الأمر الذي يحمي هؤلاء المودعين من الملاحقات القانونية. وعادة ما تتوجه هذه الجنان الضريبية بعروضها الضريبية هذه إلى الأفراد الأثرياء أو الشركات ذات رأس المال المُعتبر لجذب الاستثمارات إليها. ويقدر عدد الجنان الضريبية في العالم اليوم بحوالي أربعين جنةً ضريبيةً تقريباً، منها: جزر مارشال، الجزر العذراء البريطانية، مالطا، ليبيريا، جبل طارق، الباهاماس، وغيرها. - [المُترجِمة]. للمزيد، انظر:
Jannick Damgaard, Thomas Elkjaer, and Niels Johannesen, 'Piercing the Veil: Some $12 Trillion Worldwide is Just Phantom Corporate Investment', *IMF Finance & Development*, June 2018, Vol. 55, No. 2, pp. 51-53.

في المبالغة في قيمة الاستثمارات إلى أن اختفى كامل المبلغ.

لم تكن الجامعة هي المغفّل الوحيد في هذه المسألة، فحتى مدينة لافال City of Laval وقعت في الفخ، مثلما وقعت فيه شركاتٌ خاصةٌ أيضاً:

> تُظهِر المستندات أن كلاً من بومبارديه Bombardier، مؤسسة لوسي وآندريه شانيون Lucie and André Chagnon، ديجاردان Desjardins، بنك كندا الوطني National Bank of Canada، والمدرسة التقنيّة École Polytechnique قد تم إقناعها أيضاً للاستثمار في هذا الصندوق. كما يبدو، أخذت جميع هذه الجهات بنصيحة هذا البرجوازي الألماني. بشكلٍ عام، يبدو أن استثمارات كيبيك التي عُهِد بها إلى لوييه Lauer قد تجاوزت قيمتها نصف بليون دولار.(74)

لقد اختفت جميع هذه الأموال، ومن ثَمّ، تم التحقيق في تعاملات مجموعة لانسر Lancer Group من قِبَل لجنة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية Us Securities and Exchange Commission - SEC، باعتبارها الوكالة المُنظِّمة لسوق الأوراق المالية الأمريكي. لاحقاً، التزمت الشركة في نهاية الأمر بدفع غرامةٍ قدرها 62 مليون دولار، وذلك على الرّغم من عدم توجيه تهمة التدليس fraud إليها رسمياً.

أما فيما يتعلّق بالجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands، فهي مكانٌ مُفضّل للقرصَنَة الماليّة، وهو أمرٌ كانت الجامعة ستعلم عنه فيما لو كانت قد علّمت الناس انتقاد الجِنان الضّريبيّة عِوَضاً عن استخدامها. فوفقاً لمؤشر السريّة المالية Financial Secrecy Index الذي تمّ استحداثه من قِبَل شبكة العدالة الضّريبيّة الدوليّة International Tax Justice Network لتقييم مدى غياب المُحاسبة في التشريعات المُقارَنة، فإن الجزر العذراء البريطانية British Virgin

---

(74) Jean-Francois Cloutier, 'Des placements offshore hantent l'Université de Montréal', *Journal de Montréal*, April 13, 2014.

Islands هي نظامٌ متساهلٌ إلى درجةٍ قُصوى، تقوم فيه كلٌّ من السرّية المصرفيّة والنقص الكبير في التشريعات الأساسية بتوفير غطاءٍ لأي مُحتالٍ يقوم بالتّسجيل هناك. ووفقاً لصندوق النقد الدولي International Monetary Fund، فإن عدداً كبيراً من الشركات قد راكم مبلغ 612 بليون دولار في هذا الأرخبيل الصغير.[75] إلا أنه بالنهاية، نحن لا نعرف ما إذا كان هذا الرقم يعكس بدقّة قيمة المبلغ الذي تمّت مراكمته في هذه الجزر. وفقاً لشبكة العدالة الضّريبيّة الدوليّة International Tax Justice Network، فإن الجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands هي واحدةٌ من أكثر مناطق الاختصاص القانوني إضراراً حول العالم. وتورِد جريدة لوموند *Le Monde* أن هذا المخبأ - الذي كان وكراً سابقاً لأصدقاء سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milošević الصربيين -[76] صار يُستخدم من قِبَل مستثمري العقار الصينيين مثل دينج جياجوي Deng Jiagui، صهر الرئيس زي جينبنغ Xi Jinping، لتحويل الأموال غير المشروعة.[77] كما استخدم مُزارِع النبيذ دومينيك جيرو Dominque Giroud كيان «أوفشور» offshore[78] مركزه في الجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands، مما أدّى به لأن يُتّهم في سويسرا عام 2012 «بإخفاء 13 مليون فرنك عن السلطات الضّريبيّة، من خلال مناوراتٍ ماليةٍ مُعقّدة، تضمّنت شركةً في

---

(75) الأرخبيل archipelago هو تشكيل جغرافي يتكون من مجموعة متقاربة من الجزر. - [المُترجِمة].

(76) كان سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milošević (1941-2006) رئيساً لجمهورية يوغوسلافيا الاتحادية ثم، بعد تقسيمها، رئيساً لصربيا. في عهده نشبت حرب البوسنة والهرسك (من 1992 حتى 1995). تمت محاكمته أمام المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الإبادة الجماعية في تلك الحرب، ولكنه مات ميتةً طبيعيةً أثناء المحاكمة. - [المُترجِمة].

(77) Marina Walker Guevara et al., ‘Offshore Leaks : Révélations sur l’argent caché des “princes rouges” chinois’, *Le Monde*, Jan 21, 2014.

(78) كيانات الأوفشور Offshore هي كياناتٌ تجاريةٌ أو ماليةٌ أو قانونية (شركات تجارية، مصارف، مكاتب محاماة) تجعل مراكز إداراتها في إحدى الجنان الضريبية tax havens، تهرباً من النظام القانوني والضريبي في البلد الأم. - [المُترجِمة].

مدينة زوق Zoug[79] وشركةً «أوفشور» offshore أخرى تقع في الجزر العذراء البريطانية «British Virgin Islands».[80] وهناك أيضاً شركةٌ فرعيةٌ تابعة لسوناتراتك Sonatrach، شركة النفط الجزائرية، تُدين للسلطات الضّريبيّة البريطانيّة بمبلغ 45 مليون دولار، أودعتها في منطقة الاختصاص القضائيّ المُشكِل هذه.[81] كما أن واحدةً من أكثر التفليسات إدهاشاً في التاريخ، قضية بارمالات Parmalat التي تعود إلى بداية القرن،[82] تقودنا أيضاً إلى الجزر

---

(79) زوق Zoug هي مدينة تقع في سويسرا، وهي ذات نظامٍ ضريبيٍّ مُهادن، مما جعلها مركزاً لكثير من الشركات العالمية الكبرى. - [المُترجِمة].

(80) Christian Rappaz, 'Affaire Giroud: Les dessous d'un scandle', *L'Illustré*, March 12, 2014.

(81) Abdou Semmar, 'Les affaires louches de Sonatrach aux öles Vierges Britanniques', *Algérie-Focus*, Feb. 19, 2013.

(82) كانت مجموعة بارمالات Parmalat الإيطالية ثامن أكبر مجموعةٍ صناعيةٍ في إيطاليا، وهي متخصّصةٌ في المواد الغذائية وتشتهر بإنتاج الحليب ومنتجات الألبان. وقد توسع حجم هذه الشركة ونشاطها إلى مدىً ضخم (كان يعمل فيها حوالي 40 ألف عامل موزعين في أكثر من 30 دولة، كما بلغ حجم أعمالها حوالي سبعة مليارات يورو، وهو المبلغ الذي يفوق الناتج المحلي لدول أفريقيّة مثل السنغال وأنغولا أو جنوب أمريكية مثل بوليفيا وباراغواي). وقد ظل هذا النجاح قائماً إلى أن قامت بارمالات Parmalat بتأسيس غابةٍ متداخلةٍ من الشركات التابعة التي تمثل واجهةً لها في مناطق الجنان الضريبيّة (كالجزر العذراء البريطانية وجزر كايمان وغيرها). ولرفع قيم أسهمها في البورصات العالمية، أعلنت بارمالات Parmalat أنها قد حققت أرباحاً تصل إلى أربعة مليارات يورو تقريباً، وأن هذه الأرباح مودعةٌ في «بنك أميركا» Bank of America الواقع في جزر كايمان The Cayman Islands، ثم قدّمت وثيقة للمدققين الماليين تدعي صدورها عن هذا المصرف الأميركي لتأكيد مزاعمها بأنها تمتلك أموالاً سائلة واستثماراتٍ بهذه القيمة. لاحقاً، أكّد المصرف المعني أن هذه الوثيقة هي وثيقةٌ مزورة، وأن الموجودات المدعاة لا وجود لها في حساب الشركة. من هنا، انهارت قيمة أسهم بارمالات Parmalat فلم تعد تساوي شيئاً، فأعلنت الشركة إفلاسها عام 2003، بخسارةٍ بلغت حوالي 14 مليار يورو، نجم عنها تبديد مدخرات أكثر من 100 ألفٍ من صغار المستثمرين وتعرّض كثير منهم، بدورهم، للإفلاس. فوراً، قامت الحكومة الإيطالية بتحضير خطة إفلاس سريعة أعدت خصيصاً لمجموعة بارمالات Parmalat بسببٍ من تعقّد الوضع نظراً لضخامة نشاط هذه المجموعة، وتقدّم مجموعة الدائنين الذين لم تسدّد لهم بارمالات Parmalat مستحقاتهم المالية بعد بطلب حمايةٍ من القضاء. وتمّت محاكمة

العذراء البريطانية British Virgin Islands، باعتبارها إحدى الجِنان الضّريبيّة التى كانت بارمالات Parmalat تستخدمها.

من كل ذلك، يتبين أن جامعة مونتريال Université de Montréal كانت في وضعٍ يسمح لها بالعلم - منذ ثمانينات القرن الماضي، إن لم يكن قبل ذلك - بأن النظام الليبرتاري[83] للجزر العذراء البريطانية British Virgin Islands لم

مؤسس بارمالات Parmalat كاستيلو تانزي Calisto Tanzi (72 عاماً) بتهم النصب والاحتيال لما تبين لاحقاً من وجود الكثير من الممارسات المتعلّقة بالتزوير والحسابات المُتلاعب بها والميزانيّات غير المنضبِطة والأرباح الوهميّة، وتم الحكم عليه بالسجن في حكم عبّرت المحكمة فيه عن قناعتها بكون تانزي Tanzi قد قام ارتكب جرائم تزوير الحسابات وتضليل المراجعين والتلاعب بأسعار أسهم الشركة. تمت متابعة القضية، إلى أن أيدت المحكمة العليا الإيطالية الحكم الصادر فيها، ومنح حوالي 30 ألف مساهم في الشركة الحق في الحصول على تعويضاتٍ من هذه التفليسة بقيمة 103 ملايين يورو، وذلك بمثابة تعويضٍ عن الأضرار التي تعرّضوا لها إثر إفلاس الشركة. - [المُترجِمة]. للمزيد، انظر:

Rezart Dibra, 'Corporate Governance Failure: The Case of Enron and Parmalat', *European Scientific Journal*, June 2016 edition vol.12, No.16, p, 286 amd after.

(83) «الليبرتارية» Libertarianism هي اتجاهٌ فكريٌّ سياسيٌّ اقتصادي، تكوّنت معالمه في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك في أعمال كل من جون لوك John Locke وديفيد هيوم David Hume وآدم سميث Adam Smith وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson وتوماس بين Thomas Paine. ويرتكز هذا الاتجاه على صون الحرية الفردية، مع الدعوة إلى التحرّر وإزالة القيود المفروضة على الأفراد من قبل الدولة (كالقوانين) أو من قبل المجتمع (كالعادات والتقاليد)، والتقليص من نطاقها ما أمكن، باعتبار أن الفرد هو من يملك نفسه، ومن ثم تكون له هو دون غيره حرية التصرف فيها من حيث الفكر والفعل ومن حيث الملكية، ما دام هذا التصرّف لا ينطوي على تعدٍّ على الآخرين. من هنا، فإن الليبرتاريين يدعون دائماً إلى تحجيم أدوار الحكومات والتضييق من تدخلاتها الفاعلة في الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية، وقصر وظائفها على الأدوار الدُّنيا التي تضمن حماية الحريّات الفردية، والملكية الخاصة، والسوق الحرّة. ومن أهم ركائز الليبرتارية: (1) الفردانية والحقوق الفردية، (2) حكم القانون rule of law، بمعنى إخضاع جميع آليات الدولة ومؤسساتها وعلاقات الأفراد ببعضهم أو بالجهات الحكومية لحكم التشريعات الصادرة عن البرلمان باعتباره سلطة منتخبة ديمقراطياً، (3) الحكومة المحدودة، أو ما يسمى بـ «دولة الحارس الليلي» night-watchman state، ذات المهام المحدودة والدستور الواضح الذي

يكن بأي شكل مِن الأشكال مكاناً آمناً لإيداع أموالها. لماذا، إذاً، اختارت إدارة الجامعة أن تستثمر أموالاً هائلة هناك، تُمثِّل 10% من خطّة التقاعد لموظفيها؟ ولماذا قامت كلية مونتريال التقنيّة École Polytechnique Montréal بالأمر ذاته؟ ما الذي كانت الجامعة تفعله آنذاك؟ لقد كانت تجني «عوائد استثنائيّة» exceptional returns، كما يؤكد مقالٌ منشورٌ في جريدتها الداخلية Forum عام 1998، «إن صندوق PRUM يستفيد من عوائدَ استثنائيةٍ، ويُصنَّف أولاً في شريحة صناديق التقاعد بقيمةٍ تجاوز 250 مليون دولار». لحسن الحظ، فإن «أعضاء صندوق التقاعد الذين يشعرون بالتوتّر عندما يشهدون تقلّبات البورصة عليهم أن لا يقلقوا، فصندوق PRUM مستمرٌ في كونه بصحةٍ ماليةٍ جيّدة، ليس فقط للعام 1997، ولكن أيضاً للأشهر التسعة الأولى من عام 1998».[84] وسوف يصبح الأخير أولاً. عُرِفت القضية بداخل جامعة مونتريال بحلول العام 2003، بعد أن كشف عنها البرنامج التفزيونيّ «منطقة حرّة» *Zone*

يفرض القيود على السلطة ويحدّ من استبدادها، (4) الأسواق المفتوحة، غير الموجَّهة من قبل الحكومات، باعتبارها الطريق إلى الحرية الخاصة والتبادل العقدي بالوسائل الرضائية التي تتيح خلق الثروة ومن ثم تحقيق الرفاهية، (5) النظام التلقائي spontaneous order، أي إفساح المجال للأفراد لتشكيل تجمّعاتٍ حرةٍ ومفتوحةٍ ذات أهدافٍ مشتركة، ومن ثم تحقيق الانسجام الطبيعي للمصالح الفردية، عن طريق المنافسة الحرّة والسوق المفتوحة، من دون تدخّل الدولة فيها، (6) تشجيع العمل والإنتاج، مع الدعوة إلى إلغاء الضرائب وعدم توزيع الثروات على من لم يشاركوا في خلقها، (7) مبدأ السِّلم، لأن الاقتصادات الناجحة هي آلياتٌ ناجعةٌ للتطور والتغيير الإيجابي، فيما الحروب عائق له بكل ما تجلبه من عنف وخراب. - [المُترجِمة]. للتوسع: صمويل بريتان وآخرون، *مستقبل الليبرتارية* (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2008)؛ محمد عثمان محمود، *العدالة الاجتماعية في الفكر الليبرالي السياسي المعاصر* (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014). وانظر أيضاً:

Daniel D. Moseley, 'What is Libertarianism?', *Basic Income Studies*, Vol. 6, No. 2, June 25, 2011.

(84) François Lachance, 'La caisse du RRUM obtient un rendement exceptionnel', Forum, Nov. 9, 1998.

Libre الذي بثته قناة راديو كندا Radio-Canada في يناير 2004.[85] رفع الأساتذة دعوىً جماعية class action[86]، ولكن التسوية حول الموضوع تمّت

---

(85) 'Le risque fiducaire', Zone Libre, Radio-Canada, Jan, 30, 2004.

(86) «الدعوى الجماعية» action class هي دعوىً يقيمها فرد أو جماعة (يُطلق عليهم «المُدَّعي» أو «ممثل الجماعة») باسم مجموعة من الأفراد ذوي المطالب المماثلة (ويُسمون group members) يشتركون في أن لهم ذات المركز القانوني تجاه المدّعى عليه، الذي قد يكون شخصاً طبيعياً أو اعتبارياً (و إن كان الأخير هو الأغلب). من ذلك، مثلاً، أن تقوم مجموعةٌ من المُدخنين المصابين بسرطان الرئة بمقاضاة شركةٍ لصنع السجائر. هنا، يباشر المُدَّعي تقديم الدعوى الجماعية نيابةً عن المجموعة من دون أن يحتاج إلى موافقة جميع أعضائها، وتتولى محكمة واحدة النظر في جميع المسائل المتعلقة بجميع أعضاء المجموعة بصدد هذه الدعوى. ولا يكون مجموعة الأعضاء في الدعوى الجماعية مسؤولين بصفةٍ فرديةٍ عن تكاليف الدعوى الجماعية، بل يكون «المُدّعي» مسؤولاً وحده عن هذه التكاليف. وما لم يكن أصحاب المصلحة قد اختاروا البقاء - ابتداءً - خارج هذه الدعوى القضائية (وهو ما يعرف بـ opting-out)، فإنه إذا صدر الحكم أو التسوية لمصلحة المُدّعي ومجموعة أعضاء المجموعة الذين قرّروا أن يكونوا جزءاً من الدعوى الجماعية (ويسمى ذلك opting-in) فإن هؤلاء يستفيدون جميعاً من التسويات المالية أو التعويضات القضائية التي تمخّضت عن الدعوى. أما إذا خسر مجموعة الأعضاء دعواهم الجماعية أو كان القرار فيها غير مرضٍ لهم فإنهم يلتزمون مع ذلك بأي حكمٍ قضائي أو تسويةٍ يتمّ التوصّل إليها، كما أنهم لا يعودون قادرين على تقديم نفس الدعوى في إجراءات دعوىً جديدة. وعلى أية حال، وأياً ما كانت النتيجة التي تنتهي إليها الدعوى الجماعية، فوحدهم الأعضاء الذين اختاروا أن يكونوا خارج الدعوى هم من يحق لهم مطالبة المُدّعى عليه في دعوىً قضائيّة جديدة ومستقلة. ولا شك أن الدعوى الجماعية بذلك هي آليةٌ قضائيةٌ فعالةٌ جداً لتسهيل المطالبات القانونية المُشتركة وتنظيمها، إذ يكون للجمعيات معها حق التقاضي دفاعاً عن مصالح أعضائها، فيتاح لها - في حال الاعتداء على أيٍّ من المصالح التي أنشئت من هذه الجمعيات من أجلها - الحق في رفع الدعوى المدنية (سواء أمام القضاء المدني أو القضاء الجزائي) للمطالبة بالتعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت بالمصالح الفردية والجماعية لأعضائها، ويثبت لها في هذا الصدد الحق في مباشرة كافة الحقوق المُعترف بها للطرف المدني. ولعل في النقابات العمالية واتحادات ملّاك الشقق والمباني والجمعيات العمومية للشركات وجمعيات حماية المستهلك أمثلةً جيدةً على مثل هذه الجمعيات. يُذكر أن التشريعات العربية، في عمومها، لا تعرف فكرة الدعوى الجماعية، فما زالت تعتمد الفكرة التقليدية للدعوى، إذ لا يكفي أن تكون للمدعي مصلحة قائمة فقط قبل السماح له بأن يكون طرفاً في الدعوى، بل لا بد أن تكون مصلحته هذه شخصية ومباشرة وفردية أيضاً.

خارج المحكمة للأسف، تاركةً عدداً من الأسئلة من دون إجابات: لأيّ غرضٍ كانت أموال الجامعة تُدار؟ وما هي «اللّعبة» التى يلعبها إداريو الجامعة؟

بطبيعة الحال، فإن جامعات كيبيك لم تكن الجامعات الوحيدة التي تضع أموالها في الجِنان الضّريبيّة. ففي خريف عام 2017 كشفت Paradise Papers («أوراق الجنّة»)(87) عن كون أبرز الجامعات في أمريكا الشمالية وبريطانيا ملتزمةً بشكلٍ كبيرٍ الآن باستراتيجيات الاستثمار بالخارج. لقد قامت كلٌّ من كليات أكسفورد Oxford وكامبردج Cambridge وأوكسبردج Oxbridge بأمرٍ مماثل، بأن «استثمرت سراً عشرات الملايين من الجنيهات في صناديق أوفشور Offshore، بما في ذلك مشروعٍ مشتركٍ joint venture لتطوير الاستكشافات البتروليّة والحفر في مياه البحار العميقة»، فيما استثمر ما يزيد عن مائة جامعةٍ

حول الدعوى الجماعية بشكل عام، أنظر: ماثياس ريمان ورينهارد زيمرمان (محررون)، *كتاب أكسفورد للقانون المقارن* (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)؛ جمال فاخر النكاس، «شرط المصلحة في الدعوى الجماعية مع مقارنة التطبيق المرن في القانون المقارن بالتطبيق المتشدد في القانون الكويتي»، *مجلة المحامي* (تصدر عن جمعية المحامين الكويتية)، السنة 20، ابريل / مايو ، يونيو 1996، ص. 5. - [المُترجِمة].

(87) «أوراق الجنّة» (Paradise Papers) هي عبارةٌ عن مجموعةٍ ضخمةٍ من المستندات (ما يقرب من 13 مليون مستند) التي تكشف تفاصيل الاستثمارات الخارجية السريّة للعديد من أثرياء العالم (حوالي 120 ألف طرف ما بين أفرادٍ وشركات)، والتي تم تسريبها ونشرها على الملأ عام 2017. وقد تم تسريب هذه المستندات بطريقةٍ غير واضحة، إلا أنها تتعلّق جميعاً بشركاتٍ تجاريةٍ وهميةٍ أسّسها مكتبٌ للمحاماة في برمودا Bermuda، بإشراف شركةٍ مقرها في سنغافورة Singapore، بهدف تجنيب العملاء دفع الضرائب لدولهم أو إخفاء تعاملاتهم المالية من خلال شبكةٍ معقدةٍ من الشركات متعدّدة الجنسيّات وبِنى الائتمان المعقّدة والملاذات الضريبيّة التي تعوزها الشفافية. وقد كشفت هذه المستندات عن تورّط العديد من مشاهير العالم بالأمر، وهم يتراوحون بين ساسة (كالملكة إليزابيب الثانية Queen Elizabeth II والرئيس الكولومبي خوان سانتوس President Juan Santos) وفنانين (كالمخرج الفرنسي جان-جاك أرنو Jean-Jaques Arnaud والمغنية الكندية آفريل لافين Avril Lavigne) وشركاتٍ تجاريةٍ كبرى (مثل عملاقَي المعلوماتيّة مايكروسوفت Microsoft وفيسبوك Facebook، نايكي Nike للمستلزمات الرياضية، ماكدونالدز McDonalds للوجبات السريعة، أوبر Uber للنقل، وغيرها). - [المُترجِمة].

وكليةٍ أمريكية - بما في ذلك برينستون Princeton وكولومبيا Columbia وستانفورد Stanford - في كيانات أوفشور offshore كذلك. كما أن لدى كلٍّ من وَقْفِ جامعة تورنتو University of Toronto وصناديق التقاعد الخاصّة بها أموالاً في جنّتين ضريبيّتين خارجيّتين. وعادة ما تتّصِف هذه الاستثمارات بالسريّة القصوى، فوفقاً لنورمان سيلبر Norman Silber الباحث في جامعة ييل Yale University، فإن أعضاء مجلس الإدارة أنفسهم قد لا يتم إعلامهم بشأنها.[88]

إن تخصّص الاقتصاد economics، كما يُدرّس في الجامعة لمن سيقومون بإدارة المؤسّسة بالنهاية، لا يُتصوّر أن يمْنع هذا النوع من المشكلات. ففي المقرّرات التي غالباً ما تُكرّس لتدريس الآيديولوجيا، تذهب واحدةٌ من الأساطير التي يتم تناقلها بشيءٍ من الحنين المحموم إلى أن السوق يحرّكه لاعبون عقلانيون rational actors،[89] يقومون بأخذ القرارت وفقاً لمحتوىً

(88) Ed Pilkington, 'Top US Universities Use Offshore Funds to Grow Their Huge Endowments', *Guardian*, Nov. 8, 2017; Luke Harding and Richard Adams, 'Paradise Papers: Oxford and Cambridge Invested Tens of Millions Offshore', *Guardian*, Nov. 8, 2017; Robert Cribb, 'U of T's Endowment, Pension Funds Have Investments in two Offshore Tax Havens', *Toronto Star*; Nov. 8, 2017; Stephanie Salunov, 'Endowments Boom as Colleges Bury Earning Overseas', *New York Times*, Nov. 8, 2017; Sasha Chavkin, Emilia Diaz-Struck, and Cecile S. Gallego, 'More Than 100 Universities and Colleges Included in Offshore Leaks Database', International Consortium of Investigative Journalists (ICIJ), Blog, www.icij.org, Nov. 17, 2017.

(89) المقصود هنا هو «نظريّة الخيار العقلاني» Rational Choice Theory التي يقوم عليها علم الاقتصاد. فهذا العلم يُعنى بدراسة السلوك الإنسانيّ كعلاقةٍ بين كلٍّ من الغايات والموارد، مما يعني أن المشكلة الاقتصاديّة تدور حول فكرة «الاختيار» choice وما قد يرتبط بانتقاء هذا الخيار من محفزاتٍ ووسائل متاحة. وتعتبر هذه الفكرة أساساً لما تعارف الاقتصاديون على تسميته بـ «نظرية تكلفة الفرصة» Opportunity Cost Theory، والتي يتمثّل فحواها في أن صعوبة حصول الفرد على كل ما يريد في الآن نفسه هو أمرٌ يعني اضطراره إلى أن ينتقي من بين الخيارات المطروحة أمامه. وبذلك، فكل اختيارٍ من هذا القبيل هو أمرٌ يتضمّن - بالضرورة - تكلفةً تسمى «تكلفة الفرصة» opportunity cost، وهي تتمثل بالتضحية التي يتحمّلها الشخص حين يختار بين عددٍ من الاختيارات الممكنة، أي قيمة أفضل خيارٍ متروك

معيّن، وفي حدود أفضل ما يعرفونه وما يقدِرون عليه. كم من الطلبة الأذكياء - الذين يريدون أن يفهموا الأسباب وراء التطوّر الماليّ والصناعيّ المُختلّ للعالم - اكتشفوا أن ارتياد كليات التجارة، الحقوق، أو العلوم السياسية يجعلهم أكثر جهلاً مما كانوا عليه قبل قبولهم فيها؟ هذا، لأن المؤسّسة الأكاديمية تنقل خطاب الجهل وتنتجه معاً.

الخاسِرون

إن لم يفهم الأكاديميون ضرورة التحفّظ العقلاني والتوازن والغموض، فإن طرقاً قاسيةً سوف تُستخدَم لضمان أن يفهموها. ذلك أن الباحثين الذين يُزعج عملهم المصالح المُتنفّذة سوف يدفعون جرّاء ذلك: سوف تتم مضايقتهم، يُسرّحون من العمل، أو تتم عرقلة عثورهم على عمل. لقد وصف ستة عشر أكاديمياً من أمريكا الشمالية هذا الوضع في مجموعة مقالاتٍ بعنوان «صراع الحرية الأكاديمية» Academic Freedom in Conflict،[90] وهي مقالاتٌ تركّز على المعايير المُقيّدة واللوائح الرسميّة التي تحكم، وأحياناً تخنق، وجهات

(فعندما يتوفر للشخص مبلغٌ من المال فيقرر أن يشتري به سيارةً جديدة، على سبيل المثال، فإن شراء السيارة يعني التضحية بالخيارات الأخرى المطروحة مثل ترميم المنزل، أو السفر، أو العلاج، مما يعني أن هذه هي تكلفة الفرصة على المستوى الشخصي). وعليه، فإن النشاط يعتبر «اقتصادياً» عندما يسعى الى مقاومة الندرة النسبيّة للموارد scarcity من خلال العمليّات الإنتاجية، من حيث إن الندرة هي عدم كفاية الموارد المتاحة لإشباع جميع الاحتياجات والرغبات الإنسانية. انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «تطور المنظور القانوني للعمل - من السلعة إلى القيمة: دراسة في المفاهيم الاقتصادية والسياسية والاتفاقات الدولية المتعلقة بقيمة العمل وأثرها في التشريع الكويتي الوطني (قانون العمل رقم 6 لسنة 2010)»، *مجلة الحقوق* (جامعة الكويت)، العدد 1، السنة 39، سبتمبر 2015. - [المُترجِمة].

(90) James J. Turk, ed., *Academic Freedom in Conflict: The Struggle over Free Speech Rights in the University* (Toronto: Lorimer, 2014).

التفكير الحرِجة أو الجديدة بداخل الأكاديميا. كان يمكن لهذه المقالات أن تلقي الضوء كذلك على سياسيات «المنافسة» competition و«التميّز» excellence التي صارت تُخضع برامج الجامعة لمتطلباتٍ تليق بالشركات التجاريّة، لا بمؤسسات تعليمٍ عالٍ. أن الجامعة التي تشكّلها قوىً مثل هذه يمكن أن توصَف، بشكلٍ لا يجانبه الصواب، بأنها جامعةٌ لا يمكن التعرّف عليها أو ربما مفلسةٌ أخلاقياً.

لهذا، فخيبة الأمل التي يمرّ بها من لعبوا «اللّعبة» وأظهروا ثقتهم في النظام – هؤلاء الذين يصِفهم المُحتالون بأنهم مغفّلين، حتى نستخدم تعبير شالاموف Shalamov – يمكن أن تبلغ درجةً قصوى. في عام 2014، كتبَت كاثرين مارتينلي Catherine Martenelli قائلة «شهادتي تؤلمني» *j'ai mal à mon diplôme*، عندما أدرَكت أنه بتقديم شعاراتٍ مثل «اقتصاد المعرفة» knowledge economy فإن الجامعة تضلّل طلبتها بكلماتٍ فارغة.[91] ليس فقط أن الجامعة تضرّ بمهنة طلبتها البحثيّة من خلال تحويل كل شيءٍ إلى الاحترافيّة والأدائيّة المُفرَطة، بل إنها تفعل ذلك من دون هدفٍ أيضاً. لماذا تقضي الجامعة سنوات طويلة في تدريب الخريجين، فقط لترمي بهم إلى البريّة، وهي تعلم جيداً أنها غير قادرةٍ على توفير مساراتٍ مهنيّةٍ لأكثر من 70% منهم؟ تُعطي مارتينلي Martenelli مثالاً مؤلماً: يستمر معهدٌ مُمَوّلٌ من الدولة في تدريب أعدادٍ كبيرةٍ من أمناء المكتبات، في حين أن تخفيضات الميزانية التي تقرّرها الدولة ستقود حتماً إلى تسريح عددٍ كبيرٍ من العاملين من هذا المجال. ورغم أنها مسكونةٌ بهاجس قابليّة خرّيجيها للانخراط في سوق العمل، فإن الجامعة لا تبدو مهتمّةً بجعل الناس يفهمون طبيعة أيٍ من الحقول المعرفيّة فيها disciplines، وذلك فيما عدا الهندسة engineering، الإدارة Administration، الطِب Medicine،

---

(91) Catherine Martenelli, 'J'ai mal à mon diplôme!', *Métro*, (Montréal), Aug. 10, 2014.

علم النفس Psychology، القانون Law، وقليلٌ عداها. إن المجتمع الذي يموّل الجامعة لا يُعطي تفسيراً واضحاً حول الكيفية التي تكون فيها تخصصاتٌ مثل الدراسات الأدبية Literary Studies، التخطيط الحضري Urban Planning، أو علم الاجتماع Sociology ذات علاقةٍ بحياته وتطوّره؛ ربما كان السبب يعود إلى حقيقة أن الباحثين أنفسهم ما عاد لديهم وقتٌ للتعاطي مع هذا السؤال. على المدى الطويل، سوف يجعل هذا الأمر الأكاديميين - وخصوصاً حَمَلَة شهادات الدكتوراه - يبدون هامشيّين إلى حدٍّ لا أمل معه. ومع ذلك، فلو كانت الجامعة جادةً نحو التشارك في الفكر وتطويره، فإن مهارات هؤلاء سوف تكون مُقدّرةً إلى درجةٍ كبيرة، سواء كان ذلك في المجال الوظيفيّ أو من منظور المواطنين.

لهذا، فإن «لعب اللّعبة» هي مسألةٌ عالية الكُلفة، سواء كنتَ قد شاركتَ في هذه «اللّعبة» بشكلٍ أعمىً أو أُجبِرتَ على الامتِثال لقواعدها غير المكتوبة رغماً عنك. والآن، تشمل هذه المتطلّبات النشر المُفرَط بما يتجاوز القدرات الاعتياديّة لأيّ شخص، إلى درجة أن الأمر بأكمله يصبح مُضنياً (أحد الخيارات هنا هو إعادة تدوير الأبحاث أو التشارك فيها مع آخرين لزيادة نصيبك منها). عليك أيضاً أن تجد المال بأية طريقةٍ ممكنة، حتى وإن كان في ذلك تهديداً لاستقلاليّة بحثك - وهو الأمر الذي يمكن أن يحدث فعلاً، لأنك ستُضطرّ إلى اجتذاب كلٍّ من أقرانك الامتثاليين (conformist peers) وجهات التمويل الآيديولوجيّة في الآن ذاته. بالنهاية، يصبح المشاركون صوراً مشوّهةً من أنفسهم: ففيما يلتزمون بالكامل بأدوراهم كمستشارين للحكومة وآيديولوجيين لها، أو يبيعون أنفسهم لسادة الشركات الكبرى، فإن شخصياتهم الأكاديمية تصبح فارغةً بشكلٍ متزايد. على سبيل المثال، فإن المستندات التي حصلت عليها جماعة السلام الأخضر Green Peace تُظهِر أن وي-هوك سون Wei-Hock Soon، العالِم في مركز هارفرد-سميثونيان للفيزياء الفلكيّة Harvard-Smithsonian Center for Astrophysics، كان يتلقّى دفعاتٍ ماليةً من قِبَل القطاع النفطيّ للادّعاء بأن التفاوت في طاقة الشمس هو أمرٌ يمكن أن يُعزى له

الاحتباس الحراري الأخير global warming إلى درجةٍ كبيرة. لقد كان الدكتور سون Dr. Soon يُشاهد في كثيرٍ من البرامج الإخباريّة، في المؤتمرات، وكشاهدٍ أمام الكونجرس وفي عواصم الولايات الأمريكية.(92) كما أن جيمس كريسويل James Cresswell الخبير في الزهور والنحل في جامعة إكستر University of Exeter البريطانيّة كان يُدفع له من قبل شركة سينجينتا Syngenta العملاقة في مجال المبيدات الحشريّة pesticides للقيام بعملٍ يُظهر أن الموت الملحوظ لمُستعمرات النحل حول العالم لا علاقة له بهذه المبيدات.(93) يُضاف إلى ذلك، أن شركة كوكا-كولا كانت قد موّلت دراساتٍ علميةً تدّعي أن سبب السُّمنة لا يكمن في السّعُرات الحراريّة بل يعود إلى نقص الرياضة.(94) هذا، ناهيك عما عُرِف عن أساتذه كليات الطب المُموّلين من قِبَل الشركات الدوائيّة من ميلٍ إلى التهوين من آثار المضار الجانبيّة للأدوية عند مناقشتها في قاعات الدرس.(95) وأخيراً، ففي عام 2010، أظهر البرنامج الوثائقي «مهمةٌ داخليّة» Inside Job أن كثيراً من الاقتصاديين - الذين يُدرّسون في الجامعات وينشرون أبحاثاً «علميةً» ويبذلون النّصيحة بصِفتهم أعضاءً في لجان مؤسّسية - كانوا في الآن ذاته أعضاءً في مجالس إدارة شركاتٍ ماليّة أو صناعيّة، ولعل أوضح مثالٍ على ذلك هو عميد كلية إدارة الأعمال في جامعة كولومبيا Columbia Business School جلين هوبارد Glenn Hubbard.(96)

---

(92) Justin Gillis and John Schwartz, 'Deeper Ties for Corporate Cash for Doubtful Climate Researcher', *New York Times*, Feb. 21, 2015.

(93) Danny Hakim, 'Scientists Loved and Loathed by an Agrochemical Giant', *New York Times*, Dec. 31, 2016.

(94) Anahad O'Connor, 'Coca-Cola Funds Scientists Who Shift Blame for Obesity Away from Bad Diets', *New York Times*, Aug. 9, 2015.

(95) Duff Wilson, 'Harvard Medical School in Ethics Quandary', *New York Times*, March 2, 2019.

(96) Charles Ferguson, *Inside Job*, documentary, Sony Pictures Classics, 2010: John A. Byne, 'Inside Job Causes changes at Columbia', *Poets & Quants*, http://poetsandquants.com, May 18, 2011.

في عام 2014، قام لوك بونفيل Luc Bonneville، أستاذ الاتصالات في جامعة أوتاوا University of Ottawa بنشر مقالٍ مبنيٍّ على سلسلةٍ من المقابلات المتعلّقة بما يستشعره الأكاديميون من ضغطٍ نفسيٍّ مُتزايِد. فتحت عنوان «لعِب لعبة الأداء» Playing the Game of Performance، كتب بونفيل Bonneville:

> القاعدة الأساسية «للّعبة» تعني أن الضغط يبدأ بالتكوّن مع «الإنتاج» العلمي للفرد، إذ «يعرف» الباحثون أنهم ينبغي أن ينشروا، مهما كان الأمر. وعندما لا ينشرون كفاية، يشعر البعض منهم بالإحراج، أو حتّى بالذنب . . . إذ يمكن دائماً نشر المزيد. يستطيع المرء أن يكون دائماً أكثر إنتاجية، وهو يُقارن دائماً بآخَرَ أكثر إنتاجيّة منه. لذلك، على الباحث أن يتقدم بطلبات المنَح والتمويل في كل فرصة، حتى يَظل جزءاً من عالم البحث.(97)

ويتضمن المقال إفاداتٍ مدهشة، مثل هذه الصادرة عن أستاذٍ للتاريخ:

> إن الضّغط على زملائي الأصغر سناً عالٍ جداً، جداً . . . عندما بدأت (في أواخر الثمانينات من القرن الماضي)، كان متوقعاً مني أن أكون أستاذاً جيداً وأن أنشر رسالتي ككتاب أو كمجموعةٍ من الأبحاث. لم تكن هنالك أية اشتراطات، ولم يتم تشجيعي أو ممارسة الضّغط عليّ للحصول على تمويلٍ ما. أما الآن، فإن زملائي الشباب منخرطون في لعبة (التقدّم للحصول على) التمويل.(98)

يشجب الكثيرون ظروف العمل هذه. ومع ذلك، فالقلّة فقط، وفقاً لهذه الدّراسة، يبدون مؤمنين بأنهم يمكن أن يحقّقوا أيّ شيء إذا خطوا خارج «اللّعبة» الأكاديمية الحالية، وكأنه ليس هناك من شيءٍ آخرٍ ممكن، مع أن

---

(97) Luc Bonneville, 'Les pressions vécues et décrites par des professeurs d'une université canadienne', *Questions de communication*, 26 (2014), pp. 197 218.

(98) Bonneville, 'Les pressions vécues et décrites par des professeurs d'une université canadienne'.

أساتذه الجامعة يشكلون واحدة من الفئات السوسيو-مهنية القليلة التي لا رئيس لها. إنهم يلعبون «اللّعبة» فيصبحون «رواد أعمال» entrepreneurs بطريقةٍ سياديّةٍ. لا أحد يتحدّث عن الضّرر الذي يوقعه هذا الامتثال conformism على عملهم، الذي يصبح على إثره تافهاً بالضرورة. قليلون هم من أشاروا إلى ما أثارته إيفون ريفارد Yvon Rivard عام 2012:

> الأستاذ الجامعي «الجيد» اليوم هو الأستاذ المعفيّ من التدريس لأنه حصل على الكثير من المنَح، حتى صار ينبغي أن يُكرّس نفسه للبحث في شيءٍ هو يعرفه سلفاً، من خلال تقديم مشروع (مع الميزانية والببليوجرافيا)[99] إلى باحثين (مُحكّمين) كان هو نفسه قد قام بتقييمهم في منافساتٍ سابقة.[100]

على العكس، وفيما يستمرّون في وصف أنفسهم بأنهم مُسْتَحوَذون ومُنهَكون، فإن الأكاديميين يُبْقون على الخلط الخجول بين النشر المُسرِف و«البحث» research، بالرغم من أنه صار من المفهوم جيداً حالياً أن واحِدهما يُضرّ بالآخر، وأن إعادة تدوير المحتوى وجعل عِدّةَ أشخاصٍ يقومون بالتوقيع على بحثٍ لم يكتبه إلا شخصٌ واحدٌ هي مُمارسةٌ شائعة.

بل إن هؤلاء الأكاديميين ، فوق ذلك، يقيسون مشاعِرَهم بشأن «عدم القيام بما يكفي» أو عدم كون المرء «مُنتجاً» إلى درجةٍ كافية أو عدم «التميُّز»، من خلال استخدام عباراتٍ كميّة: «لن يُرضيني أن أكون ضمن الثلث الأدنى (المُكوّن من أقل الأساتذة أداءً)، سوف أضغط على نفسي حتى ألتحق بالثلث

---

(99) الببليوجرافيا Bibliography، في علم المكتبات، هي تسميةٌ تطلق على القائمة الكاملة للمراجع التي مثلت مصادر المعلومات التي استند إليها بحثٌ ما، فتتضمن البيانات التفصيليّة لكل مرجعٍ من حيث اسم المؤلف، عنوان المرجع (سواء كان كتاباً أو دراسةً أو أطروحة جامعية أو غيرها)، رقم الطبعة (في حال تعددها)، وبيانات النشر (اسم الناشر ومكان النشر وسنته). - [المُترجِمة].

(100) Yvon Rivard, *Aimer, enseigner* (Montreal: Éditions du Boréal, 2012).

الأعلى منهم». هكذا يقول لنفسه الباحث الذي تتحدّد حياته من قبل أقرانه، مع أنهم، مثله، يشاركون بعماءٍ في النّظام ذاته.

بمقاربةٍ تحليليّة أكثر، ترى أستاذة القانون أندريه لاجوا Andrée Lajoie أن مشاعر الذنّب هذه تجد سببها في ظروف المِنَح البحثيّة: إن الأمر بنيويٌّ قبل أن يكون نفسيا. في كتابها «يعيش البحث الحر» *Vive la recherche libre!*، تقول لاجوا Lajoie إنه منذ نهاية العام 1990 كان الباحثون عرضةً لبرامج «تشجّع المشاركات بين كل من الباحثين والأشخاص المنخرطين في الممارسة العمليّة، العمليات التدخليّة، أو التطوير السياساتي (قصداً إلى التركيز)»، وهو ما يعني «انتباهاً أكبر إلى فريق العمل». إن إحدى نتائج تشجيع شبكات بحثٍ مثل هذه هو تحييد المبادرات، مفاقمة الامتثاليّة الثقافية intellectual conformism، التحالفات الاستراتيجية، والتواطؤ المصلحيّ الذي يضرر بـ «البحث الحر».[101] وتلاحظ لاجوا أن الالتزامَ بتكليف الفِرَق بمهامٍ بحثيّة عادةً ما يقترن بدعمٍ لأهدافٍ مُستهدفةٍ «رياضياً»؛ إن مقاربةً نفعيةً utilitarian approach من هذا القَبيل لهو أمرٌ يلائم احتياجات القوى المؤسّسية المختلفة. وبهذه الطريقة، يتم مأسَسَة الامتثال conformism من خلال ديناميكيّاتٍ منحرفة؛ ففي البداية تدفع هذه الديناميكيّاتُ بباحثين أكثرٍ فأكثر لمقارنة أنفسهم بالآخرين من خلال مجموعةٍ موحدةٍ من المعايير، وبعد ذلك تحدوهم إلى التنافس فيما بينهم، وكل ذلك فيما هم يعتقدون أن الضّغط إنما يأتي من دواخلهم. وفي فرنسا، قدّرت لجنة الأخلاقيّات الخاصّة بالمركز الوطني للبحث العلمي *Le Centre national de la recherche scientifique* - CNRS، في مستندٍ لها نُشِر في مايو من عام 2014، أن إخضاع الأبحاث الجامعيّة لمعايير المشروعات الخاصّة كان ضاراً بتطوّر هذه الأبحاث. إذ وفقاً للّجنة، فإنه «بالعمل، فإن الاستخدام الطاغي لمعايير التميّز كأساسٍ لسياسات البحث العلميّ هو أمرٌ ينطوي على

(101) Andrée Lajote, *Vive la recherche libre!* (Montreal: Liber 2009).

مخاطرةٍ وعلى تحيّز معاً». هذا، لأنه من ضمنِ أشياءَ أخرى، فإن «تحديد الأولويّات قد يكون ذا أثرٍ سلبيٍّ على إبداع الباحثين»، وأن «المنافسة القويّة بما يزيد عن اللازم قد تؤدي إلى الاختلال وفقدان الفعالية».[102]

وعلى خلاف لاجوا Lajoie، فإن أخلاقيي CNRS يعتقدون أن القواعد المبنيّة على الفرد تقود إلى تطوير مشاريعٍ بحثيةٍ عديمةِ الجدوى. ولهذا السبب، ينصح المؤلفون بأن تقوم المؤسّسة «بتوفير دعمٍ أساسيٍّ وموارد بشريةٍ كافيةٍ لاستمرار عمل الفِرَق الكفُوءَة من دون إخضاعها لمعايير «التميّز» المُعلنة». وتبدي اللجنة استنكارها لكون نظام «الدّعوة لتقديم العروض call for tenders كثيراً ما يقود إلى البحث عن الموضوعات التي يُراد لها أن تكون جديدةً دائماً ومتعلّقةً بالموضوعات الدارجة، وذلك عِوضاً عن استغلال الموارد المُتاحة»، لا سيما وأن هذا الوضع «سيعزّز، بطبيعة الحال، من تطوّر السلوك الفردي»، رغم أن «الإنجازات رفيعة المستوى يندر أن تنتج عن فرد واحد، فهي عادةً ما تكون مُحصِّلةً للعمل الجماعي».[103] بذلك، فمهما كانت مقاربتك لهذه الظاهرة المؤسّسية، فإن النتيجة العامّة ستكون ذاتها.

إن هذه الانتقادات تقود بالنّهاية إلى لامبالاةٍ مفهومةٍ في أوساط من كرّسوا أنفسهم لحرفة التعليم، فالكُتّاب الذين تمّت دعوتهم للمساهمة في عددٍ خاصٍ من مجلة *Contre Jour*،[104] وهو عددٌ مكرّسٌ للخيال والتدريس، حاولوا الارتداد إلى مواقعٍ يظلون قادرين فيها على إسباغ معنىً قويٍّ على الفصل الدراسي، من حيث النظر إليه كمكانٍ ما زال يمكنك الاندهاش «مما تجده فيه

(102) Comité d'Ethique du CNRS (COMETS) and Présidence du CNRS, 'La politique de l'excellence en recherche', CNRS, www.cnrs.fr, May 2014.

(103) COMETS and Présidence du CNRS, 'La politique de l'excellence en recherche'.

(104) اسم هذه المجلة، *Contre Jour*، مستقىً من تقنية التصوير التي تحمل ذات الاسم بالفرنسية، والتي تسمى بالإنجليزية against day light أي مواجهة ضوء النهار. وتقوم هذه التقنية على تصوير الموضوعات مع إظهار ضوء الشمس خلفها مباشرة، لضمان الحصول على خلفيةٍ مُضاءةٍ بقوة - [المُترجِمة].

من دفقٍ للكلمات التي تحملك على التركيز من دون حراك»، آخر الأمكنة التي لا يُحتَمل الغباء فيها، المكان الذي يُمكِنك أن تجد فيه التحرّر من خلال علاقةٍ تناقضيّةٍ مع القواعد، أو المكان الذي يوّفر أوائل الذكريات الحميمة عن الحبّ الخام والقويّ الذي لن تحصد نتائجه إلا بعد فترةٍ طويلة.[105]

لقد جاهد العديد من هؤلاء الكُتّاب وسط متاهاتٍ من خيبات الأمل حتى يصلوا إلى هذه المواقع. حكماءَ كانوا أو جهلة، من الواضح أنهم وجدوا صعوبةً في تجاوز الانتقادات ذات العلاقة بخيبة الأمل التي يتّصِف بها واقع الجامعة. من منظور الجُزُر الأخيرة للتّدريس غير الفاسد، يبدو أنه ليس هنالك من أفقٍ يمكن تخيله.

آثارٌ مُعاكِسَة

في إشارته لألف تكتيكٍ وتكتيكٍ مناورٍ من تلك التي تُطبّقها الجامعة، يصِفُ طالب دكتوراه فرنسيّ مقيّدٌ في إحدى جامعات كيبيك الأمر من خلال الإحالة إلى صورة شريكٍ مؤذٍ abusive partner في علاقةٍ ما. كجزءٍ من علاقة الإغواء والاندماج التي تربِطك بالمؤسّسة، فإن كل شيءٍ يتمّ بالتدريج لضمان تبعيّتك لها. يبدأ الأمر بحبٍّ من النّظرة الأولى («أنت الأفضل»، «مستقبلنا معاً سوف يكون استثنائياً»)؛ وبعدها؛ تُقدِّم الجامعة قواعدَ هي فقط من يفهمها. «يمرّ الزمن وتقضي أنت الكثير من الوقت كي تتخصّص في مجالٍ ضيقٍ جداً حتى تصل إلى درجة تبدأ معها بالتفكير بأنه ليس فقط أن الأكاديميا/ البحث هي فرصة النموّ الوحيدة أمامك، بل إنها الطريقة الوحيدة أصلاً لتطوير كامل قدراتك بطريقةٍ مهنيّة».[106]

---

(105) 'Imaginaires de I'enseignment', *Contre-jour*, No. 33, Summer 2014.

(106) Anonymous. 'Academia: An Abusive Partner', Mettre la thèse en parenthèse, (blog), http://thesenparenthese.blogspot.ca, July 4, 2014.

والآن، وقد صرت أسيراً، فلن يمكنك الفرار من جملةٍ من الخطوات التي تمثل جزءاً من البرنامج الجامعي، والتي غالباً ما يتكشّف كونها إما طقوس إذلالٍ عقيمة، أو ابتزازاً مرتبطاً بتمويلٍ متدنٍّ إلى درجة المجاعة، أو مجرّد أشكالٍ رمزيةٍ للوضع الاجتماعي: «عليك أن تشرح في رسائلَ طويلةٍ سبب طلبك لسنةٍ إضافيةٍ لإنهاء أطروحتك، وأن تستجدي قسمك العلميّ لإصدار الموافقة». هذه اللّطمات المُتكرّرة هي سِمةٌ مُمَيِّزةٌ للفترة التي تفقد خلالها تقديرك لذاتك. هنا أيضاً تلاحظ، للمرّة الأولى، مظاهر عدم انتظام عملية التوظيف وطبيعتها الاعتباطيّة، إضافةً إلى الجروح المميتة التي يمكن أن تسبّب فيها أحياناً. في هذه المرحلة، مدفوعاً إلى الحافّة وأحياناً شاعراً بالاشمئزاز من نفسك - بل وحتى من ممالِك المعرِفة والجَمال التي قدّمتَ على مذابِحها الكثير من التضحيات - تبدأ في رؤية أي عرضٍ للتوظيف وكأنه فَضْل، سواءٌ تمثّل بتدريس مقرّرٍ مقابل أجور تصل إلى حدٍّ خط الفقر أو بالعمل كعريفٍ متطوّعٍ في ندوة. «باقة من الزهور ووعدٌ بأن كلّ شيءٍ سيتغيّر، وعد»، يكمل المؤلف، مواصلاً تعبيره المجازيّ:

> «وحيث إنك تحبُّ التدريس والبحث (أنت تحبه/ تحبها)، وحيث إنك على قناعةٍ بأن أحداً لا يمكنه توظيف من يماثلك تخصّصاً (على كل حال، أنا مجرد فاشل، لن يحبني أيّ شخصٍ آخر)، فإنك تستمرّ بالأمل في أنك سوف يتم توظيفك في يومٍ ما (إن شريكك سوف يتغيّر، وإنه سوف يعاملك كما ينبغي)، وسوف تُترك إلى أن تنطفئ تدريجياً (حتى المرة القادمة) رغبتك الغامضة في أن تعيد التعلم في مجالٍ آخر».

ولكن هذا النوع من العلاقات قد لا يكون مَجازاً دائماً. يصِف أستاذ الأدب إيفون ريفار Yvon Rivard كلاً من فضائل التدريس وانحرافاته معاً. فالمهنة التي يريد أن يدافع عنها وأن يوضّحها - كقارئٍ لفيرجينيا وولف

Virginia Woolf،[107] هيرمان بروخ Hermann Broch،[108] جورج شتاينر George Steiner[109] أو بيير فاديبونكور Pierre Vadeboncoeur[110] - تتضمّن تعريض الطلبة لنصوصٍ تستحقّ التدريس كمُدخلٍ إلى موضوعاتٍ أوسع؛ موضوعاتٍ أكبر من ذات الفرد. في الحقيقة، إن هذه الموضوعات هي من العَظَمَة حتى أن الأستاذ غير المُنهَك يعيش - بصرف النظر عن عقده الوظيفي وعن المهام المطلوبة منه - من أجل حاجته الشخصيّة لمشاركة فصله الدراسيّ حالة عدم الاستقرار التي تثيرها هذه الموضوعات في داخله. «يُصبح المرء أستاذاً مثلما يصبح كاتباً، أي لأن لديك قدرةً لتلقّي الصدمات مع عدم قدرةٍ على تحمّلها من دون شرحها لنفسك من خلال الكتابة أو التدريس».[111] يُجسّد النصّ العظيم شيئاً يتعدى التمثّلات المسبّقة الصّنع ويتعدّى كذلك طرق الفهم

---

(107) فيرجينيا وولف Virginia Woolf (1882-1941) هي واحدةٌ من أهم الروائيات الإنجليزيات. لها أعمالٌ روائيةٌ عديدة، من أشهرها «السيدة دالواي» *Mrs. Dalloway*، «الفنار» *The Lighthouse*، و«غرفة للمرء وحده» *A Room of One's Own* (يذهب جانبٌ كبيرٌ من النقد الأدبي إلى اعتبار هذه الأخيرة من الإرهاصات المبكّرة للكتابة النسويّة الصِرفة). قضت فيرجينيا وولف الشقّ الأكبر من حياتها في دوراتٍ متكرّرةٍ من الإصابة بالاكتئاب والتشافي منه، إلى أن انتحرت في عمر الـ 59 عاماً. - [المُترجِمة].

(108) هيرمان بروخ Hermann Broch (1886-1951) هو كاتبٌ نمساويٌّ من كُتّاب الحداثة. كان معارضاً للنازيّة، فاعتقله الجيش الألماني لدى احتلال ألمانيا للنمسا عام 1938، ثم أطلق سراحه بجهود بعض أصدقائه، ومنهم الكاتب الآيرلندي جيمس جويس James Joyce، فهاجر إلى بريطانيا ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة. من أشهر أعماله الأدبية روايتا «موت فيرجيل» *The Death of Virgil* و«المُسَرْنَمون» (أو «السائرون نياماً») *The Sleepwalkers*. كان بروخ Broch مرشحاً للحصول على جائزة نوبل في الآداب عام 1950. - [المُترجِمة].

(109) جورج شتاينر George Steiner (1929-) هو كاتبٌ ومفكرٌ وناقدٌ أدبيٌّ موسوعي، أمريكيٌّ من أصلٍ فرنسي. له كتاباتٌ عديدةٌ حول اللّغات والآداب والتاريخ والمجتمع، وهو محاضرٌ في جامعة كامبريدج Cambridge University. - [المُترجِمة].

(110) بيير فاديبونكور Pierre Vadeboncoeur (1920-2010) هو محامٍ وكاتبٌ كندي. نشر العديد من الكتابات، كما أنه ناشطٌ في القضايا العماليّة. - [المُترجِمة].

(111) Rivard, *Aimer, enseigner*, p. 11.

المُكتَسَبة، فالهدف من التدريس هو مُصالحة الطالب مع ذاك الجزء من نفسه القادر على القبض على الأسئلة الأوّلية، أو الأوضاع الجماليّة المثيرة للقلق إلى درجةٍ عميقة. إنه ينطوي أيضاً على مرافقة الجانب الآخر للطالب؛ الجانب الذي يجد صعوبةً في تحمّل وقع النص وترجمة معناه على الوجه الأكمل من خلال مصطلحاتٍ اعتيادية. في هذا الشأن، يتفق ريفار Rivard مع الفليسوف الفرنسي باتريس لورو Patrice Loraux، الذي يذهب إلى أن الأستاذ ينبغي أن يصدم طلبته إلى حدٍّ ما، مهما كان صغيراً، حتى يستفزّ في دواخلهم ردّة فعلٍ حتمية.[112] كان دومينيك بيستر Dominique Pestre، المتخصّص في الإبيستمولوجيا،[113] يقول إن الدّهشة التي تعتريك عندما ترى عظمة الأشياء هي شيءٌ يُختَبر أيضاً في الحقول المعرفيّة disciplines التي يُظن خطأً أنها باردةٌ ورزينة، كالفيزياء مثلاً.[114]

من نقطة البداية هذه، يقدم ريفار Rivard تأملاً هادئاً في الموت، فيذهب إلى أن المعرفة تتطلّب منا، بإصرار، أن نطوّر ضرباً من الهدوء الذي يسمح لنا بالنّظر إلى الموت وقبوله باعتباره أمراً محتّماً. إن هذا يعني أن محاولاتنا لأن نعرِف وأن نُدرّس تحتاج إلى أن تنطوي علاقتنا مع المعرفة على التواضع. وكجزءٍ من علاقة الإغواء التي تمثّل قلب العملية التدريسيّة، يستغلّ الأساتذة

(112) Patrice Loraux, *Le Tempo de la pensée* (Paris: Éditions du Seuil, 1993).

(113) الإبيستمولوجيا Epistemology هي نظرية المعرفة، وهي فرعٌ فلسفيٌّ يبحث بشكلٍ نقديٍّ في طبيعة المعرفة وحدودها، من خلال تناول أنواع العلوم، فروضها، إمكاناتها، تطورها، مناهجها، ونتائجها. - [المُترجِمة]. أنظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «قلاع وجسور: الدراسات البينية وأثرها في الاتصال بين الحقول المعرفية - دراسة في القانون كحقل معرفي مستقل وعلاقته بعداه من العلوم»، *مجلة الحقوق* (جامعة الكويت)، العدد 3، السنة 31، سبتمبر 2007. وانظر أيضاً:

The Penguin Dictionary of Philosophy, ed. By Thomas Mautner (London: The Penguin Group, 2000), pp. 174-175.

(114) Dominique Pestre, *â contre-science: Politiques et savoirs des sociétés contemporaines* (Paris: Éditions du Seuil, 2013).

سلطاتهم أحياناً، وقد يبلغ ذلك درجةً يتسبّبون فيها بكربٍ قد يصل إلى حدّ الانتحار. ومن خلال دَحض فكرة أن هذه لا تعدو أن تكون حالاتٍ متفرّقة، فإن مواقعَ على الإنترنت مثل «الأكاديميا تقتل أصدقائي» Academia is Killing my Friends أو «أكاديميون مكتئبون» Depressed Academics تجمع قصصاً حول أعضاءٍ في المجتمع الأكاديميّ ممن لاقوا الأذى جرّاء الأجواء الخانِقة والقامِعة لهذه المؤسسة. إن أموراً مثل التحرّش الأخلاقيّ والنفسيّ والاعتداء الجنسيّ والتفرقة توجد جميعها كجزءٍ من العلاقات التي لا يحتكِم الطلبة فيها، غالباً، إلا إلى قليلٍ من السلطة، لا سيما إذا كانوا ينتمون إلى مجموعاتٍ من تلك الأكثر هشاشة (كالنساء، الطلاب الأجانب، الأقليات الواضحة، وغيرهم). وبهذا الصدد، يركّز كتاب ريفار Rivard على الجانب الأخلاقيّ الخاص بالتعدي الجنسيّ بين أستاذٍ ذكرٍ وطالبةٍ أنثى، مقتبساً مواقفَ من روايات كلٍّ من ج. م. كويتزي J.M Coetzee وبيتر هاندكه Peter Handke وفيليب روث Philip Roth، ومتحدياً أفكار الكاتب جان لاروز Jean Larose، الذي طوّر نظريةً يؤكّد فيها صحّة مثل هذه التصرّفات. فهذه التعديّات تمنع الطالبة من اتّباع خطوط الهرب المعرفيّة التي يفتحها أمامها النص، مقابل الرضى الدنيء الذي يكتسبه الأستاذ الذي يقف بين هذه الطالبة والنص. إنه يقارن هذه «العبورات» *travers* بعدم القدرة الأنثروبولوجيّة للرجل الشاب على تعلّم التسامي برغباته الفورية، كتحويلها إلى رغبةٍ بالأبوة مثلاً.

ويبلغ العنف قمّته في الجامعات الأمريكية، حيث تكون قيم الصّدارة للتفوّق في الرياضة ولمبدأ «إعمل بقوة، إلعب بقوة» work hard, play hard الذي يتمتع هناك بالغَلَبَة على الاعتبارات العقلانيّة. لقد عمِلت الجامعات الأمريكية بشكل تدريجيّ لأن تصبح جامعاتٍ غير مثقفة،[115] يتم فيها غرسُ أفكارٍ مثل معاداة

---

(115) في النص الأصلي ترد كلمة philistine، التي تعنى الشخص المُعادي للثقافة أو غير الآبه بها - [المُترجِمة].

النساء misogyny والعنصرية وإدمان الخمور، بشكل علنيّ وإلى درجةٍ مثيرةٍ للقلق، في أوساط كلٍ من الطلبة وإداريي الجامعة وقاطني المدن الجامعية. ولأسبابٍ ماليّة، تجد الجامعات أنفسها ملتزمةً بجذب الرياضيين المقدّر أن تكون لهم مسيرةً مهنيةً رياضيةً، ولهذا فإنها لا تدّخر جهداً في التشديد على الطبيعة «المثيرة» و«الممتعة» للحياة في الحرم الجامعي. إن هذا النوع من التسويق وتواطؤ الإداريين لهما مسؤولان - أكثر من الفرد الرياضيّ المعني - عن القيم المنحرِفة التي تؤدي إلى شيوع الاغتصاب إلى درجة أن البعض يتكلم الآن عن وباءٍ صار يجتاح الجامعات الأمريكية. ووفقاً لدورية «صحّة الأحداث» Journal of Adolescent Health، فإن حوالي 18% من النّساء المسجّلات في الجامعات هن إمّا ضحاياً للاغتصاب أو لمحاولات الاغتصاب خلال سِنيهنّ الدراسية الأولى.[116] وكان لهذه الظاهرة، إلى جانب تاريخٍ طويلٍ من الحوادث العنصريّة، أثرٌ كبيرٌ على تطوّر خطابٍ معارضٍ لها: إن اللّياقة السياسية political correctness[117] تتعامل مع التعاليم الأخلاقيّة الأوليّة باعتبارها علماً، فلا تحلّل - وبشكلٍ هَوَسيّ - إلا الظواهر الاجتماعية والسياسية، وذلك وفق اعتباراتٍ تتعلّق بالطبقة، النوع الاجتماعي gender،[118] والمجموعات التي

---

(116) Kate B. Carey, et al., 'Incapacitated and Forcible Rape of Collage Women: Prevalence Across the First Year', *Journal of Adolescent Health*, 56, 6 (June 2015).

(117) بالفرنسية *recititude political*. - [المُترجِمة].

(118) من الملاحظ أن هناك بعض الخلط في أدبيّات العلوم الاجتماعية العربية بشأن التفرقة بين مصطلحَي «الجنس» sex و«الجندر» gender (أو النوع الاجتماعي). فلفظ «الجنس» sex هو لفظٌ يحيل إلى معطىً طبيعي، وهو بذلك يشير إلى التقسيم العضويّ للجنس البشري إلى ذكورٍ وإناث، مما يعني أن «الجنس» sex هو مفهومٌ فسيولوجي. أما لفظ «الجندر» gender فهو تسميةٌ حديثةٌ نسبياً ظهرت في سبعينات القرن الماضي، وهي تحيل إلى معطىً ثقافي، فتتعلّق بالنوع الاجتماعي للإنسان من حيث السّمات والعلاقات والأدوار الاجتماعية والقِيَم والقوالب المُحدّدة مجتمعياً - سلفاً وقبل ميلاد الفرد - لكلٍّ من الجنسين (كربط الفتيات بالبقاء في البيت، ومنح الأولاد حريّة التحرّك خارجه). بذلك، فالجندر gender هو فكرةٌ أساسها أن المجتمع هو ما يُسبغ على كل من الذكر والأنثى أفكاره بشأن

جرى «عرقنتها» racialized groups.[119]

الخَلاص: الكاتِب العاطِل عن العَمَل، المُعلّم غير المُستقر، والأستاذ الجاهل

في عام 1933، عندما فَقَدَ الكاتب السويسري دينيس دي روجيمونت Denis de Rougemont عمله واستقر في بيتٍ استعارَه على جزيرة ريه Ré،[120] قال عن نفسه بأنّه «في حالة بطالة» in unemployment (بالفرنسية *en chômage*) باعتبار ذلك وضعاً نشِطاً، بدلاً من القول - ببساطة - بأنه عاطلٌ عن العمل unemployed (بالفرنسية *au chômage*).[121] عندما يكون التفكير هو مهنتك، فحتى البطالة تكون عملاً. يصِف دي روجيمونت de Rougemont، الذي كان أستاذاً للأدب، هذه التجربة في صحيفةٍ نُشرِت عام 1945. في البداية، يعبّر الكاتب عن دهشته لكون وصف بعض المثقفين بأنهم «عاطلون عن العمل» - مقارنةً بالآخرين الذين يكون التفكير عندهم هو وظيفة مأجورة - هو أمرٌ لا علاقة له بالنشاط العقلانيّ بمعناه، أي النشاط الخاص

محدّدات الذكورة والأنوثة، مما يعني - بخلاف التصنيف الفسيولوجيّ الثابت - أن هذه مسألةٌ ديناميكية تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، وتتأثر باعتباراتٍ اجتماعيةٍ شتّى (كالعرق والثقافة والطبقة الاجتماعية والتعليم والدين والدخل المادي وغيرها). هذا، ويُلاحظ أن المقاربات الجندريّة صارت تنتشر الآن في العديد من الاتفاقيات الدولية والكثير من الكتابات الاجتماعية. - [المُترجِمة].

(119) المُراد بتعبير «المجموعات التي جرى عرقنتها» racialized groups هو أن هذه المجموعات ليست مجموعاتٍ عرقيةً بطبيعتها، وإنما جرى اعتبارها كذلك فقط - [المُترجِمة].

(120) جزيرة ريه Île de Ré هي جزيرةٌ تقع على الساحل الغربيّ لفرنسا. وقد اشتهرت هذه الجزيرة بإنتاج الملح قديماً، أما مؤخراً، فقد صارت وجهةً سياحيةً رفيعةً للأثرياء والمشاهير. - [المُترجِمة].

(121) Denis de Rougemont, *Journal d'un intellectuel en chômage* (2013: Chêne-Bourg, Switzerland: La Baconnière, 2012).

بالنشر وشرح الأفكار. يُنظر إلى المثقف على أنه عاطلٌ عن العمل عندما يتعذّر عليه أن يجد «وظيفةً ثابتةً تؤمّن له ميزانيته»، ولكن مثل هذه الوظيفة هي أمرٌ هامشيٌّ بالنسبة إلى نشاطه البحثي؛ فالنشاط المتعلّق بالفكر هو نشاطٌ حرٌّ وغير مصلحي. «في أغلب الأوقات، لا يحتاج المثقف إلى أيّ شيءٍ عدا الأوراق والحبر». ولهذا، فإنه لن يكون عاطلاً عن العمل أبداً بالمعنى الدقيق، ذلك لأنه يفكّر دائماً، فالتفكير هو وظيفته». إنّه واحدٌ من القلّة المحظوظين الذين أفلتوا من الوظيفة «كحالةٍ» لازمةٍ تُضعِف الشخص الخاضِع لها. وهكذا، بالنسبة للمثّقف، فإن البطالة، رغم كونها تمثل حالةً من عدم الاستقرار، إلا أنها ذات أثرٍ ضعيفٍ على قدرته على العمل. بل على العكس، فإنه عندما يكون «في حالة بطالة» in unemployment (*en chômage*) فإن التزامه قد يكون أثناء بطالته أعظم منه في حال تقييده بالجدولِ وبالمعايير وبالأهداف المتوقّعةِ من المهنة. «عندما توقّفتُ عن الكتابة بسبب التّعب، لم يكن لديّ الضّمير الخالي للموظف الذي انتهى من أداء عمل اليوم، فصار يستطيع الآن التفكير في شيءٍ آخر».

من المفهوم أن عدم الاستقرار يجعل من التركيز صعباً على المفكّر. باتباعنا لدي روجيمونت de Rougemont، على مدى سنتين، من جزيرة ريه Ré إلى حيٍّ في باريس ثم إلى منطقة جارد Gard في جنوب فرنسا، نراه يغوص - بشيءٍ من القلق - بمسكٍ مُضنٍ للحسابات، محاولاً أن ينفق على نفسه وعلى شريكته من خلال محاضراتٍ زهيدة الأجر، ترجماتٍ تُقدّم خلال آجالٍ قصيرة، ومقالاتٍ مكتوبةٍ بشكل مستقل تبدو له مع الوقت أكثر سخافة. في بعض الأحيان، يتدخّل القدر على شكل جائزةٍ علميةٍ غير مُتوَقّعة. ورغم أن وضعه المالي كان صعباً، إلا أن دي روجيمونت de Rougemont الشاب كان يجده مُحفِّزاً، إذ كان مضطراً لتحريك مركز انتباهه، مُعدّلاً فِكرهُ بحيث يتناسب مع حقائق الحياة غير المُعتادَة لعالَمِ المعرِفة البرجوازيّة، وأن يشنّ غاراتٍ ناجحة على أوساطٍ اجتماعية ومناطق جغرافيةٍ ما فكّر أحدٌ آنذاك بالمغامرة فيها من قبل.

هكذا، لم يعُد دي روجيمونت de Rougemont يتعامل مع الناس فقط باعتبارهم مجرد فكرة في كتابات نيكولاي بيردايف Nikolai Berdyaev، الذي كان دي روجيمونت de Rougemont مُحرراً لكتبه، وإنما صار يتعامل معهم وفق علاقاته اللازمة بهم كسكانٍ في جزيرة ريه Ré أو في منطقة جارد حيث كان يقطن. لقد كانت هذه صدمة، إذ وجد أن «الناس» the people، كما يوصَفون في الكتابات الإنسانية[122] وفي البيانات التحرّرية emancipatory manifestos[123] لا علاقة لهم «بالناس» الذين كان يقابلهم على أسسٍ واقعية. وإثر فعاليةٍ عامةٍ عُقِدَت في قريته، كَتَب: «يبدو لي أن هذا يُعلّمني عن الناس أكثر من جميع تجاربي السابقة مُجتمِعة. في الحقيقة، يبدو لي أن الأمر قد أدّى إلى أن أرى الناس للمرّة الأولى في حياتي». لقد كان «الناس» الذين تعامل معهم بشكلٍ يوميٍ مجموعةً لم تكن تعرف أي شيءٍ عن التفكير المُكَثّف الذي كانوا هم محلاً له في تلك المرحلة، سواء في العمل الأكاديميّ البرجوازيّ أو في المنشورات الرسميّة للحزب الشيوعي.

بالنسبة لغير المثقفين، كان المثقف الذي يمرّ بالقرية لإعطاء محاضرةٍ مجرد متحدثٌ جيّد على الأكثر، ويستوي أن يكون لما يقوله أية علاقةٍ مباشرةٍ بعوامل ملموسةٍ في حياتهم أم لا. يلاحظ دي روجيمونت de Rougemont أن القليلين يفهمون العمل الذي يقوم به، فعندما يزورونه، كانوا يُعجَبون بالآلة الكاتبة خاصّته أكثر من إعجابهم بالنّصوص التي تخرج منها. لقد ساعده نفيُهُ كمفكّرٍ عاطلٍ عن العمل على أن يرى التقاليد الاعتباطيّة للفِكر الذي يُصطَنع الالتزام به ضمن الوضعيّة المهنيّة للمثقفين. «هناك، ربما، حتميةٌ داخليةٌ ما في حضارتنا؛ إنها تسحَر ذاتها، تنتقِد ذاتها، وتُشرعِن ذاتها. إن لها قوانينها الخاصة، الكافية بذاتها. كما أن الأفكار تتكتل فيها وفقاً لتقاربٍ أو تنافرٍ هما ليسا في حقيقتهما

---

(122) المقصود هنا هو الكتابات التي تنتمي إلى حقل العلوم الإنسانية social sciences. - [المُترجِمة].

(123) أي المنشورات السياسية. - [المُترجِمة].

حاضرَين لا في الوقائع ولا في الذوات التي يُفترض بهما تمثيلها». بتواضع، يصيغ دي روجيمونت de Rougemont نقداً ذاتياً للرغبة في التقدير desire for recognition،[124] تلك التي يعبّر عنها المفكّرون الذين لا يقدّمون أية مساهمةٍ للحياة العامة، والذين «ليس لديهم سوى القليل ليعطوه للجوعى كقوتٍ أوليٍّ يُقيم أودَهم». إنه يتساءَل: «ما هي العلاقة بين الرجل الذي أتحدث إليه وكلمة «رجل» فيما أكتبه؟» هنا، يذكر دي روجيمونت de Rougemont أنه حين يكون «بعيداً عن باريس»، فإن التباين الذي يلحظه بين التمثّل الثقافي للناس وبين علاقته الفعلية بهم هو ضربٌ من الصدمات السوسيولوجيّة، التي تقوده إلى إعادة التفكير بوضعِه كاملاً. «يمكن للمرء أن يترك وراءه المُدن التي تُصنَع فيها المسيرات المهنيّة careers من دون أن يترُكَ حياةً حقيقيةً خلفه»، يكتب، معيداً بذلك اكتشاف فضيلة الكتابة القادرة على «أن تكون مفيدة، بعَظَمَة».

واليوم، فإن المُكافئ لكاتب دي روجيمونت de Rougemont العاطِل عن العمل يمكن أن يكون المدرّس العامل لدى الجامعة وفق عقدٍ مؤقّت. هؤلاء المدرّسون، الذين يُعرَفون أحياناً بتسمياتٍ تعكس أوضاعَهَم المُزرِية، مثل «الموسميّين» أو «المُساعدين»، هم الأشخاص الذين يستشعِرون القلق إما لكونهم بلا مال أو لأنهم لا يعرفون ما إذا كان سيتم التعاقد معهم في الفصل القادم. إن الأساتذة ينظرون إلى هؤلاء بدونيّة، فيما يتظاهرون بأنهم يغبطونهم لكونهم «محظوظين»، من حيث إنهم - لكونهم يعملون وفق عقودٍ مؤقّتةٍ فقط - لابد أن يكون لديهم «الوقت للكتابة». بذلك، فإن المدرّسين العاملين وفق عقود هم بروليتاريّو الجامعات، الذين أفلتوا، بنيوياً، من التشوّهات الأساسية للمؤسّسة. إنهم ليسوا مُطالبين بإيجاد عملاءَ يقرّرون كيف تُدار الأقسام العلمية، ولا بالمشاركة في عضويّة اللجان، أو بعقد شبكة علاقاتٍ عالميّة في المؤتمرات الأكاديميّة، أو بتنظيم إصدار أعدادٍ خاصةٍ من الدوريّات حول موضوعاتٍ معيّنة

---

(124) *Desir de reconnaissance.*

من أجل الوصول إلى أرض التميّز الموعودة، ولا حتى بالإنتاج وفق متطلّبات الآلة المؤسّسيّة. إنهم يفعلون ما تتطلّبه منهم مهنة الأستاذ، بسهولة: التّدريس. وما لم يكونوا عديمي الكفاءة تماماً، فإن محاضِري الجامعة غير المستقرّين هؤلاء، الذين يُدرّسون، والذين قد يكونون نشطاء أيضاً في بيئةٍ أخرى كذلك إلى جانب الجامعة، سوف ينتهي بهم الأمر إلى طرح تساؤلاتٍ حول المادّة التي ينقلونها للطلبة؛ سوف يتطوّرون في دواخِل أنفسهم، بل إنه فوق ذلك - من يدرى؟ - فإن الأمر يمكن أن ينتهي بخروجهم بأطروحاتٍ أصيلةٍ وفق وتيرةٍ معقولة.

من المفارقة، رغم ذلك، أن تواجد مدرّسي الجامعة ذوي العقود المؤقتة هؤلاء هو أمرٌ ينظر إليه باعتباره عارضاً للتعليم السيّئ. في كتابه «خرائب الجامعة» *The University in Ruins*، كان الراحل بيل ريدينجز Bill Readings، الذي درّس الأدب المقارن، يعرض الزيادة في المدرسين المُتَعاقَد معهم على أساس «المدد القصيرة أو عقود العمل الجزئي» باعتبارها دليلاً على فشل الجامعة. ولكن في حين أنه صحيح أن «الأستاذية[125] يتم تحويلها إلى بروليتاريا تدريجياً»،[126] فمن الغريب أن حضور المدرّسين المتعاقِدين قد يمثّل الفرصة الوحيدة أمام الجامعة للإفلات من الفساد الذي يضربها والمتمثّل - وفقاً لتقدير ريدينجز Readings - في كل من إهمال الجامعة للتدريس، اعتمادها على المعايير الاقتصاديّة لتحديد اتّجاهات الأبحاث، التواصل الشبكيّ المحموم، المشروعات المهنيّة المُخطّط لها بشكلٍ دقيق، وغيرها، إذ إن لهذه القيود أثراً أقلّ فداحةٍ بكثيرٍ عندما يتعلق الأمر بمدرّسي الجامعة غير المُستقرّين من العاملين وفق عقودٍ مؤقتة. ومن نافلة القول الإشارة إلى أن ما تقدّم لا يعني أن هؤلاء المدرسين هم أناسٌ

---

(125) Professariat في النص الإنجليزي و*Le corps professoral* في النص الفرنسي. - [المُترجِمة].

(126) Bill Readigs, *The University in Ruins* (Cambridge, MA and London: Harvard University Press, 1997), p. 1.

أفضل بالضرورة أو أنهم على مستوىً ثقافيٍّ أفضل من الأساتذة، وكل ما في الأمر هو أنه يشير إلى كونهم يوجدون في مركزٍ يسمح لهم، بنيوياً، بتجنّب الضغوطات التي يعانيها نظراؤهم من الأساتذة، ومن ثمّ بإسباغ قيمةٍ أعظم على المؤسّسة من خلال ممارساتهم، سواء داخلها أو خارجها.

وفي سياقٍ مماثل، يعلن الفيلسوف جاك رانسيير Jacques Rancière[127] أنه عندما يتعلق الأمر بالأسئلة التي طوّرها على مرّ حياته العلمية، فإنه ليس مديناً بشأنها إلى تدريبه العمليّ بشكلٍ خاص.[128] كان هذا ما انتهت إليه جملةٌ من المقابلات التي أجراها معه لوران جانبيير Laurent Jeanpierre ودورك زابونيان Dork Zabunyan والتي نُشِرَت في كتابٍ بعنوان «منهج المساواة» *The Method of Equality*. فكطالبٍ في الفصول التحضيريّة لمسابقة الدخول للمدرسة العليا للأساتذة *École normale supérieure - ENS*،[129] لاحظ رانسيير Rancière وجود «عددٍ مرتفعٍ مدهشٍ من المدرسين السيّئين» وانتهى إلى أن «ذروة تراتبيّة التدريس ليست لها أية علاقةٍ بدرجة الكفاءة أو القدرة على التدريس».

---

(127) جاك رانسيير Jacques Rancière (1940–) هو مُنَظِّر نقدي وفيلسوف وأستاذ جامعي فرنسي. يكتب في موضوعات الديمقراطية والهوية والدين.

(128) Jacques Rancière, *The Method of Equality: Interviews with Laurent Jeanpierre and Dork Zabunyan*, tr. Julie Rose (Cambridge, UK and Malden, MA: Polity Press, 2016).

(129) المدرسة العليا للأساتذة *École normale supérieure - ENS* هي واحدة من أرفع مؤسسات التعليم العالي الفرنسية، أُسِّست إبان الثورة الفرنسية لضمان توفير فرص التعليم الجيدة للمستحقين من أبناء الدولة الفرنسية أياً ما كانت خلفيتهم الطبقية، وذلك على أساسٍ من اعتبارَي العدالة والمساواة، ولكنها أغلقت أبوابها بسبب الظروف الاقتصادية آنذاك، ثم أعيد فتحها من قِبل نابليون بونابرت. من حيث الأصل، كانت هذه المؤسّسة معهداً لتدريب الأساتذة، إلا أنها تطوّرت لتصبح معهداً عالياً لا يدرِس فيه إلا عددٌ محدودٌ من الطلبة ذوي المؤهلات العالية والمستوى الأكاديميّ الرفيع (بناء على اختبارات قاسية، يقبل هذا المعهد 200 طالبٍ فقط في العام الواحد)، حتى صار يُخرّج نخب الدولة الفرنسية العاملين في مجالات شتى، ومنهم العلماء ومحاضرو الجامعات ورؤساء الدول، بل والحائزون على جوائز نوبل أيضاً. – [المُترجِمة].

على العكس، لقد كانت الاختبارات والمسابقات عبارةً عن مجموعةٍ من الطقوس التي كانت تنتج نخبةً ابتداءً من «تمرين الجمباز الدقيق» precise gymnasium exercise (تمثّلت، في نهاية الخمسينات من القرن الماضي، بإتقان القواعد الإغريقية Greek particles، أكثر منها على أساسٍ من الثقافة الإنسانيّة humanist culture). وهكذا، يبيّن رانسيير Rancière أنه، لهذا السبب، كان يُسبغ القليل من القيمة على برامج التدريس في جامعة السوربون *Sorbonne Université* أو في المدرسة العليا للأساتذة *École normale supérieure - ENS*، مفضلاً أن يفتح عقله للأساتذة - الذين سوف يتحدّاهم لاحقاً إلى حدٍّ ما - مثل لوي ألتوسير Louis Althusser[130] وميشيل فوكو Michel Foucault.[131]

---

(130) لوي ألتوسير Louis Althusser (1918-1990)، هو فيلسوفٌ فرنسي ومن كبار منظّري الماركسية. هاجم الممارسات المتعلقة بكل من عبادة الآيديولوجيا وتقديس الشخصية. كما كان من أهم فلاسفة البنيوية Structuralism في القرن العشرين. له شروحاتٌ هامةٌ لأفكار كارل ماركس. ورغم نجاحه الفكري الكبير، إلا أن حالته العقلية قد تدهورت في سنواته الأخيرة، حتى أنه قتل زوجته. ونظراً لانتهاء السلطات إلى تقرير عدم مسؤوليته العقلية عن فعله، فقد أودع داراً للمسنين إلى أن توفي. - [المُترجِمة].

(131) يعتبر الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucault (1926-1984) من أهم فلاسفة القرن العشرين (رغم أنه كان يرفض تسميته بالفيلسوف). كان مشروعه الفكري بنيوياً، إذ يتعلق بتحليلٍ هامٍ وعميقٍ لِبنى موضوعاتٍ شتّى، تدور جميعها حول السلطة كمركز، فدرست تحولاتها من العصر الكلاسيكي مروراً بعصر الحداثة إلى عصر ما بعد الحداثة، مثل: الجريمة («الانضباط والعقوبات» *Discipline and Punish*)، العلوم الإنسانية («حفريات المعرفة» *An Archaeology of the Human Sciences*)، الجنون («تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» *History of Madness in the Classical Age*)، الطب («مولد العيادة» *The Birth of the Clinic*)، الجنس («تاريخ الجنسانية» *The History of Sexuality*)، وغيرها. وتجد جميع أبحاث فوكو Foucault هذه أصلها في ثلاثة دروس ألقاها في الكوليج دو فرانس *Collège de France* في أواخر السبعينيات، وكانت بعنوان: «ضرورة الدّفاع عن المجتمع» (1976)، «الأمن والإقليم والسكان» (1978)، و«ظهور السلطة الحيوية» (1979)، وقد لاقت هذه المحاضرات شعبية كبيرة حتى لُقِّبَ فوكو Foucault بـ «أستاذ القاعات السّبع»، لأن قاعة المحاضرات هناك كانت تمتلئ بالحضور، مما حدا بالمنظمين إلى توفير قاعاتٍ أخرى لهم مع تزويدها بمكبراتٍ للصوت لبثّ محاضراته. - [المُترجِمة].

ورغم، ذلك، وعلى أية حال، فقد كان نموذج الأستاذ في طور التفكيك deconstructed:[132]

> من حيث الأساس، لقد كان كل ما يستفزّنا هو «أستاذٌ» بحد ذاته، وربما كذلك كل ما يهمس إليك بإجاباتٍ حول موضوع الاستفزاز. إن هذه الوظيفة المُزدوجة المتعلقة باستفزازك وبالهمس بالإجابات إليك تعمل من خلال جملةٍ من النصوص التي قد تتراوح من صلوات الأطفال وحتى كانط Kant وهيجل Hegel؛ لقد كانت تعمل، كذلك، من خلال جميع أنواع المواجَهات المقدّمة من الأشخاص ومن النصوص معاً.[133]

إن هذا الانفتاح تجاه عدّة مواجهاتٍ مثل هذه قد أدت برانسيير Rancière لأن يأخذ بعين الاعتبار تعدّد المواقع التي يُتاح من خلالها التّصريح بالفكر. إن السجين الذي لديه أفكارٌ بشأن السجن يمكنه أن يطوّر نظريةً بشأنه، تماماً مثلما يفعل عالم الاجتماع المُكلّف من قبل المؤسّسة ذاتها. والشيء ذاته صحيحٌ بالنسبة للإنتاج العقليّ للعمال، الذي يُعتبر فِكرهم - مهما كانت الثغرات فيه - في طور الحركة سلفاً: إن هذا الفِكر ليس «رمزاً لـ» أو «تعبيراً عن» أو غير ذلك مما يتطلّب ترجمته من قِبَلِ خبير. فموقف رانسيير Rancière هنا متّسقٌ بثبات: يمكن أن يكون المُفكّر المُعترَف به دولياً شخصاً لم يدْرُس سوى مقرّراتٍ قليلةٍ في مجاله، منكراً لأهمية المسابقات التي أعطته وضْعَه في تراتبيّة المؤسّسة،

(132) التفكيك Deconstruction هو مذهبٌ في الفلسفة والنقد الأدبي يتعلق بدراسة العلاقات بين النّصوص والمعاني. وقد ظهر هذا المذهب على يد الفيلسوف المعاصر جاك دريدا (1930-2004)، الذي كتب عنه كثيراً ونظّر له في العديد من كتبه، وتتمثل فحواه في أن النص الأدبي هو نصٌ متعذرٌ على الإحاطة الكاملة أياً كان الكاتب أو القارئ، لأن التعاطي مع النصوص الأدبية هي مسألةٌ ذاتيةٌ صِرفةٌ تتعلق بكل قارئٍ على حدة، فتتأثر برؤيته ومشاعره وظروفه، الأمر الذي يعني أن وجود نصٍّ ثابتٍ مُصْمَتٍ هو أمرٌ لا وجود له. - [المُترجِمة].

(133) Rancière, *Method of Equality*, p. 49.

ومُكوّناً لفِكرِهُ من خلال رفض المناهج التقليديّة لمجاله. وهكذا، فللإفلات من الانسحاب المرتبط بالوضعيّة النقديّة (التي عادةً ما تقنع بفكّ شفرة فشل النظام من دون المضي بعيداً بعد ذلك)، فقد أصبح رانسيير Rancière مهتماً بالتعبيرات المحكيّة والمكتوبة الصادرة عن الممثّلين الاجتماعيين الذين يفتقرون إلى مسمياتٍ مثل «خبير»، «ملاك العقار»، أو «أفراد الطبقة الحاكمة».

كان «ليالي البرولتياريا» *Proletarian Nights* هو الكتاب الأوّل الذي يقوم فيه رانسيير Rancière بالبحث في معاني القصائد والرسائل وغيرها من كتاباتٍ أخرى صادرةٍ عن العمّال. وفي كتابه «مخالفة الديمقراطيّة وكُرهُها» *Disagreement and Hatred of Democracy* الذي أصدره لاحقاً، ضخّ رانسيير Rancière الحياة بموضوع «الديمقراطية»، فخرج بتعريفٍ لا يتعلّق بنظامٍ رسميٍّ وإنما بمبدأ: وهو أن الذكاء هو أمرٌ يشترِك فيه الجميع، وفي نظامٍ قائمٍ على مُسلّمة المساواة بين الأفراد، فنحن جميعاً مزوّدون بالذكاء والإرادة بشكل متساوٍ، وهي الصفات المطلوبة للحكم. أما ما يصفه رانسيير Rancière في كتابه «منهج المساواة» *The Method of Equality* فهو ليس خيالاً متعلقاً بالمساواة المُطلقة بين الجميع، وإنما يناقش ما يسمّيه «الكفاءة غير المحدّدة» non-specific competence[134] بالنسبة للسياسة، وهو ما يعني أنه ليس هنالك من علمٍ مُطلقٍ أو شكلٍ محددٍ للذكاء الذي يمكن التعرّف عليه مرةً واحدةً وللأبد لضمان صحّة القرارات السياسية، مثل قرار إرسال الجيش إلى إقليمٍ ما أو إنفاق المزيد من المال العام على مشروعٍ بعينه. إن هذه خياراتٌ لا يستطيع أيّ علمٍ أن يُعطي أساساً مُحدّداً لها. فالسياسة تتوجد عندما يبدأ الناس في تشكيل ما يشترِكون فيه وإعادة تشكيله والتفكير بشأنه، لأن المشاركة التي تقع في قلب العمليّة السياسيّة تنطوي على موقعٍ مشتركٍ في الفكر والمكان معاً إضافةً إلى طريقةٍ لتحليل هذ الموقع، إلى حدِّ أن هذا التحليل يمكن للجميع أن يجادِل فيه. هنا، مرةً

(134) Rancière, *Method of Equality*, p. 115.

أخرى، فإن المساواة لا تلمّح إلى التكافؤ المجرّد بين الأفراد، وإنما إلى حقيقة أنه «رغم كونه موزّعاً بطريقةٍ مختلفة، فإن الذكاء هو واحدٌ للجميع. يمكننا دائماً أن نجِد مواقف نتحقّق فيها من تساوي الذكاء، أو أن نخلِق مثل هذه المواقف».[135] وهكذا، يذهب رانسيير Rancière إلى أن سحب القُرعة هو أفضل طريقةٍ لتحديد من يؤول إليه الحُكم في الديمقراطيّة، حيث إن القدرة على التفكير ليست حكراً على أيّة جماعةٍ اجتماعيّة متميّزة، كما أنه ما من هيكلٍ تراتبيٍّ يمكن تأسيسه على أساسٍ ما مرةً واحدة وإلى الأبد. وفي حين أن سحب القرعة لا يضمن الجدارة، فإنه لا سببَ هناك للاعتقاد بأن مجلساً اختير بعشوائية هو أقل قدرةً من مجلسٍ شُكِّل عن طريق العملية الانتخابية، لأن هذه الأخيرة تعطي الأفضليّة لنوعٍ واحدٍ فقط من المعرفة: معرفة كيفيّة اكتساب السلطة.

في الولايات الخاضِعة لحكم القانون Rule of law،[136] ينبغي أن يكون سحب القرعة لاختيار أعضاء مجالس الشيوخ senates والمجالس العليا upper

(135) Rancière, *Method of Equality*, p. 115.

(136) مبدأ «حكم القانون» rule of law هو مبدأٌ أوليٌّ في العلوم السياسية يفيد كون الكلمة الأعلى في الدولة - النافذة على كلٍّ من الأفراد والسلطات والمؤسسات فيها - هي كلمة القانون، مما يعني التزام جميع هذه الأطراف فيها بأحكامه، وذلك من خلال ضماناتٍ أساسيةٍ تكفل عدم تَغوّل السلطة أو افتئاتها على أيّ طرف، مثل: اعتبار السلطة التشريعية هي صاحبة الاختصاص الأصيل بالتشريع (مع إمكان قيامها بتفويض اختصاصها التشريعي هذا إلى السلطة التنفيذية في حالات ضيقة)، علنيّة القانون (من خلال نشره بالجريدة الرسميّة لتمكين جمع الأشخاص الطبيعيين والاعتباريين من العِلم بأحكامه)، الشفافيّة (وضوح الإجراءات والمراكز القانونية)، المُساءلة (إمكان محاسبة المسؤول ومقاضاته)، فصل السلطات مع تعاونها (التشريعية والتنفيذية والقضائية)، خضوع جهة الإدارة - أي الحكومة - للقانون (خضوع القرارات الحكومية لأحكام القضاء)، استقلال القضاء (عدم خضوعه لتأثيراتٍ خارجيةٍ قد تؤثر في أحكامه)، احترام حقوق الإنسان (كما تقررت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام 1948)، تعيين الحدود للسلطات التقديرية للحكومة وللقضاء معاً (حتى لا يتم تفريغ القانون من محتواه من خلال المبالغة فيها)، ثبات القانون (من حيث استقرار أُطُر التشريع والاستثمار والديموقراطية)، قرينة البراءة (اعتبار كل فردٍ بريئاً إلى أن تثبت إدانته من خلال محاكمةٍ عادلة)، عدم نفاذ

chambers مجرد مرحلةٍ انتقالية. بطبيعة الحال، لن يغيّر هذا من تقاليد الجَدل المُحيط بالنّشاط الحزبي، ولكنه سيعني أنه من أجل إصدار أيّ قانون، فإن المسؤولين المنتَخبين ينبغي أن يُخاطِبوا جماعةً مكونةً من أناسٍ عاديين من داخل هذا الجسد المُمثل لقدرة المجتمع على النّقاش فيُقنِعوهم حول مُبرّرات القوانين المُقترَحَة، وبعدها فإن «الناس» - كما يشير لهم رانسيير Rancière بشكلٍ غير مُحَدّد - سوف تكون لهم سلطة نقض القرار الحكوميّ وسوف يُطوّرون، بذلك، اهتماماً خاصاً بالشأن العام. وبدلاً من ترك الشأن العام للوجهاء والاستراتيجيّين المُنجذبين إلى الصراع بين السياسيين، فإن الناس، على العكس، سيكونون على وعيٍ بمقدرتهم على الاحتشاد في أي وقتٍ لدعم قانونٍ ما أو لمعارضته. إن هذا سيحل أيضاً مشكلة «التبرير على أساس الانتخاب» justification by election، أي حقيقة أن الحكومات تعتقد أن فوزها في الانتخابات هو أمرٌ يعادل إعطاءها شيكاً مفتوحاً. ومع ذلك، فإن «الديمقراطيات» الغربيّة لا تدع مكاناً يمكن فيه لمثل هذه التحوّلات أن تُناقش بطريقةٍ جادةٍ ومُستدامة.

متخذاً طريقاً آخر، يُدافِع المُحلّل النفسي جان-بيير وينتر Jean-Pierre Winter(137) عن مقاربةٍ في التعليم مبنيّةٍ على الاستقلاليّة. فبخلاف آيديولوجيّو اليوم، فإنه، في مقالٍ حديثٍ له، يركّز بتواضعٍ على «لغز تداول المعرفة» enigma of the circulation of knowledge بين الأجيال، فلا يرى كيف يمكن أن يكتسب الطلبة المعرفة من خلال التلقين التربويّ وحده. من الواضح أن قوّة

القانون بأثر رجعي (فالمراكز القانونية التي نشأت بموجب قانونٍ سابقٍ لا يمكن مسّها بصدور قانونٍ جديد، فلا يسائل الأشخاص عن القيام بأفعالٍ صدرت عنهم في الماضي حين كانت غير مجرّمة وقتها، وإن صدر بعدها قانونٌ يجرّمها لاحقاً)، المحاكمات العلنية (فلا يجوز محاكمة شخصٍ دون إجراءاتٍ مشهودة). - [المُترجِمة].

(137) Jean-Pierre Winter, *Transmettre (ou pas)*, (Paris: Albin Michel, 2012).

وجان-بيير وينتر Jean-Pierre Winter (1951-) هو محلّلٌ نفسيٌّ وكاتبٌ فرنسيٌّ من أصلٍ هنغاري، حاصلٌ على درجاتٍ علميةٍ في الفلسفة والقانون والاقتصاد، وله كتاباتٌ عديدةٌ في هذه المجالات وفي غيرها. - [المُترجِمة].

المعرفة تعمل في كل عقلٍ منذ الطفولة، كما لاحظ كلٌّ من فرويد Freud («عادةً ما يكون الإنسان الصغير مُنتَجاً جاهزاً في سنته الرابعة أو الخامسة، مما يعني أنه، في سنواته اللاحقة، لا يفعل سوى أن يكشِف تدريجيّاً عما كان بداخله سلفاً»)،[138] نيتشه Nietzsche («يُنشأ الأبوان دائماً على أيدي أطفالهم»)،[139] التّلمود Talmud[140] (الذي يُشبّه الجنين بلوح كتابةٍ مطويّ)،[141] والقدّيس توما الإكويني Thomas Aquinas[142] الذي كان يؤمِن بأن تعاليم شخصٍ ما لا يمكنها أن تُنتِج العلم لدى شخصٍ آخر («لا يكتسِب الحواريّ معرفةً جديدةً من مُعلّمه، وإنما يرتقي بفضل هذا المعلّم فيصير قادِراً على النّظر في ما يعرِفه هو»).[143] بالنسبة لوينتر Winter، كما هي الحال مع رانسيير Rancière، فإن

(138) Sigmund Freud, *A General Introduction to Psychoanalysis*, tr. G. Stanley Hall (New York: Horace Liveright, 1920), p. 308; quoted in French in Winter, *Transmettre (ou Pas)*, pp. 19-20.

(139) Friedrich Nietzsche, *Digital Critical Edition of the Complete Works and Letters*, ed. Paolo D'Iorio, based on the critical text by G. Colli and M. Montinari (Berlin and New York: De Gruyter, 1967), www.nietzschesource.org; quoted in French in Winter, *Transmettre (ou pas)*, p. 15.

(140) التّلمود هو كتاب تعليم قواعد الدّيانة اليهودية، ويتضمن سجلاً لآراء حكماء الحاخامات اليهود، قصصاً من التاريخ اليهودي، وفتاوىً بشأن بعض الدعاوى والمطالبات ذات الطبيعة القانونية. ويتكوّن التلمود من جزءين، الأول هو «الميشناه» (الشريعة اليهودية القديمة كما تم تناقلها شفوياً)، والثاني هو «الجيمارا» (دراسةٌ للميشناه وتعليقاتٌ عليها). - [المُترجِمة].

(141) The Babylonian Talmud, Niddah 30b, http://juchre.org; quoted in French in Wintter, *Transmettre (ou pas)*, p. 27.

(142) كان القدّيس توما الأكويني Thomas Aquinas (1225-1272) راهباً دومينيكانياً إيطالياً، اشتغل بالفلسفة وباللاهوت حتى صار عَلَماً من أعلام المدرسة السكولائية Scholasticism. له اتجاهاتٌ معروفةٌ في مباحث الأخلاق والسياسة والقانون الطبيعيّ natural law، حتى صارت أفكاره من أهم دعائم الفكر الغربي. طُوّب قديساً بعد وفاته. - [المُترجِمة].

(143) Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, tr. Fathers of the English Dominican Province, 1947, First Part, Question 117, www.sacred-texts.com; quoted in French in Winter, *Transmettre (ou pas)*, p. 32.

مهنة التدريس تنتمي إلى مجال التحرّر (الانعتاق) emancipation. إنها تتكوّن من كشف المعرفة وعرضِها على عقولٍ شابةٍ، ثم دعوتها إلى تفسيرها. وبشكلٍ أكثر غموضاً، فإن دور المعلّم هو «أن يفسح المجال للتلميذ لإعادة تملّك ما يعرف، من دون أن يعرف أنه كان قد نساه»[144].

يلعب عمل المحلّلة النفسيّة فرانسواز دولتو Françoise Dolto دوراً محورياً في فكر وينتر Winter. كانت دولتو Dolto مهتمةً بشكلٍ خاصٍ بظهور ما كان جاك لاكان Jaques Lacan يسميه «وميض» المعرفة عند الأطفال الصغار *l'eclair*[145]؛ تلك اللحظة التي، بعد عملٍ شاق، تبدأ فيها الأحرف بتشكيل كلمات، والكلمات بتشكيل جُمَل، والجُمَل بحمل المعاني. يولّد المنطق في داخل الطفل، ويقود الطفل، بسرعة، لأن يسأل أسئلةً نادراً ما يثيرُها الكبار: من أين يأتي الناس؟ ولماذا يموتون؟ تصاحِب هذه الأسئلة الأساسيّة عمليّة تعلّم اللغة، ويجد وينتر Winter عدّة أمثلةٍ على مثل هذا الاقتران في كلٍّ من الأفلام والأدب.

وبعيداً عن هذه التأمّلات في الطّفولة المبكّرة، يصر وينتر Winter على مبدأٍ يصلُح لجميع مراحل التعليم: كما يقول لاكان Lacan، فإن «الكثير من الانتباه التربويّ (pedagogical attention)»[146] يمكن أن يكون ضاراً بالتعليم. يقتبس وينتر Winter المثال من مارسيل بلانيول Marcel Planiol،[147] الذي تعلّم أن

---

(144) Winter, *Transmettre (ou pas)*, p. 28.

(145) Jacques Lacan, *Le Séminair livre XVI: D'un autre à l'Autre, 1968-1969*, http://staferla.free.fr, p. 99.

(146) Jacques Lacan, *Le Séminair livre XVI*, p. 99.

(147) كان مارسيل بلانيول Marcel Planiol (1853-1931) أستاذاً للقانون في جامعتي رين *L'Université de Rennes* والسوربون *Sorbonne* الفرنسيتين. له كتاباتٌ شهيرةٌ في مجال القانون المدني، معروفةٌ لدارسي القانون في كل من فرنسا وفي الدول التي أخذت بنظام القانون الفرنسي، من أهمها «النظرية الأساسية للقانون المدني» *Traité élémentaire de droit civil* (1901)، الذي قام فيه بشرح أهم مبادئ هذا القانون، من خلال ربطها

يكتُب مبكراً، بطريقةٍ سلبيةٍ تقريباً، وذلك - ببساطة - من خلال قُربِه من طلبةٍ يفوقونَه سناً كان والده يُدرّس لهم أساسيّات اللّغة. تعكس ممارسات التعليم هذه عدّة طرقٍ للمحاكاة في القراءة، وهي ليست مقتصرةً على حالة الأطفال الصّغار الذين يتظاهرون بالقراءة إلى أن يظهر لهم المعنى، فالشيء ذاته ينطبِق على المُتعبّدين الذين يُعيدون قراءة نصوصٍ مقدسةٍ باستمرار؛ إنهم يَحفظونها عن ظهر قلب، ومع ذلك فإن أبعادها ما تزال مُستغلِقةً عليهم.

يؤمن وينتر Winter أن التعليم السلطويّ إلى درجةٍ مُفرطةٍ قد يصبح عائقاً، وذلك عندما يُحيل افتراضات الدّرس إلى «معرفةٍ» ينبغي إعادة إنتاجها بشكلٍ صارمٍ، دونما اعتبارٍ للعمليّة التي تُمكّن من إعادة الإنتاج هذه (يذكر أنه عندما يكونُ هؤلاء المدرّسون السلطويّون أفراداً من العائلة فإنه يُشير إليهم بتسمية «الإخصائيّون التربويّون» Educastrators).[148] ويكتب وينتر Winter أيضاً: «ما يهمّ هو ليس جعل الأشياء مفهومة، وإنما التثبّت من إزالة العوائق الحائلة ضد الفهم». ورغم المظاهر، فإن لهذا القليل من العلاقة مع نظريات التعليم

بالقواعد العامة للقانون الروماني Roman maxims. كان السبب وراء تسمية عمله بـ «النظرية الأساسية للقانون المدني» هو أنه عاد في دراسته هذه إلى أصول القانون المدني التي ترجع إلى القانون الروماني، مخلّصاً إياه مما علق به من شروحات القرون الوسطى. من حيث المنهج، كانت دراسته هذه مقسمةً تقسيماً وفق العناوين موضوع البحث، وليس باتباع ترتيب نصوص القانون المدني. أما موضوعياً، فقد عالج هذا العمل جوانب القانون المدني المتعلقة بمؤسساته الأدبية الكبرى، مثل القانون الطبيعي، العقد، الخطأ، الالتزام والمسؤولية، كما دعم الأفكار المجردة بالأمثلة والتطبيقات العملية. بعد ترك بلانيول Planiol لمقعده التدريسي في السوربون *Sorbonne*، خلفه ريبير Ripert، ثم قام كل من ريبير Ripert وجان بولانجيه Jean Boulanger بتنقيح عمل بلانيول Planiol هذا، وإصدار طبعاتٍ متلاحقة منه، ما زالت مستمرةً حتى اليوم.

(148) هنا تعاطٍ ذكيٌ مع اللّغة، تمّ فيه تحويل كلمة educators إلى educastrators (وهي نَحْتٌ من كلمتَي education التي تعني التربية وcastration التي تعني تعقيم الذكر أو إخصائه). وبذلك، فالمّراد بالكلمة هو اللّعب بالمعنى من خلال تحويله من «الأخِصّائيين» التربويين إلى «الإخْصائيين» التربويين، إشارةً إلى قيام المعلمين السُلطويين بتجريد طلبتهم من الخيال. - [المُترجِمة].

العفويّ والتعبيري، والتي يمكن أن تتحوّل إلى شكلٍ من أشكال القمع، إذ إنه من المعروف أن الأوامر التي تنطوي على مُفارَقةٍ paradoxical commands، مثل «كُنْ حراًا!»، يمكن أن تقودك إلى الجنون. يدفع هذا الاعتبار وينتر Winter إلى تقديم الكثير من الأمثلة لترابطاتٍ حكيمةٍ تشهَد على الذّكاء الكبير للمتعلمين. وفي جميع الأحوال، يُطلب من المُدرّس أن لا يمارس البثّ المعرفيّ بشكلٍ ينطوي على حتميةٍ imperatively، وإنما أن «يُرسي شروط البث»، وهي - اقتباساً عن لاكان Lacan مرةً أخرى - شروطٌ تساعد على إيقاظ «الإصرار عند من يسمعون».(149)

وأخيراً، بالنسبة لوينتر Winter، فإن ميراث التدريس يرتبط بالمسؤولية عن التفكير والتساؤل أكثر منه بالعلاقة الوضعية الصّرفة أو الشمولية بالمعرفة. «فوق كل شيء، فإن البثّ يعني بثّ سؤالٍ يظلُّ من دون إجابة».(150)

---

(149) Jacques Lacan, *The Seminar of Jacques Lacan, Book II: The Ego in Freud's Theory and in the Technique of Psychoanalysis, 1954-1955*, ed. Jacques-Alain Miller (New York: W.W. Norton, 1988), p. 207.

(150) Witner, *Transmettre (ou pas)*, p. 111.

الفصل الثاني

التّجارة والتمويل

في باريس عام 2013، قام بنك فرنسا *La Banque de France*[1] بتمويل معرضٍ في مدينة العلوم والصناعة *La cité des sciences et de l'industrie* بعنوان: *L'économie : krach, boom, mue*. كانت هذه المقارَبة لأغنية مغني البوب الأيقوني المرح جاك دوترونك Jacques Dutronc تقصد إلى إيجاد مصالحةٍ بين الناس و«الاقتصاد». لقد تم وضع منطقةٍ تحاكي سوق المال (البورصة)، وكان الزوّار يُدْعَوْن لشراء أو بيع الأسهم من خلال التصرّف «بحصافةٍ» تجاه معلوماتٍ كانت تُذاع لهم من خلال مكبّرٍ للصوت. لقد كان الهدف هو تثقيف المواطنين، لأنه، وفقاً لأستاذ الاقتصاد بيير-باسكال بولانجيه Pierre Pascal Bolanger الذي ساهم في وضع الكتاب المُصاحِب للمعرض، فإن جهل المواطنين بالاقتصاد هو، في حقيقته، «تهديدٌ للديمقراطية».

لم يقتصِر المعرض على توضيح ما يُعرف بالمدرسة الكلاسيكية بـ «علم الاقتصاد»، وإنما أعطى الانطباع كذلك بأنه - وراء التفسيرات المُبهمة للخبراء - هناك أسبابٌ للأزمات الدوريّة: المُنتجات المالية الفاسدة، تقلّبات الاقتصاد، والمضاربات المجنونة على بورصةٍ محمومة. ومع ذلك، فإن هذه الأسباب هي من التعقيد بحيث إن المواطن النزيه المعتاد لا يمكنه أن يفهمها حقيقة، إلا من خلال قنوات المعارض الشعبيّة المّحِطّة من قدر الموضوع أو ربما من خلال

(1) *La Banque de France* هو البنك المركزي للجمهورية الفرنسية. - [المُترجِمة].

الرسوم المصوّرة أو برامج التلفزيون، المليئة جميعها بتشبيهاتٍ بائسةٍ تقارن بين الميزانيات المؤسّسية وميزانية ربّة المنزل أو حسابات ربّ العائلة *paterfamilias*.[2] على مرّ التاريخ، كان الابتذال يُصوَّر دائماً وكأنه أختٌ للآيديولوجيا أو كأنه آيديولوجيا مضادّة، وهو أمرٌ غير مفيدٍ في الحقيقة.

ومع هذا، فرغم أن السوق مزدحمٌ بالمواد التعليميّة حول الاقتصاد، فإن خطاباً آخر، لاذعاً أكثر، يتشكّل. لقد نشرت دار النشر البلجيكية الصغيرة زون

(2) عند تقييم تصرف ما لتحديد ما إذا كان يشكل خطأً من منظور المسؤولية التقصيرية - أي خروج على السلوك المتوقع من الشخص المعتاد - وفق قواعد القانون المدني، فإن القضاء المقارن يقوم بتقييم الظروف الخارجية والموضوعية للمدّعى عليه (أي تلك الخارجة عن الشخص نفسه كظرفَي الزمان والمكان والأجواء المناخية السيئة) دون تلك الداخلية اللصيقة بالشخص نفسه (كالسن والصحة والحالة الذهنية أو مستوى التعليم)، حيث تعتبر ظروفاً شخصية لا يعتدّ بها. من هنا، فإن السلوك المعياريّ الذي يعتبر الشخص المخالف له مخطئاً خطأً تقصيرياً في نظم القانون المدني المقارنة هو سلوك «الشخص العادي» (وهو ما يعرف بـ «معيار الشخص المعتاد»)، وهذا الشخص هو شخصٌ افتراضيٌّ يمثل أواسط الناس وغالبيتهم، ويقوم عادةً بالأعمال المتوقعة منهم (وليس هناك ما يمنع من أن يكون الشخص المعتاد «نسبياً»، أي أن يمثل فئةً أو طائفةً معينةً من المجتمع، كالأطبّاء على سبيل المثال، بمراعاة ما تفرضه المهنة من فنٍّ وحرص). و«معيار الشخص المعتاد» يستند إلى سلوك «رب الأسرة الصالح»، الذي يسميه الفقه الفرنسي *bon père de famille* ، مستنداً إلى التسمية اللاتينية *bonus pater familias*، المستقاة من القانون الروماني (ففي الأخير، كان نطاق الحالة العائلية *status familias* يرتكز على السلطة الأبويّة *patria potestar* وما ينجم عنها من حقوق وواجبات أسرية ومالية معاً). وفي القانون الإنجليزي، فإن الشخص المعتاد في السوابق القضائية هناك يُسمى «الرجل الذي يستقل حافلة مدينة كلابام» the man on the Clapham omnibus كنايةً عن الوسطيّة والاعتياد، فهو شخصٌ من أواسط الناس، يتصرّف كما يتصرّف عامتهم ويمارس ما يمارسونه. وقد كان أول حكم قضائيٍّ ترد فيه هذه الإشارة إلى «رجل حافلة مدينة كلابام» هو الحكم في قضية *McQuire v. Western Morning News* [1903] 2 KB 100. وقد تطوّرت هذه التسمية الآن لتصبح the man in the street («رجل الشارع»)، the reasonable man («الرجل العقلاني»)، أو the average person («الشخص المعتاد»). انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «حول المنصّة، لا عليها: سِتُّ مقارباتٍ حول المرأة والقضاء في دولة الكويت»، ورقة عمل ألقيت في منتدى المرأة والقضاء، الجمعية الثقافية الاجتماعية النسائية، الكويت، 8 مارس 2017. - [المُترجِمة].

سينسيبل Zone Sensibles مقالين لإيرفين كارب Ervin Karp (وهو اسمٌ مُستعار pseudonym)،[3] كانا يحملان العنوانين «5» و«6»، ببساطة.[4] إن قراءة هذه المقالات ليست أصعب من الأعمال التي تُطرَح للجمهور باعتبارها مفهومة، إلا أنها تقدّم منظوراً أصيلاً حول كيف أن «السوق» قد فَقَد عقله حرفياً. وفي نفس المعنى، فعلى الإنترنت كتابٌ صدر عام 2013 للصحافيّين السويسريين فريديريك لوليفر Frédéric Lelièvr وفرانسوا بيليه François Pilet،[5] وكذلك شهِد العام ذاته إنتاج فيلمٍ تسجيليٍّ بعنوان «ذئاب وول ستريت الجديدة» New Wolves of Wall Street من إخراج إيفان ماكو Ivan Macaux.[6] وهذه الأعمال جميعها تشير إلى أن السوق يعمل الآن من دون تدخلٍ من العقل البشري: إنه يُحَرّك من قبل خوارزميّاتٍ[7] تقوم بعملياتها خلال نانو ثانية (أي واحد على بليون في الثانية)، وهو أمرٌ يمكن معه أن يتحقّق الخطأ بطريقةٍ خارجةٍ عن السيطرة. فمن ضمن أشياءَ أخرى، يمكن للخوارزميّات أن تكشِف عن عروض الشّراء في السوق فتقوم من ثمّ بمضاعفتها خلال نانو ثواني، بهدف السيطرة على ملكيّة الأسهم، ثم بيعها بسعرٍ أعلى لأيٍّ من كان يرغب بها ابتداءً. طوال اليوم، يقوم بائعو جملة البورصة الإلكترونيّون هؤلاء بقذفِ

---

(3) الاسم المستعار pseudonym هو اسمٌ غير حقيقي، يُطلقه إنسان على نفسه رغبةً منه في إخفاء شخصيته الحقيقية. - [المُترجِمة].

(4) Ervin Karp, '6' (Brussels: Zones sensibles, 2013) and '5' (Brusels: Zones Sensibles; 2014).

(5) Frederie Lelievre and Francois Pilet, *Krach Machine: Comment les traders à haute fréquence menacent de faire sauter la bourse* (Paris: calmann-Levy, 2013).

(6) Ivan Macaux, *Les nouveaux loups de Wall Street* (France: Chengyu Prod and canal+, 2015).

(7) «الخوارزميات» Algorithms هي حزمةٌ من الخطوات الرياضية المتتابعة التي تتعلق بسلسلةٍ من العمليات ذات الهدف المحدّد، وهي ما يتم إدخاله إلى نظم الحاسب الآلي اليوم للقيام بالمهام المطلوبة منه، مثل ترتيب الجداول الزمنية أو إصدار التقارير الدوريّة. يُنسب الاسم إلى عالم الرياضيات المسلم محمد بن موسى الخِوارزمي (حوالي 781-847)، الذي وضع قواعدها في القرن التاسع عشر. - [المُترجِمة].

أنفسهم بسرعة الضوء وسط كمياتٍ مهولةٍ من الأوراق المالية، لذا فإن النّشاط المتولّد عن تحركاتهم هذه يُعرّض النظام بأكمله للخطر. عام 2010، لاحظ أحد مخترعي هذه الآلات، توماس بيترفي Thomas Peterffy أنها قد «تطوّرت بطريقةٍ أسرع من قدرتنا على فهمها أو السّيطرة عليها».[8] وبذلك، فما لم تقع كارثةٌ طبيعية، فإنه من المستحيل الآن فهم «ردّة فعل السوق» تجاه أيّة معلومةٍ سياسية، لأن «السوق»، ببساطة، لم يعد الآن موضوعاً خاضعاً للمعطيات الاجتماعية؛ لقد صارت العقلانية الاقتصادية economic rationality مُدْمَجَةً الآن في برامج الكمبيوتر التي يليقها الخبراء في المِقلاة، من دون معرفةٍ محدّدةٍ لما سوف يحدث بعدها لآلاف البليونات من الدولارات محل التعامل يومياً.

في سوق الأوراق المالية، تلعب هذه الآلات بكلٍّ من: مدّخرات الأفراد ذوي الدّخول المحدودة، الديون الوطنيّة للدول، وقِيَم العملات. إن لها أثراً مُعتبراً على أسعار الأسهم التي تستخدمها وكالات التصنيف الائتماني credit rating agencies لتقييم الجهات العاملة في أسواق المال.[9] يختم كارب Karp: «إن الأسواق ليست الآن سوى مَسرَحٍ واسِعٍ للعمليّات التي لا يَسَعُ المحاسبين البشريّين فهم أي شيءٍ فيها».[10] واليوم، فإن حوالي 70% من

---

(8) 'The Father of High Trading Speaks', *Commodity Trade Mantra*, April 9, 2014, quoted in French in Karp, 6, 54.

(9) «وكالات التصنيف الائتماني» credit rating agencies - CRAs هي جهاتٌ تُعين المستثمرين على التمييز بين المؤسسات المالية العاملة بالسوق (كالمصارف مثلا)، وذلك من أجل ترشيد المخاطر وتحديد ما إذا كانت لهذه المؤسسات القدرة على الوفاء بما عليها من التزامات مالية، رغم ما قد تبدو عليه من مظاهر الصّحة السوقيّة. ومن أشهر هذه الوكالات وكالة ستاندرد آند بورز Standard & Poor's - S&P ووكالة موديز Moody's. وتقوم هذه الوكالات بتصنيف المؤسسات المالية من حيث الملاءة المالية وفق فئات معينة، تعبّر كل منها عن درجة مختلفة من الملاءة، مثل: «ممتازة» AAA، «فائقة الجودة» AA، «جيدة» -A، «معتدلة» BBB، «هشة» BB، «فائقة المخاطر» B، «رديئة» CCC، «قيد الانعدام» CC، و«منعدمة» C. - [المُترجِمة].

(10) Karp, '6', 66-67.

صفقات سوق المال التي تتم في الولايات المتحدة الأمريكية (و هو ما يعادل 40% من تلك التي تتم في أوروبا) صارت تمرّ عبر هذه الكمبيوترات، ولكن 90% من عروض الشراء التي تتخِم البورصة وتتسبّب في صعود الأسعار وهبوطها هي من صنيعها. وكمثالٍ لما يمكن أن تستتبِعَه هذه العمليّة، ففي الأول من أكتوبر 2012 قامت خوارزميّات غير معروفةٍ بالسّيطرة على البِنية الإلكترونيّة التحتيّة لبورصة نيويورك New York Stock Exchange، وذلك من خلال إغراقِها بعروضٍ خاليةٍ من الأرباح، كان الهدف منها هو التقليل من التدفّقات المنافسة، كجزءٍ من استراتيجيّةٍ ما زالت غير مفهومةٍ حتى اليوم.

لم يعد أي شيء مُتماسكاً الآن، فبورصة نيويورك New York Stock Exchange توجد فعلياً في نيو جيرسي New Jersey، في ضاحية ماهوا Mahwa غير المعروفة. وهناك، في مخازنٍ ذات إجراءاتٍ أمنيّةٍ مشدّدةٍ تمتدّ على مساحة عدّة ملاعب لكرة القدم، توجد عدّة كمبيوتراتٍ ذات أداءٍ فائق الجودة، تتحارب فيما بينها على قِيَم الأسهم، مستهلكةً في اليوم الواحد طاقةً كهربائيّةً تكفي لتزويد 4500 منزل. وتفعل بورصة باريس *La Bourse de Paris* الشيء ذاته؛ وهي التي تقع قرب لندن، في المدينة التي لا يعرفها أحد والمسمّاة باسلدون Basildon.

يمكن لأيّ خطأٍ أن يرتّب آثاراً وخيمة. في أغسطس من عام 2012، كانت شركة نايت كابيتال بروكيريج Knight Capital Brokerage تستخدم خوارزميّاتٍ لأغراضٍ تجريبيّةٍ حصراً، بغرض محاولة فهم كيف سيتصرّف السوق في حال ما إذا قام متعاملٌ فيه بالتصرّف - فجأة - بطريقةٍ عصبية. ولكن عِوضاً عن أن تعمل هذه الخوارزميّاتِ بشكلٍ تجريبيٍّ كما كان مُخططاً لها، فقد بدأت بالعمل بشكلٍ حقيقيّ في بورصة نيويورك New York Stock Exchange: لقد اشترت هذه الخوارزميّاتِ أسهماً عندما بلغت هذه الأسهم أعلى قيمةٍ لها، ثم باعتها عندما وصل سعرها إلى الحضيض. على إثر ذلك، خسِر العملاء ما قيمته 180 دولاراً في الملّي ثانية - أي 180 ألف دولار في الثانية، أو 11.8 مليوناً في الدقيقة - وذلك لمدةٍ استمرّت حوالي خمسٍ وأربعين دقيقة، من دون أن يعرف أحدٌ

السبب وراء حدوث ذلك. وقبل ذلك ببضعة أشهر، وقع حدث مُدهشٌ بدرجةٍ مماثلة: ففي 23 مارس 2012 بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً بأربع عشرة دقيقة و18 ثانية و436 مِلّي ثانية، كانت شركة باتس جلوبال ماركتس Bats Global Markets - التي تُمارِس نشاط التداول المُكثّف high frequency trading -[11] كانت قد دخلت لتوّها إلى البورصة، بدعايةٍ صاخبة، بسعرٍ أوليٍّ للسهم بقيمة 15.28 دولاراً. وخلال 900 مِلّي ثانية، انخفض سعر السهم إلى 0.28 دولار فقط. لقد كانت ضربةً قاصمةً للشركة حَدَت بها، خلال بضعة أيام، لقبول الاستحواذ[12] عليها من قِبَل شركةٍ منافسة. لقد كان ما حدث هو أنه، فور أن أُعلِن السعر، كانت خوارزمياتٌ عدوّةٌ، متربصةٌ في كمين، قد وزّعت بسرعةٍ خاطفةٍ عروض شراءٍ بأسعارٍ متدنيّة، وبطريقةٍ دمّرت المعروض فوراً. لم يتمّ إجراء أي تحقيقٍ جادٍّ حول هذا الرعب الذي أوقعه هذا التوحّش المالي للقرن الجديد. وفقاً لكارب Karp «يبدو أن هذا الصراع الجديد قد أكّد أن الأسواق هي ساحة قتالٍ الآن، وأن من يمتلك الخوارزميّات الأسرع والأقوى هو من سيخرج منها مُنتصِراً».[13]

---

(11) المراد بـ High Frequency Trading أو ما يُعرف بـ HFT في مجال الأسهم والأوراق المالية هو «نظم التداول عالية الكثافة»، وهي عبارةٌ عن منصات تداولٍ إلكترونية مكرّسةٌ لخدمة الجهات الاستثمارية الكبرى من مصارفَ وصناديق استثمارٍ وغيرها، وذلك بالاستناد إلى خوارزمياتٍ معقّدةٍ تستخدم لتحليل الأسواق المالية واكتشاف الفرص المتاحة فيها، ثم التداول بها. - [المُترجِمة].

(12) «الاستحواذ» Acquisition هو سيطرة شركةٍ ما على شركةٍ أخرى من خلال شراء أسهمها بالكامل أو شراء حصةٍ كبيرةٍ منها، بحيث تصبح الأولى، إثر ذلك، في مركزٍ قانونيٍّ يمكّنها من تشكيل مجلس إدارة إدارة الشركة المُسْتَحْوَذ عليها ومن ثم السيطرة على قراراتها. وعادة ما تلجأ الشركات إلى عدّة طرقٍ للاستحواذ، وذلك ضمن استراتيجياتها الخاصة بالتوسّع أو السيطرة على المنافسين لها في السوق. - [المُترجِمة].

(13) Karp, ‘6’, p. 68.

وبعد، فإن نتيجة كل ذلك هي الأزمات الدوريّة، لأن الخبراء الذين ما زالوا يجدون معنىً لصفحات التجارة والأعمال هم أشخاصٌ مُسَرنَمون.[14] فالأسواق تقدّم نفسها - بشكلٍ صريحٍ لا لبس فيه - كمسرحٍ للاشتباكات، والمتداوِلون يطلِقون أسماءً عدائيّة على خوارزميّاتهم - أسماء مثل آرِد Arid (قاحل)، بلاست Blast (انفجار)، جوريلا Guerilla (عصابات المقاومة)، آيسبيرج IceBerg (جبل الجليد)، نايت هاوك NightHawk (صقر الليل)، نينجا Ninja (مقاتل السيف)، شارك Shark (سمك القرش)، سنيفر Sniffer (المتلصص)، سنايبر Sniper (القنّاص)، ستيلث Stealth (الشبح)، وسومو Sumo (المصارع الضخم) - وهي جميعها أسماءٌ تشهد على طبيعة هذا العالم. وتوضّح جماعات الضّغط الداعية إلى التداول المُكثّف high frequency trading أن هذا لا يعدو أن يكون ضرباً جديداً من الداروينية Darwinism[15] التي سوف تسمح، بالنهاية، بتحديد معايير السوق.

إلا أن حقيقة الأمر هي أن هذه الخوارزميّات لا تحمل أيّة قيمةٍ لنا أو لاقتصادنا كأشخاص. إن كلّ ما تفعله هذه الخوارزميّات هو أنها تساعد على

---

(14) «السَرْنَمَة» هي حالة السير أثناء النوم Sleepwalking (وتسمى أيضاً Parasomnia)، هي أحد اضطرابات النوم التي تؤدي إلى قيام النائم - مع استمراره في نومه - وتحركه لممارسة أفعال لا يقوم بها عادةً إلا من هو في حال اليقظة. - [المُترجِمة].

(15) «الداروينية» Darwinism هي نظرية النشوء والارتقاء (أو التطور البيولوجي biological evolution) التي خرج بها تشارلز داروين Charles Darwin (1809-1882) عالم الطبيعة الإنجليزي. وهي تذهب إلى أن أجناس الكائنات الحية تنشأ ثم تتطور من خلال عملية انتقاءٍ طبيعي (natural selection) للسّمات الأفضل الموروثة، التي تزيد من قدرة واحدها على البقاء على قيد الحياة ومن ثم التكاثر. نشر داروين Darwin نظريّته هذه في كتابه «في أصل الأنواع» *On the Origins of Species* عام 1859، وقد لاقت نجاحاً كبيراً، انتشرت معه بعدها إلى كثيرٍ من العلوم الإنسانية (علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس وعداها)، حتى صارت كل سمة تطوريّة تقف عليها هذه العلوم توصف بأنها ذات طبيعة «داروينية» of a Darwinian nature. - [المُترجِمة].

تحديد قيمة الأسهم من خلال خداع بعضِها البعض، مُمَوّهةً أنفسها، قائمةً بمناوراتٍ مشتّتة للانتباه، أو غارفةً قاع القِدر خلال أجزاءٍ من الثانية وذلك قبل أن تتمكن الخوارزميّات المنافسة من أن تحصل رسمياً على الجائزة التي كانت قد وضعت أعينها عليه. فوظيفة بلاست Blast، مثلاً، هي مضاعفة أوامر الشراء وتوزيعها على منصاتٍ متفرّقةٍ لتداول الأوراق المالية بغرض منع أية استجابةٍ من الخوارزميّات العدوّة كسنيفر Sniffer، المُبرمَج لكشف المبادئ العاملة في السوق، ولهذا فإن الناس الذين يواجهون هذه المواقف يعانون القلق. يكتب كارب Karp أنه عندما تكون هنالك اضطرابات، فإن المتداولين يتساءلون تلقائياً «عما إذا كان الأمر ينطوي على خللٍ داخليّ أو ما إذا كان آتياً من السوق».[16]

يترتب على هذا المستوى من الاضّطراب وقوع انهياراتٍ مفاجئةٍ لأسواق المال بطريقةٍ تجعل المواطنين مبهوتين إلى درجةٍ لا يعودون يعرفون معها ما إذا كانت عقولهم تستطيع أن تعمل بسرعةٍ كافيةٍ لكشفها. فأسعار الأسهم تنهار إلى دَرَكٍ لا يمكن فهمه، ثم تعود خلال مايكرو ثانية، وتشتعل الأسواق عندما ينخفض السعر تباعاً، ثم يُحلّق صاعداً مرةً أخرى، ثم يعود ليسقط سقوطاً حراً، وحتى عندما يكون ممكناً للحواس البشريّة فهم المدّة المُديرة للرؤوس التي تتم فيها هذه التحرّكات الخاطفة فإن الأمر بأكمله يبدو أقرب للحلم.

على سبيل المثال، في 2 مايو 2010 خسِرَت الأسواق الأمريكية 700 بليون دولار ثم ربحتها. في فصلٍ لهما بعنوان «في انتظار الانهيار القاتل» Waiting for the Fatal Crash، يصف لوليفر Lelièvre وبيليه Pilet تذبذباً لا يُصَدّق: «صعد سهم سوثبيز Sothby's من 34 دولاراً إلى 10,000 دولار، بينما انخفض سعر سهم Accenture Consulting من 40 دولاراً إلى سنتٍ واحد. يقتبس الكاتبان من أعضاء هيئة تدريسٍ ومهندسين ماليين من مدرسة *Ecole*

---

(16) Karp, '5'.

Polytechnique الفرنسية، الذين كان مطلوباً منهم تدريس هذه الممارسات لطلبتهم، والذين يقلقون جدياً جرّاء هذا السُعار: برأي هؤلاء، يُخفِق النّظام إلى درجةٍ كبيرةٍ في الوصول الى أهدافه المقرّرة، والمتمثّلة في استقرار الأسعار. وبهذا الشأن، فإن نيكول القروي Nicole El Karoui، عالمة الرياضيّاتِ المبرّزة والمتخصِّصةّ بالرياضيات المالية، تصِف نظاماً يعمل في عُزلة، ويتعلّق بحَفنةٍ من المتداوِلين الذين «لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون».[17]

إنه اقتصادٌ لا قِبَلَ لنا بترجمته إلى كلمات. في يوليو 2013، قامت اللّجنة الأمريكية لتداول السلع الآجلة US Commodity Futures Trading Commission CFTC والمسؤولة عن تنظيم سوق المُشتّقات The Derivatives Market،[18] قامت بتوقيع غرامةٍ ثقيلةٍ على مُتداوِلٍ تعسّف باستخدام برنامج كمبيوتر للتداول المُكثّف high frequency trading، وقد قامت اللجنة بذلك استناداً إلى قانون DoddÙFrank الخاص بالمصارف.[19] كان هذا المُتداوِل قد استخدم برنامج تداولٍ مُصمماً كي يرسل أوامر شراءٍ غير مشروعةٍ للسلع الآجلة ثم إلغاء هذه الأوامر فوراً، وذلك بهدف شدّ الأنظار - بطريقةٍ مُصطنعة - للأسهم الذي كان هذا المتداول قد اشتراها مسبقاً. إن العقوبات المطبقة في حالاتٍ مثل هذه هي عقوباتٌ ذات قِيَم ضئيلة: لقد صار سوق الأوراق المالية اليوم منطقة حربٍ حقيقيّةٍ تتحدّد فيها الأسعار من خلال كلٍّ من أصول المشاركين وأدواتهم. لذلك، فإن هذه العقوبات لا تفعل سوى أنها تدعم الغرض القاصد إلى التعمية على الناس، لأن اختيار شخصٍ ما بصورةٍ عشوائيةٍ

---

(17) Lelievre and Pilet, *Krach machine.*

(18) المشتقات المالية Derivatives هي عقودٌ فرعيةٌ تُشتَق من عقودٍ أساسيةٍ لأدواتٍ استثمارية (أوراق مالية، عملات أجنبية، سلع، معدلات فائدة، إلخ)، فلا ينتج عن ذلك أصولٌ ماليةٌ أو عينية، وإنما مجرد عقودٍ تعيّن حقوقاً وواجباتٍ لكل طرفٍ وعليه. - [المُترجِمة].

(19) الاسم الرسميّ لهذا القانون هو The Dodd-Frank Wall Street Reform and Consumer Protection Act. - [المُترجِمة].

وجَعْلَه عبرةً هو مجرد أسلوبٍ للإيهام بأن الاستثناءات التي تقع على الهامش إنما تُخِلّ بنظامٍ هو ناجحٌ في حدّ ذاته ويعمل كما ينبغي.[20]

وبذات الطريقة، فإن البرامج المُصمّمة لتثقيف الناس حول الاقتصاد هي، بدورها أيضاً، تقصِد إلى منعنا من إدراك أن هذا النظام هو في حالةٍ تامةٍ من الفوضى. وبشكلٍ عام، يمكننا أن نقول عن الاقتصاد ما قالته صاحبة البيت في رواية كافكا Kafka،[21] «المحاكمة» *The Trial*،[22] حول النظام القضائي: «إنه يبدو شيئاً علمياً، أعتذر إن كنت أتفوّه بحماقات، ولكنه يبدو شيئاً علمياً أنا لا أفهمه، ولا حاجة بي إلى فهمه أصلاً». وفي الحقيقة، يُطلَبُ منا أن نصدّق بأن هناك علماً للاقتصاد يوضَع موضع التطبيق في قرارات الأشخاص الذين

---

(20) المُراد هنا هو بيان خطورة استخدام العقوبات القانونيّة بغرض إظهار الجديّة، إذا كان الغرض منها هو مجرد التمويه على حقيقة كون النظام، بأكمله، نظاماً فاشلاً. - [المُترجِمة].

(21) فرانز كافكا Franz Kafka (1883-1924) هو روائي تشيكي، يعتبر رائد الكتابة «الكابوسية» وأحد أهم أدباء أوروبا في فنّي الرواية والقصة القصيرة في هذا المجال، حتى اشتهرت كتاباته السوداوية بطبيعة خاصة صارت تمثل نوعاً أدبياً يحمل اسمها؛ الكافكاوية Kafkaism. من أشهر أعماله روايات «التحول» *Metamorphosis*، «القلعة» *The Castle*، «المحاكمة» *The Trial* ، «مستعمرة العقاب» *The Penal Colony*، وسواها. عاش كافكا في حالات قلق واكتئاب لازمته طوال حياته، وقبيل وفاته، أوصى صديقه الأديب ماكس برود Max Brod بإحراق جميع آثاره الأدبية، إلا أن هذا الصديق خالف وصية كافكا، فحفظ نتاجه الأدبي، ثم نشره وأطلع العالم على أعمال صديقه المتوفى، في تصرفٍ ما زال محل جدل، حتى أنه صُنّف كأنبل خيانةٍ في تاريخ الأدب الحديث. - [المُترجِمة].

(22) رواية «المحاكمة» *The Trial* (أو «القضية» كما نشرت في بعض الترجمات العربية) هي إحدى روايات الأديب التشيكي فرانز كافكا Franz Kafka (1883-1924)، وضعها بين عامي 1914 و1915، وهي تدور حول شخص يدعى «جوزيف ك» .Josef K، يستيقظ صباحاً ليجد بالباب رجلين يخبرانه بأنه مطلوب للمحاكمة. وتدور الأحداث من دون أن يعرف البطل ما هي جريمته، ولا كيف يدافع عن نفسه، إلى أن يتخلى عنه محاميه، فيبقى وحيداً مقابل منظومةٍ قضائيةٍ ضخمة، غامضة، تسير وفق بيروقراطيةٍ جدباء، إلى أن يصاب بالإحباط، في إطار عدميٍّ كئيب. - [المُترجِمة].

نعتمد عليهم من ذوي السلطة، وأن الديمقراطية تعني جعل المواطنين شركاء: قادرين على إتقان مصطلحات هذا «العلم» ومبادئه الأساسية، ولكنهم غير قادرين على التصرّف بموجبه بأيّ شكلٍ من الأشكال، فلا يستطيعون إلا البقاء رهن محبسه. إن هذا يفسّر الطبيعة المُكثّفة للمبادرات القاصدة نحو تحقيق «الشعبوية» لهذا العلم، سواء كانت تُنفذ من قبل المؤسّساتِ الرسميّةِ والصحافة اليمينية أو من قِبَل الحركات الشعبية grassroots movements أو منشورات الاقتصاد البديل alternative economics التي تعطي منظوراً نقدياً بشأن الكلمات التي تستعمِر عالمنا.

عبر ما تقدّم من عرض، تبقى مشكلة: إننا مجبورون على أن نبدأ بالانطلاق من مصطلحاتٍ متعسّفةٍ تجاهنا، ومع ذلك فيبدو أن القلّة فقط من الاقتصاديين هم من يستطيعون تفاديها. وسواءٌ وصف هؤلاء أنفسهم بأنهم «غير أصوليين» في منهجهم (unorthodox) أو «جزِعون» (appalled) من الوضع، فإنهم يظلّون يعودون إلى هذه المصطلحات في مساهماتهم. ورغم أنها مساهماتٌ مفيدة لا شك، إلا أنها لا تزودنا بما هو أكثر من الدبلجة النقديّة.

الاقتصاد الغبيّ

ليس مما يثير الاستغراب، نتيجةً لما تقدّم، أننا ما عدنا نستطيع أن نفكّر في «الاقتصاد» بشكلٍ جَمْعيّ. ذلك أنه عندما يتعلّق الأمر بالعمل التجاري، فإن حتى أدنى مستويات التحليل تبدو - فجأةً - عسيرةً على الفهم. وعندما نتعامل مع مبالغَ يمكن أن تؤثر بدرجةٍ ملحوظةٍ على مؤشرٍ أوليٍّ مثل الناتج المحليّ الإجماليّ Gross Domestic Product - الذي يرتبط بوثنٍ آخر هو «خلق الوظائف» job creation - فإن المال يمنع جميع طرائق التفكير. إن تعبير «إنه المال، أيها الغبيّ» It’s the economy, stupid - الذي استُخدم أصلاً لهيكلة

الخطاب الخاص بالحملة الرئاسيّة لبيل كلينتون عام 1992 -[23] يلمّح إلى أننا لا نستطيع أن نتخيّل المواطن المعتاد مهتماً بأيّ شيءٍ آخر عدا ما يعنونه بالاقتصاد. ولكننا إذا ما أدرنا العبارة على وجهها الآخر، فإنها تعني أن الاقتصاد وافتراضاته الارتزاقيّة تجعلنا أغبياء، مانعةً عقولنا من الاشتباك مع المسائل التي تتملّص منا. «إنه الاقتصاد الغبيّ» It's the stupid economy، في حقيقة الأمر.

عام 2012، وكما فعلت العديد من وسائل الإعلام، كتبت صحيفة مونتريال اليومية *Le Devoir* عن «أمر شراءٍ تاريخيّ» تلقته مجموعة بومبارديه Bombardier الواقع مقرها في كيبيك Quebec، من أجل إنتاج «سِتٍّ وخمسين طائرةً تجاريّةً نفّاثةً من طراز جلوبال Global ذات المحرّك المزدوج، وذلك بقيمة تُقدّر بـ 3,1 بلايين دولار، مع خياراتٍ بإنتاج 86 طائرةً إضافيةً من نفس العائلة، بقيمةٍ أجماليّةٍ تجاوز 7.8 بلايين دولار».[24] وكانت بومبارديه Bombardier قد وقّعت عقداً مع شركة فيستا جيت Vista Jet، وهي شركةٌ تُؤجّر هذه الطائرات النفاثة (التي لا يتجاوز عدد مقاعد الرّكاب فيها العشرة مقاعد) للبليونيرات الباحثين عن «الراحة القصوى» أثناء سفرهم.

كيف اتّفق أن أحداً لم يُعبّر أبداً عن أي غضبٍ حول الواقع العميق الذي لا يعدو هذا أن يكون عارِضاً له؟ إن عقد Vista Jet المذكور ما هو إلا عرضٌ للإنفاق المُفرَط من طرف الشركات متعدّدة الجنسيّات وطبقة الأغنياء شديدي الثراء، في الوقت ذاته الذي قامت به الحكومات، عاماً إثرَ آخر، بإلزام المواطنين بقبول برامجها بشأن «التقشّف» austerity و«ضبط» النفقات budgetary restraints، موبّخةً إياهم، في خطبةٍ تلو أخرى، على عاداتهم الإسرافيّة.

---

(23) بيل كلينتون William Clinton هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للفترة من عام 1993 إلى عام 2001. - [المُترجِمة].

(24) Éric Desrosiers, 'Commande record pour Bombardier', *Le Devoir*, Nov. 28, 2012.

إن هذا العقد يذكّرنا بالشركات المالية التي أنقذتها الحكومات من الكارثة ابتداء من عام 2008، من خلال ضخّ آلاف البليونات من الدولارات فيها، بدعوى أن إفلاسها سوف يقود إلى انهيار حضارات بأكملها، وعودة هذه الشركات إلى أسوأ عاداتها بعد أن تمّ تأمين تدفّقاتها المالية، فرجعت إلى دفع بليونات الدولارات كمكافآتٍ للمدراء وأعضاء مجالس الإدارات، حتى في السنوات التي يحقّقون فيها عَجزاً مالياً، وهم السالكون مسلك السحرة المتدربين على خلق منتجاتٍ ماليّةٍ للمضاربة الفائقة، والمنغمسين في عروضٍ إنفاقيّةٍ للثروة كشراء الطائرات أو استئجارها كما هي الحال مع طائرات جلوبال Global العائدة إلى مجموعة بومبارديبه Bombardier. في سياق مثل هذا التفسّخ، فإن توفاس فلور Thomas Flohr، المؤسّس والمدير التنفيذي لشركة Vista Jet، يفرك يديه بجذل:

> «الطلبُ غير مُتوَقّع ... يحتاج عملائنا إلى السفر من نقطةٍ إلى نقطةٍ عبر البسيطة، وفي حالاتٍ كثيرةٍ لا يتحدّد ذلك إلا خلال فترات إشعارٍ قصيرة. وسواءٌ تعلّق الأمر برحلةٍ مباشرةٍ من لوس أنجلوس Los Angeles (الولايات المتحدة) إلى شانغهاي Shanghai (الصين)، من لندن London (المملكة المتحدة) إلى لواندا Luanda (أنجولا)، أو من كنشاسا Kinshasa (الكونغو) إلى أولان بارتور Ulan Bator (منغوليا)، فإننا نوصِل عملاءنا بسلاسةٍ إلى جميع أركان العالم، وبمستوياتٍ لا تُضاهى من الرُقيّ والأمان».[25]

كما صرّح خبيرٌ في بنك كندا الملكي Royal Bank of Canada - RBC لصحيفة *Le Devoir* اليومية بأن «البليونيرات وكبار المدراء التنفيذيّين» لم يتأثروا بالأزمة الاقتصادية وأنهم ما زالوا يتقلّبون في الأموال، أو، وفق التعبير

(25) Desrosiers, 'Commande record pour Bombardier'; Bombrdier, 'VistaJet Thinks Global with $7.8 Billion Bombardier Business Aircraft Order', press release, http://ir.bombardier.com, Nov. 27, 2012.

المُستخدم «يظهرون متانةً في التعامل مع السِّياق الاقتصادي»، إذ ينبغي أن لا يُضيع المرء أية فرصةٍ للإطراء على طالِع هؤلاء السعيد، حتى وإن كان لم يتحقّق إلا لأن النظام يعمل لمصلحتهم بشكلٍ بنيويّ.

هذه الأسواق الناشئة emerging markets - التي تُخطّط شركة فيستا جيت Vista Jet لتشغيل طائراتها النفاثة فيها - توجد في روسيا، الصين، الشرق الأوسط، وأفريقيا: إن جميع الأماكن التي «تنشأ» فيها طبقةٌ مالكةٌ ذات قدرةٍ على الدفع لمثل هذه النزوات المتعلّقة بالملاحة الجوية هي بالضرورة مرتبطةٌ بالفساد السياسيّ، نهب الأصول العامّة، الاستغلال البشع للثروات العامة، وغيرها من عملياتٍ مقاربةٍ للجريمة المنظّمة organized crime. وفي حين أن مقالاً حديثاً نشرته مجلة *Forbes* يُشير - ولا غرابة في ذلك - إلى أن المواطنين الأمريكيين يملكون العددَ الأكبر من الطائرات الخاصّة (12,717)، متقدّمين بذلك على كلٍّ من المكسيك (950) والبرازيل (786) الحائزتين على الميداليتين الفضيّة والبرونزيّة في هذا الشأن، فإن ظاهرة معدلات النمو الأكبر للفترة بين عامي 2006 و2016 قد رُصِدَت في بلدين ذوي نظامٍ بلوتوكراسيٍّ مُبتّذَل (بيلاروس Belarus 1,200% وجزيرة مان Isle of Man 667%) وآخر يُعتبر جنةً ضريبيّة (كازاخستان Kazakhstan 600%).[26]

لم لا يكون ذلك واضحاً لنا؟ في عام 1789[27] أو عام 1848،[28] عندما

---

(26) Niall McCarthy, 'The Countries Where Private Jet Ownership is Soaring', *Forbes*, www.forbes.com, March 2, 2017.

(27) المقصود هنا هو الثورة الفرنسية، التي استمرت من عام 1789 الى عام 1799، والتي قام بها الشعب الفرنسي ضد النظام الملكي. كانت لهذه الثورة أسبابٌ كثيرة، ولكنها تنتهي جميعاً إلى: الرغبة في إنهاء الحكم الملكي المُطلَق، وقف امتيازات النبلاء والإقطاعيين، منع تدخل الكنيسة في السياسة العامة للبلاد، الحرية الدينية، العدالة الاجتماعية، وتحسين الاقتصاد. أعدمت الثورة ملك فرنسا لويس السادس عشر Louis XVI وزوجته ماري أنطوانيت Marie Antoinette، وذلك على المقصلة في باريس، وكان ذلك إيذاناً ببدء حكم الإرهاب في فرنسا، عبر ما كان يُعرف بلجنة السلامة العامة *le Comité de la sécurité*

كانت العربات المُذهّبة تستعرض في شوارع باريس، لم يَفُتْ شعب فرنسا المُستَغل أن يلاحظ أنه هو من كان مصدر الثروة التي تتمتّع بها النخبة الأرستقراطية. فلماذا نحن الآن عُميٌ إلى هذه الدرجة؟ لأن ذلك مفيدٌ للاقتصاد. «يبدو أن الأسواق تقدّر التصريح: «ارتفع سعر السهم للشركة الأم، Bombardier Inc.، بـ 8 بالمائة خلال اليوم، وبلغ سعر الإقفال 3,37 دولارات». [29] إن تقلّبات مِزاجٍ مثل هذه هي ما يُحدّد ماذا يحدث للعاملين، الذين يعتمدون عليها. إذا كان البليونيرات - أو «الأفراد ذوو الملاءَة العالية» كما تُسمّيهم Merril Lynch [30] بطريقةٍ ساحرة - سيخسرون بعضاً من رؤوس

---

publique التي ترأسها ماكسيمليان روبسبيير Maximilien de Robespierre وفريقه من اليعاقبة *Les Jacobins*، والتي قامت بإعدام عشرات الآلاف من الفرنسيين، بمن فيهم روبسبيير Robespierre نفسه. انتهى الأمر بتراجع التيار الثوري، ومن ثم تقلد البورجوازية المعتدلة زمام الأمور، فتم وضع دستور جديد للجمهورية، وأعيد الاعتبار والسلطة للجيش، مما مهّد أمام نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte - الضابط فيه - للقيام بانقلابٍ عسكريٍّ أنهى الثورة فعلياً، وإن كان قد ادّعى الاستمرار فيها، وأسّس لنظامٍ سلطويٍّ انتهى فيه بإعلان نفسه إمبراطورًا على الفرنسيين عام 1804. - [المُترجِمة].

(28) الإشارة هنا هي إلى الثورات الأوروبية لعام 1848 (أو «ربيع الأمم» Spring of Nations)، التي كانت عبارةً عن سلسلةٍ من الاضطرابات التي اندلعت في عدة دولٍ من أوروبا، فشكّلت موجةً ثوريّةً حقيقيّةً وكبرى. كانت المطالب في تلك الثورات تدور حول إلغاء النّظم الإقطاعيّة القديمة، وتأسيس نظمٍ سياسيةٍ ديمقراطيةٍ مع المزيد من المشاركة الشعبية فيها، والمناداة بحرية الصحافة. وقد تَمثلت البداية الحقيقة بانطلاق شرارة الثورة الفرنسية عام 1789، وقد خمدت هذه الجذوة إلى أن أحيتها أسبابٌ ثقافية (كالأفكار السياسيّة الجديدة آنذاك، مثل الاشتراكية التي كان ينظّر لها كلٌّ من كارل ماركس Carl Marx وفريديريش إنجلز Friedrich Engels، والقومية المُلهَمَة بفكرة الدولة المستقلة) وأخرى اقتصادية (نقص المحاصيل الزراعية وانتشار الفقر). وفي حين يرى أكثر المؤرخين أن تلك الثورات قد مُنِيَت بالفشل، لأنها لم ترتّب تغييراتٍ هيكليةً دائمةً وكبرى، إلا أن ما نجم عنها من تطوراتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ يظل أمراً معتبراً (كإلغاء نظام القنانة في بعض الدول، القضاء على الإقطاع في أخرى، تدعيم سلطات البرلمانات في فئة ثالثة منها). - [المُترجِمة].

(29) Desrosiers, 'Commande record pour Bombardier'.

(30) Capgemini and Merrill Lynch, *World Wealth Report 2007*, www.capgemini.com.

أموالهم ويُلغون تلك العقود المُفيدة بشكل هامشيٍّ للعوام plebs،[31] فإن مُتخصِّصاً يُحذِّر من أن مثل هذه «العقود الماموثّية» سوف لن تكون لها قيمةٌ أكبر من قيمة إشاعةٍ في سوق المال. إن هذه العقود تنطوي على احتمالٍ كبيرٍ لإلغائها فيما لو انهار السوق».[32] لذلك، لنأمل أن الأسواق والحكومات التي تدعمُها سوف تستمرّ في الدفع إلى الأعلى بأسعار الأسهم التي يعتمد عليها هؤلاء البليونيرات.

---

(31) هذه إحالةٌ إلى النظام الطبقيّ الروماني، الذي كان يقسّم المجتمع إلى هرمٍ من عدّة طبقات: (1) فعلى قمّة الهرم كانت تقع طبقة النبلاء أو الأشراف patricians، وهم سكّان روما الأصليون، الذين كانوا أقلية. وقد تمثلت حقوق هذه الطبقة بامتلاك الأراضي الزراعية، وبالحقوق العامة كحق الانتخاب والترشيح للمجالس العامة، وبالحقوق الشخصية كحق التقاضي في المحاكم وحق امتلاك الأموال المنقولة وغير المنقولة، فيما كانت واجباتهم تتمثل في أداء الخدمة العسكرية ودفع الضرائب للخزينة العامة. و(2) طبقة العوام plebeians، وهم أغلبية المجتمع الروماني، وكانوا يتكونون من الفقراء والمستضعفين من سكان روما، والغرباء الذين قدموا إلى روما واستقروا فيها للعمل في الصناعة والتجارة، وهم جماعاتٌ رومانيةٌ فقيرةٌ خاضعةٌ لسيطرة الرومان الأقوياء المالكين لمعظم الأراضي، مما حدا بكثير منهم إلى التبعية للسادة الأغنياء، ثم العبيد الذين تحرّروا من تبعيتهم لأسيادهم من الرومان. وأفراد هذه الطبقة لا يتمتعون بالحقوق العامة أو الخاصة، كما أنهم معفيون من الخدمة العسكرية ودفع الضرائب، ويقوم الأغنياء من الرومان بحمايتهم وتمثيلهم أمام القضاء مقابل أن يقوم هؤلاء العوام بخدمة السادة من الرومان والعمل في أراضيهم (دون الحق في تملكها). (3) طبقة العبيد slaves، التي كانت تتكون من أسرى الحروب الرومانية، الأحرار المباعين كعبيد (بسبب الفقر أو الدين)، الأطفال مجهولي الوالدين، المدينين الملتزمين بالعمل لدى دائنيهم بسبب عجزهم عن تسديد ديونهم، والمتخلّفين عن أداء الخدمة العسكرية. وكانت مجالات عمل العبيد تشمل الزراعة والصناعة (فالعمل اليدوي كان ينظر إليه بازدراء في روما باعتباره لا يليق بالأحرار) والترفيه (كان العبيد يعملون كمجالدين gladiators في حلبات الرياضة والمصارعة). للمزيد، انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، *قانون العمل الكويتي الجديد - السّمات المنهجية والمُستحدثات الموضوعية: دراسة انتقادية للقانون رقم 6 لسنة 2010 في شأن العمل في القطاع الأهلي* (الكويت: شركة آفاق للنشر والتوزيع، 2017). - [المُترجِمة].

(32) Desrosiers, 'Commande record pour Bombardier'.

لماذا نكون ملجومين ثقافياً عندما نُواجَه بمواقفَ صادمةٍ مثل هذه؟ هذا، لأنه لا يوجد مجالٌ تتسيّد فيه التفاهة بثقةٍ مثلما تسود في ذاك المجال الذي نسميه «الاقتصاد». إن نظرية «التقاطُر إلى الأسفل» trickle-down theory - وهي حكايةُ خياليةٌ للأطفال فحواها هو أنه عندما يصبح أثرى الناس أكثر ثراءً، فإن الثراء سوف يتقاطر من هذا الثريّ إلى المجتمع ككلٍّ لا محالة - قد تم تحدّيها من كل جانب، ومع ذلك، فإن الخبراء والأكاديميين ما زالوا يدعمونها بصوتٍ عالٍ، محيلينها إلى مسألة عقيدة. لو كان المتنبئون بأحوال الطقس عبر العالم يتنبأون بالمطر باستمرار على قدر ما يعلن فيه الاقتصاديون نظرية تماطر الثروة الخيالية هذه، لتوقفنا عن الاستماع لهم منذ زمنٍ طويل. إن عقولنا مليئة بهذا الغباء حتى أننا ما زلنا ننظر إلى الأغنياء باعتبارهم هم من يخلقون الثروة، التي نأمل أن نحظى بجزءٍ صغيرٍ منها لأنفسنا، عِوضاً عن هؤلاء الذين يعملون بها بشكلٍ يضرّ بنا.

وبذلك، فإن إنتاج طائرات الرفاهية هو إساءة استخدامٍ للذّكاء من أجل تحقيق أغراضٍ تافهة. فعمل المهندس المتخصّص في تصميم كابينة لطائرة الرفاهية هو أن يملأها بكل عنصرٍ من عناصر التميّز الاجتماعي بشكلٍ لا يعرّض حياة الرّكاب للخطر، بما يعني أن خبرة هذا الشخص - التي تُكرّس من أجل ملء الطائرات بغرفٍ للّعب، أحواض استحمام، وغرف طعام - لن يفيد منها إلا مجموعةٌ صغيرةٌ من الأشخاص ذوي الحظوة.

بشكلٍ عام، فإن الأشخاص الذين يحلُمون بهذه الطائرات ثم يطلبونها فعلاً لا يفعلون ذلك لأنهم مدفوعون بجنون الإنفاق، أو بسبب ذوقهم المكلّف أو تعطّشهم الأعمى إلى التميّز الاجتماعي. كل ما في الأمر هو أنهم يتسلّون فقط، وربما كانت التسلية التي يحظون بها هي للطبيعة «البافلوفية» Pavlovain[33]

(33) كان إيفان بافلوف Ivan Pavlov (1849-1936) عالماً روسياً في الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، وقد حصل على جائزة نوبل في الطب عام 1904. تعلقت أهم أبحاث بافلوف بما خرج به من نظرية «الارتباط الشرطي» Conditioned Reflex (التي تسمى أيضاً

أقرب منها للتسلية التي نعرفها في مساكن المحرومين. في الحقيقة، إن هذه الانحرافات البنيوية لنظامنا الأوليجارشيّ قد جعلت من هذه الطائرات ضرورةً لهؤلاء الذين يأملون في حُكْمِ العالم من خلال مجالس ومؤسسات قويّة.

بهذا الشأن، فإن ديفيد روثكوف David Rothkop، الراصِد الفخور لأوليجارشيّة العالم، يُعطي تفسيراً سوسيولوجياً في كتابه «الطّبقة المتفوّقة» *Super Class*:[34] في أعين الأقوياء، فإن هذه الطائرات، ذات الأداء الأعلى من الطائرات العاديّة، هي شيءٌ مطلوبٌ بشكلٍ خاصٍ لنمط حياتهم، تماماً مثلما لا يشعر الأمريكي من قاطني الضواحي بأنه يحظى بسلعةٍ رفاهيّةٍ عندما يشتري سيارةً ليذهب فيها إلى العمل، حتى وإن كانت هذه السيارة مجهزةً بأحدث طُرُز الأجهزة الإلكترونية. إن طبقة الأشخاص فائقي الثراء تؤمن فعلاً أنها قامت بإخضاع المكان والزمان لمشيئتها: إنها نَشِطةٌ في جميع الظروف؛ لقد تعدّت كل ما يمكن أن يشبه غرفة الانتظار سواء بالمعنى المكاني أو الزماني. يُصرّ روثكوف Rothkop على أنه ليس هناك شيءٌ مفرطٌ في استخدام أفرادها للطائرة الخاصّة، لأن سياق المطارات الاعتياديّ، الذي ينطوي على تأخيرٍ وتوتّرٍ ومخاطِر أمنيّة، يمكن أن يكون مكلفاً لمن يعيشون باعتبارهم مُقرّرين وأصحاب قرارٍ سياديٍّ بصدد الشؤون الكوكبيّة. ينبغي أن يمتلك الأوليجارشيّون الوقت وأن يكون العالم رهن تصرّفهم حتى يستطيعوا أن يحكموا أينما ذهبوا. من منظورهم، فإن الطائرة الخاصة كأداة عملٍ هى محض استثمارٍ لإدارة المخاطر.

بـ «الاشتراط البافلوفي» (Pavlovian conditioning)، وهي نتيجة أبحاثٍ كثيرةٍ وطويلةٍ أجراها على الكلاب ثم عمّم نتائجها، وتقوم على عملية يتسبّب فيها منبه يكون حيادياً عادة- مثل صوت جرس- في إثارة ردّ فعلٍ محدد، كإفراز اللعاب، وذلك من خلال تزامنه بشكلٍ متكررٍ مع منبهٍ آخرَ يؤدي إلى إثارة ردّ الفعل هذا، مثل تقديم الطعام. وهكذا فإن كل ارتباطٍ لازم (أو مُتخيل) بين متغيّرَين، بحيث إن أحدهما يؤدي إلى الآخر بالضّرورة (أو يُظن أنه كذلك)، يوصَف بأنه «ارتباطٌ بافلوفي»، نسبةً إلى هذا الباحث. - [المُترجِمة].

(34) David Rothkopf, Superclass: *The Global Power Elite and the World They Are Making* (Toronto: Viking Canada, 2008).

كان برايان موس Bryan Moss رئيس شركة Gulfstrem المنافسة لشركة Vista Jets واضحاً تماماً بشأن ما يدور عنه هذا الأمر برمّته: تخدم شركته طبقةً اجتماعيةً يعتقد أفرادها أن حتى أبسط الأشياء ينبغي أن تكون مسخّرةً لخدمة إرادتهم في أن يكونوا حيث يعتقدون أنهم ينبغي أن يكونوا، للاجتماع فوراً بمن يقولون إنهم ينبغي أن يلتقوه، من أجل تحقيق الأهداف التي يرونها ضرورية. لكل هذا تكلفته طبعاً: فالصيانة وحدها سوف تكلّف مبلغاً يتراوح من 1,25 إلى 1,5 مليون دولار سنوياً لكل طائرة، على افتراض خمسمائة ساعة من الاستخدام. ليس هنالك من عودةٍ إلى الخلف، فالبقاء على قيد التنافسيّة هو مطلبٌ لازم. وكلما ازداد عدد أعضاء الطبقة الأوليجارشيّة الذين يسافرون بهذه الطريقة، قلّ شعورهم بالتشتّت في أي موقع، لأنهم يتحركون بداخل وجهة نظرتهم الخاصة حول الزمان والمكان، التي طورها خارج الزمان والمكان. من موقعٍ غير محدّدٍ فوق الغيوم أو من قمة أعلى برج، هم يصنعون منتجاتٍ ماليّةً تمكّنهم من الرهان على النتائج الاقتصاديّة (تخفيض قِيَم الالتزامات اليونانية، تحويل الأطعمة إلى سلع آجلة، جعل رهونات العائلة المُعسِرة ديوناً معززةً بضماناتٍ خطرة)، حتى يمكنهم تحقيق الإثراء بصورةٍ فاحشةٍ حين ينهار كل شيء.

يصرّ روثكوف Rothkop على أن العاملين في Gulfstream - ويمكن أن يُقال الشيء نفسه عن العاملين في Bombardier - فخورون بصناعة الطائرات لطبقةٍ اجتماعيةٍ لن يكون بمقدورهم مطلقاً أن يقتربوا منها. بل إنهم يشعرون بأنهم من ضمن القلّة «المستفيدة من العولمة»،[35] وهم يرون حركة رأس المال تجري بالقرب منهم. وهكذا، يختار الجميع أن يُعمّي عينيه، بما في ذلك

(35) «العولمة» Globalization هي عملية التحوّل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المستمر التي تتم على مستوىً دولي، والتي تؤدي إلى تداخل العلاقات بين الدول وتقارب الأسواق فيها، ومن ثم التبادل السلس للسلع والخدمات والتدفق الخصب للنقد والتكنولوجيا بينها. وعادةً ما يكون ذلك بسببٍ من التسهيلات المتزايدة التي تقرّرها التشريعات المُقارنة والتدابير ذات العلاقة، كالنظم الحدودية والجمارك والضرائب وانتقال العمالة. - [المُترجِمة].

القارئ المُعتاد على الإنتاج الصحافيّ الفجّ كفجاجة ذاك الذي يعلن «أمر الشراء التاريخي» الخاص بـ Bombardier: فهؤلاء القراء قد يشعرون بالتعاطف نحو هؤلاء الذين وجدوا وظيفةً ورضىً في كونهم يدفعون الضرائب (لا سيما وأن الشركة ذاتها قد لا تدفع أياً منها). وهكذا، فالكل يتّبع - بسرعةٍ كاملةٍ وارتفاعٍ عالٍ - الشروط والآيديولوجيا الخاصة بطبقةٍ حاكمة ما عادت ترى أو تشعر بأيِّ شيء. إنها «طبقةٌ متفوّقة» Super Class، وفق تعبير روثكوف Rothkop، طبقةٌ تتعدّى نظام الطبقات ذاته لأنها تحلّق - حرفياً - فوق كل شيء. ومن وجهة النظر هذه، فهي طبقةٌ «تحيل كل شيءٍ إلى اقتصاد». إنها تحصر كل شيءٍ ضمن شروط السوق واقتصاد المضاربة، إلى درجةٍ لا تعود معها ترى المواقف غير المُحتَمَلة التي يثيرها هذا الاقتصاد. وهكذا، وبتوسّط المعايير الضيّقة لعلوم المحاسبة والإدارة، وبفضل آيديولوجيتها التي يتم التبشير بها باستمرار، ترفع الأوليجارشية من قدر الفرضيّات الوضيعة أصلاً.

صُنِعَ في الصّين

هنا، هو أمامُنا. في كلّ مكان. وهو ضخم. علينا أن نحدّق فيه بأعينٍ مفتوحةٍ على وسعها. ولكن على العكس من ذلك: فإننا، جميعاً، غير قادرين على الرؤية. لبعض الأشياء أثر مباغِت؛ إنها تُسيء إلينا، ولكننا لا نقول شيئاً. في البداية، قامت الأوليجارشية شمال الأمريكية بحثّ الصين على تحويل مشهدها الصناعي إلى منطقةٍ حرةٍ واسعة، حتى يتم إنتاج السلع الاستهلاكية للعالم بأسعار مخفّضة. والآن، تريد هذه الأوليجارشية خلق منطقةٍ تجاريةٍ تفضيليّة preferential commercial zone[36] في أمريكا الشمالية من أجل إرضاء

(36) «المنطقة الحرة» free zone هي منطقةٌ خاصةٌ في الدولة، تُعفى فيها الشركات من الامتثال لقوانين الضريبة، العمل، المعايير البيئية، النظم الجمركية، وسواها من قوانين ذات علاقةٍ بأُطُر العمل التجارية أو المالية. - [المُترجِمة].

توقّعات شركاء الأعمال الصينيين. وهكذا، تكون الدولة الاشتراكيّة،[37] في متابعةٍ لسقوطِها نحو الأدنى، قد اتخذت منحىً جديداً نحو القاع.

قريباً، سوف تقوم شركة Min Ying Holding - الشركة الصينية الرائدة في مجالات البنوك والكهرباء والتأمين والعقار وذات الأصول التي تساوي قيمتها بليون دولار - سوف تقوم بتطوير مركز تجارةٍ دوليّة international trade centre في أمريكا الشمالية لدعم وصول الأعداد الضخمة من روّاد الأعمال الصينيين. والهدف من ذلك هو التقليص من أعداد الوسطاء المحليّين بين المصانع الآسيوية الاستغلالية sweatshops[38] والمستهلكين الغربيّين، والنّزول بهذه

(37) أدت الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة للعمال في القرن التاسع عشر إلى ظهور فكرٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ جديد عُرِفَ بـ «الاشتراكيّة» Communism، بشّر به كل من كارل ماركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Friedrich Engels عام 1848 من خلال منشورهما المعروف بـ «البيان الشيوعي» The Communist Manifesto. ويقوم هذا الفكر على آيديولوجيا تنادي بالملكية الشعبية الجماعية لوسائل الإنتاج، من خلال نظام يبدأ برأسمالية الدولة بغرض السيطرة على وسائل الإنتاج هذه، لتبدأ الفترة الشيوعية القاصدة الى اضمحلال الدولة، ومن ثم لصيرورة وسائل الإنتاج ملكيةً عامةً للشعب. وهذه هي السياسة التي انتهجها الاتحاد السوفيتي السابق بعد الثورة البلشفية عام 1917، وتبعته في تبنيها دول أوروبا الشرقية الدائرة في فلكه، وذلك حتى سقوط جدار برلين عام 1989. ويختلف الفكر الاشتراكي عن نظيره الرأسمالي من حيث الحرص على مصلحة العامل، فيدعو لعدم غمط جهد العمال واستفادتهم من القيمة المضافة المترتبة على عملهم باعتبارهم العنصر الرئيسي في عملية الإنتاج، بالمقارنة بالفكر الرأسمالي الذي تكمن أولويته في مراكمة رأس المال بالدرجة الأولى. - [المُترجِمة].

(38) ما بات يعرف بـ sweatshops (أو *ateliers de misere* بالفرنسية) هو المصانع الصغيرة المتناثرة في الدول النامية (لا سيّما في دول شرق آسيا وأفريقيا)، والعاملة في مجالات الملابس والأحذية والألعاب بالدرجة الأولى، التي تورد بضائعها للشركات الأجنبية الكبرى، والتي تمارس استغلالاً فاضحاً للعاملين فيها، من حيث حملهم على العمل في ظروفٍ سيئة، لساعاتٍ طويلة، في مبانٍ خالية من الاشتراطات الصحية، من دون ضماناتٍ عماليةٍ ومقابل أجورٍ زهيدة - لأن قوانين العمل في تلك الدول عادة ما تكون قاصرةً عن حماية العمال، رغبة من حكوماتها باستقطاب الشركات العالمية إليها - حتى صار الأمر أقرب ما يكون للسّخرة. ولما كانت تلك الشركات الكبرى ليست في المركز القانوني لرب

الأعداد إلى الحدّ الأدنى. سوف يكون رأسِ الجسر لهذه المؤسسة في كيبيك Quebec، مع احتمال قيام مواقعٍ أخرى لها في ميرابيل Mirabel، لافال Laval، لونجيه Longueuil، وفارين Varennes.[39]

في كيبيك Quebec، تعمل شركة Min Ying Holding مشاركةً مع شركةٍ صينيةٍ مُتمركزةٍ في منطقة ميرابيل (The Mirabel International Trading Centre - MITC). وميرابيل هي منطقة تجارةٍ حرّةٍ سلفاً free zone، أنشأتها حكومة كيبيك بهدف دعم اقتصادٍ متطوّر،[40] إلا أن الأمر في حقيقته يتعلق بمبادرةٍ ذات هيكلٍ قديمٍ قائمٍ من الإعفاء الضريبيّ للشركات التي تستقرّ هناك، لاسيما تلك المتخصّصة في مجال المِلاحة الجوية. ففي منطقة ميرابيل التجاريّة الدوليّة Mirabel foreign trade zone يتم الإعفاء من ضريبة الدخل income tax، إلغاء

العمل، فهي لا تتعاقد مع العمال مباشرة وإنما هي في مركز المتعاقد مع تلك المصانع فقط، مما يعني أنها تلتف بذلك على تطبيق معايير العمل الدولية International labour standards، فتوفّر في أجور العمالة وضماناتها، مما يحملها على عدم إنشاء مصانع لها في دول مقر إداراتها، وإنما تعتمد - كليةً - على هذه المصانع المُستغلة للعمال والكائنة في الخارج، وهو ما يسمى outsourcing، لا سيما وأن الدول التي تقع فيها هذه المصانع عادة ما تحرص على أن تكون بيئة جاذبة للأعمال من حيث توفير اشتراطاتٍ مُهادِنةٍ أخرى (لا ضرائب، سهولة استصدار الرخص التجارية، تسهيلات تمويلية، غياب الحد الأدنى للأجور، ضعف الاشتراطات التأمينية، وغير ذلك). وكحالة تطبيقية، لعل في استفادة الشركات الأمريكية من قانون العمل الصيني الحالي مثالاً على ذلك، فالكثير من الشركات الأمريكية تتعامل مع مصانع في الصين لكونها توفر عمالة رخيصة، إذ تستفيد هذه الشركات من رخص تكلفة العمالة الصينية بسبب الحماية الضعيفة التي يوفرها قانون العمل الصيني. وعندما تقدم الخطط لتعديل ظروف العمل هناك فإن الشركات الأمريكية تهدد الحكومة الصينية بعدم التعامل مع مصانعها في حال إصدار قانون جديد يعطي للعمال حقوقاً أكبر أو حرياتٍ نقابيةً أوسع. - [المُترجِمة]. انظر، على سبيل المثال، تقرير منظمة Human Rights Watch عن هذه المصانع في كمبوديا:

Human Rights Watch, 'Work Faster or Get Out: Labor Rights Abuses in Cambodia's Garment Industry', United States of America, 2015.

(39) أسماءٌ لمناطق كندية. - [المُترجِمة].

(40) التعبير المستخدم في النسخة الفرنسية هو *une économie d'avant-garde*. - [المُترجِمة].

ضريبة رأس المال capital tax، لا يُطلب المساهمة في صندوق الخدمات الصحيّة المناطقيّة The Health Services Fund، بالإضافة إلى منح العديد من المزايا الضريبيّة الأخرى والدّعم المالي. لقد أُسّست MITC على أمل جذب مركز التّجارة الدوليّة الصينيّ Chinese International Trade Centre إلى ميرابيل Mirabel مباشرة. إلا أنه الآن - وبعد أن دَرَسَ موقعاً في منطقة لونجيه Longueuil وآخَرَ في لافال Laval قدّم عدداً كبيراً من مواقف السيارات - يبدو أنه قد اختار منطقة فارين Varennes أخيراً، وفقاً لراديو كندا Radio-Canada.[41] وسواء كانت الشركة قد اختارت منطقة في شمال مونتريال أو في جنوبها، فلا شك في أنها سوف تتفاوض للحصول على مزايا مساويةً، على الأقل، لتلك المتوقّعة في المنطقة الحرة free zone.

إن هذا المشروع يمثّل سخافةً اقتصاديةً حتى وفق شروط الآيديولوجيا الليبراليّة للسّوق الحرة. لقد حقق الصناعيون شمال الأمريكيون المشروع المجنون سياسياً المتمثّل في تدمير البنية الأساسية التصنيعيّة للقارة، وذلك حتى يعيدوا توطينه في الصين بالدرجة الأولى، تاركين لشعوبهم وظائفَ في مجال الخدمات فقط. والآن، فإن هذا المركز التجاري الضخم سوف يذهب حتى بهذه الفئة الأخيرة من الوظائف. إن ناشط كيبيك السياسيّ الذي دعم المشروع في بداياته، وضّح في صحيفة *Journal de Montréal* الصادرة في 27 نوفمبر 2013، أنه بفضل هذا المركز التجاري، فإن «ألف شركة صينية سوف توطن مراكزها في كيبيك، مُقصية الوسطاء بذلك»،[42] مما يعني طبعاً تجار كيبيك وموزّديها. «سوف يتم التصنيع كاملاً في الصين». أما التوزيع فسيقوم به

(41) Thomas Gerbet, 'De mystérieux hommes d'affaires chinois veulent s'établir au Québec et changer les règles', Radio-Canada, April 28, 2015; Radio-Canada, 'Un millier de gens d'affaires chinois a Varennes?', Aug. 13, 2015.

(42) Claude-André Mayrand, 'Laval intéresse les Chinios: Un centre de commerce mondial et un 'Chinatown' de luxe dans I'ancien ciné-parc', *Journal de Montréal*, Nov. 27, 2013.

مواطنون صينيون من نقطة البداية وحتى أمريكا الشمالية. وتضيف صحيفة *Journal de Montréal* أن هذا المشروع سوف يكون له أثرٌ فوريٌّ على الأسعار التي سيفرضها المنافسون المحليون على بضائعهم. مشيرةً إلى مركزٍ مماثلٍ في شنغهاي Shanghai كنموذجٍ للمشروع باعتباره «جنّةً للمستهلكين»، تذكر الصحيفة أنه «يتضمن أكثر من 62 ألف كُشكٍ تقدّم أكثر من 400 ألف منتجٍ تؤثر أسعارها المخفّضة على أسعار البيع في السوق». بعبارةٍ أخرى، ليس فقط أن التجار المحليين لن يعودوا هم الموزّعين الحصريّين للمنتجات، بل إن من يحاولون تحدّي هذه المنافسة سوف يكون عليهم أن يعانوا آثار هذا الإغراق dumping؛[43] فعلى سبيل المثال، قد يضطرون لبيع أداةٍ للمطبخ (مصنعةٍ من قبل أطفالٍ في الصين) بقيمة 50 سنتاً بدلاً من دولار إذا كان هذا هو السعر الذي يحدّده التجار الجدد.

كان الناشط السياسيّ الذي دافع عن المشروع أصلاً في مدينة كيبيك هو عضو البرلمان السابق روجر بوميرلو Roger Pomerleau، الذي قام بنقل مهامه

(43) «الإغراق التجاري» Dumbing هي إشكاليةٌ تثور في نطاق اتفاقيات التجارة الدولية، إذ تسعى هذه الاتفاقيات - ومنها الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة - General Agreement on Tariffs and Trade - GATT - إلى رفع القيود التي تفرضها الدول الأعضاء بعضها على بعض فيما يتعلق بالسلع والخدمات الداخلة إليها من دول أخرى، وذلك تحقيقاً لمبدأ حرية التجارة وانسيابيتها عبر الحدود الدولية. من هنا، يتم تقييد حق الدول الأطراف في هذه الاتفاقيات في فرض التعرفات الجمركية على السلع أو الخدمات الداخلة إليها من دول أخرى، إلا في حال تعرّضها لممارساتٍ تجاريةٍ ضارةٍ باقتصادها الوطني. من أمثلة ذلك، أن يتم «إغراق» أسواقها بسلعٍ ذات أسعارٍ متدنيةٍ إلى ما دون سعر التكلفة، بهدف الإضرار بمنتجي السلع والخدمات المحليين ودفعهم إلى الخسارة المالية، ومن ثمّ إخراجهم من نطاق المنافسة، حتى تتمكن الشركات الأجنبية «المُغرِقة» من الانفراد بالسوق والسيطرة عليه، ثم التحكّم بأسعاره لاحقاً. في حالاتٍ مثل هذه، تبيح هذه الاتفاقيات للدول التي تعرضت لممارسات «إغراقيّة» أن تتخذ التدابير القانونية اللازمة لحماية أسواقها من مثل هذه المنتجات، كفرض الضرائب أو التعرفات الجمركية أو الغرامات المالية أو سحب الترخيص أو حتى منع هذه السلع عند الحدود. - [المُترجِمة].

حول الموضوع للوزير الكندي الليبرالي السابق مارتن كوشون Martin Couchon، حيث يدير الأخير هذا الملف رسمياً الآن. ويبدو أن رئيس الوزراء الكندي السابق جان كريتيان Jean Chretien متورطٌ أيضاً. بعبارةٍ أخرى، في هذه المسألة ثلاثةٌ من المسؤولين المنتخبين السابقين الذين ربما يكونون قد باعوا المعلومات التي حصلوا عليها أثناء ممارستهم لمهامهم السياسية إلى أطراف خاصة.

بفضل هذا المشروع، فإن جزءاً من كيبيك Quebec سوف يُصبح منطقةً حرّةً من طرازٍ دوليٍّ مُرْضٍ لجميع المُوَرّدين الصينيّين الذين سيقيمون مشاريعهم التجارية فيه. فوفق ما كتبت صحيفة *Journal de Montréal* فإنه «بدلاً من الصين، سوف يسافر رجال الأعمال من جميع أطراف كندا والولايات المتحدة إلى لافال Laval (أو فارين Varennes) لعقد صفقاتهم». هناك سببٌ قويٌّ للخشية من أن حضور شركة مين ينج القابضة Min Ying Honding سوف يُبرز مركز كيبيك كجهة «أوفشور» Offshore. فشركة مين ينج Min Ying معتادةٌ على التساهل القانونيّ لنطاقات الأوفشور offshore؛ إنها مسجّلةٌ في ماكاو Macao[44] التي تعتبر جنةً ضريبيّةً تفتقر إلى الشفافية وذات تعتيمٍ يفوق المعتاد، ناهيك عن كونها جزءاً من الصين ذاتها. تختص ماكاو Macao بتسجيل الشركات؛ فالسرية البنكيّة فيها مَصونة ومعدل الضريبة هناك هو صفر. من الواضح أن هجرة مليونيريّي المستثمرين الصينيين هي جزءٌ من استثمار الأوفشور. لقد قدّرت شركة Wealth Insight للمعلومات، المتخصّصة في التعرّف على اللاعبين الأكثر ثراء، أنه في عام 2013 قام المواطنون الصينيّون

---

(44) ماكاو Macau هي جزيرةٌ صغيرةٌ تقع في بحر الصين الجنوبي، وتبلغ مساحتها حوالي 30 كيلومتراً. وهي تابعةٌ للصين، إلا أن لها طبيعةً إدارية خاصة، مثلها في ذلك مثل هونج كونج Hong Kong، إلى حدٍ ما. وهي تُعتبر ملاذاً ضريبيّاً، وتعتمد في اقتصادها على السياحة والقمار. - [المُترجِمة].

الأغنياء بإيداع 658 بليون دولار في الجنان الضريبيّة، وهي مبالغُ بازديادٍ مستمر.

هذه ليست معلوماتٌ هامشيّة، إنها تعطينا فكرةً عن تحوّلات الأوفشور التي تمر بها كندا حالياً. فمقاطعة British Columbia تتطوّر كمركزٍ لتهريب المخدّرات القادمة من آسيا؛ ألبيرتا Alberta - وتقلدها في ذلك ساسكاتشوان Saskatchewan - هي ولايةٌ نفطيّة petro-state؛ أونتاريو Ontario هي عرين شركات التعدين النَّشِطَة في العالم أجمع؛ كيبيك Quebec هى ولاية معادن، مكرّسةٌ بالكامل لمصلحة الصناعات الاستخراجية وهي تُظهر الآن اهتماماً بالنفط؛ إنها موطن Maples في كندا، وهى واحدةٌ من أكبر الشركات القانونية في العالم والمتخصّصة في خلق كيانات الأوفشور offshore، وهي الآن تأمل، طبعاً، في نشاطٍ مع قطاع الاستيراد والتصدير الصينيّ. أما بالنسبة لنوفاسكوتيا Nova Scotia، فهي قد طوّرت برنامجاً للتوظيف يُمَكّن الشركات في بيرمودا Bermuda[45] من إيكال أعمالها إلى محاسبين في هاليفاكس Halifax، وقد اختار مُلّاك هذه الشركات توطينها في بيرمودا Bermuda للاستفادة من أرخبيل الإعفاءات الضريبيّة الكبيرة هذا، التي تُبرَّر معها إعادة توطين هذه الشركات.[46]

كل هذا هو من عمل أعضاءٍ سابقين في البرلمان ووزراء وحتى رؤساء وزارة، ممن كانوا على علاقةٍ مع صانعي القرار والمعتادين على ديناميكيّات المؤسّسات الحكومية، والذين كان هدفهم تحويل جهاز الدولة إلى محض آلةٍ تراكِم رأس المال للأوليجارشية الصناعيّة والماليّة. لم يكن أيٌّ من هذه الإنجازات محلاً للنقاش العام: فمن الأفضل ترك الناس يمزّقون بعضهم بعضاً

---

(45) بيرمودا Bermuda هي أرخبيلٌ من الجزر الواقعة في المحيط الأطلسي، وهي أحد أقاليم ما وراء البحار البريطانية British Overseas Territories، وتعتبر مركزاً دولياً هاماً للأعمال، وملاذاً ضريبياً لكثيرٍ من الأفراد والشركات حول العالم. - [المُترجِمة].

(46) Alain Deneault, *Canada: A New Tax Haven*, tr. Catherine Browne (Vancouver: Talon books, 2015).

على موضوع رموز الهويّة الوطنية: هذا - حقيقةً - هو الموضوع الوحيد الذي يمكنهم فهمه.

الخُبَراءُ المُنقِذون

كلما تراجعت الأوليغارشيّة إلى عاداتها السيئة (الفساد، التدليس، والتفاهة) سارع «الخبراء» الذين يتقاضون رواتبهم منها إلى إنقاذها. خذ مثلاً قضية حكومة كيبيك Quebec عندما أُحرِجَت بسبب قضية تتعلق بآرثر بورتر Arthur Porter، الذي كان مسؤولاً إدارياً في مستشفىً اتُّهِم في قضية نصبٍ فوجد له ملاذاً في بنما Panama.[47] تعرف كل حكومة أنه عندما يتعلق الأمر بالتلفزيون، فإنها تستطيع الاعتماد دائماً على علماء الحظّ وباحثيه: في هذه الحالة، تمثّل هؤلاء بكلٍّ من مسعود عابدة Messaoud Abda أستاذ الإدارة في جامعة شيربروك Université de Sherbrooke وميشيل نادو Michel Nadeau، تاجر «الحوكمة» governance.[48]

---

(47) بنما Panama هي إحدى جمهوريات أمريكا الوسطى، وهي تمثل أكبر اقتصادات المنطقة، وتعتبر ملاذاً ضريبياً معروفاً. - [المُترجِمة].

(48) أجرى مؤلف هذا الكتاب، ألان دونو Alain Deneault، تحليلاً مستفيضاً لكلمة «الحوكمة» governance وآثارها السياسية في كتابٍ سابق له، هو «الحوكمة: الإدارة الشمولية» *Governance: Le management totalitaire* (Montreal: Lux, 2013)، وهو المجلد الأول من اثنين، الذي يمثل هذا الكتاب، *Mediocracy*، المجلد الثاني منهما. ويركّز كتاب «الحوكمة» على الحوكمة كتجسيد لاستبدال الإدارة بالسياسة تحت قواعد الحوكمة، حيث يتطلّب الأمر أن جميع الوقائع الاجتماعية يجب أن تخضع لقواعد الإدارة الخاصة بالمشروعات التجارية الخاصة (فانتشار كلمة «العميل» كبديلٍ عن مفاهيم مثل «المريض» أو «الطالب» هو جزءٌ من هذا التّوجه الآن). وفي حين أن كلمة «الحوكمة» governance قد صارت منتشرةً بشكل واسعٍ في اللّغة الإنجليزية ومقبولةً فيها، فإن الأمر مختلفٌ في فرنسا، نتيجة للتقليد الجمهوريّ هناك الذي يذهب إلى اعتبار النظام القائم على مفاوضات «أصحاب المصالح» stakeholders أمراً مناقضاً لمبادئ السيادة الشعبيةِ ولدور الشعب في الفضاء السّياسي. - [المُترجِمة].

في مقابلةٍ تلفزيونية،[49] اتّبع الاثنان بدقةٍ النص الخاص بمدير المستشفى الفاسد، مُدّعين أنه كان من الطبيعي جداً أن يُعتبر رجلاً ذا نزاهةٍ عاليةٍ واستقامة. فعابدة Abda، الذي يُفترض أن يكون متخصّصاً بالجرائم الماليّة، صرّح بأن «إنجازات» بورتر Porter كانت «استثنائيّةً ومثاليّة». تماماً، وافقه نادو Nadeau: كان سجلّ بورتر Porter «ناصعاً لا تشوبه شائبة». ألم يكن مهاجراً أفريقيّاً دَرَس في جامعة كامبردج Cambridge؛ صديقاً لرئيس الوزراء السابق ستيفين هاربر Stephen Harper، الذي رشّحه للّجنة المشرفة على المخابرات الكندية، وكذلك صديقاً لرئيس حكومة كيبيك فيليب كويارد Philippe Couillar؟[50] ثم ألم يكن مستشاراً سابقاً للرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش George W. Bush؟ بعدها، اتفق عابدة Abda بشكلٍ حماسيٍّ مع نادو Nadeau: لقد «تسكّع» بورتر Porter حول الاستخبارات وكان قادراً على إغواء الجميع، تماماً مثل بيرني مادوف Bernie Madoff.

ولكن مَن، عدا خبراء «الحوكمة»، يمكن أن يجد أيّاً من هذا مُطَمئِناً؟ صحيحٌ أن كلمة «الحوكمة» - التي لم تكن اللغة السائدة تعرفها حتى بِضع سنينَ خلت - أصبحت تُعاد وتكرّر حتى صارت وكأنها تكتسب معنىً ما. ومع ذلك، فإن الناس الذين ليسوا بخبراءَ لا يرون كيف أن القُرب من الدوائر الأوليجارشيّة، إدارات الاستخبارات، ودوائر السلطة الأمريكية يمكن أن تُعتبر ضمانةً للمعايير الأخلاقيّة العليا أو للالتزام نحو المصلحة العامة. أياً ما كان الأمر، فقد كانت النخبة الكيبيكيّة (من كيبيك Quebec) «مبهورةً» على ما يبدو بأوراق الاعتماد التي لا تقبل المساءلة هذه، كما أن خبيرينا هذين كان يعوزهما الحدس السوسيولوجيّ العميق. لم يكن هناك أي نقاشٍ حول استغلال النفوذ أو

---

(49) Radio-Canada, 'L'éthique peut triompher sans que PKP vende ses actions, estime Michel Nadeau', Oct 8, 2014.

(50) في كندا، يلقب رؤساء حكومات المقاطعات، مثل مقاطعة كيبيك Quebec، بلقب The Premier - [المُترجِمة].

الاستقطاب السياسيّ أو الخدمات المُتبَادلة بين الاستراتيجيين المُراوِغين المُنتمين لعدّة شبكات اتصال. كما أن أحداً لم يُثِر تساؤلاً حول الكيفيّة التي كانت الجنان الضريبيّة تُستخدم فيها لتغطية التدليس بشكلٍ مُمَنهج. ولكن، لماذا الانشغال بمثل هذه التفاصيل الصّغيرة عندما يكون باستطاعتك أن تخلّص نفسك بسرعة، فتتجاوَز المفاجأة المُدبّرة وتوضّح بتفصيلٍ دقيقٍ طبيعة التدليس الذي يمكن أن يكون الطرف ذو المصلحة قد قام به، ومن ثم بيان الأسباب وراء المسألة برمّتها؟ كما تبيّن، فإن علم الحوكمة لا يعدو - في حقيقته - أن يكون فنّاً لتخمين الأخطاء والإدراك المتأخّر.

في الدوائر العليا، تُبذل الجهود عادةً لإخفاء أفعال النظام الأكثر إثارةً للصدمة، وذلك من أجل قطع الطريق على أيّة تحديّاتٍ قد تظهر لاحقاً. عندما قرّر القُطب الصحافيّ والمستثمر الكبير بيير كارل بيلادو Pierre Karl Péladeau الدخول في المجال السياسيّ وكان من الجرأة بحيث إنه أوشك أن يصبح زعيماً للمعارضة في كيبيك Quebec، أسرع ميشيل نادو Michel Nadeau إلى تصميم نظامٍ يُمَكّن بيلادو Péladeau من أن يستمر باستخدام قواه المُفرِطة بطريقةٍ تبدو مشروعةٍ ظاهرياً. ومع ذلك، فلم يساعد تأمّل نادو Nadeau في تعارض المصالح هذا إلا في تليين النظام حتى يتوّقف عن الصّرير. «ليس هناك العديد من الدول في العالم التي يُجبَر فيها السياسيون على التخلي عن مصادر دخلهم الأساسي، حتى (في حالة) مُلّاك وسائل الإعلام . . . علينا أن نضمن أنه ما زال من الممكن لرجال الأعمال الانخراط في العمل السياسي»، صرح نادو Nadeau لراديو-كندا Radio-Canada عام 2014، كما لو أن ملكيّة الشركات هي طريقةٌ معتادةٌ لكسب العيش مثلها مثل أيّة طريقةٍ أخرى للتعيّش. كان نادو Nadeau يعتقد أنه سيكون كافياً لبيلادو Péladeau أن يضع أصوله في صندوقٍ ماليٍّ مُستقل، فيما يعهد بأعماله المتعلّقة بوسائل الإعلام إلى شركةٍ يملك فيها أقل من 50 بالمائة من الأسهم. إن خطورة مثل هذه الحواجز الافتراضيّة تتمثل في أنها سوف تُمكّن شخصاً واحداً من إدارة الصحافة، شبكات الهاتف النقال،

ملاعب الرياضة، و«الصّناعات الثقافيّة»، في الوقت الذي يلعب فيه دوراً عاماً بارزاً. وأثناء كل ذلك، فإن السؤال الصّعب الحقيقي لا يُسأل أبداً فلا يتمّ مُجرّد التلميح إليه: كيف يمكن لمجتمعنا أن يقبَل مثل هذا التركيز للأصول وللسُّلطة ليس فقط في يد شخصّيةٍ سياسية، بل حتى في يد مواطنٍ فرد، أياً من كان؟ يستطيع خبراء تقنيّات الحوكمة أن يتجاوزوا أسئلةً حول فضائح مثل هذه، من خلال جعلها تبدو طبيعيّةً تماماً. «في الديمقراطية، فكّر في عمدة نيويورك السابق (مايكل) بلومبرج Michael Bloomberg الذي كان أيضاً مالكاً لواحدةٍ من أكبر وكالات الأنباء في العالم (Bloomberg LP). بعد تركه للسياسة، ما زال بلومبرج Bloomberg مالكاً لها، كما يوضح نادو Nadeau، مُستلاً هذا المثال من ذخيرته من الأمثلة المُلهِمة.

لقد سبق لبالتازار جراسيان Baltasar Gracián أن أمسك بملامح هذه الشخصيّات في كتابه «الناقد» *El Criticon*، الذي يعود إلى القرن السابع عشر:[51]

> شخصٌ يُرى وكأنه عالِمٌ رغم أنه لم يَدْرس؛ رجلٌ حكيمٌ ولكنه لم يفعل أي شيءٍ مُتعِب: له لحيةٌ مهيبةٌ من دون أن يحرق زيت الليل، مليءٌ بالعواصف ولكنه لم يمسح غبار الكُتب قطّ، متنوّرٌ جداً رغم أنه لم يسبِق له السّهر، مُغطىً بالمجد من دون أن يعمل أبداً خلال النهار أو الليل. باختصار، إنه كاهن الابتذال؛ شخصٌ يتّفق الجميع على ما لديه من معارفَ عظيمة، رغم أنهم لا يعرِفون عنها شيئاً.[52]

(51) بالتازار غراسيان Baltasar Gracián (1601-1658) هو كاتبٌ ومفكرٌ ورجل بلاطٍ أسباني، له كتاباتٌ هي أقرب لأن تكون نظراتٍ في طبيعة الحياة وفي أصناف الناس فيها. كتابه الأهم هو«الناقد» *El Criticon*، وهو - من حيث القيمة - يُعتبر عملاً لا يقل أهميةً عن رواية الكاتب الأسباني الشهير سيرفانتيس «دون كيخوت دي لا مانشا» *Don Quijote de la Mancha*. وقد تأثر كل من الفيلسوفين شوبنهاور Schopenhauer ونيتشه Nietzsche بآثاره. - [المُترجِمة].

(52) Baltasar Gracian, *El Criticœn*, Instituto Nacional de Tecnologías Educativas y de Formaciœn del Profesorado, http:// educalab.es/intef, p. 122.

تطرح الكاتبة النسوية أندريا دوركن Andrea Dworkin الأمر بشكلٍ أكثر حدّة «في حين أن الثرثرة بين النساء هي أمرٌ محل سخريةٍ حول العالم باعتباره دنيئاً وسخيفاً . . . فإن الثرثرة بين الرّجال تُسمى نظرية أو فكرة أو واقعة».[53]

مَرَضُ المال

لهؤلاء الناس، يصنع المال ساتراً يُخفي كل شيء. لقد فرض المال نفسه على الثقافة الحديثة كطريقةٍ لحساب متوسّط القيمة average value، بعدما أصبح العلامة المُفضّلة للتوسّط بين السلع. فهذه الوحدة للقياس المتوسّط للقِيَم فرضت نفسها خلال التاريخ كناقلٍ للتّفاهة. يشير جورج سيميل Georg Simmel إلى أنه من خلال قدرته على تحديد الأسعار والتسبّب في تفاوتها، فإن المال يُمَكّننا في الحقيقة من أن نقيس القيمة المتوسّطة للسلعة فوراً، وذلك من خلال علاقتها بالأشياء الأخرى من ناحية، ومن خلال حدود درجة التضحية التي نكون على استعدادٍ لقبولها للتنازل عن المسافة المتوسّطة التي تفصلنا عنه من ناحية ثانية. بعبارةٍ أخرى، فإن المقصود هو القيمة المتوسّطة للأشياء من خلال علاقتها بعضها ببعض، وبعلاقتها بمتوسّط إرادة الأفراد لعبور الثغرة المتوسّطة التي تفصلهم عن هذه الأشياء، وهو ما يجسده السّعر الماليّ كنتيجةٍ لحسابٍ لا نضطرّ حتى إلى عمله.

إن العمل الذي قام به سيميل Simmel في بداية القرن العشرين لا علاقة له بالاقتصاد المُبتَذل. كان سيميل Simmel مهتماً أولاً وأخيراً بالدور الاجتماعيّ والثقافيّ للنقود في الزمن المعاصر - أي بقدرتها على التصرّف مثل كمبيوترٍ قبل زمن الكمبيوتر، ممكّنةً إيانا من المقارنة القياسيّة وتقدير مدى توافق كلّ الأشياء

(53) Andrea Dworkin, *Right-Wing Women* (New York: G.P. Putnam's Sons, Perigee Books, 1983), p. 13.

في علاقاتها بعضها ببعض من حيث القيمة المُمكِنة - وقد قاده ذلك فوراً لدراسة الانحرافات التي تعزّزها النقود. هذا، لأن النقود، التي تشهد كل هذه التوسّطات، تصبح بذاتها الوسيلة means التي تسمح لنا بالوصول إلى كل شيء. إن كانت لدينا نقودٌ كافية، يصبح بإمكاننا أن نتجاوز ما يفصلنا عما نريده من دون حاجةٍ لتطوير أية استراتيجيّةٍ بعينها. إن النقود «اقتصاديّة» economical: فبساطة استخدامها تعني أننا نستطيع «اقتصاد» economize - أو التخلي تماماً عن - التبصّر الاستراتيجي. كوسيلةٍ للوصول إلى كل شيء، تصبح النقود الوسيلة القصوى. وبصفتها هذه، فقد فرضت النقود نفسها أخيراً في التاريخ كهدفٍ أعلى ذي طبيعةٍ ترتبط بمفارقة: فوق كل شيء، نحن نبحث عن ملكيّة هذه الوسيلة التي توصِلنا إلى كل شيء. كتب سيميل Simmel عام 1916:

> لقد أصبحت النقود تحديداً غاية الغايات لغالبيّة الناس في حضارتنا، إذ إن حيازة النقود هي ما يمثل الهدف الأعلى لجميع الأنشطة الهادفة التي تقوم بها هذه الغالبيّة . . . ففي عقل الرجل الحديث، ما عادت فكرة الاحتياج تعني احتياج السلع الماديّة، ولكن فقط احتياج النقود اللازمة لشراء هذه السلع.[54]

تبدأ المشكلات عندما نتوقّف عن النّظر إلى النقود «كوسيطٍ» للقيمة، فنبدأ في التصرّف وكأنها «تتضمّن» قيمةً أو كأنها هي في حدّ ذاتها قيمة:

> إنه من الواضح بالتأكيد أن هذا الأمر السابق للهدف النهائيّ - في أقصى حالاته شموليةً وتطرفاً - يقع ليس في المراحل المتوسّطة للحياة ولكن في النقود. لم يحدث مسبقاً أن اتفق لشيءٍ مدينٍ بقيمته فقط لدوره الوسيط ولقابليّته على التحوّل إلى قيمٍ أكثر تحديداً، لم

(54) Georg Simmel, 'The Crisis of Culture', tr. D.E. Jenkinson, in *Simmel on Culture: Selected Writing*, ed. David Frisby and Mike Featherstone (London, Thousand Oaks and New Delhi: Sage Publicaions, 1997), 97.

> يتفق لشيءٍ مثل هذا أن تطوّر - بالكليّة ومن دون تحفّظ - إلى قيمةٍ سيكولوجيةٍ مطلقة، إلى هدفٍ نهائيٍّ مُستغرِق ومُسيطِر على الوعي العملي. إن هذا الاشتهاء الأقصى للنقود لا بد أن يزداد إلى درجة أن تأخذ النقود صفة الوسيلة الخالصة pure means . . . إن أهميتها المُتزايدة تعتمد على كونها خالصةً من كل شيءٍ هو ليس محض وسيلة . . . . كلما كبُرَت قيمة النقود كوسيلة، صار يُظن أنها في حدّ ذاتها قيمةٌ مطلقة.[55]

أن يُحبَّ المرء المال، أن يكون منجذباً له، هو أن يكون مُغرَماً بما يتيحه لنا من فرصة النّفاذ إلى كل شيء، مما يعني أنه في الحقيقة، ومهما بدا ذلك غير منطقي، فنحن منجذبون إلى لا شيء، أو إلى لا شيء باستثناء الوسيلة التي تسمح لنا بالحصول على جميع القِيَم، التي تنخفض بها النقود إلى تعبيرها الأبسط. هذه القِيَم، للمفارقة، منسيّةٌ من قبل الوعيّ العمليّ، لأن النقود تصبح قيمةً مطلقة. أن تصبح منجذباً إلى هذه الوسيلة من ضمن بقية الوسائل هو أن تعتبر الوسيلة التي تقود للقيمة قيمةً بحدّ ذاتها، وشيئاً فشيئاً أن تصبح منجذباً إلى إحصاءٍ للقيمة هو بحد ذاته غير شخصي، غير مهم، غير محدّد، مُحايد، واعتيادي. إننا نخلط بين رسمٍ لبورتريه[56] القيمة وبين الشيء نفسه، فنفضل الخارِطة على الإقليم. من منظور الوعي، تنحدِر النقود بكل شيءٍ إلى مستوى النقطة المرجعيّة هذه. هذه الوسيلة (*moyen*) في الحصول على كل شيء تسمح لنا بالحصول على كل شيء إلى درجةٍ تجعل منه اعتيادياً (متوسطاً).

---

(55) Georg Simmel, *The Philosophy of Money*, ed. David Frisby, tr. Tom Bottomore and David Frisby (London and New York: Routledge, 2004), p. 232.

(56) اللفظ المستخدم في النسخة المترجمة هو Identikit، والكلمة تعني رسماً لشخصٍ تبحث عنه الشرطة، فيقوم فيه الرّسام بتشكيل الملامح وتحديدها من خلال أوصاف الشهود. - [المُترجِمة].

بخلاف ماركس Marx، أدار سيميل Simmel انتباهَه إلى النتائج السيكولوجيّة الواقِعة على الثقافة المُسيطَر عليها من قِبَل المال كوَثَنٍ رمزي. ومثل رأس المال، ولكن على مستوىً سيكولوجيٍّ الآن، فإن للنّقود أثراً مشوِّهاً، لأنها تركّز نشاط العقل على وسيلةٍ تجعله يفقد كل إدراكٍ عقلانيّ لتنوّع العالم. وفي الفصل الثالث من كتابه «فلسفة النقود» *The Philosophy of Money*، فإن سيميل Simmel - بطريقةٍ تشبه طريقة دي لابروييِر de La Bruyère - يقدّم معرضاً من البورتريهات للشخصيّات النمطيّة. إن سرده الإيتيولوجيّ[57] يشمل كلاً من البخيل miser، المُسرِف spendthrift، الجشِع greedy، المولَع باللذّة blasé، والساخِر cynic. تقع النقود في قلب تطوّر هذه الشخصيات، التي هي في الحقيقة مولِّدة لها. وبالنسبة لكل نمطٍ من هذه الأنماط، فإن النقود هي أداةٌ مُصطَنَعةٌ تمكّن العقل من قطعِ علاقته بالواقع التطبيقيّ لمصلحة نظامٍ محاسبيّ لا جسد له. وفي حين أن هذه الاستعارة مؤكّدةٌ على الصعيد السيكولوجي، إلا أنها لا تُرى في البورصة، لأن النقود منتشرةٌ فيها عبر المجال غير المحدود لشبكة المعلومات العالميّة global information network، معطيةً بذلك تقريراً لواقعٍ بعيدٍ - أبعد من ذي قبل - عن أيّة سرديّة مُدرَكة، حتى وإن كانت كلمة «تقرير» account يمكن أن تعني «قصّة» و«سجل القيود الدائنة والمدينة» record of credit and debit entries معاً. لا شكّ أن المعلومات المنشورة على الشّاشة لها الآن قوّة القانون، فوحدها الميزانيات المُجدِبة - المُقدّمة كجداولَ صِرفةٍ أو كأعمدة قيودٍ مُحاسبيّة لا تُدحَض - هي ما يُبرِّر الآن اقتصاداً على هذه الشاكِلة، ما عدنا قادرين على أن نراه بأيّة طريقةٍ أخرى. لقد صرنا نشعُر بالمرض إن كنا بعيدين عن العمليّات الاقتصاديّة التي كانت قابلةً في السّابق للإدراك بالحواس، عندما كانت هذه العمليات تنطوي على استراتيجيّاتٍ للتّقليل من الهوّة التي تفصُلنا كأشخاصٍ عن الأشياء موضوع رغباتنا. الآن،

---

(57) الإيتيولوجيا Etiology (ويسمى أيضاً Aetiology) هو علم دراسة العِلَل أو الأسباب. - [المُترجِمة].

وقد تم نقل استراتيجيّات الاستحواذ acquisition strategies إلى المستوى النّقدي، فقد صرنا نستطيع «الاقتصاد» economize بالعالم؛ أي أن نتعامل معه كمحض عنصرٍ اقتصادي. إن هذا أمرٌ يضِرُّ بنا، كما هذا القسر العام الذي نستشعِره لا يدعُ عالمنا سالماً، أيضاً.

أولاً، الطمع avarice: فالشخص المُصاب بهذه الصّفة يفكّر في الثروة الافتراضيّة التي تعِدُ بها علامة النقد، من دون أن يدَعَها تتجسّد في أيّ شيء؛ فأن يتخيّل المرءُ كل الممكِنات التي لا حصرَ لها التي تعِدُ النقود بها لهو أفضل من أن يحوّل هذه النقود إلى أيّة واحدةٍ منها. فالطمّاع يُطالب علامات النّقد بأن تزوّده بكل المُتع التي تعلِنُها، من دون أن ينخرِط هو في تجربةٍ فعليّةٍ تجعل من هذه المُتعِ محلاً للاختبار. وبذلك، فهو يريد أن يجرّب «الشكل المُجرَّد للمتعة، التي - رغم ذلك - لا يتم التمتّع بها».[58] ولأن لديه سلطة القيام «بكل شيء»، فإن الطمّاع يتحرّر من الالتزام بأن تكون له القدرة الفعليّة على القيام بأيّ شيء، كما أنه محميٌّ من أية خيبة أملٍ مرتبطة بأي اختبارٍ يتعلق بذلك، فالنقود تضفي الشرعيّة على أية خياراتٍ متعلقةٍ بالاحتمالات غير المحدودة، مُضفية - بذلك - الوهم بأن كل شيءٍ يمكن أن يُعطي شكلاً ملموساً، ودونما جهد. إن هذا الموقف مبنيٌّ على السلطات التي تجسّدها النقود في الثقافة الحديثة؛ إنها في الآن ذاته «ملحوظة»[59] وغير معتادة تماماً. وثقافياً، هي تُرى بصفتها علاقةً مطلقةً ومجرَّدة للقيمة، وبهذه الصفة فإنها تطرق خيالنا باعتبارها «طاقةً خالصة».[60]

وعلى العكس، فإن المبذّر spendthrift لا يهتم أبداً بعلامات النّقد هذه: إنه يريد أن يجرّب ثمرة الوَعْد، أياً ما كانت الكُلفة. هل يمكن القول بأن كلاً من الطمّاع والمبذّر يعيشان في ظلّ النّظام ذاته، الذي يفعل فيه أحدهما خلافَ

(58) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 242.

(59) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 244.

(60) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 246.

ما يفعل الآخر؟ من دون أن نُنكِر التقارب بين الاثنين، فإننا نلحَظ اختلافاً كمياً بينهما، وهو خلافٌ يجعل من هذه المقارنة الدّقيقة أمراً صعباً. إذ إن الطمّاع يتشبّث بعلامة النقود، فيندمج بها ويطالب بدقّتها الصارمة، إلى درجة أن تستحوذ عليه أوهام العَظَمَة التي يَنظُر من خلالها إلى النقود كمعيارٍ وحيدٍ للنّفاذ إلى السلطة، كما في رواية بلزاك Balzac[61] «أوجيني جرانديه» *Eugénie Grandet*.[62] أما موقف المبذّر، فهو يتكون من إنكارٍ كبيرٍ لجميع المؤسّسات الضامنة لاحترام القيمة الماليّة. ليس هناك من لفظٍ خاصٍ يكفي سيميل Simmel في محاولته لوصفِ المسلك غير المُكترِث للمبذّر ولامبالاته المجتمعيّة، ملاحِظاً فقدانه التام للعلامات المتعلّقة بالارتباط أو القياس أو الحدود (بالألمانية: *beziehungslosigkeit, Maßlosigkeit, Grenzenlosigkeit*) والطلّبات التي لا يرى هذا المبذّر سبباً للحدّ منها، ما دام هو نفسه يظل مشوهاً بالكليّة؛ إن كل ذلك يوزّع بعنفٍ جامح. هنا، تخطر على البال شخصيّة تيمون الأثيني Timon of Athens كما رسمها شكسبير.[63]

والآن، يدخل الشخص الجشِع the greedy person إلى المشهد. لا يبدو عليه أنه يجسّد نموذجاً، عوضاً عن ذلك هو يتّسم بانحلالٍ أخلاقيٍّ ويتميّز بحالة الارتباك التي تغمُره لمجرّد كون النقود مُتاحةً له. يحدث الجَشَعُ بالضّرورة في

---

(61) كان أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac (1799-1850) روائياً فرنسياً معروفاً، وهو من كبار كتّاب الواقعيّة في الأدب الأوروبي. - [المُترجِمة].

(62) «أوجيني غرانديه» *Eugénie Grandet* هي واحدة من أهم الروايات التي وضعها الأديب الفرنسي أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac. نُشرت الرواية عام 1833، وهي تدور حول شخصيّة الثريّ البخيل فيليكس جرانديه Felix Grandet وابنته الطيبة أوجيني Eugénie وأمها، وتأثير بخله على حياة الاثنتين. - [المُترجِمة].

(63) تيمون الأثيني Timon of Athens هي من المسرحيّات الأقل شهرةً للكاتب الإنجليزي الشهير ويليام شكسبير William Shakespeare (1554-1616). وتدور أحداث هذه المسرحيّة حول تيمون Timon، أحد شباب أثينا اللاهين، الذي يفقد أمواله نتيجة التبذير، فيتعرض لفقدان الأصدقاء إثر ذلك، وتبين مساعيه نحو تعديل مسار حياته. - [المُترجِمة].

السّياقات التي لا ترتبط النقود فيها بأي نوعٍ من الجدارة merit، ونحن لا نعلم ما الذي تعنيه «النقود» حينما تُنتزع من مُفَصّلاتِها، إذ لا تعود تمثل إلا مجموع التخيّلات التي تجسّدها فقط. على سبيل المثال، يكون الوضع كذلك عندما تُوَرَّث النقود أو عندما يُحقّق أحدهم مكسباً كبيراً في البورصة أو عندما يتمّ منح مكافأةٍ خياليةً إلى أحد المدراء التنفيذيّين في شركةٍ ما. إن هذه النقود ليست مرتبطةً بأي عملٍ أو بأيّ إنجازٍ من أي صنفٍ كان أو أيّة عمليةٍ رسميّة. في هذه اللحظة، ينفلت العنف من عقاله، وتبدو النقود وكأنّها مرتبطةٌ باللاوعي مباشرة. إنها تثير أحطّ أنواع الشَّغَف: الغيرة، الكراهيّة، العُدوان، السّخط، الخوف، والطَمَع.

أما الشخص المُتخَم باللّذات blasé، فإن سبب مرضه هو القلق بشأن الدّخل. فبعد أن استلم أجرته من خلال أفعالٍ متكرّرةٍ ونمطيّة فقد صار بعدها يعاني كمستهلكٍ من نظام يُكتسب فيه كل شيءٍ من خلال أفعالٍ متكرّرةٍ أيضاً، كوضع العملات على منضدة البيع أو توقيع الشيكات. إن طريقته في الوصول إلى السِّلع تُبعِدُه لمسافةٍ مُعتبرة من المذهب الحيويّ vitalist principle.[64] «إن الشخص المُتخَم باللّذات . . . فقد تماماً الشعور بفروقات القيمة. إنه يختبر جميع الأشياء وكأن لها ذات الصيغة الرمادية المملة».[65] ولما كانت قِيَم الأشياء تتحدّد بالجهود الحقيقيّة التي ينبغي تحقيقها حتى يتسنّى الحصول عليها (فكوب الحليب مثلاً تختلف قيمته بحسب ما إذا كنت تدفع سعره في المقهى أو كان عليك إيجاد البقرة لشربه). وطالما كانت لديك الوسائل النقديّة اللاّزمة للحصول على الشيء محلّ الرّغبة من دون بذل جهدٍ خاص (كوضع ورقة

---

(64) يقوم المذهب الحيوي vitalism على الاعتقاد بوجود قوىً حيوية وراء حركة وظائف الجسم، فيميّز بين العناصر العضويّة التي توجد في الكائنات الحيويّة والعناصر غير العضوية التي توجد فيما عداها من جمادات. - [المُترجِمة].

(65) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 256.

بنكنوت أو بضع عملاتٍ معدنيةٍ على منضدة البيع)، فإن ما تحصل عليه تنخفض قيمته من وجهة النّظر السيكولوجيّة. وترتفع القيمة بالنّظر إلى المسافة وإلى العوائق التي ينبغي تخطّيها لتجاوز هذه المسافة. «إن الشيء الذي يتشكّل هكذا، ذاك الذي تتحدّد ملامحه بمدى انفصاله عن الذات، والذي تستقرّ عليه هذه الذات وفي الوقت نفسه تسعى للتغلّب عليه بواسطة رغبتها، هو تحديداً ما يمثّل لنا القيمة»، كما يقول سيميل Simmel في كتابه «فلسفة المال» *The Philosophy of Money*.[66] وهكذا، كلما كانت الوسائل التي يكون عليك أن تجدها لتصل إلى النقود أقلّ براعة - باعتبار أن النقود مطلوبةٌ لكل عمليّة - كلما اتّسمت العمليّة اللازمة للوصول إلى غاياتك باللامبالاة أكثر. بذلك، يزداد احتمال اضمحلال «سحر» السلع،[67] من حيث إن الدّرب المؤدّية إلى السلع الاستهلاكيّة لا تعود تقدّم أى شكلٍ من أشكال الإثارة.

ويعرض لنا الساخِر cynic أيضاً كشخصيّةٍ مثيرةٍ للاكتئاب. بخلاف المبذّر spendthrift، فهو يقدّر الأشياء في العالم بطريقةٍ متساويةٍ تماماً، وكأن الترجمة الممكنة لهذه الأشياء إلى نقودٍ هو أمر يُحيّد من مزاياها المحدّدة:

> إن وعيه بالحياة هو أمر لا يتم التعبير عنه بشكل كافٍ إلا، فقط، عندما يكون - نظرياً وعملياً - قد جسّد دونيّة القيِم العليا والسّمة الخياليّة للاختلاف في القيم. وليس هناك ما يطرّي هذه العقليّة مثل قدرة النقود على الانحِدار بأعلى القيِم مرتبةً مثل أدناها معاً، بحيث تشكّل الاثنتان شكلاً واحداً من أشكال القيمة، ومن ثم وضْعُها في نفس المرتبة، بغضّ النظر عن اختلاف أنواعها ومقاديرها.[68]

---

(66) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 66.

(67) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 257.

(68) Simmel, *Philosophy of Money*, p. 255.

والانخفاض بكل شيءٍ إلى كميّةٍ نقديّةٍ هو أمرٌ يرتبط بعدم القدرة على تقدير القيمة إلا وفق معاييرمحاسبيّة مثل هذه. إذ يحكم الساخر على كل شكلٍ من أشكال القيمة على ضوء العلامة النقديّة حصراً، من دون أي اعتبار سياسي، أخلاقيّ أو، كما نلاحظ اليوم، بيئي.

والتفاوت بين كل شيء ولا شيء، المدعوم بالنقود، ينتج طريقة تفكير تميل إلى عدم الاستثمار في الأشياء في هذا العالم. لم يجد سيميل Simmel إلا سبباً واحداً فقط للابتهاج خلال الحرب العالمية الأولى World War I،[69] وهو قسائم الخبز bread coupons التي كانت توزّع بدلاً من النقود، مما مكّن أفراد المجتمع من العودة إلى القيمة العينيّة للأشياء عِوضاً عن قيمة ما يعادلها.

إننا نترك تقدير الأشياء خلفنا عندما نُرغم أنفسنا على استخدام النقود لقياس القيمة، فثقافة النقود تخفي الواقع خلف ستار، لأن القيمة في الثقافة الرأسمالية تكون مسألة أصول مالية وأغراض رفاهية للأغنياء، فيما هي للفقراء والمستهلكين الاعتياديين محض مسألة مساوماتٍ ومقارناتٍ بين الجودة والسّعر، هو أمرٌ قد أدّى إلى تطوّر باثولوجيّات خاصة.[70] لقد جعلت من بعض الناس بخلاء وساخرين بشكل بنيوي، وجعلت من آخرين مُتخَمين باللّذة وجشعين. حقيقة، يظهر كبار المستثمرين والأوليجارشيّين جميع خواص الأب جراندي Grandet، الذي كان، في مكتبِه، يتأمّل جبال الذّهب التي راكَمَها، فيما كان أعضاء أسرته جياعاً ومرضى. إننا نراهم، في المجتمعات الفقيرة والدّول ذات حجم الدَّيْن الكبير، يُخطّطون لتحرّكاتٍ مُلتويةٍ جديدة، بقصد زيادة قِيَم محافظهم من الأسهم وأصولهم العقارية وغيرها من المستندات المُستَتِرة

---

(69) نشبت الحرب العالمية الأولى World War I في الفترة من عام 1914 إلى عام 1918، وذلك بين كل من قوات الحلفاء من جهة (المملكة المتحدة وفرنسا وروسيا) وقوات المِحوَر من جهة أخرى (الإمبراطوريات الألمانية والنمساوية المجرية والدولة العثمانية ومملكة بلغاريا). وقد انتهت هذه الحرب بانتصار الفريق الأول. - [المُترجِمة].

(70) «الباثولوجيا» Pathology هو علم طبائِع الأمراض. - [المُترجِمة].

المودَعة في جهات الأوفشور المختلفة. وفي غمرة عدم اكتراثِهم هذا لتعاسة العالم - التي انحدرت إلى هوّة «التكاليف الخارجيّة» Externailites[71] المنسيّة من قبل الفئات المُحاسبيّة التي يقصِر ضميرها عنها - فقد صار كل شيءٍ لهؤلاء مجرّد مسألةٍ حسابيّة؛ وكأن الأرقام - البعيدة عن ترجمة الصّرخات والمُعاناة - صار لها الآن قيمةً بحدّ ذاتها فأصبحت تنتمي إلى «لعبةٍ» ما، حصراً. لقد صارت الطّبقة الوسطى عالقةً في هذا «اللعبة»، غير قادرةٍ على الخروج بمنظورٍ مختلفٍ عن نظامٍ لا تحصل منه إلا على فوائد عشوائيّة، من دون أن تُجيد قواعده: إنها تقبع في البيت، بيتٌ يبدو وكأنه يقدّم لها المأوى، آملةً أنها ستظل تتمتّع بداخله - لفترة - بسلع هي أصلاً لا تسيطر بالكامل، أبداً، على طرائق تملّكها. إن السلوك المُقولَب لهذه الطبقة يصبح وسيلةً لتأكيد خضوعها، فهي تتبنّى سلوكاً نمطياً بهدف الحصول على موارد صغيرة، وهي مهددةٌ خلال ذلك، باستمرار، بأن تصبح متخمةً باللّذات blasé. وهكذا، فما الفرار إلى الترفيه أو إلى الأدوية المؤثرة نفسياً إلا أمرٌ كاشفٌ عن الأمراض التي تتهدّد الطّبقة الوسطى باستمرار.

بالنظر إلى الطّرق التي أُخضِعوا لها من قبل حضارة النقود الغربيّة، فإن الفقراء - الناس في أفريقيا وفي الأماكن الأخرى التي تستعمِرها الرأسماليّة من دون رحمة - هم أيضاً مُهدّدون بالجشع. في مثل هذه الأماكن، دائماً ما تبدو النّقود وكأنها تأتي من لا مكان، وموجّهةٌ لدولٍ بعيدة. إنها تمرُّ. يُعرف عن النّقود أنها تُستَثمَر في القيمة، ولكن فقط من حيث الشكل، الاعتبارات، والوقائع الغريبة عن الحياة الاقتصادية المُرتبِطة بها. ولأن الأموال ليست مُنتَجَةً

---

(71) «التكاليف الخارجية» أو «العوامل الخارجية» Externailties هو بندٌ محاسبيٌّ يظهر في التقارير الماليّة السنويّة للشركات، وهو خاصٌّ بأشياءَ مثل كلفة التخلّص من منتجٍ ما في نهاية عمره الإنتاجي، وتكاليف التدهور البيئيّ الذي يكون نتيجة للانبعاثات الناجمةً عنه، إضافةً إلى التكاليف الاجتماعيّة كارتفاع نسبة البطالة بسبب التحوّل نحو الأتمتة autonomization مثلاً. - [المُترجِمة].

من قِبَل منظّمة المجتمع نفسه، تبدو النّقود وكأنها من المُقدر لها أن تُختَلس وأن تُستخدَم كرشوة. وهكذا، لأن النظام الثقافيّ الغربيّ فرض لعبته الخاصّة بالنّقود على العالم، مفسداً إياه بذلك، فإن الأمور تعرُض نفسها بذات الطريقة، في كل مكان.

الاقتصاد الجَشِع

قطعة النّقود المعدنيّة التي تُمسِك بها بين الإبهام والسبابة هذه، ما هي العلاقات التي تُسبغ عليها المعنى؟ إن هذه العملة ترتبط بقِيَم السّلع والخدمات التي تُتيح لك ربطُها ببعضها البعض: رغيف خُبز، تذكرة حافلِة، إبريقٌ كهربائي، إيجار شقّة، سُترة، شُموع، وهكذا. إلا أن الأمر يتطلّب وجود سلطةٍ مستقرّةٍ لترسيخ قيمة العملة ذاتها ضمن نصف قطر معين:[72] هذا هو ما يمكّنها من الاستمرار في تغيير شكلها فيما تُساعِدُكَ في تقدير قيمة سلعةٍ إثر أخرى. بعبارةٍ أخرى، لا تتعلّق العملة المعدنيّة بمجموعةٍ من القِيَم المرتبطة بسلعٍ فقط، ولكنها تتعلق أيضاً بمركز جاذبيّةٍ point of gravity يضمَن مدارها orbit؛ المدار الذي سوف يخلق نظاماً دائرياً لنشاط المجتمع الذي يستخدمها. إن هذا المفهوم الكلّي يُعرف باسم «الاقتصاد».

ولكن ماذا يحدث إذا كان مركز الجاذبيّة هذا مفقوداً؟ إذا كانت النقود تخترِق المجتمع بسرعة السّهم المُنطلِق، فتدخل من جانبٍ وتخرج من جانبٍ آخر مباشرة، من أن دون تخلق دوافع متنوّعة أو اقتصاداً مُدبّراً بشكلٍ جيّد، فماذا إذاً؟ هذا ما نراه في عددٍ من الدّول الأفريقيّة، على سبيل المثال، حيث التبديد والفساد هما النتائج. إن العملة التي كانت لها قوّة إبراءٍ قانونيّةٌ منذ عام

(72) الكلمة في النص الفرنسي هي *Rayon*، وفي النص الإنجليزي Radius. - [المُترجِمة].

1945 في مستعمرات غرب ووسط أفريقيا الفرنسيّة السّابقة هي، في ذاتها، علامةٌ على ما تمّ من إزاحةٍ اقتصاديّةٍ عن المركز، كانت هي سبب كل الاختلالات الوظيفيّة. هناك خمس عشرة دولة تستخدم فرنك CFA[73] - وهذه التسميّة التي تمثل اختصاراً لـ «الجماعة الماليّة الأفريقيّة» African Financial Community[74] كانت تعني إلى فترةٍ قريبةٍ المستعمرات الفرنسيّة في أفريقيا - وقد مكّنت هذه العملة فرنسا من إدارة أعمالها في الأقاليم المُحتلّة بطريقةٍ موحّدةٍ خلال الفترة الإمبراطوريّة، لعقودٍ طويلة. لقد ظلّ الأمر كذلك، فكانت قيمتها تحدّد بالنّظر إلى علاقتها بالفرنك الفرنسي، إلى أن تم احتواء هذا الأخير بواسطة اليورو Euro. بل وإلى اليوم، فإن منطقتَي الفرنك الأفريقيتين Franc Zones[75] هما اللّتان تضمنان القيمة القانونيّة لعملةٍ هي في حقيقتها «قيمةٌ مضادة» counter value، بسعر معادلٍ ثابتٍ مرتبط باليورو fixed parity link. إن هذه العملة مضمونةٌ ليس من قِبَل أي بنكٍ مركزيٍّ أفريقي وإنما من قِبَل الخزينة الفرنسية French Treasury، وذلك وفقاً لقرار الاتحاد الأوروبيّ المنصوص عليه في معاهدة ماسترخت لعام 1992 (Maastricht Treaty 1992).[76] وفي الكتاب المُعَنْوَن «أفريقيا في مساعدة أفريقيا» *Africa to the Rescue of Africa*،[77] لا يتردّد الاقتصاديّ السنغاليّ سانو مباي Sanou Mbaye في وصف

---

(73) تتكون منطقة الفرنك من 15 دولة أفريقية، تقع المجموعة الأولى منها في غرب أفريقيا (بينين، بوركينا فاسو، ساحل العاج، غينيا بيساو، مالي، النيجر، السنيغال وتوجو)، فيما توجد الثانية منها في أفريقيا الوسطى (الكاميرون، جمهورية أفريقيا الوسطى، تشاد، الكونغو، غينيا الاستوائية والغابون) بالإضافة إلى جزر القُمُر. - [المُترجِمة].

(74) التسمية بالفرنسية هي *Communauté Financière Africaine - CFA*. - [المُترجِمة].

(75) المقصود هو منطقة دول غرب أفريقيا ومنطقة دول أفريقيا الوسطى. - [المُترجِمة].

(76) معاهدة ماسترخت Maastricht Treaty لعام 1992 هي الاتفاقية المؤسِّسة للاتحاد الأوروبي European Union، وهو تكتلٌ سياسيٌّ - اقتصادي، يشمل في عضويته أغلب دول القارّة الأوروبية. - [المُترجِمة].

(77) Sanou Mbaye, *L'Afrique au secours de l'Afrique* (Ivry-sur-Seine: Éditions de l'Atelier, 2009).

فرنك CFA بأنه من «المخلّفات الاستعماريّة»، ملاحظاً بأنه وحدهم الدكتاتوريّون هم من يجِدون هذه العملة مفيدة، إذ إن تحويلها من الفرنكات الفرنسية إلى اليورو صار يُسهّل الآن هروب رؤوس الأموال.

ووراء مسألة السّيطرة على العملة هناك مسألة السّيطرة على الاستثمارات. إن رأس المال الذي تُقدّر قيمته في مكانٍ آخر ما هو أيضاً، منطقياً، إلا مالٌ يستثمر من الخارج. ورغم أن أفريقيا غنيّةٌ بالموارد، فإنها - ما دامت تعوزها البِني التحتيّة وتسمح للمنظّمات الأجنبية بنهب مواردها - فإنها لا تستطيع أن تخلق لنفسها اقتصاداً مُعتبراً. وبالمحصّلة، فإن دورة المال في المنطقة غالباً لا ينتج عنها توليد القيمة من واقع الإنتاج والتبادل العائِدين إلى المجتمعات صاحبة العلاقة.

بخلاف ذلك، فإن رأس المال النقديّ يظهر بصورةٍ سحريّة؛ فهو غير مرتبطٍ بأي شكلٍ من الأشكال بحالة العمل والإنتاج وتوزيع السّلع في مجتمعٍ منظم، وإنما بقدرة الأفريقيين على جذب هذه السّلع، وبدرجةٍ أكثر أهميّة، بقدرتهم على تملّكها. وبشكلٍ عام، يأتي التمويل من ثلاثة مصادر. أولاً، ميزانيات المُموّلين الدوليّين المرصودة لأغراض «التنمية» development؛ وهي كلمةٌ كثيراً ما تستخدم بشكل آيديولوجيّ لتنطوي ضِمناً على معنىً يفيد وجوب لحاق أفريقيا بالغرب. وثانياً، الاستثمارات الخاصة private investments، وذلك في مجالات المنتجات الزراعية، التعدين، البترول، المستحضرات الصيدلانيّة، وغيرها من شركاتٍ أخرى تُمطر الأموال على المسؤولين الحكوميين رفيعي المستوى، وكذلك - وإن كان بطريقةٍ متقطّعة - على قليلٍ من مرؤوسيهم، وهذه الفئة الأخيرة تدعم قبائلَ كاملةً تتكوّن من العائلة والأصدقاء والمعارف. وثالثاً وأخيراً، الاقتصاد الاجتماعيّ social economy، الذي يوفّر بشكلٍ دوريّ برامج المساعدة الكثيرة والاعتباطيّة وما يسمى المنظّمات غير الحكومية non-governmental organizations (NGOs). وبغرض توجيه الأموال إلى أنفسهم، يقوم الناس في أفريقيا أحياناً - حتى وإن لم يكونوا مقتنعين - بتبنّي لغة

السامريين البيض white Samaritans[78] حتى ينالوا حَظوةً عندهم. لقد تعلّم ممثلو المنظّمات الأفريقيّة غير الحكوميّة NGOs الحديث باللّغة الديمقراطيّة الاجتماعيّة، الغناء باللّحن الشيوعي، إنعاش مطالبهم بترنيماتٍ مناهضةٍ للعولمة، أو صياغة مطالبهم باستخدام كلمات الحوكَمة الفارِغة، وهو أمرٌ يتحدّد بحسب ما إذا كانوا يحاولون استمالة مؤسّسةٍ منتسبةٍ إلى حزبٍ أوروبيّ اشتراكي، أو مؤسّسةٍ راديكاليّةٍ تنتمي إلى أقصى اليسار، أو منظّمةٍ غير حكوميّةٍ ذات توجّهاتٍ فكريّةٍ تقليديّة، أو إدارةٍ ما في البنك الدولي World Bank.[79]

ولا تكمن المشكلة في بُنيَة العائِلة أو القبيلة، وإنما في ارتباطها الهَجين مع الرأسماليّة التقنيّة الغربيّة. ولأنه لم يعُد مجرّد شكلٍ من أشكال التنظيم الأخرى، فقد أصبح هيكل القبيلة أداةً للاستملاك الطُّفيلي parasitical appropriation، باعتباره الطريقة الوحيدة التي يمكن معها استرداد جزءٍ من الثّروة التي نهبتها القوات الإمبراطوريّة وانتزاعها من بين أيدي هذه القوات.

إن الاستعمار الاقتصاديّ من هذا القبيل يقود إلى تثبيط الهمم، وهذه قد تكون نتيجةً مُتعمّدةً في بعض الحالات. يحكي الفيلم التسجيلي المدهش

---

(78) نسبةً إلى قصّة «السّامريّ الطيّب» the Good Samaritan التي وردت في إنجيل لوقا، والتي قصّها عيسى المسيح على حوارييه. وقد وردت هذا القصّة كما يلي بالنّص: «إنسانٌ كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بين لصوص، فعرّوه وجرحوه ومَضوا، وتركوه بين حيٍّ وميّت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاويٌّ أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنّن. فتقدّم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابّته وآتى به إلى فندق واعتنى به. وفي الغد لما مضى، أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق، وقال له اعتن به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك» (إنجيل لوقا 10: 30-37). يُذكر أنه في القانون المُقارن، صارت تسمية Good Samaritan laws تُطلق على التشريعات التي تنظّم مسؤوليات من يقومون بالإنقاذ من دون أن يكونوا مكلّفين بذلك قانوناً، كالمارّة الذي يشهَدون الحوادث أو كالأطبّاء في بعض الأوضاع الخاصة. - [المُترجِمة].

(79) Johanna Siméant, *Contester au Mali. Formes de la mobilisation et de la critique à Bamako* (Paris: Karthala, 2014).

«المطلوبون الثماني عشرة» The Wanted 18[80] للمخرجَين بول كوان Paul Cowan وعامر شومالي Amer Shomali حكايةً من هذا القبيل، وقعت أحداثها في الشرق الأوسط: في الفيلم، تفرض الدولة الإسرائيليّة حظر تجوّلٍ على مجتمعٍ فلسطيني، قاصدةً إلى مصادرة ثماني عشرة بقرةٍ حلوب تزوّد القرويين بمستوىً هشٍّ من الاكتفاء الذاتيّ الاقتصادي. وتَظهَرُ هنا صورةٌ قاسيةٌ لنظامٍ اقتصاديٍّ إمبرياليٍّ يميّز - واعياً - بين فريقين، يصنع أحدهما المال فيما الآخر يستجديه. على كل طرف من أطراف هذا الطيف نجد، من جهة، واسعي الثراء والشركات متعدّدة الجنسيّة والأجانب والزعماء المحليّين الذين يسيئون استغلال امتيازاتهم، ومن جهةٍ أخرى، نجد الفقراء الذين يكونون فقد فقدوا غالباً أيّة احتماليّةٍ استراتيجيّةٍ للخروج من حالتهم. وفي وسط كل ذلك، نجد تقاطعاً يقف عليه، من جهة، الطيفيليّون على المؤسسات (الجمارك، الإعلام، الموظفون العامّون، الأمن) الذين يمسكون بأيّ شيءٍ يستطيعون الحصول عليه من خلال حِيَلٍ من الفساد اليوميّ الصغير، ومن جهةٍ أخرى نجد هؤلاء الذين يحاولون أن يكوّنوا لأنفسهم مستوىً متواضعاً من الاكتفاء الماليّ الذاتي، والذين يتعرّضون باستمرارٍ لخطر انتزاع أرباحهم المتواضعة من قِبَل المُحيطين بهم. «يفترض بي دعم تطوّر جمعيّةٍ تعاونيّةٍ زراعيّةٍ مستقلّة»، يوضّح متدربٌ غربيٌّ في توجو Togo.[81] يبدو المشروع مناسباً من حيث إنه لا يتطلّب أية بِنىً أساسية تقنية غير متاحةٍ للمزارعين المحليّين. «لقد وفرنا الأرض، المعدّات ورأس المال للبداية. ولكن الأمر لم ينجح. أغلب الناس الذين نتعامل معهم يطلبون المال بالدرجة الأولى». لماذا؟ إن الاعتماد على الذّات، عندما يتحقّق على مستوىً صغير جداً، يجتذب الكثير من المشكلات الهامشيّة التي قد ينتهي معها الأمر بحيث يكون المرء في وضعٍ أسوأ من وضعه في حال اعتماده غير المستقرّ على

---

(80) *The Wanted 18*, dir. Paul Cowan and Amer Shomali (National Film Board of Canada, 2014).

(81) بنين (مملكة داهومي سابقاً) هي جمهوريةٌ تقع في غرب أفريقيا. - [المُترجِمة].

الغير، مهما ترتّب على ذلك من عدم استقرارٍ له. إن كان يُراد للناس التخلّص من ثقافة الصّدقات التي انغمسوا فيها بسبب الاستعمار الاقتصادي، فإن ذلك لن يتم شيئاً فشيئاً من خلال استهداف جماعةٍ صغيرةٍ واحدةٍ من النّساء أو من المزارعين أو جمعية لتصليح المركبات، وإنما من خلال إدماج المجتمع ككل.

ما ينطبق على العُملَة ينطبق أيضاً على المرجعيّات السياسيّة والثقافيّة كذلك. في أفريقيا، فإن ما يُسمى بجمهوريّات النمط الفرنسي French-style republics[82] هي في حقيقتها إهانةٌ للحياة السياسيّة: إن حدودها

---

(82) المُراد هنا هو ما هو مُلاحظٌ من اتّباع كثير من الدّول الأفريقيّة الفرانكوفونيّة لنموذج الجمهوريّات الفرنسيّة الخمس. فبعد أن كانت ذات تاريخٍ ملكيٍّ عريق، عرفت فرنسا خمس جمهوريّات، بدأت أولاها مع الثورة الفرنسية التي خلعت الملك لويس السادس عشر Louis XVI، فأعلنت الجمهوريّة الفرنسيّة *La République Française* عام 1792، واستمرت إلى حين إعلان الإمبراطوريّة الأولى على يد نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte عام 1804، منهياً الجمهورية بذلك. ثم أعلنت الجمهورية الفرنسية الثانية *La Deuxième République Française* في الفترة من عام 1848 (الثورة) إلى عام 1851 (الانقلاب العسكري)، وكان لويس نابليون بونابرت Louis-Napoléon Bonaparte رئيساً لها، قبل أن ينفرد بالحكم فينصّب نفسه إمبراطوراً باسم الإمبراطور نابليون الثالث Napoleon III ويقيم الإمبراطوريّة الثانية. أما الجمهورية الثالثة *La Troisième République* (أو La IIIe République) فقد قامت إثر هزيمة الإمبراطور نابليون الثالث Napoleon III أمام الجيوش الألمانيةّ التي ضمّت إقليم الألزاس واللورين، واستمرّت قائمةً للفترة من عام 1870 وحتى عام 1940، حين قام الجيش الألمانيّ النازيّ باحتلال فرنسا في الحرب العالمية الثانية وتشكيل حكومةٍ فرنسيةٍ مواليةٍ له برئاسة المارشال بيتان Pétain (عُرِفت بحكومة فيشي Vichy Government). وبعد ذلك، قامت الجمهورية الفرنسية الرابعة *La Quatrième République Française* بين سنتي 1946 و1958، وعانت الكثير من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسيين، وتزامن حكمها مع تفكيك المستعمرات الفرنسية في أقاليم ما وراء البحار (decolonisation)، لا سيما الجزائر التي كانت تعتبر أهم تلك المستعمرات استراتيجياً واقتصادياً. أما الجمهورية الخامسة *La Cinquième République* (أو *Vᵉ République*) فهي التي قامت على يد الجنرال شارل دي جول Charles de Gaulle محرّر فرنسا من الاحتلال الألماني، والتي بدأت إثر تبنّي الدستور الفرنسي الحالي ابتداء من عام 1958، الذي نصّ على تحويل النظام السياسيّ للجمهورية من الحكومة البرلمانيّة إلى نظامٍ

الجيوبوليتيكية[83] هي إرثٌ مباشرٌ للفترة الكولونيالية colonial period.[84] إذ إن غرب أفريقيا Western Africa ما زالت مُسيطراً عليها بشكلٍ كبيرٍ بواسطة مصفوفةٍ[85] إمبرياليّة، حتى وإن كانت دول هذه المنطقة مستقلّةً رسمياً. لقد تحقّق التدخّل سلفاً حتى قبل إرسال القوات العسكريّة: فجماعات الثوّار تُستخدَم كأدوات، الانتخابات يتم التّلاعب بها من قِبَل القوات السريّة، الدبلوماسيّون يمارسون نفوذهم، وتتدخّل الشركات متعدّدة الجنسيات لرشوة الوزراء والموظفين العموميّين. إن مثل هذا التّغلغل هو أمرٌ بُنيويٌّ في غرب أفريقيا؛ فمثل أشباح، ما زالت السلطات الأمبرياليّة تعيش في الإقليم بفضل الشكل الرّاسخ الذي أسبغته على النُّظُم السياسيّة للمنطقة.

وتعرض العديد من هذه النُّظُم نفسها ككيانٍ كاريكاتوريٍّ عن الجمهورية الفرنسية الخامسة Fifth French Republic، التي كانت هي ذاتها، عام 1958، تمجيداً[86] لخيالات شارل دي جول Charles de Gaulle المَلَكيّة. إن تركيز السلطة في يد شخصٍ واحد (و هو أمرٌ تم رفضه اليوم في فرنسا أخيراً) قد وصل إلى مدىً غير مسبوقٍ في المستعمرات الفرنسيّة السابقة في أفريقيا، في ظل ديكتاتورياتٍ متنكّرةٍ بمظهر الديمقراطيّات، بمباركةٍ أو حتى بدعمٍ نَشِطٍ من فرنسا ومن قوىً غربيةٍ أخرى. وتُظْهِر هذه النُّظُم ، بشكلٍ مُركّز، جميع عيوب

شبه رئاسي (يقسّم السلطة بين رئيس الوزراء كرئيسٍ للحكومة والرّئيس بصفته رأس الدولة). وما زالت هذه الجمهورية مستمرّةً حتى الآن. - [المُترجِمة].

(83) الجيوبوليتيك Geopolitics هي الجغرافيا السياسية، والكلمة هي عبارة عن نحتٍ من كلمتي geography (جغرفيا) وpolitics (سياسة). - [المُترجِمة].

(84) «الكولونياليّة» Colonialism هي سياسات أو ممارسات السّيطرة السياسيّة الكليّة أو الجزئيّة لبلدٍ ما على بلدٍ آخر، من خلال احتلاله على يد المُستعمِرين، واستغلاله اقتصادياً. - [المُترجِمة].

(85) في النّص الفرنسي *matrice*، وفي النص الإنجليزي matrix. و«المصفوفة» هى تسميةٌ رياضيةٌ تعني تنظيماً مستطيل الشكل لعددٍ من العناصر (أعداد أو رموز) مرتّبة وفق خاناتٍ هي عبارةٌ عن أعمدةٍ وصفوف. - [المُترجِمة].

(86) الكلمة هي apotheosis في النص الإنجليزي. - [المُترجِمة].

الجمهورية الخامسة؛ فليس فقط أن رؤساء الدولة يملكون السلطة لتعيين رئيس الوزراء والوزراء ولحلّ المجلس التشريعيّ بمحض إراداتهم، بل إنهم يستطيعون أيضاً - وهو انحرافٌ دستوري constitutional aberration -[87] أن يتولّوا سلطات الوزراء، بما في ذلك المناصب الوزاريّة الاستراتيجيّة مثل الدّفاع والدّاخلية. من هم «المواطنون» الذين يملكون ممارسة إراداتهم في ظل بُنيةٍ سلطويةٍ مثل هذه؟ إنه نظامٌ يتّسم بتشابهٍ غريبٍ مع ذاك الذي ما ظهرت حركات التحرّر إلا لتدميره تحديداً، عندما حقّقت الاستقلال. وحقيقة كون هذه النُّظُم - بحدودِها الجغرافيّة التي عفى عليها الزمن - مُنظّمةً عموماً مثل قبائل، سلالات، جماعات إثنيّة، أو عائلاتٍ محليّةٍ مثل آل نياسنبيه Gnassingbé أو آل بونجو Bongo كمثالٍ واضح، لا تعني بأي حالٍ من الأحوال أن الشعب يشعر أنه مُمَثّلٌ بشكلٍ جيّد. إن فكرة «الخير المُشتَرَك» the common good هي مجرّد خيالٍ خِطابي.[88]

مثل هذه الهياكل الوطنيّة يتمّ التلاعِب بها من الخارج. فالأوامر والنماذج المؤسّسية والتدفّقات الماليّة والشخصيّات الكبرى جميعها تأتي من خارج البلاد، وذلك بالتّناسب مع أهدافٍ تتحدد، هي أيضاً، بالنّظر إلى ما يحدث

(87) من المعايير الموضوعيّة للتعرف على «الانحراف التشريعي» legal aberration (ومنه «الانحراف الدستوري» constitutional aberration): (1) إصدار البرلمان تشريعاً مجرداً وعاماً مع علمه المسبّق بأنه لن يطبّق في الواقع إلا علي حالاتٍ فرديةٍ بعينها (2) إصدار البرلمان لتشريعٍ ما بزعم حفظ النظام الاجتماعي، مع اتخاذ تدابير استثنائيةٍ حادةٍ وغير ذات علاقة، كإصدار قانونٍ بإعلان الأحكام العرفيّة لمواجهة أخطارٍ مدّعاة وغير متحقّقة على أرض الواقع (3) إصدار تشريعٍ يقصد إلى تقييد الحريات العامة كالحق في المساواة والخصوصيّة وحرمة المسكن وحريّة التعبير والتنقل والتملك ومباشرة الحقوق السياسية، بحيث يعتبر هذا التشريع باطلاً لمخالفته للدستور (4) كما يكون التشريع معيباً بالانحراف إذا تَغوّل على الحقوق المُكتسبة والمراكز القانونية المستقرّة. انظر: عبد الرازق السنهوري، «مخالفة التشريع للدستور والانحراف في استعمال السلطة التشريعية»، *مجلة مجلس الدولة* (مصر)، 1952، ص 1 وما بعدها. - [المُترجِمة].

(88) بالفرنسية *Chose commune*. - [المُترجِمة].

بالخارج. والنتائج المترتّبة على هذا معروفةٌ جيداً ومؤكّدة، سنةً بعد أخرى، من قِبَل مؤسسة «النزاهة الماليّة العالميّة» البحثيّة Global Financial Integrity: في كل عام، تغادر القارّة الأفريقيّة عشرات البليونات من الدولارات من خلال قنواتٍ غير قانونيّةٍ أو إجراميّة (بلغت حوالي 50 بليون دولار على مدى السنوات الخمسين الماضية).[89] هذه المبالغ هي أكثر بكثير من قِيَم صناديق «الدّعم» aid funds التي تمنحها الدول الغنية بسخاءٍ بالغ. على مدى زمنٍ طويل، صارت لدى الشّعوب الأفريقيّة استراتيجيّةٌ مركزيّةٌ: خُذْ ما يمكنك من التّدفق الماليّ العابر، حوِّلْ أرباح المؤسّسات المكوّنة لجهاز الدولة إلى شركتك الخاصة، استخدِم السِّحر والمَكر لتحقيق المكاسِب غير المتوَقّعة من المنظّمات غير الحكوميّة NGOs وللحصول على المتبقّي في الصناديق المحليّة للبرامج المدعومة دولياً. هذا، لأن القبائل أصبحت تمثل لاعبين ذوي خبرةٍ كبيرة؛ فلديهم وقتٌ طويلٌ ليطوّروا خلاله ردود الأفعال على أنماط التّدخل.

ورغم أن هذا النوع من الارتكاسات سوف يقود أيّ مجتمعٍ إلى كارثةٍ بالنهاية، فإن مسألة كونهم يتملّكون الأموال الأجنبيّة هي أمرٌ لا يمكن عزوه إلى الفساد هكذا ببساطة: أنه في حقيقته شكلٌ من أشكال المقاومة. ليس هنالك من داعٍ، في الواقع، لمضاعفة الخِزي من خلال رفض كل خطّةٍ قاصدةٍ لرفد الشّبكات المحلّية بأموال قَصَدَ كل من المستثمرين الأجانب والمُموّلين توجيهها لخدمة أهداف الاستغلال الاستعماري. لقد وضع الغرب هؤلاء الأفريقيين في وضعٍ مُذل: فمَثَلَهم مَثَلُ المشاركين في برنامجٍ تلفزيونيٍّ مهنيٍّ يضع الناس في صناديق زجاجّية ويطلب منهم الانقضاض على أوراق بنكنوت تتطاير في الهواء بواسطة مِروحة.

---

(89) Dev Car and Sarah Freitas, *Illicit Financial Flows from Developing Countries: 2001-2010*, Global Financial Integrity, Washington, DC, Dec. 2012.

نَهْبٌ مُسيّرٌ عن بُعْد

ما عادت شعوب الجنوب تعرف إلى من يمكنها اللجوء، إنهم ما عادوا يعرفون الآن حتى ما إذا كان هنالك شيءٌ يسمّى «حكومة» تأخذ القرارات. في هايتي Haïti، يكتسي وجود المنظّمات غير الحكوميّة مظهراً غريباً هو إلى قوة الاحتلال السياسيّ أقرب. إنها في كل مكان، وهي تقرّر كل شيء، من خلال قواها المتناثرة - عمداً - في كل مكان. ومن جديد، يتعلّق الأمر بالسيطرة من خلال الحَوْكَمَة governance: ما عدنا نستطيع تحديد موضع تركّز السلطة. منذ زلزال عام 2010، صار مايكروكوزم microcosm[90] المساعدات الإنسانيّة يعيش - وبصورةٍ جدّ جيّدة أحياناً - على ظهر الكارثة التي وقعت في هايتي Haïti.[91] كما أنه غالباً ما يمّول من قِبَل المؤسّسات الخاصّة المُنشَأة بواسطة جهات الأعمال، التي إما أن تكون مضطلعةً بإعادة إعِمار البلاد، كِسرةً بعد كِسرة، أو في طور التّخطيط لكيفية نهبِ مواردها. والنتيجة هي موقفٌ مقلوبٌ رأساً على عقِب، يقوم فيه العمل الإنساني - رغم طبيعته التلطيفيّة nature palliative - بتهميش الحكومة إلى درجةٍ لا يعود الناس معها يتذكّرون فكرة المؤسّسة العامة. كيف يتسنّى لهم، على أية حال، أن يؤمنوا بشيءٍ مثل هذا عندما تكون القوى السياسيّة في تاريخ هايتي Haïti بأكمله لم تعرِض نفسها إلا في صورةٍ كيلبتوكراسية[92] عنيفةٍ أو سلطةٍ أجنبيّة؟ لقد بدأت حقبة انفتاح هايتي

---

(90) لفظ «مايكرو» micro يفيد الشيء متناهي الصغر، فيما يعني لفظ «كوسموس» Cosmos الكون (و مصدر الإثنين هو اللغة اليونانية). ومن ثم، فإن كلمة «مايكروكوزم» Microcosm تعني العالم أو المجتمع المُصَغّر. - [المُترجِمة].

(91) إشارة الى الزلزال الذي ضرب هايتي عام 2010، والذي أدّى إلى وقوع خسائر بشريّةٍ كبيرة، وخلّف دماراً ضخماً. - [المُترجِمة].

(92) «الكليبتوكراسية» Kleptocracy هو مصطلحٌ اصطُنِعَ في بدايات القرن التاسع عشر، ليصِف النظام السياسيّ المُسمى «حكم اللصوص»، وهو النظام الذي يسمح بالفساد وسرقة المال العام والخاص من خلال تسهيل استغلال المناصب الإدارية والسياسيّة من قبل القائمين على

Haïti للأعمال التجارية بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه. في هذا السياق، فإن المساعدات الإنسانية تمثّل للمستثمرين الأجانب استثماراً أدنى، يهدفون من خلاله إلى ضمان خضوع واحدٍ من أفقر شعوب العالم لهذا النموذج الاقتصاديّ الذي يستغله.

في اليوم التالي للسادِس من يناير 2010، قامت اللّجنة المؤقّتة لإعادة إعمار هايتي The Interim Haiti Reconstruction Commission - IHRC بوضع البلاد تحت وصايةٍ واقعيةٍ trusteeship *de facto*، مُحدِّدةً مجال عمل الحكومة بدورٍ شكليٍّ فقط. لقد اشترك الرئيس الأمريكيّ الأسبق بيل كلنتون Bill Clinton في رئاسة هذه اللجنة التي ضمّت مجموعةً غير متجانسةٍ من الشركات الخاصّة، المنظّمات غير الحكوميّة NGOs، وكالات التمويل funding agencies، دولاً ذات تاريخٍ من التدّخل السياسيّ في هايتي، وبعضاً من ممثّلي السّلطات المحليّة والاتّحادات العمّالية. أما رئيس وزراء هايتي، فلم يتمّ إشراكه في رئاسة هذه اللّجنة إلا من أجل تحسين صورتها. يصِف عالم الاقتصاد فريتز ديسوم Fritz Deshommes هذه اللّجنة بقوله إنها كيانٌ سياديٌّ «غريبٌ وعجيب، يمكنه إمضاء العقود مع أيّ طرفٍ شاء، منح الأراضي أو الإمساك بها، تشغيل التراخيص، منحُ الموافقات على الاستثمار، إقرار المشروعات أو رفضِها، وكل ذلك من من دون أن يكون هذا الكيان مُساءَلاً أمام أيٍّ كان». (93)

في بلدٍ مثل هايتي Haïti مرّ بتجاربَ عديدة، لم تكن هناك أيّة جهةٍ في ذلك الوقت تستطيع النظر في الموضوعات العامّة من وجهة نظرٍ شموليّة، لذلك، فإن

مرافق الدولة، ويُطلق على المستفيدين من هذا النظام السياسي اسم «كليبتوكراتس» kleptocrats. بطبيعة الحال، كلما انتشر هذا الوضع في النُظُم الديمقراطيّة، كان على القواعد الشعبيّة أن تُراجع المعايير الخاصّة بخياراتها الانتخابيّة. - [المُترجِمة].

(93) Fritz Deshommes, 'Haïti: Quelle refondation?' In *Refonder Haïti?*, ed. Pierre Buteau, Rodney Saint-Éloi and Lyonel Trouillot (Montreal: Mémoire d'encrier, 2011).

التحسّن ما كان له أن يحدث إلا بشكل جزئي: كانت المؤسّسات تمنح المال لبناء عيادةٍ هنا، رصف ثلاثين قدماً من طريقٍ هناك، بناء مكتبةٍ كيفما اتّفق في مكانٍ آخر، وهكذا. وكانت كلّ هذه الإنجازات تُعزى إلى الشّركات أو المنظّمات غير الحكوميّة التي قدمت تلك الخدمات؛ هذا أمرٌ تشهد عليه لوحات الإعلان المُبهرَجة. وبشكلٍ عام، ظلّت نسبة الأميّة كما هي، وبقِيَت شبكات شوارع المدينة خَرِبَة، واستمرّت مشكلات الصّرف الصحيّ تعاني من ذات الفداحة السّابقة؛ صارت الدولة والمؤسَسات العامة تبدو، شيئاً فشيئاً، وكأنها قد اختفت. لا يهم: في ظل نظام الحَوْكَمَة، فإن الشيء الوحيد الذي يهمّ هو الشراكة بين أطراف «المجتمع المدني» civil society المتعدّدة وغير المتساوية (و هذا مصطلحٌ معقّمٌ ينبغي دائماً تفضيله على مصطلحاتٍ أخرى مثل «المواطنين» أو «الناس»)، القطاع الخاص، ودولةٌ ما عاد يُنظر إليها الآن إلا كقرين peer. وهكذا، تصبح الفوضى مركزاً للسّلطة: تقوم منظّمةٌ ما بتجديد مركزٍ ثقافيٍّ لا موظَفين فيه ولا كتب، فيما تقوم أخرى بإرسال عربة إسعافٍ متهالكة إلى مدينة بورتوبرنس Port-au-Prince،[94] وتزوّد ثالثةٌ مستشفىً بأسِرَّةٍ رغم أن هذا المستشفى غير قادرٍ على استقبالها أصلاً. كما يضع المُموّلون برامجَ لحماية الأطفال الصّغار من العيش في الشوارع، ولكن - لأنه ليس هناك برنامجٌ مُصمّم بحيث يُمثّل استمراراً للأول - فإن هؤلاء الأطفال يعودون إلى الشوارع مرة أخرى عندما يبلغون الثانية عشرة من أعمارهم. ووفقاً لأستاذ الاتّصالات لونيه رو بيير لويس Luné Roe Pierre Louis، فإن كل شيءٍ يتم تنفيذه «حالةً عَقِبَ أخرى»، من دون نظامٍ قيميٍّ[95] لهيكلة النشاط الاجتماعي.

---

(94) مدينة بورتوبرنس Port-au-Prince هي عاصمة هايتي - [المُترجِمة].

(95) الأكسيولوجيا Axiology هو علم القِيَم المُطلقة. وهو أحد المَباحِث الرئيسية الثلاثة في الفلسفة، وهي مَبْحَث الوجود (أنطولوجيا Ontology)، ومَبْحَث المعرفة (إبيستيمولوجيا Epstimology)، ومَبْحَث القِيَم (أكسيولوجيا Axiology). - [المُترجِمة].

ومع ذلك، حيث إن الناجين ما زالوا يبتسمون كلما رأوا الكتيّبات اللاّمعة للمنظّمات غير الحكومية، فإن مدراء البؤسِ ما زالوا - بضميرٍ مرتاح - يضبِطون الحسابات التي يقوم عليها خيلاؤهم. يتجاوز الدولار الأمريكي أوركسترا اللّغات التي يتحدّثها موظفو التنمية الذين انسحبوا إلى ضواحي مدينة بيتيونفيل Pétion-Ville، [96] والذين لا يرون بورتوبرنس Port-au-Prince إلا من من خلال عدسات معارفهم المحدودة ومن خلال النوافذ المُعتمة لسيّاراتهم الأنيقة. تسيطر شعاراتهم على الأحياء مثل إمضاءاتٍ مبهمة، ويمنحهم كلٌّ من المخربِشون والعاوون التّبرير الذي يحتاجون إليه لكي يُشيعوا، مرةً أخرى، فكرة أن شعب هايتي Haïti هو شعبٌ تلاحِقه اللّعنة: يبدو أن إلهاً غير معروفٍ قد قرّر أن هايتي سوف تظل عاجزة دائماً. وهكذا، ينام سامريّو العاصمة بسلام.

بالنسبة لهؤلاء، فإن هايتي هي فقاعةٌ إنسانيّةٌ تساوي ما يقرب من عشرة بلايين دولار. ما الذي سيفعلونه بكل هذه الأموال؟ في بلادٍ معتادةٍ على التراخي والفساد وإساءة استعمال السلطة، ما عاد أحدٌ يطرح السّؤال أصلاً: فيما عدا بعض الاستثناءات، فإن هؤلاء يحضرون إلى البلاد في بِضع رحلات، يحرِصون على أن يتمّ الدّفع لهم، ثم يُغادرون. لقد وثّق جاستن بودور Justin Podur هذا النّوع الجديد من السيطرة الكولونيالية في كتابه «دكتاتورية هايتي الجديدة» *Haiti's New Dictatorship*، [97] وكذلك فعل كلٌّ من نيكولاس باريشو Nikolas Barry-Shaw ودرو أوجا جاي Dru Oja Jay في كتابهما «الرّصف بالنوايا الحسنة» *Paved with Good Intentions*. [98]

---

(96) إحدى ضواحي العاصمة الهايتية مدينة بورتوبرنس Port-au-Prince. - [المُترجِمة].

(97) Justin Podur, *Haiti's New Dictatorship: The Coup, the Earthquake and the UN Occupation* (Toronto: Between the Lines, 2012).

(98) Nikolas Barry-Shaw and Dru Oja Jay, *Paved with Good Intentions: Canada's Development NGOs from Idealism to Imperialism* (Halifax and Winnipeg: Fernwood Publishing, 2012).

وفي فيلمه التسجيليّ «المساعدة القاتلة» Fatal Assistance،[99] يشرح راؤول بيك Raoul Peck كيف كان من الصّعب إيجاد رُعاةٍ لإزالة الحُطام المُتحصّل إثر الزلزال الذي ضرب هايتي Haïti عام 2010، لأن هذا الجزء من الأعمال لم يكن «مغرياً» من وجهة النّظر الإعلانيّة. إن إقامة مبنىً كيفما اتفق لمدرسةٍ ما، ثم ملأه بالأطفال السّعداء لهو أمرٌ مربحٌ أكثر، ناهيك عن أنه يسمح بالتقاط صورٍ فوتوغرافيّةٍ أجمل.

وبعد الجانب المبهِج، اكتشف الهاييتيون الجانب البراغماتي من الحَوْكَمَة: برامج التّعدين التي حاولت لوحات إعلانات المنظّمات غير الحكوميّة أن تُخفيها. إن الثقافة الخِطابيّة، التِقنيّة والماليّة للغرب إنما تعمل من خلال ترك مسافةٍ تقود إلى انعدام المسؤولية. مضى العهد الذي كان الباحثون عن الذهب - المتهوّرون المحمومون - يقفزون فيه فوق على الأجساد الميّتة لزملائهم لكي يُقيموا معسكراتهم البائِسة في شتاء كلونديايك Klondike القاسي.[100] آنذاك، كان هؤلاء يأملون أن يستخرجوا من التربة بِضع قِطع من الذّهب الكفيل بتغيير حياتهم، والتي لم تكن تساوي الكثير على أية حال. والآن، تحوّل مغامرو الذهب إلى مستثمرين عن بُعْد. وفيما يختبئ هؤلاء المستثمرون وراء شاشات حواسيبهم بداخل مكاتبهم الهادئة، فإنهم يُعرّضون الآخرين لأسوأ التهلُكات، مُخاطرين أثناء ذلك بالأرواح وبالنُّظُم البيئيّة التي لا تعود إليهم. فما عاد هؤلاء المستثمرون يتصدّون للمعركة بأنفسهم الآن: لقد صارت المعارك تُشنّ بواسطة ناشطيهم السياسيين والمحامين والمهندسين وخبراء الاتّصال والوسطاء المحليين والمليشيات. كما أن الديناميت والحفّارات والشاحِنات وفوّهات الحَفْرِ والسيانيد[101] وكومات خَبَثِ المعادِن

---

(99) Raoul Peck, *Fatal Assistance*, Velvet Film, 2013.

(100) تقع منطقة Klondike في إقليم Yukon الكندي. - [المُترجِمة].

(101) السيانيد Cyanide هي مادةٌ شديدة السُميّة. - [المُترجِمة].

جميعها تعود إليهم.[102] بهذا، فإن جبروتهم الآليّ يُسمَع من خلال هدير جلبةٍ مُرعبة: هناك «فرانكشتاين»[103] اقتصاديٌّ عملاقٌ على وشك ضخّ الماء في موقعٍ يساوي فيه الماء الذهب سلفاً. وبعد، فسوف تُطبع كلمة «تنمية» development بخطوطٍ نمطيّةٍ على لوحات المنظّمات غير الحكومية المموّلة من قِبَل بعض الشّركات. لاحقاً، وفيما هم يسعلون بقوّةٍ وسط السحب المُعمِيَة من الغبار والجزيئات السامّة، سوف يتذكّر الناس الابتسامات الساخِرة لبائعي الأحلام هؤلاء. إن بروباجندا التنمية هذه سوف تحِل محلّ المشهد القديم لحيويّةٍ صارت مفقودة.

في هايتي Haïti، يقوم هؤلاء الأفّاقون بتحويل الاحتقار إلى ابتساماتٍ فيما هم يتحدّثون عن «التّعاون» و«التّضامن» و«الصّداقة». لاحظ كيف يبدو التأثّر على السفير عندما يصافح أيادي الناس. انظر كيف يبدو لوبي التعدين مخيفاً عندما يشرح الشروط القاسية لعلومه التقنيّة لأعضاء برلمان هايتي الوطني. تأمّل المنشورات اللامعة لشركة ماجسيكور Majescor[104] التي تشرح فيها آفاق نموها بتوقّد، ولاحظ ما هو الشعور عندما يغلق عليك فخّ مشروعات المساعدة التلطيفيّة palliative aid projects.

الأمر بعيدٌ زمنياً عن قصّة «سادة النّدى» Masters of the Dew التي وضعها الروائي الهايتي جاك رومان Jacques Roumain،[105] والتي تدور أحداثها حول

---

(102) خَبَثُ المعادِن هي موادُّ خطِرةٌ تنتج عن مخلّفات الاحتراق في الصّناعات التحويليّة وإعادة التدوير، وتتعلّق بالدرجة الأولى بتفاعل هذه المخلّفات مع الماء، فتُنتِج عدّة غازات، مثل غاز الأمونيا ذي الآثار الخطِرة على كل من الإنسان والبيئة. - [المُترجِمة].

(103) إشارة إلى شخصية «فرانكشتاين» Frankenstein التي ابتدعتها الروائية الإنجليزية ماري شيلي Mary Shelley (1797-1851)، وهو عبارةٌ عن وحشٍ غير طبيعيّ صنعه عالِمٌ من موادَّ عضوية. - [المُترجِمة].

(104) ماجسيكور Majescor هي شركة تعدين. - [المُترجِمة].

(105) Jaques Roumain, *Masters of the Dew*, tr. Langston Hughes and Mercer Cook (London: Heinmann Educational Books, 1986).

بطلٍ يكافح ضد المعتقدات الخرافيّة لتشجيع شعبه على التشارك في مصادر المياه وتطويرها. واليوم، صار لدينا «روّاد أعمال للندى» entrepreneurs of the dew، متمثلين في المستثمرين الكنديّين الذين اقتحموا المشهد وهو يحملون الإله «لوا» Loa، ربّ المال الفودويّ المحموم خاصتهم.[106] إن شيئاً لا يمكن أن يشتّتهم عن هدفهم: فروح الربح المُضاعف واللانهائيّ جعلتهم يفقدون عقولهم. سوف يدمّرون كل شيءٍ في سبيل الحصول على الذّهب، الذي سوف ينتهي به المآل - بدوره - إلى خزائِن البنوك المركزيّة؛ الذّهب، هذا الوثن الأكبر الضامِن لقِيَم كل من الأوراق الماليّة في السوق والنقود المقدّسة التي قليلاً ما يثِقون بها هم أنفسهم. إن أيّة زيادةٍ في قِيَم أسهمهم سوف تجعل المساهمين في شركاتهم يشجّعون أسوأ صور السّلوك التي تخطُر على البال، مما يجعل من الأمر برمّته مدعاةً أكثر للسّخرية.

ويتطلب تعدين الذّهب كمياتٍ مُذهلةً من المياه: آلاف الليترات في الدقيقة الواحدة، لاسيّما في المناجم مرتفعة المردود high-tonnage ذات المحتوى المنخفض low-grade، التي تنتج عنها كمياتٌ هائلةٌ من الماء الفائِض لكل بضعة غراماتٍ من الرِكاز المُستخرج.[107] إن شركة ألبرت للتعدين Albert Mining Inc. لا تُخفي شيئاً: سوف يحاول «روّاد أعمال الندى» entrepreneurs of the dew هؤلاء استغلال مصادر المياه بتهوّر. فهذه الشركة (التي كانت تعرف سابقاً بماجيسكور Majescor) والعضو في اتحاد سومين للأعمال SOMAINE Consortium تطالب بموقعٍ تبلغ مساحته 50 كيلومتراً مربعاً، ويقع على بعد 30

---

(106) «الفودو» Vodou هو مذهبٌ روحيٌّ منتشرٌ في منطقة غرب أفريقيا والكاريبي، لا سيما في هايتي. وهو يرتبط بالأرواح الهائمة للأموات (وتسمى «لوا» Loa) وبالسّحر الأسود black magic، الذس يعتقد ممارسوه بقدرته على إيذاء من يوجّه ضدّه. - [المُترجِمة].

(107) الرِكاز هو المعدن في حالته الطبيعية، مثل عروق الذهب الموجودة بحالة فلزيّةٌ حرّةٌ في الطبيعة. ومؤخراً، تطور استخدام هذه التسمية، فصارت تعني كل خامةٍ معدنيةٍ ذات قيمةٍ اقتصادية. - [المُترجِمة].

كيلومتراً من جنوب شرق منطقة كاب هايتيين Cap-Haïtien.[108] ويشير تقريرٌ رسميٌّ للشركة إلى أن نهر فريش ريفر Fraiche River هو مصدر المياه الوحيد المستمرّ طوال السنة على هذه الأرض، وأن الأمر سوف يتطلب آباراً لضمان التزويد المستمّر بالماء في جميع الأوقات. قد يكون هذا النهر - الذي يتدفق إلى منطقة ترودونورد Trou-du-Nord - مُهدّداً سلفاً. ووفقاً لدراسةٍ قام بها بعض علماء الهيدرولوجيا الأمريكيين، فإن بعضاً من جداول المنطقة وأنهارها قد أصيب بالتلوّث من قِبل المواقع الصّناعية.

وهكذا، فإنه بالنسبة لشركة ألبرت للتعدين .Albert Mining Inc، فإن عشرين بليون دولار من الأرباح هي الآن مهدّدةٌ بالضياع. أما بالنسبة للشعب الهايتي، فإن مشروعات التعدين هذه قد تستتبع دماراً شاملاً. فلو تم تنفيذ السيناريو كما هو مقررٌ له، فإن افتتاح المنجم سوف يؤدّي إلى زعزعةٍ للاستقرار الديمغرافي:[109] فالنّاس في المجتمعات المجاورة - الذين يأملون في الحصول على وظيفة - سوف يتوقفون عن العمل في الأرض، مما سيؤدي إلى حالةٍ من التوتّرات المحلية، لن تعود المستوصفات كافيةً للتعامل مع الحالات الطّارئة، سيكون البَغاء هو القطاع الوحيد الذي يشهد نمواً (و ستكون هناك حالات اغتصاب أيضاً)، وسوف تزداد مشكلات الصّحة العامّة. وهكذا، سوف يصبح من الواضح أخيراً أن الوظائف الجيّدة ستكون من حظ الأجانب وأن الموظفين المحليّين لن يُعهد إليهم إلا بالوظائف الدُّنيا ذات الأجر المنخفض، كما سوف يتبيّن أن الرِّشا المدفوعة للزعماء المحليّين هي أعلى بكثير من أى ريعٍ أو ضرائبٍ كان يفترض بها إفادة الشعب ككل.

---

(108) 'Majescor to Acquire Interest in Strategic Gold-Copper Property in Haiti', press release, www.marketwired.com, April 23, 2009.

(109) الديمغرافيا Demography هو علم خصائص السُكّان. - [المُترجِمة].

أما على الجانب الاقتصادي، فمن النادر أن يتم الالتفات إلى الثمن الذي يكون على الدولة أن تدفعه لتنمية إقليمٍ ما حتى يستطيع أن يفي بمتطلّبات قطاع الصناعات الاستخراجيّة. صيانة شبكة الطرق وضمان وجود الماء والكهرباء وإدارة النظام القضائيّ وضبط كل من قوة الشرطة والإدارة العامة لضمان النفاذ إلى الملكية: كل ذلك يتطلّب أموالاً هي، كنتيجة، غير متوفّرة لتنمية المؤسّسات بما يحقق المصلحة العامة. وفي حين أن الإنجازات التقنيّة المرتبطة بمشروعات التعدين المُقامة في الهواء الطّلق في منطقة كاب هايتيين Cap-Haïtien يمكن فعلاً تنفيذها بطريقةٍ يمكن معها الوصول إلى الماء بما يخدم جميع القاطنين في المنطقة، إلا أن أصوات التمويل تُملي أولوياتٍ أخرى.

وهناك موقع تعدينٍ مجاورٍ في جمهورية الدومينيكان Dominican Republic،[110] يقع في الجزء الشرقي في جزيرة إيسبانيولا Hispaniola، وهو يستحق أن يُولى بعض الاعتبار. فموقع بويبلو فييخو Pueblo Viejo (القرية القديمة) هو امتدادٌ للرواسب المعدنيّة التي تأمل شركة ألبرت للتعدين Albert Mining Inc. باستغلالها في هايتي Haïti. ولما كان الاستخراج قد بدأ في عام 2012، فقد اتّهم الشّعب الشركتين الكنديّتين العاملتين في هذا الموقع - شركتا باريك جولد Barrik Gold وجولد كورب Gold Corp - بتلويث 2,500 متر مكعب من الماء بالساعة، في منطقةٍ يُعتبر الماء الصالح للشرب فيها محدوداً جداً لحوالي عشرين بالمائة من السكان. إن الاستخراج يعني أن 24,000 طن من المواد سيكون معالجاً بالسيانيد Cyanide كل يوم. لذا، يخشى السُّكان من أن تلقي هاتان الشركتان بنفايات السيانيد في أكبر خزّان مياهٍ في جمهورية الدومينيكان Dominican Republic، إذ بالرّجوع إلى السجلّات القاتِمة لصناعة التّعدين - التي تشير إلى وجود سوابقٍ من هذا القبيل - يتبيّن أن هذا الأمر ليس

(110) جمهورية الدومينيكان Dominican Republic هي دولةٌ مجاورةٌ لهايتي Haïti (تتقاسم الدولتان نفس الجزيرة، وهي جزيرة إيسبانيولا Hispaniola). - [المُترجِمة].

بالمُستبعد. ورغم كل ذلك، فإن قوّة الشرطة الدومينيكانية تحمي منجم باريك Barrick ولم تتردّد في استعمال العنف ضد المتظاهرين، الذين لا يعرفون كيف يضعون حداً لهذه العملية.

لن تربح الخزينة العامة للحكومة من هذا المشروع البالغة قيمته 40 بليون دولار إلا بشكلٍ هامشي. فنسبة العوائد royalty rate المخصّصة للحكومة والبالغة 17.5 في المائة قد تبدو نسبةً معتبرة، إلا أن حقيقة الأمر هي أنها لن تُدفع حتى يستلم حَمَلة الأسهم نصيبهم، كما أن هذه النسبة ترتبط بسعر الذهب، شريطة أن لا ينخفض عن 1,400 دولار للأونصة. أيضاً، ففي حين التزمَتْ شركة باريك جولد Barrik Gold بإطلاق برنامجٍ لتنظيف نهرٍ ملوّثٍ من قِبَل شركة بلاسير دوم Placer Dome التي تملّكتها شركة باريك جولد Barrik Gold في جمهورية الدومينيكان، إلا أن تكلفة هذا البرنامج سوف يتم خصمها من نسبة العوائد الحكوميّة. «سوف تستعيد باريك 100 في المائة من استثمارها»، يوضّح هوجو فونيتي Hugo Fontaine الصحفي في جريدة *La Presse*، مضيفاً أن هذه الشركة «مستثناةٌ أيضاً من قائمةٍ طويلةٍ من الضّرائب، بما في ذلك ضرائب البلديّة».[111] ما الذي سيتبقّى من هذه التصريحات، عدا آثارها الضارّة؟

بطبيعة الحال، يَعِد معسولو اللّسان من العاملين في مجالات صناعة الذّهب بأن عمليات المنجم الهايتي سوف تكون نظيفة. ولكن، متى سبق للقوّة الإمبرياليّة أن اعترفت صراحةً بأنها سوف تقوم بسحق النُّظُم البيئيّة لشعبٍ مُستَغل؟ إن شركة ألبرت للتعدين Albert Mining Inc. - التي يقوم نشاطها على العمل الاستكشافيّ بالدرجة الأولى - هي بمثابة سمكة الزامور pilot fish[112]

---

(111) Hugo Fontaine, 'Haïti: Un trésor sous les ruines?' *La Presse*, Montreal, Oct. 21, 2012.

(112) الزامور هي أسماك صغيرة تعيش في سرب يسبح دائماً بمصاحبة أسماك القرش الكبيرة. وبالإضافة إلى أغراضها النفعية من حيث الاحتماء بأسماك القرش والتغذي على فضلات

التي ستنفّذ العمل الأوليّ حول الرواسِب، حتى يمكن لشركةٍ متعدّدة الجنسيّات أن تتثبّت بعدها من الجوانب التقنيّة لعمليّاتها الاستخراجيّة. وقد كتب فونتين Fotaine «ما إن تنتهي ماجيسكور Majescor (ألبرت Albert) من مسوحاتها، فإن الشركة سوف تبحث عن شريكٍ رئيسي، مثل شركتي باريك جولد Barrick Gold أو نيومونت Newmont لتنفيذ الجزء الاستخراجيّ من المشروع».[113] بالنّظر إلى الطّريقة التي تمّت بها الأمور في جمهورية الدومينيكان Dominican Republic المجاورة، فإن الأمور لا تبدو واعدةً لهايتي Haïti.

وينبغي الالتفات إلى عنصرٍ آخرٍ هنا وهو أن مشروع التعدين الهايتي يقع قريباً من المنطقة الحُرّة في كاراكول Caracol Free Zone، التي جلبت تنميتها سوء الحظ للمنطقة بحرمانها للفلاحين من أفضل الأراضي الصالحة للزراعة. لقد دفعت المئات من العائلات المُصادرة أراضيها الثمن لهذه العملية، كما أن عمّال المنطقة الحُرّة يدفعون الثمن أيضاً: في 2013، كتب الصحفي المحلّي جان جوريس بيير Jean Jores Pierre أنه «في نهاية يوم العمل، لا يحصل بعض العمّال على أكثر من 57 جورد Gourde[114] (1.36 دولار) من أصل الأجر اليوميّ البالغ 200 جورد (4.75 دولارات)».[115] لذلك، يقارن البعض مصانع النسيج في المنطقة الحرّة بالمصانع الآسيوية المُستغِلّة للعمال Asian sweatshops.

غذائها، من المعتقد أن لهذه الأسماك دور استطلاعي، فأسماك القرش قصيرة النظر، ولذلك فالزامور يقودها لإرشادها إلى أماكن الطعام، ولهذا سميت هذه الأسماك بالأسماك القائدة pilot fish. - [المُترجِمة].

(113) Fontaine, 'Haïti: Un trésor sous les ruines?'.

(114) الجورد Gourde هو عملة هايتي. - [المُترجِمة].

(115) Ayiti Kale Je, 'Le Parc Industriel de Caracol: â qui profitera le pari?' Platforme Haïtienne de Plaidoyer pour un Développement Alternatif, http//papda.org, March 9, 2013.

في عالم التمويل، من المُقدّر للمشروعات الكبرى أن تلتقي. أن تزامن المشروعين - المنطقة الحرّة والمنجم - سوف يبرّر، ربما، حفر مرفأٍ بحريٍّ عميق، مما قد يعرّض النظام البيئيّ البحريّ للخطر. هل يمكنك البدء في تنمية منطقةٍ ما فيما أنت تدمّرها؟ يبدو أن الجواب هو نعم، طالما أن شيئاً لا يُدمر على المستوى التخيّلي؛ إنهم يتحدثون عن «الإلدورادو الهايتي» Haitian Eldorado[116] حتى يستمرّ الناس بالحلم، لا بالتفكير. يَطمُس التسويق السِّمة السلبيّة لهذا الدمار، ويُشتّت الانتباه عما يمارسه القطاع الصناعيّ من استخدامٍ غير حكيمٍ للمياه. إن ملايين الدولارات التي تفكر مجموعة التعدين باستثمارها تخلق غموضاً يؤدي إلى إخفاء الفرص الزراعيّة في المنطقة، إلى حد أنها قد نُسيَت بالكامل. صور، صور، صور. عندما يكون الناس جياعاً، كيف يمكنهم مقاومة سراب «خلق الوظائف» job creation، حتى عندما يعني ذلك فاتحةً لخرابِ مناطِقي، لا يفيد غالباً إلا الأجانب الغربيّين، الذين سوف يعيشون معزولين في فنادقهم الفخمة؟

لو كان «سادة النّدى» masters of the dew المعاصرون يستطيعون مقاومة مساعي التخويف وإغراء اللامبالاة ودعوات الفساد، فإنهم سيتمكّنون من أخذ موقفٍ على أساس مبدأٍ يتعدّى نقاشات النّاشطين الموسميين: مبدأ الوقاية. لا شيء يبرّر قيام موظفٍ منتخبٍ بتعريض شعبه لمخاطرَ مثل هذه، لاسيما عندما تكون المنافع التي تعود منها على المواطنين الهايتيين زهيدة، كما أنه ليس هناك ما يبرّر تشكيل مؤسّسات الصّالح العام على أساسٍ من المصالح الخاصة فقط.

---

(116) «إل دورادو» El Dorado هي أرضٌ أسطوريةٌ في أمريكا الجنوبية، وتحديداً في بيرو Peru، يُحكى أنها تضم جبالاً من الذّهب والفضّة والأحجار الكريمة، وبوفرةٍ خياليّة. - [المُترجِمة].

على هذا الجانب، فإن القرار التالي الصّادر من مجلس الشيوخ الهايتيي the Senate المؤرّخ 20 فبراير 2013، هو قرارٌ مثالي:

بالنّظر إلى المذبحة التي صاحبت نهب مواردنا الماليّة في القرن الخامس عشر؛
وبالنّظر إلى البيع المنظّم لإرثنا الوطنيّ خلال فترة الاحتلال الأمريكي؛
وبالنّظر إلى عدم قدرة البلاد حالياً على التفاوض بهدوءٍ بشأن مصادرها المعدنيّة بسبب عدم الاستقرار السياسي؛
وفيما يتم إضعاف الدّولة أكثر من خلال الاحتلال العسكريّ للإقليم الوطنيّ من قِبَل قواتٍ متعدّدة الجنسيّات؛
وبالنّظر إلى هدر الموارد الذي تم رصده سلفاً بداخل مناطقٍ غير ذات أولويّة إثر الزلزال الذي ضرب البلاد في يناير 2010، والذي كان نتيجةً لغياب التوافق الوطنيّ بشأن تحديّات إعادة البناء؛
وبالنّظر إلى عدم الوضوح المُحيط بالتقديرات الواقعيّة لقِيَم الموارد المُشار إليها سلفاً؛
[...]
وبالنّظر إلى المخاطر البيئيّة الجادّة المرتبطة بهذا النّوع من النشاط، وإلى المستويات المُقلِقة لتدهور بيئتنا،
[...]
لذا، فإن مجلس الشيوخ في الجمهورية يتبنى القرار الماثل، ويطالب السّلطة التنفيذيّة، بوضوحٍ وجدية، بتنفيذ الآتي:
المادة 1: الوقف الفوريّ لتنفيذ تراخيص الاستغلال التي صدرت سلفاً إلى شركة Somine S.A.[117]
[...]

(117) 'Le Sénat vote la suspension des permis miniers en Haïti', *Haïti Libre*, www.haïtilibre.com, Feb. 21, 2013.

لسوء الحظ، ليس لهذا النّص قوّة القانون، كما أن الدوافع غير المُعلَنة لمن كانت لهم سلطة التصويت عليه لم تكن واضحة. وعلى الرّغم من ذلك، فإن النّص يكشف قوّة الشخصيّة التي يمكن أن يُظهِرَها الشعب من خلال المؤسّسات المسؤولة عن التّعبير عن إرادته. فعوضاً عن ترتيب الأوضاع بما يفسح المجال لتجفيف الإقليم من قِبَل مناصري النّظر الماليّ المُجرّد، فإن الهدف هو إبعاد ملائكة الموت الذين يُدين لهم حواريّو الفساد بالولاء. بالنسبة للهايتيين الذين ما زالوا يستشعرون نبض الإيقاعات الإنسانية، ومن يملكون إحساساً عميقاً بالانتماء إلى أرضهم الصعبة وتقدِماتها النادرة، فإن وصول هؤلاء الجامحين من المؤمنين الجُدُد هو أمرٌ يدعو إلى المقاومة بصورةٍ عاجلة.

نقابات العمَل ضد الرِّفاق العالميّين

في سياق الاستغلال العالميّ هذا، لم تُثبت نقابات العمل قدرتها على توحيد الجبهات العُماليّة على مستوىً كاف. في الخطاب وفي الفكر، كانت كل مبادرةٍ مشوشةً إلى حدٍّ ما. فالمستثمرون والصناعيون يعرِضون أنفسهم بصفتهم ضحايا للمنافسة الدوليّة، مادّين اليد إلى النّقابات العُماليّة حتى يتعاطف معهم العمّال ويوافقون على مشاركتهم المصير. وغالباً ما يكون أساس ذلك هو المنافسة التي يتطلّبها نموذجنا فائق الليبرالية ultra liberal model؛ وهو نموذجٌ لا ينبغي لنقابات العمل، أبداً وتحت أي ظرف، أن تدعمه. «تُرغِمنا المنافسة على اتّخاذ إجراءاتٍ بغيضة. ولكننا نرزح تحت ضغط العَولَمة، إذ علينا أن نتنافس مع أناسٍ ذوي أجورٍ ضئيلةٍ جداً»، وفق ما صرّح المُستثمر النمساوي النافذ ميركو كوفاتس Mirko Kovats في الفيلم التسجيليّ الذي صنعه إيرفين واجينهوفر Erwin WagenHofer، والمُعنْوَن «لنصنع المال» Let's Make Money.[118] «الأمر

(118) Erwin Wagenhofer, *Let's Make Maoney* (Austria, 2009).

بسيط، علينا أن نعمل أكثر، لا خيار لدينا»، يقول كوفاتس Kovats، واضعاً نفسه في نفس فئة العمّال ذوي ساعات العمل الإضافيّة الإلزامية وغير المدفوعة، وكأنه هو وهم ينتمون إلى ذات الجماعة الاجتماعيّة ويشتركون في ذات المغامرة. إن ربّ العمل هذا - شأنه في ذلك شأن الأوليغارشيّة بشكلٍ عام - قد قام، بحماس، بتشكيل أوضاع العمل البائسة لهؤلاء التابعين الذين يربط نفسه بهم خطابياً. يُظهره الفيلم التسجيليّ المشار إليه وهو يتباهى بمنشأته في الهند - وهي دولةٌ أخرى تبنّت الانفتاح على الأعمال التجاريّة Open for Business - لأن أجرة العامل هناك تمثل تكلفةً «أقلّ بكثير من نظيرتها في أوروبا»، لكونها تتطلب استثماراً متواضعاً يبلغ 250 يورو شهرياً أو 2,500 يورو على الأكثر للعمالة الماهِرة كالمهندسين. ومع ذلك، فإن هذا المبلغ ما زال يُعتبر كثيراً، وفقاً لصاحبنا ذي الأصول الماليّة. «لا نستطيع أن نكون كريمين»، ينطلق كوفاتس Kovats متحدثاً بعِلم، وهو يتأمل الهيكل التقنيّ لمصنعه، الذي يسمح بتقليل المشاركة البشريّة في العمل، بطريقة تصلُح للبحث في الجامِعة كدراسة حالةٍ توضح النّقد الماركسيّ للاقتصاد السياسي.

إن كلاً من كتاب جيسلين ريموند Ghislaine Raymond «الشّراكة المجتمعيّة» *Le Partenariat social*[119] وكتاب ماري بيرنو Mary Pernot «النقابات: اليوم التالي للأزمة؟» Syndicats: lendemains de crise?[120] يبيّنان كيف انتهى الأمر بنقابات العمل الغربيّة بأن صدّقت دعوى التوافق بين مصالح العمال ومصالح أرباب الأعمال الذي يحاول كوفاتس Kovats تجسيده من خلال استخدامه لكلمة «نحن» الواسعة - وهو توافقٌ كان مهيمناً على الخطاب الآيديولوجيّ خلال حقبة التسعينات من القرن الماضي. ويُظهِر كتاب ريموند Raymond كيف أن قمّة 1996 السوسيو-اقتصادية التي انعقدت بناءً على طلب

---

(119) Ghislanine Raymond, *Le partenariat social: Sommet socio-économique de 1996, syndicats et groups populaires* (Montreal: M Éditeur, 2013).

(120) Jean-Marie Pernot, *Syndicats: Lendemains de crise*? (Paris: Gallimard, 2010).

حركة العمل Labour Movement - والتي نُظِّمَت في مدينة كيبيك Quebec من قِبَل حزب *Parti Québécois* الذي ينتمي إليه لوسيان بوشار Lucien Bouchard[121] - قد أوقعت النقابات في فخٍّ من منطق «الشراكة» partnership مع كلٍّ من الحكومة وجهات الأعمال الكبرى. لقد عدّلت «العولمة» Globalization من حدود التّضامن التي كانت حركة العمل قد أرستها، وبشكلٍ عميق: فجأة، فإن الشّركات التي تَستغِلّ أعضاء اتحاد النقابات صارت حليفةً لهم، فيما الرّفاق الدوليّون international comerades - الذين يمكن أن يتم توظيفهم في الشّركات نفسها فيما لو قرّرت تلك الشركات تغيير مواقعها - صار يُنظر إليهم كمنافسين. وفي تصميمها على أخذ موقعٍ لها على المستوى العالمي، تخلّت حركة العمل labour movement عن النهج النقابيّ المُحارب combative unionism الذي كفل لها في السابق تضامناً مع الطّبقة العمّالية الدوليّة: في كيبيك Quebec كما في أماكن عديدةٍ أخرى، صارت تقف الآن إلى جانب أرباب الأعمال ضد المنافسين الأجانب، كما أنه في القمّة السوسيو-اقتصادية لعام 1996، لم يُحرّك القادة النقابيّون ساكناً عندما أُعطَوا ثمانيةً في المائة فقط من وقت الحديث، في حين ذهب نصيب الأسد من هذا الوقت إلى رئيس الولاية The Premier وإلى قادة الأعمال الذين شكّلوا غالبية الحضور. إن استثمارات اتّحاد العمال كحملة أسهم في شركات كيبيك - والمثال الساطع على ذلك هو صناديق التضامن *Fonds de solidarité* التي تتبع اتّحاد العمّال في كيبيك *Fédération des travailleurs et travailleuses du Québec - FTQ*، وهو أكبر اتّحاد عماليّ في كيبيك - تزيد من إرباك تفكير الناس ومن جعل استراتيجيّاتهم غير متجانسة.

---

(121) لوسيان بوشار Lucien Bouchard (1938-) هو سياسيٌّ كنديٌّ ووزيرٌ سابقٌ للبيئة. - [المُترجِمة].

وهذا الفشل الذي عرفته نقابات العمل في القمّة السوسيو-اقتصاديّة المُشار إليها هو أمرٌ وثّقته ريموند Raymond باستفاضة. ففيما كانت نقابات العمل هذه تطالب حكومة كيبيك بتحفيز الاقتصاد من خلال استهداف التشغيل الكامل ورفع نسب الضرائب على الأعمال التجاريّة الكبرى، فإنها رجعت عن مطالباتها هذه فوافقت على موقفٍ مخالفٍ تماماً. وفي النهاية، جمّدت الحكومة الحدّ الأدنى للأجور minimum wage، ألغت حوالي أربعين ألف وظيفةٍ في مجالَي الخدمة المدنيّة والخدمات الصحيّة، خفّضت من الخدمات العامّة، ورفعت رسوم الخدمات عِوضاً عن فرض ضريبةٍ على الشركات. وتلاحظ ريموند Raymond أخيراً أنه، بموافقة نقابات العمل، تمّ التصريح بأن «الحكومة سوف تكون قادرةً على تعديل اتّفاقات العمل الجماعيّة الخاصّة بموظفي الحكومة بما يتناسب والخفض الماليّ المُطبَّق على الخدمات العامة، من دون أن يُنظر إلى ذلك باعتباره إعادة نظرٍ في هذه الاتّفاقات».[122] وهكذا، لم تربح النقابات إلا شيئاً واحداً فقط، وهو قانون المساواة في الأجور Pay Equity Law المصمّم لمساواة الأجور في الوظائف التي تشغلها النساء بالدرجة الأولى بتلك المقابِلة لها والتي يشغلها غالبيةٌ من الرجال: بطبيعة الحال، فإن هذا لا يعدو أن يكون مجرّد تصحيحٍ لظلمٍ تاريخي. في فرنسا وفي أماكن أخرى، أُجبِرَت نقابات العمل على إدراك أن «قواعد الشّراكة الاجتماعيّة» social partnership في السِّياق النيوليبرالي ينحدر بهم، هيكلياً، إلى مجرّد جماعات ضغط lobbies ليس إلا. أما «الحوار الاجتماعي» the social dialogue الذي يُدعوَن إليه، من ضمن أعضاءٍ لآخرين من «المجتمع المدني» civil society، فيبدو وكأنه مُصَمّمٌ لحملهم على الموافقة على قراراتٍ مُتَخذةٍ سلفاً. فعلى سبيل المثال، كان المؤتمر الاجتماعيّ الذي نظّمته حكومة فرنسا الاشتراكية عام 2014 محض

---

(122) Raymond, *Le partenariat social.*

مهزلة، مثلما أشار أستاذ العلوم السياسية جان ماري بيرنو Jean-Marie Pernot في مقابلةٍ له:

> كان من المُقرّر أن يكون الهدف من هذه المؤتمرات هو الخروج بتسوياتٍ اجتماعيّةٍ يمكن تبنّيها من قِبَل مختلف جهات الأعمال والإدارات. ولكننا بعيدون جداً عن ذلك، رغم كثرة المفاوضات الجماعيّة التي تمّت في إطار علاقاتنا الاجتماعية. إننا لا نفعل سوى أن نؤدّي عرضاً: يتعلق الأمر في حقيقته بقيام الحكومة بالخروج بخارطة طريقٍ «للشركاء الاجتماعيين» حتى تستطيع أن تؤجّر مهمة تنفيذ هذه السّياسات من الباطِن. في العادة، يُعطى هؤلاء ثلاثة أشهرٍ حتى يعيدوا تصميم سوق العمل أو خِطَط التّقاعد؛ تخبرهم الحكومة بما تتوقّعه، وسوف تستردّ الأمر وتأخذه بيدها إن لم يتحقّق ما أرادته.[123]

إن إخفاقاتٍ من هذا النوع الهيكليّ هي أكثر خطورةً من أي إضرابٍ فاشل، من حيث إنها تضرب الحركة العماليّة في قلبها. لقد فقدت هذه الحركة صوتَها من دون أن تحصل على أيّ شيءٍ بالمقابل، عدا كونها قد أصبحت شريكاً صغيراً في نظامٍ ماليٍّ فائق الليبرالية ultra liberal financial system، لا يعود بالفائدة إلا على الأطراف الأكثر قوّة. والآن، وفي بعض الأماكن، سيصبح أعضاء الاتّحاد قادرين على الاستفادة من استثمارات هذا الاتّحاد بصفتهم حَمَلَة أسهم فيها، فيما هم يتأمّلون العجز السياسيّ لزعمائهم.

تبدو الحركة العماليّة وكأنها قد فقدت الرؤية بشأن أيّ اتجاهٍ استراتيجيٍّ مستقل؛ عِوضاً عن ذلك، لقد ركّزت على مصاحبة العمّال الأفراد، المُحتارين أصلاً، في اضطرابهم. لقد صار على ناشطي العمل اليوم التّنافس مع أشكالٍ

---

(123) Rashida El Azzouzi, 'Jean-Marie Pernot : La démocratie sociale à la française est un échec', *Mediapart*, www.snuaquiatine.fr, May 26, 2015.

متناقضة من الذاتية subjectivity المُعزّزة بواسطة الآيديولوجيا الطاغية: ذاتيات المستهلكين الشرهين، الأشخاص ذوو العقليّات المُحاسبيّة، البخلاء الذين يركّزون تماماً على مصالحهم الشخصيّة، النرجسيّون ذوو النفسيّات المُفتّتة والذين لا تجاوز آفاقهم أكواخهم الصيفية. لقد استخدمت موارد الدّعاية القويّة في رسم صورةٍ كاريكاتوريةٍ عن أعضاء النقابات، ولم يتم عمل شيءٍ لإعطاء وصفٍ سوسيولوجيٍّ مُغايرٍ يكون من شأنه أن يعكس حالتهم الواقعيّة. وهكذا، فإن الانطباع الطاغي الآن هو أن لأعضاء النقابات صورةً مطابقةً لطبقةٍ وسطى تُعرض دائماً على أنها تافهة. وكثيراً ما تناظِر هذه الصورة الوصف القاتل لتشارلز رايت ميلز Charles Wright Mills في كتابه «الياقة البيضاء» *The White Collar*: إن الجماعة التي يصفها ميلز عاجزةٌ عن أن تتوحّد حول نظرةٍ إلى العالم من شأنها أن تجعل منهم ذواتاً نَشِطَة. وفقاً لميلز Mills، فإن رجل الياقة البيضاء the white collar man «تدفعه قوىً خارجة عن نطاق تَحكّمه، ويُسحَب إلى حركاتٍ لا يفهمها؛ إنه يَدخُل في مواقفَ لا حيلة له فيها».[124] ويضيف ميلز أن هذا الرجل:

> «ليس له وعيٌ تاريخي، لأن ماضيه كان قصيراً وخالٍ من المجد. لم يعش في عصرٍ ذهبي، فلا رصيد لديه من الذكريات التي يمكن أن تؤازره في أحزانه. إن كان مسرعاً دائماً، فربما كان ذلك لأنه لا يعرف إلى أين هو ذاهب. وإن كان مشلولاً بالخوف، فقد يكمن السّبب في أنه يجهل ما يُخيفه. هذا الخوف هو صفةٌ لازمةٌ لموقفه السياسي، وهذه الحال تُفسّر فتوره الكُلي».[125]

يتعلّق نشاط حركة العمل labour movement، طبعاً، بتعديل هذا الوضع، وبتزويد الطّبقة الوسطى بالطّاقة التي تُمكّنها من أن تصبح طبقةً تافهة، ببساطة.

(124) Mills, *White Collar*, xii.

(125) Mills, *White Collar*, xvi.

هذا، في حين أن تزويد هذه الطبقة بالطّاقة الحيويّة يعني تحويلُها إلى قوّةٍ اجتماعيّة؛ تُنتج خطابها الخاص، وتتعدّى المطالبات الإداريّة المحدودة لتتجاوزها إلى التعامل مع ذات الإطار الذي يُشكّل شروط وجودها. فعندما قامت حركة العمل بإطلاق الحملات ضد التهرّب الضريبيّ tax evasion والجِنان الضريبيّة tax havens، فإن نقابات العمال قد اتّحدت في كيبيك وفي عدّة دول، مثل كندا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة وبلجيكا وهولندا والدنمارك. كما أن مبادرات العمل شمال الأمريكيّة قد قادت إلى معارضة المصانع المُستغِلّة للعمّال sweatshop، كما أطلقت النقابات العمالية الدّعايات الموضّحة للتهديد الذي تمثّله اتّفاقات التّجارة الحرّة free-trade agreements لكلٍّ من المؤسّسات العامّة والخدمات. إن هذه جهودٌ ترمي إلى تشكيل نظامٍ يختلف عن نظام العَولَمة الاقتصاديّة economic globalization الذي يمكّن الأوليغارشيّة الماليّة والصناعيّة من الازدهار في ظلام سريّة الجِنان الضّريبية tax havens، المناطق الحرّة free zone، والموانئ التي تُعفى فيها البضائع من الرسوم الجمركيّة duty-free ports.

ومع ذلك، فلا يبدو أن جميع ما تقدّم من مساعٍ إيمانية، مقارباتٍ حرجة، اعتباراتٍ نظريّة، والتزاماتٍ سياسيّة هي أمور تأتي دائماً بتغييرٍ حقيقيٍّ فيما يتعلق باستراتيجيّات النّقابات العماليّة. وفي حين أن لكل هذه صوتاً عالياً، إلا أنها انشغالاتٌ هامشيّةٌ في حقيقتها، حتى لا نقول إنها مُفكّكة، فهي مجرّد أنشطةٍ تقوم بها هذه النقابات بين فترةٍ وأخرى على هامش مسؤوليّاتها الأخرى العديدة والمُتطلّبة، مثل حماية مصالح أعضائها بشكلٍ يوميٍّ أو الانخراط في مفاوضاتٍ هامةٍ مع كياناتٍ بيروقراطيّةٍ يمكن أن يكون التعامل معها صعباً مثل صعوبة التعامل مع إدارةٍ حكوميّة. إن الإشكاليّة التي تؤثّر على الاتحادات العماليّة الممزّقة بين العام والخاص، بين السّياسات الكبرى والإدارات الصغرى، تُلخّص الصّعوبات التي تواجهها حركة العمل. ولا يتعلق الجدل بمسألة تحديد الأولويّات فقط؛ إنه ينطوي على مقارنتين غالباً ما تكونان متناقضتين، لأن

التفكير في إطار الحياة العام الذي يحدّد ذاتية العمّال والمهنيّين يُحتَمل أن يقود إلى نتائجَ تتعارض مع المواقع التي أملتها أُطُرٌ ظرفيّةٌ وإداريّةٌ معيّنة.

وهذا الجدل الأساسيّ يتعلق بخيارٍ مهم: هل الحركة العماليّة حركةٌ سياسية وهل يجب أن تبقى كذلك، أم أنها منذ الآن فصاعداً ينبغي أن تمتثل للقواعد المترهّلة ذات الطبيعة الإدارية بشكلٍ خاصٍّ والمرتبطة بكلمة الحَوْكَمَة؟[126] إن السّياسة هي ما ينتج عندما يُعطي الأشخاص في المجتمع أنفسهم الحقّ في مناقشة وتحديد المبادئ الأسّاسية التي تنظّم الحياة في هذا المجتمع. لذلك، فإن التّصرف «سياسّياً» يعني أننا نضع كل من الخطاب والتحرّكات أبعد من الإحداثيات الاجتماعية التي تحدِّنا بها السلطة المؤسسية، وأننا نناقش جميع القواعد والديناميكيات التي تتطلّب منا أن تكون في هذا الموقع، وعلى هذه الشاكلة. نحن بحاجةٍ لأن نكون أقل انخراطاً في «لعب اللعبة» المهيمنة حالياً ذات الديناميكيات الإداريّة، والمتعلّقة بالبورصة والرأسمالية والليبرالية الفائقة، والتي نلعبها على أمل أن نستخلص بعض القواعد منها، وذلك حتى نستطيع تكريس المزيد من الطّاقة في إرساء قواعد رسميّةٍ جديدة. تضع الحَوْكَمَة ممثلي الاتحاد العماليّ في شراكاتٍ تتضمّن لاعبين من الواضح أنهم غير متساوين. على أساسٍ من الالتزام بالتّوصل إلى «توافق» consensus، تُدعى الاتحادات العماليّة إلى هذه العمليّات لا بهدف إعادة تعريف قواعد الحياة في المجتمع بشكلٍ جذري، وإنما لضمان تزويد كلٍّ من التنميّة الصناعيّة والمشروعات ذات التمويل العالي بدعم الحركات العمّالية. في هذا السياق، فإن حركة العمّال والمهنيين، إلى جانب ممثّلي الجماعات البيئيّة، الشعوب الأصليّة indigenous peoples، والسُّكان المحليين، يُتوقع منها أن «تَرْقَع» المشروع الرأسماليّ الكبير ببضع مبادراتٍ هامشيّةٍ يمكن وصفها لأعضائها بأنها «خطواتٌ في الاتّجاه

(126) من الجدير بالذكر أن كثيراً من تشريعات العمل العربية تُمنع النقابات العماليّة من أن تتعاطى السّياسة. - [المُترجِمة].

الصّحيح»، «تنازلاتٌ تمكنّا من الحصول عليها»، «انتصاراتٌ أخلاقية»، «شراكاتٌ استراتيجية»، وغيرها من تفاهات. تقدّم الحَوْكَمَة نفسها، مرة أخرى، باعتبارها فنّ الإدارة الخاصّة مرفوعاً إلى مرتبة السّياسة، علماً بأن الهدف الحقيقيّ لهذه الحَوْكَمَة إنما يكمن في مصادرة المجال السّياسي.

إن الطريق السّياسي، بطبيعة الحال، هو أصعب بكثير، كما أنه ذو مردودٍ أبطأ وأشد التباساً من طريق الحَوْكَمَة. ضمن هذا المحتوى، فإنه يمكن أن ينظر إلى الطريق السّياسي باعتباره ثوريّاً، من حيث إن الثورة تعني أن مؤسسات السلّطة الضارّة بالصالح العام سوف تُحال إلى الماضي. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فما الذي يحدوك إلى اختيار الطريق السّياسي العدائيّ إذاً، في حين أنك يمكن أن تحاول تحريك بيادقك إلى الأمام على الرقعة الواسعة والأنيقة التي تُلعَب لعبة الحَوْكَمَة عليها؟ إن السّبب في ذلك يكمن في أن لعبة الحَوْكَمَة - وقد نتذكّر هنا آراء روزا لوكسمبورغ Rosa Luxemburg[127] - قد تصبح بالمحصّلة أكثر إيلاماً، سيكولوجياً، من وزن الالتزام السّياسي. إن الضغط على الأجور بسبب عولَمَة الأعمال، إغلاق المصانع التي تنتقل إلى مواقع أخرى، التهرّب الماليّ الذي يُمارس بشكلٍ فخورٍ وقانوني، الإفراط في العمل الذي يؤدي إلى صرف وصفاتٍ هائلةٍ من الأدوية النفسية، عدم اليقين نحو خطط التّقاعد كنتيجةٍ للتحركات غير المنتظِمة للبورصة بما يقودنا إلى الخوف من الأسوأ، ناهيك عن احتمال الانهيار البسيط والواضح للتنظيم الصناعيّ نتيجة لأزمةٍ بتروليةٍ ثم ماليةٍ مُحتملةٍ إلى درجةٍ كبيرة: كل هذه التوقّعات تجعل من مشاركة جماعات العمل في التّجمعات الطقوسيّة للحَوْكَمَة أكثر إشكاليّةً وصعوبةً من الصراع الراديكالي، رغم أن الأخير هو أيضاً مَدعاةٌ للقلق بطبيعته.

---

(127) كانت روزا لكسمبورغ Rosa Luxemburg(1871-1919) ناشطةً ثوريةً ألمانيّةً ذات انتماءٍ فكريٍّ ماركسي. لها مواقفُ قويةٌ نحو تبنّي فكرة الإضراب العام كموقفٍ ثوري، ناقشتها في كتابها الهام «تراكم رأس المال» *The Accumulation of Capital* (1913). تم اغتيالها من قبل الجيش الألماني نتيجةً لمواقفها المعارضة. - [المُترجِمة].

يتعلّق السؤال، إذاً، بالاختيار بين السّياسة أو الحَوْكَمَة: هل ستستمر حركة العمل في أن تكون جزءاً من النظام الرأسمالي ونموّه، مع ضمان أن يكون هذا النظام مقبولاً لأعضاء الاتحاد العماليّ وجعل أموال الاتحاد متاحةً لشركات المساهمة العامة، أم هل ستكون هذه الحركة جزءاً من الجهود المُتضافِرة ضد آثار النّظام غير العادلة، المدمّرة، والمخرّبة؟ إن هذه الأسئلة، التي أثارتها لوكسمبورغ Luxemburg بقوةٍ في أوائل القرن العشرين في معرض جدلٍ نظريٍّ واستراتيجيٍّ حادٍّ مع من اعتبرتهم ديمقراطيّين اجتماعيّين «رجعيّين» social democratic revisionists – والمتمثّلين بكلٍّ من إدوارد بيرنشتاين Edward Bernstein وكارل كوتسكي Karl Kauskty بالدّرجة الأولى – قد تكون أسئلةً ساكنةً اليوم، إلا أنها ما زالت موجودة.

ومع ذلك، فإن هويّة اللاّعبين تتغيّر بتغيّر الزمن. فاليوم، ما عاد لدينا آيديولوجيّون ديمقراطيّون اجتماعيّون في المؤسّسات العُماليّة، يعملون على ضمان سير الأعضاء على درب التّعاون المُستقيم والضيّق. لقد صار المحامون يتولّون هذا الأمر الآن، وربما من دون إدراكٍ منهم. أما أعضاء النّقابة العماليّة، فإنهم ما إن يشعروا بالحماس حتى يفكّرون سياسياً أكثر منهم إدارياً، ويقدّمون أنفسهم كجسدٍ اجتماعيٍّ ذي سيادةٍ على أصوله الماليّة، ويتسلّحون «بمعرفتهم» (التي لا تعدو أن تكون قواعدَ للسلطة)، فإنهم يَظهرون فوراً وكأنهم متأهّبون لتنوير الناس حول حقوقهم وتنبيههم بشأن التّهديدات التي تنتظرهم بمجرد إظهارهم لأدنى تعبيرٍ عن النّزعة الاستقلاليّة. لقد كان أعضاء النقابة العماليّة هؤلاء هم من منعوا كل حركةٍ قاصدةٍ نحو العصيان المدنيّ عام 2012، عندما جاء الوقت لمحاربة مشروع القانون رقم 78 (Bill 78) الذي قدّمته حكومة كيبيك الليبرالية؛ وهو «القانون الخاص»، الذي تمّ التصويت عليه خلال فترةٍ من المظاهرات الطلاّبية الضّخمة، والذي تضمّن فرض عقوباتٍ قاسيةٍ على كل من يُعرقل الجداول الدراسيّة، وكذلك قيّد حق المواطنين في التظاهر. لقد تم رفض مشروع القانون هذا من قِبَل منظمة العفو الدولية Amnesty International

بالإضافة إلى مجموعةٍ من أكثر من ستين أستاذاً للقانون في كيبيك Quebec، اثنان من خبراء الأمم المتحدة المستقلّين المتخصّصين في مجال حريّة التجمع freedom of assembly والاجتماعات السلميّة peaceful association وحرية الرأي والتعبير freedom of opinion and expression، مفوّض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان، ولجنة كيبيك لحقوق الإنسان وحقوق الشباب Human Rights and Youth Rights Commission. هذا هو القانون الذي انتقده حاكم كيبيك السابق Jacques Parizeau، الذي انتقى كلماته بدقة، واصفاً إياه بـ «الإغراء الفاشي» fascist temptation. وتتمثل المعضلة في كون اتّحادات العمّال تستمد وضعها والطبيعة الإدارية لوجودها من الدولة الرأسماليّة، رغم أن وظيفة هذه الاتحادات تتمثّل بمحاربتها أصلاً. هذا، والإضرابات الفعّالة ممنوعةٌ من قبل الدولة تحت الادّعاء الأورويلي Orwellian claim[128] بأن المنع يقصِد إلى ضمان «الحق في الإضراب»؛ هذا الحق الذي تم تقييده تقيداً صارماً، إثر نصٍّ يقرّر بأن الإضرابات سوف يتم تجنّبها بشكل عام وأنها يمكن إنهاؤها دائماً بواسطة «قانون خاص» special law أو بواسطة تشريعٍ يتعلّق بـ «العودة إلى العمل» back-to-work legislation.

إن الوضع الإداري للاتّحادات العمالية يُجبر هذه الاتّحادات على التفكير بالاقتصاد وفق الشّروط الدوجمائيّة للتّجارة والمال تحديداً، أي، حسب

---

(128) الكاتب البريطاني ذائع الصيت جورج أورويل (1903-1950) هو مؤلف الروايتين الشهيرتين «مزرعة الحيوانات» *Animal Farm* و«1984»، والاثنتان تظهران بشكلٍ متكررٍ في قوائم أفضل الكتب للقرن العشرين، وقد لاقتا نجاحاً كبيراً، فانتشرتا عبر العالم وتُرجمتا إلى جميع اللغات الحيّة تقريباً. ولرواية 1984، تحديداً، طبيعةٌ ديستوبيةٌ قاتمةٌ وصفةٌ تنبّئيةٌ مثيرةٌ للاهتمام، حيث يصف الكاتب عالَماً مخيفاً يُعامَل فيه الناس مثل قطيعٍ من الأغنام، يُساقون على يد حكامٍ مجهولين، لتحقيق أغراضٍ غير واضحة، مع الخضوع المستمر لإعلامٍ غير صادقٍ تتوه فيه الحقائق فلا يمكن معه التّفرقة بين الصدق والكذب. ورغم أن رواية 1984 نُشرت عام 1949، فإن كثيراً من النقاد يرون أن ما ورد فيها ينطبق على الحياة المعاصرة الآن. - [المُترجِمة].

الاستراتيجيّات الفرديّة لكل لاعب، وكأن كل عضوٍ من أعضاء الاتّحاد ينبغي أن يُؤخذ بالاعتبار. إن هذا يعني أن ننسى تعليق عالم الاجتماع جابرييل تارد Gabriel Tard، الذي أورد ما يلي في كتابه «السيكولوجيا الاقتصادية» *Psychologie économique* (1902):

> الإضرابات العاطفيّة، تلك التي يقوم بها عمالٌ لا اهتمام لهم بالقيام بها - بل إنهم يُعانون منها - فقط حتى يُظهروا التّضامن مع رفاقٍ هم يهتمون بمصيرهم - هذا النّوع من الإضرابات كان مُتصوراً في أمريكا، البلد الذي قيل لنا إنه الأكثر نفعيّة utilitarian، الأكثر تقدماً من حيث التطوّر الاقتصادي. لم نرَ في أي مكانٍ آخر هذا العدد من التّضحيات الماليّة التي قُدّمَت من أجل فكرةٍ أو مسألة مبدأٍ أو شعورٍ بالتعاطف كما رأينا في هذا البلد الذي تم تسليمه لمصالِح ذاتيّة مفهومة.[129]

على المستوى الأبسط، يُذكِّر محامو العمل نُظراءهم من محاميي الممارسة النقابيّة المُحارِبة combative unionism[130] بأمرٍ كان الفيلسوف فالتر بينجامين Walter Benjamin[131] ينتقده، وهو: حقيقة أن النّظام سوف يحتمِل الحركة

---

(129) Gabriel Tarde, *Psychologie économique*, Vol. 1 (Paris: Félix Alcan, 1902).

(130) بالإنجليزية combative uionism، وبالفرنسية *syndicalisme de combat* - [المُترجِمة].

(131) كان فالتر بينجامين Walter Benjamin (1892-1940) كاتباً ومفكراً ألمانياً، ذا معارف واسعةٍ في مجالات الأدب والفنون والتاريخ، والفلسفة. ورغم أنه مُقِل، إلا أنه مؤثرٌ جداً وصاحب بصمةٍ كبيرة. ويعود السبب في ندرة كتاباته إلى كونه قد مات في سنٍّ مبكرةٍ نسبياً (48 عاماً)، وذلك أثناء محاولته الفرار من القوات النازيّة ،عن طريق الخروج من ألمانيا مع مجموعةٍ من الأصدقاء عبر الحدود الفرنسية-الأسبانية. هناك، قيل له إنه لن يستطيع عبور الحدود، فتناول القلم وكتب بضع صفحاتٍ أخيرة في نظريته حول تطوّر التاريخ، ثم انتحر بعدها بجرعة عالية من المورفين كان يحملها معه لضمان عدم وقوعه حياً بأيدي النازيين. تكمن المفارقة الحزينة في أنه في اليوم التالي لانتحاره مباشرة، فُتِحَت الحدود ونجا جميع من كان معه. لترجمةٍ لبعض كتابات بينجامين Benjamin، انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «فالتر بينجامين: تقنيّة الكاتب في ثلاث عشرة أطروحة»، Eltibas، 13 يوليو 2012: https://eltibas.wordpress.com - [المُترجِمة].

العماليّة فقط طالما ضَمِنَ عدم المساس بالإطار الذي تُمارس ضمنه السلطة المستقرّة. في كتابه «نقد العنف» *Critique of Violence*، يعرِض بينجامين Benjamin الحقّ بالإضراب كطريقةٍ تقوم فيها دولة القانون بتهدئة النّاس الذين تتحكم بهم. ومع ذلك، فإنه لن يُسمح للنّقابات العماليّة بأيّ شكلٍ من الأشكال بأن تقوم بالتّأثير على العمل الفعليّ للنظام، سواءٌ بالإضراب أو من خلال أيّة طريقة أخرى. وعلى سبيل المثال، فإن إضراباً عاماً ثورياً يقصد إلى شلّ الدولة بهدف إرغامها على القيام بتغييرات راديكاليّة سوف يُنظر إليه باعتباره أمراً غير مشروع. وفي حالة الإضرابات المُتزامنة simultaneous strikes:

> سوف يتنادى العمال دائماً بحقّهم في الإضراب، فيما سوف تسمّي الدولة هذه الدعوة بالتّعسف في استعمال الحق abuse of right، لأن الحقّ في الإضراب «لم يكن مقصوداً به أن يكون على هذا النحو»، وسوف تطبّق الدولة بناءً على ذلك إجراءاتٍ استثنائيّة. هذا، لأن الدولة تحتفظ لنفسها دائماً بالحقّ بأن تقرّر كون الإضراب المتزامن الذي تقوم به جميع الصناعات في آنٍ واحدٍ أمراً مخالفاً للقانون، لأن الأسباب المحدّدة للإضراب المسموح به قانوناً لا يمكن أن تكون متحققةً في كل صناعة.(132)

ولأن نظام السلطة القائم لن يمنح أبداً حقاً قد يُستعمل للإطاحة به، فإن الحركة العماليّة سوف تُجبر على التّضحية ببعض المزايا التي منحها إياها هذا النّظام لضمان ولائها، وسوف تُضطّر إلى إيجاد طرقٍ جديدةٍ وخلاقةٍ لتعبئة أعضائها. وإذا تحقّق ذلك، فإن بعض الموارد سوف تنفد، إلا أن الأثر السياسيّ الذي سوف ينجم عنه سوف يكون أقوى بكثير. واليوم، صار على الحركة العماليّة أن تختار بين ممارسة النشاط السياسيّ الذي قد يُضعفها مادياً، وبين البقاء في حالة ضعفٍ سياسيٍّ مع الحِفاظ على قواها الإدارية.

---

(132) Walter Benjamin, 'Critique of Violence', in *Essays, Aphorisms, Autobiographical Writings*, ed. Peter Demetz, tr. Edmund Lephcott (New York: Schocken Books, 1986), p. 282.

الفصل الثالث

الثّقافَةُ والحَضارَة

إنهم اثنان: هناك الاقتصاد الروحانيّ psychic economy، الذي يجد أصله فينا كبشر، والذي يصفه فرويد Freud بألفاظٍ مثل «كوتا» التأثير quota of affect، «الاستثمار» الغريزي instinctual investment، «عملة» المعنى currency of meaning، أو «مدخرات» الطاقة energy savings، وهناك الاقتصاد الماديّ material economy، الذي يتكوّن من الصفقات التجاريّة الصغيرة، الشّغف المحاسبي، والتشريعات المحدّدة للإنفاق sumptuary laws.[1] هذا الصّنف الأخير من الاقتصاد يتسبّب في تآكل حركة وعواطِف الصّنف الأول. ولكن، بخلاف ما قد يُظن، فإن الاقتصاد الروحانيّ هو الذي يكون له الدور الفعال عندما يتعلق الأمر بمراكمة رأس المال، ففنّ صناعة المال هو مسألة حوافز. ولكن، وكما هي الحال مع كل شيء، فإن الوسيط النقدي يُحرَّك لضبط الشّغف الروحيّ، السيطرة عليه، اختزاله إلى تعبيره الأبسط، إحالته إلى شيءٍ اعتيادي، ثم نشره بعد أن تم ترويضه على هذه الشاكلة. إن التعبير الروحيّ يتأثر، بطريقةٍ

(1) هناك ضربٌ من القوانين يُعرف بـ sumptuary laws، وهي تسميةٌ يمكن ترجمتها إلى «قوانين التّرف» أو «القوانين المُحدِّدة للنّفقات». هذه القوانين تهدف إلى التضييق المُمنهَج على النّزعات الاستهلاكيّة للمجتمع، عن طريق سنّ التشريعات التي تنظّم الخيارات الاستهلاكية المُترفة، تحدّ منها، أو تصعّبها من حيث الحصول عليها أو الرّفع من تكلفتها (كالضرائب على السلع الفاخرة، الرّقابة على الاقتراض الاستهلاكي، القيود على استيراد الكماليّات، وغير ذلك). - [المُترجِمة].

دائمة، بالوسيط النقديّ، والنقود تخدِم الفنّ وتستخدِمه في الآن ذاته لتخبر عن نفسها، باعتبارها وسيلةً توسطيّةً للتأثير في التفاهة في أعظم حالاتها.

يحاول الاقتصاد الروحيّ psychic economy أن يجعل النظام العصبيّ في أدنى مستوىً من الإثارة. إشباع حاجة، إطلاق العنان لحافز، التّنفيس عن ضغط، هذه كلها وسائل للتّقليل من الاهتياج الذي يجعلنا نرتعش ولإطلاق ما كان يتراكض بداخل أعصابنا، وهي جميعها أفعال تحريرٍ acts of release يستتبعها سرورٌ ينجم عنها. ومن خلال التأكيدات، التعبيرات، الإيماءات، أو العلاقات مع الأشياء، فإن الذات، ما دامت حيّة، تظل تبحث عن استراتيجيّات تساعدها على إطلاق طاقتها الروحيّة. التزاوج، الأكل، الإمساك بالأشياء؛ هذه صورٌ لنشر القوى السيكولوجيّة، وهي تعبّر عن نفسها في العلاقات من خلال الخروج من الدّاخل إلى الخارج.

إلا أنه من غير المعتاد، رغم ذلك، أن يتم هذا الإطلاق الروحيّ من دون خلق احتكاكٍ أو صراع. فالنُّظُم الأخلاقية والقوانين هي مؤسّساتٌ سلطويّة ترغم الذات على «الكَبْت»، وبالنظر إلى الثّقافة التي ينتمي لها المرء، فإن ذلك قد يعني عدم ممارسة الحبّ قبل الزواج، عدم التدافع مع المارّة، أو عدم إخبار الإمبراطور بأنه عارٍ.[2] إن الكَبْتَ يعني منع الإنِفاق الروحي psychic

(2) هذه إشارةٌ إلى قصّة «ملابس الإمبراطور الجديدة» The Emperor's New Clothes التي وضعها الكاتب الدانمركي هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen (1875-1805)، والتي تدور حول محتاليّن ذهبا إلى أحد الأباطرة وأقنعاه بأنهما يستطيعان أن يصنعا له قماشاً ليس له نظير، لا يراه إلا الأذكياء فقط، وطلبا منه مبلغاً كبيراً لقاء ذلك، فصدّقهما ووافق على عرضهما. فتظاهر المحتالان بحياكة هذا القماش وتفصيله ثم إلباسه له. ولما كان الإمبراطور يخجل من التصريح بأنه لا يرى القماش حتى لا يُقال عنه غبياً، فقد سكت، وكذلك سكتت حاشيته. وفي يوم الخروج من القصر للقاء شعبه، «ارتدى» الإمبراطور هذا اللباس الوهميّ الذي لا وجود له في الحقيقة، في ظل سكوت كل من يُحيط به، ونزل عارياً إلى شعبه، فسكت جميع أفراد الشعب أيضاً، إلا طفلاً صغيراً، حيث صاح «و لكن الإمبراطور عارٍ من الملابس!» - [المُترجِمة].

expenditure. كلما حدث ذلك، فعلى الذات العمل لاحتواء الحافز الروحيّ الذي يريد الإعلان عن نفسه. فإذا أعلنت الذات عن هذا الحافز في ظروفٍ مناسبة، فسوف يُقال إنها تدخل في عمليّة إنفاقٍ روحي: إنها «تستثمر» شيئاً محل رغبةٍ من خلال الإيماءات، الكلمات، أو الرموز. قد يُنظر إلى تعبيرها أيضاً كصورةٍ «للادخار»، بمعنى أن هذه المؤثرات تُسجّل عندما تتوقف الذات عن احتوائها، فالذات تُصرّف أمورها من دون العمل الروحيّ اللازم لكبت هذه الحوافز بما يعني أنها «تدّخرها». لقد سمح المجتمع للذات بأن تُشبع رغبتها من دون أن يعترض طريقتها.

إلا أن هناك ظروفاً أخرى تتطلب الكَبْت. لسوء الحظ، هذا ما يحدث غالباً: تَكْبِت الروح الأشياء باستمرار مرة تلو الأخرى. مرةً بعد أخرى، عليها أن تحتوي الاعتداءات الروحيّة التي لا مَصرِف لها من خلال الأشكال المقبولة مجتمعياً. هذه الأشكال هي أشبه بنصوصٍ مقبولةٍ للحياة الاجتماعية: التّعبير عن حزنٍ نحن في الحقيقة لا نشعر به لدى وفاة أحد معارفنا، تهنئة زميلٍ فاز بجائزةٍ هي غير ذات أهمية، تحيّة مرؤوسٍ نكرهه. كان فرويد Freud يسمي هذه بـ «العُملَة العُصابيّة» neurotische währung / neurotic currency.

وهكذا، فأن يكون المرء غنياً روحياً هو أن يُعطى نفسه الوسائل اللازمة للتعبير - بقدر ما يمكن من السّهولة والتكرار - عن الأمنيات السيكولوجيةّ أو خصوصاً أن لا يكون مرغماً على احتوائها من خلال عمليات كَبْتٍ مكلّفة. هذا لأن الكَبْت، تحديداً، هو ما يسبب ظهور الإثارة الروحيّة، ومن ثم عدم الراحة: المشاعر المؤذية، الاهتياج، وحالات العُصاب العام التي تؤثّر على الناس المساكين، عندما يواجَهون بطبقةٍ من المدراء الذين يُظهِرون سيطرةً تامةً على النّفس أو بأفواجٍ كاملةٍ من الخبراء والناطقين الرسميّين الذين يتميّزون بصفاء حياتهم اليومية.

للأقلّ حظاً، فإن الكَبْتَ هو نفقةٌ مستمرةٌ مكلّفة، وهو لا يعني النفيَ الأبدي لنيّةٍ لا يُسمح لها بالوجود في الاقتصاد العام لأخلاقنا؛ إنه مجهودٌ ينبغي بذله مرةً

إثر أخرى، في كل لحظة، فهو يعني كبح جماح نيةٍ ما لمدة طويلة، من دون تركها تُفلت من خلال زلة لسان أو هفوة *acte manqué*،[3] حتى تكون للمرء القدرة على التفاوض بشأن تساميها إلى شكلٍ مشتقٍّ أو تمويهها بصورةٍ كافيةٍ بما يسمح بظهورها - في حال إفلاتها - بصورةٍ مختلفة.

والنقود، بمعناها المُعتاد الذي يشير إلى تراكم الثروة عن طريق نظام تقنينٍ مُعترفٍ به اجتماعياً، تخفّف من «عمل» الكَبْت؛ إنها تبرّر بسهولة رفع القيود النفسية. من وجهة النظر هذه، فأن تكون ثرياً يعني أنك يمكن أن تستغني عن do without (أو أن تقتصد في economize on) أفعال الكَبْت أكثر من الناس الذين ليسوا بأغنياء. في طرفةٍ اشتهرت لاحقاً بفضل سيجموند فرويد Sigmund Freud، يروي الشاعر الألماني هينريش هاينه Heinrich Heine قصّة وكيل مراهناتٍ في هامبورج وهو يصِف لقاءه بمليونيرٍ شهير: «لقد تعاطى (روتشيلد Rothschild) معي وكأنني نَدٌّ له تماماً؛ لقد عاملني بطريقة اعتيادي-مليونيرية familionairely». [4] وفقاً لفرويد، فقد عبّرت هذه المزحة عن عدم ارتياح

(3) من منظور كلٍّ من فقه اللغة Philology وعلم النفس Psychology، قد تكون لـ «زلّات اللّسان» (وتسمى Lapsus) دلالاتٌ مُضْمَرَة، خفيّة، بحيث إنها - وإن كانت غير مقصودة - إلا أنها قد تكشف عن شيءٍ ما خبيءٍ بداخل لاوعي المتحدّث، حتى وإن غاب على هذا المتحدث نفسه. كان عالم النفس السويسري كارل ماير Karl Meyer (1905-1995) من أوائل من كتبوا في هذا الموضوع، كما أن لسيجموند فرويد Sigmund Freud، رائد التحليل النفسي، دراسةً معروفةً في هذا المجال، تمت الإشارة إليها أدناه. - [المُترجِمة].

(4) Sigmund Freud, *Wit and Its Relation to the Unconscious*, tr. A. A. Brill (New York: Moffat, Yard & Co., 1916).

وبالإنجليزية، فإن كلمة famillionairely هي نحتٌ من كلمتَي familiarly وmillionaire، أما بالفرنسية فالكلمتان هما *familierement* و*millionaire* - [المُترجِمة]. حول ذلك، انظر كتاب فرويد السابق، حيث يورِد:

"... an excellent witticism from Heine, who causes one of his figures, the poor lottery agent, Hirsch-Hyacinth, to boast that the great Baron Rothschild treated him as an equal or quite *FAMILLIONAIRE. Here, the word which acts as the*

الشّخص المنتمي إلى مرتبةٍ طبقيّةٍ متدنيّةٍ لدى لقائه بشخصٍ ذي وضعٍ اجتماعيٍّ أعلى. «التّلطف المُتعالي الصادِر عن شخصٍ غنيّ . . . هو أمرٌ ينطوي دائماً على شيءٍ غير مريحٍ لمن يختبره».[5] ولكننا عندما نقلب هذا الفرض رأساً على عقِب، نرى أيضاً أن الثّراء هو جواز مرورٍ يسمح باتّخاذ وضعيةٍ تنطوي على مثل هذا التّلطف المُتعالي. هذا ما كان رجل هاينه Heine يشير إليه بشكلٍ لبق. إن كلاً من الثراء وخصائصه يمكّنان المرء من أن يُطلق العنان لسلوكياتٍ دنيئةٍ لا يشفع لها إلا وضعه كرجلٍ ثري. بذلك، تكون أبّهة الثّراء هي بحدّ ذاتها نوعاً من العُملة التي تحيل الرّفض المتوقّع إلى تعبيراتٍ عن الامتنان. وهكذا، يصبح الازدِراء شيئاً مُستحِقاً للاحترام.

يستفيد الشّخص ذو النفوذ ، في كل لحظة، من مدخراته المتحصّلة إثر عمله على الكَبْت. فمن خلال الازدراء الذي يُجبر هذا الشخص الآخرين على تجربته، فإنه يُظهِر عمله هذا إلى الخارج. ولأنها غريبةٌ عليه، فإن الجهود السيكولوجيّة تستحيل إلى جماعة النّاس «العاديين» (أي الناس الذين يمتثِلون للنظام). يتعلّق الأمر بهؤلاء لإظهار ما يتحلّون به من ضبطٍ للنفس، اعتدال، وربما تواضع، وكذلك ما إذا كانوا مُطيعين أو حتى مستحِقين للاحترام. فالرجل الثريّ قادرٌ إذاً على أن يتمتّع بالضّحكات الساخِرة التي تتدفّق حتى عندما يكون في غير حاجةٍ إليها (أي حتى إذا كان أولَى به أن يقتصد فيها (economize)) وبالمواعِظ المُتغطرِسة الموجّهة إلى تعساء الأرض. (من المؤكد أننا لسنا بحاجة لأن نذكر هنا الأخطاء التي تنمّ عن كراهية للنساء misogynistic blunders أو العنف الجنسي sexual violence الصادرة عن أشخاصٍ مثل أحد أقطاب

---

carrier of the witticism appears in the first place simply as a faulty word-formation, as something incomprehensible, inconceivable, and enigmatic. It is for these reasons that it is confusing. The comic element results from the solution of the enigma and from the understanding of the word".

(5) Sigmund Freud, *Wit and its Relation to the Unconscious.*

الصّحافة الإيطاليّة الذي أصبح رئيساً للوزراء،[6] ومدير سابق لصندوق النّقد الدولي International Monetary Fund - IMF،[7] ورئيس أمريكيّ سابق).[8] إن استعراضهم للنفوذ هو أقصى درجات إنكار مبدأ الواقعية، لأن المال، عندما يتم تركيزه بشكل ضخم، يُحطّم أي حاجزٍ يقيمه الوَرَع. هذا هو الاستثمار الأقصى: سوف نبذل جهداً عظيماً للارتقاء الاجتماعي إلى مستوىً نستطيع أن نتحرّر فيه من كل هذه الجهود السيكولوجيّة.

يلعب المالُ دوراً مختلفاً تماماً لمن يبحثون عنه كأجر. إن هذا النوع من الدخل، الذي هو بعيدٌ من أن يسمح بالتراخي الأخلاقي، يتحقّق فقط كتعويضٍ عن العمل السيكولوجي. من البداية، تموّل النقود صنفاً هاماً من الكَبْت: البقاء صامتاً. «إخرس، أنا أدفع لك» هو الأمر الضّمني الذي يأتي مع الراتِب الأول. وحقيقة أن المال يَشتري الصمت هي من الوضوح بحيث إن الموظفين الذين يُطلب منهم الالتزام بالسريّة المهنيّة في مجالات عديدة، كالطبّ مثلاً أو القانون أو السياسة يقبِضون مبالغَ إضافيّة مقابل ذلك. إن مبدأ الكَبْت هو واضحٌ أحياناً إلى درجةٍ مذهلة. في إحدى المرات، تم إرسال فريقٍ من المحقّقين لمعرفة السبب وراء سقوط كثيرٍ من الموظفين العامين في إحدى الإدارات الحكومية الألمانية في ربقة الاكتئاب: انتهت الدراسة إلى أنهم كانوا يعيشون عذاباً سيكولوجياً بسبب وجود فرقٍ كبيرٍ بين ما يعرفون أنه الحقيقة وما يُسمح لهم بالكشف عنه رسمياً.

---

(6) سيلفيو بيرلسكوني Silvio Berlusconi (1938–)، كان رئيساً لوزراء إيطاليا لثلاث فترات، انتهت الأخيرة منها عام . 2011 - [المُترجِمة].

(7) بول وولفويتز Paul Wolfowitz (1943–)، كان رئيساً للبنك الدولي World Bank للفترة من 2005 إلى 2007، ثم استقال من منصبه بعد تكشّف فضيحةٍ إداريةٍ تعلقّت باستمراره بدفع رواتب موظفةٍ سابقةٍ في البنك، لأنه كان على علاقةٍ شخصيةٍ معها. - [المُترجِمة].

(8) بيل كلينتون William Clinton، هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للفترة من عام 1993 إلى عام 2001. - [المُترجِمة].

اليوم، في حقبة الإدارة الشمولية totalitarian management وثقافة الشركات، صار الأمر أكثر تكاملاً: «ابتسم، - أنا أدفع لك. كن ملتزماً بشكلٍ شخصيٍّ بشأن أيّ شيء أطلبه منك، - أنا أدفع لك. استخدم شبكة علاقاتك الشخصية لدعم عملك المهني، - أنا أدفع لك». إن الفِكرة المجنونة التي تذهب إلى أن «الزبون هو دائماً على حق» the customer is always right هي واحدةٌ أخرى من هذه الشّعارات، أو العُملات العُصابية neurotic currencies، التي تضع مطالبَ سيكولوجيّةً قصوى على كاهِل الخاضعين لها.

وهكذا، فإن النقود باعتبارها وسيطاً في المعاملات التي تسود فيها، هي عاملٌ يقمع الآثار العنيفة. إن كمية الشّراسة التي تنطوي عليها تصبح واضحةً إذا ما تخيّلنا حالة طلب وجبةٍ من المطعم ثم تناولها والمغادرة من دون دفع الحِساب؛ إن العنف الذي ينطوي عليه الأمر واضح. ما هي قوّة الإكراه المتجسّدة في هذا الوسيط التي تسمح لنا بأن نُملي أوامرنا على الآخرين! مع وجود المال لترطيب العلاقة، فإن العنف يبقى ولكنه يكون ساكناً، حيث إن المال يمكّننا من تجنّبه (الاقتصاد فيه economize on): يُنكر الأثرياء العنف بينما هم يباشرونه، أما الفقراء فيكبتونه فيما هم يسلّمون أنفسهم له. في الحالة الأولى، يجب على الشخص الثري أن لا يسمّيه أبداً وهو يستمتع بالمزايا الخفيّة التي يوفّرها العنف له؛ أما في الحالة الثانية فعلى الفقير مراقبته واستبطان أعماله. ولكن هذا المبدأ يتفسّخ، رغم ذلك، عندما يتواجه وكيل مراهناتٍ بغطرسة البارون روثشيلد Rothschild فيُلقي بنكتةٍ تُحدث تحولاً في الوعي بلحظة.

إن روح الدُّعابة تمكننا من مسح موقفٍ ما وكتابة نصٍّ جديد. ويمكن تعرية الوجهاء والشخصيّات المرموقة وغمسهم في الفكاهة بشكلٍ قاس، مثلما فعل المخرج بيير فالاردو Pierre Falardeau في فيلم «زمن المهرجين» *Le Temps des Bouffons*:[9]

---

(9) فيلم *Le Temps des bouffons* («زمن المهرّجين») هو فيلمٌ قصيرٌ أخرجه المخرج الكندي بيير فالاردو Pierre Falardeau عام 1985، وكان هو الراوية فيه. - [المُترجِمة].

جميع الطيور الجارحة هنا: المُدراء، زوجات المُدراء، بارونات المال، ملوك البيتزا المُثلّجة، أعضاء عِصابات العقَار، جميع عِصابة المُحسنين للبشرية. الجثث المُنتِنَة التي يشيّد لها الناس الصُّروح، الانتهازيّون الذين يَظنّهم الناس مُحسنين، الأغبياء الفُقراء - أصدِقاء السلطة - المتنكرون كأعضاء مجلس شيوخٍ خَرِفون، نساءٌ بملابسٍ ضيقة. عاهراتٌ صغيراتٌ يمارسن عملهنّ نحو القمة، صحفيّون زاحفون يرتدون لباس كُتّاب الافتتاحيّات المتملّقون، محامون مشبوهون يرتدون أردِية القُضاة ويكسبون مائة ألف دولارٍ في السنة، متزلّفون يَظنّون أنهم فنّانون. جميع أعضاء العِصابة هنا: جماعةٌ من الأشخاص المطليّين بالكروم، يرتدون الميداليّات، وربطات العُنُق، مُقرِفون، مُبتَذلون، تافِهون بملابسهم الفاخِرة ومجوهراتِهم الرّاقية. تفوح منهم رائِحَة العِطر إلى درجةِ الإنتان. إنهم أغنياء وحسنو المظهر. إنهم حَسنو المَظهر إلى درجةٍ فظيعة، بأسنانهم البيضاء الفظيعة، وبشرتهم الورديّة الفظيعة. وهم يحتفِلون.[10]

إلا أن الفكاهة سُرعان ما يمكن أن تصبح داكِنةً. من الغريب أن كلمات فالاردو Falardeau القذِرة تقوّي من كرامتنا. إننا نفكِر فيها - في الحقيقة، هي تُنقِذنا - عندما نرى الأوليغارشيّة العالميّة تستهلك عروضاً بائسةً بقدر بؤس أكثر البرامج التليفزيونيّة ابتذالاً. هذا هو الوضع، سواءٌ كانوا يقيمون لدى عائلة البليونير ديسماريه Desmarais في كيبيك Quebec أو يزورون نسخة ترمب Trump البشِعة من قصر فيرساي *Château de Versailles*[11] الواقعة في ميرالجو

(10) Pierre Falardeau, *Le temps des Bouffons*, 1985.

(11) قصر فيرساي *Le château de Versailles* هو واحدٌ من أهم وأكبر القصور الملكيّة الفرنسية، ويقع في منطقة فيرساي على مسافة 25 كيلو متراً عن العاصمة باريس، وكان مقراً لإقامة عددٍ من ملوك فرنسا وحاشيتهم. يُعتبر كل من أبّهة هذا القصر ومعماره العظيم رمزاً لنظام الملكية المُطلقة Absolute monarchy في فرنسا. - [المُترجِمة].

Mer-A-Lago.[12] إن كلمات فالاردو Falardeau تساعدنا أيضاً على أن لا نجفل لدى مشاهدة المشهد المذهل في الفيلم التسجيليّ الذي أخرجه أندرياس بيتشلر Andreas Pichler والمُعَنْوَن «متلازمة فينيسيا» The Venice Syndrome،[13] الذي يظهر فيه السيّاح وهم يدمّرون أساسات مدينة البندقية Venice فعلياً، فيما هم يرتدون ألبسةً تعود إلى أزمنة ماضية، لاعبين دور النّبلاء في حفلةٍ تنكريّةٍ تافهة.

إن سرد فالاردو Falardeau الشهير في فيلم «زمن المهرّجين» *Le Temps des Bouffons* يفعل ما هو أكثر من مجرد إعطاء موقعٍ ذي أفضليةٍ لرؤية المشهد الذي صرنا، للأسف، معتادين عليه. إنه يرينا كذلك الظلم الذي يقع حين يحتقِر الأغنياء والفقراء بعضهم بعضاً؛ الابتذال مقابل الابتذال. يوضّح فالاردو Falardeau أن الفقراء، عندما يرفضون سحر البرجوازيّة الغامض، فإنهم كثيراً ما يدفعون الثمن من خلال كرههم لأنفسهم. إن هذا ليس مجرد ازدراءٍ متبادلٍ بين شخصٍ وآخر، وإنما ازدراءٌ متَبادَلٌ بين غنيٍّ وفقير، في موقفٍ يقود فيه هذا الشعور الذي يشتركان فيه إلى الحطّ من قدر الأخير. حتى الأشخاص الذين يقدّرون حسّ الدعابة يمكن سريعاً أن يفقدوا إحساسهم بالثقة في زمنٍ مثل هذا. إن شخصيّة هاينه Heine تصبح أكثر غلظةً وأقلّ دُعابةً عندما يصِف الأثرياء، الذين لا يعون كونهم قد أُفسِدوا بثرائِهم باعتبارهم Millionarr (وهي توريةٌ مكونةٌ من نحتٍ[14] للكلمتين الألمانيتين «مليونير» و«مغفل» - Narr).

---

(12) ميرالجو Mer-A-Lago هو منتجعٌ ومَعلمٌ سياحيٌّ في ولاية فلوريدا Florida، في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. - [المُترجِمة].

(13) Andreas Pichler, *The Venice Syndrome*, National Film Board of Canada, 2012.

(14) «النّحت» - لغوياً - هو دمج كلمتين أو أكثر في كلمةٍ واحدةٍ طلباً للاختصار والاقتصاد اللفظيّ وهرباً من مزاحمة الألفاظ وتداخلها، مثل كلمة «جيوسياسي» التي تُدمَج فيها كلمتا «جغرافيا» و«سياسة». انظر: إميل بديع يعقوب، *فقه اللغة العربية وخصائصها* (بيروت: دار العلم للملايين، 1982)، ص. 212. وانظر أيضاً: مصطفى الجوزو، «النّحت اللّغويّ

إن هذا الضّرب من التحرّر النفسي ليس محبذاً، لأنه لا يعدو أن يكون تحضيراً لتجارب جديدة. وهو نادراً ما يجعلك تعلو من حيث المكانة. ما الذي تبقى لمنبوذي الدَّيْن الروحي؟ يمكنهم أن يكونوا خلّاقين، طريفين، فطِنين، مُبدعين، وغيرها من الصّفات التي يمكن النّظر إليها بعين الحسد من قِبَل الذين كان المال يُجنّبهم - منذ زمنٍ طويل - الاضّطرار إلى تطوير مثل هذه الصّفات. سوف يتملّك أصحاب المال، بعد مدّة، ثمار المواقف التي ما طُوِّرَت أصلاً إلا رفضاً لهم كأثرياء: سوف تؤول إليهم حقوق الملكيّة الفكريّة لتصاميم اللّباس الذي ابتدعه أُناسٌ كان أسلوبهم فيه قد جعل منهم هامشيّين في السابق، في الكلّيات الرفيعة سوف يُدرِّسون الأعمال الأدبيّة البارعة التي أنتجها من رفضهم المجتمع فكتبوها ضد الأغنياء بصعوبةٍ وغضب، سوف يستحوِذون على أحياءٍ كان الفقراء هم من أسبغ عليها العقل والروح بما توفّر لهم من وقت قليل، وهكذا، فإن لديهم خيار شراء الحقوق الحصريّة للاختراعات التي ابتدعتها الأرواح الغنيّة لأناسٍ واجهوا المتاعب واضطُروا للتغلّب عليها. بذلك، فإن حسّ الدّعابة لديهم - الذي طوّروه جيداً - سوف يجعل لهم الضّحكة الأخيرة: سوف يُدوّي صدى ضحكاتهم الثخينة فيما هم ينحدرون بكل هذه الأشكال، التي طُوِّرَت من دونهم، إلى أن يحيلوها عناصِرَ «للّعبة» التجارية. هذا هو شَغَفَهم الوحيد؛ إنه استعراض القوّة الماليّة، ولا شيء غير ذلك.

رأيُ الأثرِياءِ والمَشاهير

إن نمط الحياة المُترَف للأثرياء والمشاهير يعكِس الثقافة الصّناعيّة الجَمْعيّة industrial mass culture الذي صاروا هؤلاء يقلّدونه. بهذا الصّدد، لاحظ هانز ماجنس إينزينسبرجر Hans Magnus Enzensberger أن: «الطّبقة الحاكِمة لم

ليس صناعة»، *مجلة العربي* (الكويت)، العدد 602، يناير 2009، ص. 138-139. - [المُترجِمة].

تُنتج ثقافةً خاصةً بها منذ زمنٍ طويل، كما أنها لم تُظهر ما يشير إلى أيّة حاجةٍ لها لإنتاج شيءٍ من هذا القبيل».[15] يسيء سادة «اللعبة» معاملة أنفسهم؛ أنهم يَحْمِلون تمثيلهم اللّاهي على مِحْمَل الجد، فيشاهدون أنفسهم في أفلامٍ هم من صنعها، يشعرون بإثارة الأطفال في ألعابٍ تُلعب في الملاعِب التي شُيِّدت من أجلهم، ويصدّقون الأكاذيب التي كانوا هم من أطلقها عندما يقرأونها في جرائدهم. ولكن كون الشيء مَدعاةً للضّحك هو أمرٌ لا يعني بالضّرورة أن الضّحك هو الشيء الوحيد الممكن بصدده.

هناك بلا شكٍّ العديد من القصور المُبهرَجة في كل بلدٍ غربي، ولكن لنأخذ، كمثال، قصر عائلة ديسماريه Desmarais الذي صُمّم ليكون أشبه بقصرٍ ملكيٍّ زائفٍ في منطقة ساجارد Sagard شمال شرق مدينة كيبيك Quebec، وهو مبنىً يتبع مِعمار «البلاديو» Palladio[16] بشكل مُتكلّف، ومُزوّد بحوض سباحة، صالةٍ رياضيّة، دفيئةٍ زراعيّة، ومُحاطٌ بحدائق على طراز حدائق قصر فرساي *Château de Versailles*، إصطبلات، ملعب جولف، مهبط طائرة هيليكوبتر، أربعون مبنىً آخر، خمسة وسبعون كيلومتراً مربعاً من الأرض، واثنتان وثلاثون بُحيرة.

وقد قامت عائلة ديسماريه Desmarais، وهي واحدةٌ من أغنى عائلات كندا،[17] بتشكيل الحياة السياسيّة في كلٍ من كيبيك، كندا، وفرنسا لعقود. إن

---

(15) Hans Magnus Enzenberger, 'Der Triumph der Bild-Zeitung oder die Katastrophe der pressefreiheit', "*Merkur* 37,420 (June 1983), p. 656.

(16) معمار Palladio هو طرازٌ في البناء يُنسب إلى المعماريّ الإيطاليّ أندريا بالاديو Andrea Palladio (1508-1580)، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ على تطوّر الهندسة الغربيّة. كانت تصاميمه كلاسيكيّة النزعة، تستحضر نمط البناء الروماني، مع عزوفٍ واضحٍ عن الزُّخرفات المُبالغ فيها والتي لا وظيفة حقيقيّةً لها. - [المُترجِمة].

(17) في عام 2017، قُدّرَت قيمة الثّروة في كل من صندوق عائلة ديسماريه Desmarais Family Trust وممتلكات الأخوة أندريه André وبول Paul بقيمة أربعة بلايين دولار. انظر:
Jean-François Cloutier, 'Comment les Desmarais ont évité le classement Forbes', *Journal de Montréal*, March. 25, 2017.

علاقاتها المميّزة مع النخبة السياسيّة بدأت مع بول ديسماريه الأكبر Paul Desmarais Sr.، الذي كان له دورٌ معروفٌ في استمالة رؤساء الوزارة الكنديّين من الحزبين السياسيين الرئيسيين على حدٍ سواء، امتد في الفترة من ستينات القرن العشرين وحتى وفاته عام 2013 (وفقاً لبيتر سي. نيومان Peter C. Newman «لم يكن لأي رجل أعمالٍ في كندا علاقةٌ أكثر حميميّةً وتأثيراً أقوى امتداداً مع رؤساء الوزارة الكنديّين من ديسماريه Desmarais»).[18] وكذلك، لعِب بول ديسماريه الأكبر Paul Desmarais Sr. دوراً أساسياً في مساعدة نيكولاس ساركوزي Nicolas Sarkozy على تسنّم سدّة الحكم في فرنسا، وفقاً لرواية ساركوزي نفسه.[19]

وفي عام 2008، أنتجت عائلة ديسماريه Desmarais فيلماً تسجيليّاً يصّور حفل عيد ميلاد زوجة بول ديسماريه الأكبر Paul Desmarais Sr.، وقد أُطلق هذا الفيلم على يوتيوب Youtube من قِبَل شخصٍ مجهولٍ عام 2012. ويُظهر لنا الفيلم قصر ديسماريه Desmarais كمكانٍ غير صالحٍ للسّكن مثله مثل بيوت الضّواحي المتماثلة على نحوٍ صارم، مثلما وصفها ثيودور أدورنو Theodor Adorno.[20] ووراء ما يظهره الفيديو من إتيكيتٍ ملكيٍّ خالٍ من الذوق، فإن حياة مجتمع ساجارد Sagard الرّفيع، حيث يقع قصر ديسماريه Desmarais، تجسّد منظّمةً من السّلطة السياسيّة غير المحدّدة، ولكن الحقيقيّة. ومن مشاهدة السّياسيين، المهنيّين، رجال المال، والشخصيّات الثقافيّة التي تحوم حول

---

(18) Peter Charles Newman, 'Epitaph for the Two-Party State', *Maclean's*, Nov. 1, 1993, p. 14.

(19) Matt Lundy, 'The Life of Paul Desmarais: From Bus Operator to Connected Billionaire', *Globe and Mail*, Oct. 9, 2013.

(20) ثيودور أدورنو Theodor W. Adorno (1903-1969) هو كاتبٌ ومفكرٌ وعالم اجتماع ألماني، كما أن له معرفةً عميقةً بالموسيقى. كان أحد أعضاء مدرسة فرانكفورت النقديّة Frankfurt School of Critical Theory، التي ضمّت العديد من كبار مفكّري القرن العشرين. - [المُترجِمة].

الزوجين ديسماريه Desmarais، يمكننا أن نفهم الآتي:

1. أن في الأمر نظاماً حقيقياً جداً للسّلطة، إلا أنه لا يُترجَم إلى أي شكلٍ دستوريٍّ أو مؤسسةٍ مُدرَكةٍ في المجال العام: لا انتخابات، لا مَحْكَمة، لا هيكل، ولا معارضةٍ يمكنها - رسمياً - بلورَة أو تأطير هذه السّلطة التي تحتفي بنفسها.

2. أن هذا النظام النُّخبوي، الغريب عن الأشكال الدستوريّة للسلطة، سوف يستوعب الأشكال التقليديّة للسلطة، كما يظهر من الطريقة التي يستقبل بها السياسيين والشخصيّات الأخرى المرتبطة بالمؤسّسات الرسميّة. إنهم يظهرون وهم يرتدون الشارات والميداليّات والأوسمة الممنوحة من قبل مؤسّساتٍ شرعيّة، ولكنهم يجدون أنفسهم في وضعٍ تكون التراتبيّة منظمةً فيه بطريقةٍ مختلفةٍ كلياً.

3. أن هذا النظام يجمع بين ملّاك العقار الذين يستطيعون تسجيل أصولهم أو تسجيل البنوك والشركات متعدّدة الجنسيّات التي يستطيعون السيطرة عليها ضمن الأطر القانونيّة المُهادنة - لاسيما تلك التي توفّرها الجِنان الضريبيّة tax havens - حتى يمكنهم متابعة عمليّاتهم الماليّة خارج نطاق الدولة التي يسود فيها القانون. بهذا الشكل، فإنهم ذوو سيادة، إلا أن سيادتهم هذه تُمارَس في فضائِهم الخاص، من دون أي هيكلٍ رسميٍّ معروفٍ أو مُعترفٍ به.

4. أن كل من تعريف ووصف هذه الهياكل الجديدة للسلطة يتملّص بشكلٍ كبيرٍ من تقاليد الفلسفة السياسيّة والأشكال المستقرّة حول سيادة الدولة، كما تعرفها النظريّة الدستوريّة. إنها تطلب منا أن نعرّف أشكالاً جديدة من السلطة وأن نعيد تعريف مصطلحات قاموسنا السياسيّ المُستخدمة في وصف تطوّر عالمنا.

5. أن هذه السلطة الصامتة، المشفّرة، الافتراضيّة، والتحوّلية، تراوغ

كذلك النظريّات النقديّة الخاصّة بالانعتاق السياسيّ political emancipation التي ترى الديمقراطيّة باعتبارها ديالكتيكاً Dialectic[21] بين الخطاب الرسميّ لسلطةٍ ما ودَحضِه الجدليّ من قِبَل المَحكومين به، العارفين بأن العقل مُتاحٌ للجميع. هنا، نرى أن العناصر غير الرسميّة ولكن القويّة لهذه السلطة تتّسِم - للمفارقة - بخصائص بروليتاريّة: ليس لها صوت، ولا اسم، ولا محل إقامةٍ مستقر وأحياناً لا عضوية رسميّة في الجسد السياسي. وفي المجال الاقتصادي، تشكل أنشطتهم مصير المجتمعات وتُملي كيف تؤثّر الأيديولوجيا على السّياسة العامّة public policy،[22] ومع ذلك،

---

(21) يرتكز «المنهج الدياليكتيكي» Dialectics على مبدأ من أن كل الأشياء والظواهر هي في حالة تداخلٍ وصراعٍ داخليٍّ مستمر، وهذا التناقض هو الطّاقة وراء حركة التطوّر والتقدّم في الحياة. وهكذاً، كمنهج، يقوم الدياليكتيك على عدّة قوانين علميةٍ مترابطة، أهمها ثلاثة، هي: (1) قانون تحوّل التغيّرات الكميّة إلى تغيّرات نوعيّة (فتكرار الأزمات الاقتصادية في روسيا هو أمرٌ انتهت معه إلى الثورة)، (2) قانون وحدة وصراع الأضداد (فالمجتمع البشريّ واحد، ولكن طبقاته متضادّةٌ ومتصارعة)، و(3) قانون نفي النفي (فللوصول إلى نتائج في المناقشات العلمية ينبغي أن تكون هناك أطروحة thesis، نقضٌ للأطروحة antithesis، ثم توليفٌ synthesis يأخذ الاثنتين بالاعتبار). بذلك، ففي الجدل الذي يقوم بين اثنين ويحاول فيه كل منهما دحض رأي خصمه، يكون تعارض الطرائح المعروضة هو محرّكٌ للنقاش. فكل مناقشةٍ هي، من هذا الجانب، ديالكتيك (محاورات أفلاطون مثالاً). وقد كان الفيلسوف الألماني هيغل Hegel من أبرز من عرف بتطبيق المنهج الديالكتيكي في تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، مثل ظواهر الأمة والدولة والقانون. - [المُترجِمة].

(22) تتمثّل «السّياسات العامة» public policies بوضع أهدافٍ كبرى على مستوى الدولة وتعيين الوسائل للوصول إليها، مع تخصيص ما يلزم من الموارد والجهد والتشريع التي يتطلبها الانتقال بهذا الوضع من مرحلة التصوّر النظريّ إلى مرحلة التحقيق المادي. ثم، وفي النطاق التشريعي وحده من هذه السياسات، توضع أفكارٌ تشكل في مجموعها سياساتٍ رئيسيةً في مجال التشريع اللازم لذلك، وهي التي توجه الاعتبارات الخاصة بمدى الحاجة للقوانين اللازمة لتفعيل السياسات العامة ونطاقها وإصدارها وتطبيقها، ويُطلق على هذه الأفكار مصطلح «السياسة التشريعية» legislative policy. وبذلك، فإن «السّياسات العامة» تضع الخطوط الكبرى للمجالات موضوع المعالجة، ثم تلحقها «السياسة التشريعية». كما

فقانوناً، هم أشباح. هناك شطرٌ كبيرٌ من رؤوس أموالهم يختفي في مناطق «الأوفشور» offshore، وهم غالباً ما يستخدمون لأعمالهم شركاتٍ وهميةٍ مسجلةٍ خارج الحدود الإقليميّة ويجعلون محامِي الشركات يتصرّفون كواجهةٍ لهم، للخروج بحيلٍ قذرةٍ تؤثّر على اقتصادنا الحقيقي.

إن ملّاك الأصول في مناطق «الأوفشور» offshore هم في مركزٍ يسمح لهم بمراوغة القانون، إذ يمكنهم تجاوزه كما يشاؤون في اختيار مناطق الاختصاص القانوني jurisdictions، متوقّعين من القانون أن يُحَجِّم بشكلٍ كاملٍ من منافسيهم المُنحَدرين من طبقاتٍ اجتماعيةٍ دُنيا. كما يُمكن لهؤلاء أيضاً التثبّت من أن القوانين قد صيغت بواسطة وكلائهم، الذين ما هم إلا أعضاءٌ في الجهات التنفيذيّة بداخل جهاز الدولة.

ضمن كابوس أوليجارشية ساجارد Sagard هذه، كما في الأحلام الأخرى، تنقلب الأدوار والمواقع رأساً على عقِب. فمن يُنظر إليهم كخصومٍ سياسيين يُجمعون معاً (لوسيان بوشار Lucien Bouchard وجان كريتيان Jean Chretien)،[23] ومن يَرأسون المؤسّسات ويصدرون القرارات العامّة تنحدِر

أن «السياسة التشريعية» تختلف في مضمونها عن «التشريع»، فإذا كان هذا الأخير يعالج موضوعات محددة بدقّةٍ وقصر، فإن «السياسة التشريعية» تضع التصورات الخاصة بالأوضاع العامة لمجالٍ معين (اقتصاد، إسكان، صحة، طاقة، إلخ) بناءً على ما رسمته «السياسات العامة» للدولة، ومن ثم تحدد ماهية القوانين الواجب إصدارها لتنظيم هذا المجال. انظر: مشاعل عبد العزيز الهاجري، «قلاع وجسور: الدراسات البينية وأثرها في الاتصال بين الحقول المعرفية (دراسة في القانون كحقل معرفي مستقل وعلاقته بعداه من العلوم)»، *مجلة الحقوق* (جامعة الكويت)، العدد 3، السنة 31، سبتمبر 2007، ص. 171-240. - [المُترجِمة].

(23) جان كريتيان Jean Chrétien (1934-) هو سياسيٌّ كندي، كان رئيساً لوزراء كندا سابقاً للفترة من 1993 وحتى 2003. - [المُترجِمة].

مراتبهم إلى مرتبة الضيوف (جان كاريست Jean Charest)،[24] والمواطن الذي لا سلطة رسميّة له يتربّع على عرشٍ فوق القمّة (بول ديسماريه Paul Desmarais).

رأسُ المال الثّقافي

مثل احتفاليةٍ في بلاطٍ مَلَكي، كان التجمّع في قصر ديسماريه Desmarais يقصد إلى تمكين المَلِك من الاستعراض أكثر منه من الاستعراض أمام المَلِك. في موقع استعراضٍ مؤقتٍ بُنِيَ من أجل المناسبة وكأنه معبدٌ لتمجيد فن الكَيتش Kitsch،[25] ومحاطٌ بالسياسيين، رجال المال، الفنانين، والحاشية الذين جاءوا ليشغلوا مرتبةً مختلفةً عن تلك التي عيّنَتها لهم ألاعيب الديمقراطية الرسمية، فإن الأوليجارش Oligarch أراد في تلك الليلة أن يغني أغنيّةً تراجيديّة - «كنت أود لو كنت فناناً» I would have liked to have been and artist -[26]

(24) جان كاريست Jean Charest (1958-) هو سياسيٌّ كندي، كان رئيساً لوزراء مقاطعة كيبيك Quebec الكندية سابقاً للفترة من 2003 وحتى 2012. - [المُترجِمة].

(25) الكيتش Kitsch هو الفنّ الرّخيص المُدْمَج في حياة شخصٍ ما، حتى يصبح جزءاً من إطار حياته اليومية وأثاثها. والكلمة ألمانية الأصل، دخلت القاموس العالميّ كي تحيل على تلك الأغراض التزيينية السيئة الذوق، التي هي خليطٌ من عناصرَ غير متجانسة ولا تتماشى مع الأصول الجماليّة السائدة. انظر: جاك رانسيير، *سياسة الأدب*، ترجمة رضوان ظاظا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ص. 89. - [المُترجِمة].

(26) هذا مقطعٌ من أغنية «أحزان رجل أعمال» *Le Blus du businessman*، التي كتبها لوك بلاموندون Luc Plamondon وميشيل بيرجر Michel Berger عام 1978. فيما يلي أورد كلماتها، مع ترجمةٍ لها إلى العربية:

"J'ai du succès dans mes affaires / j'ai du succès dans mes amours / je change souvent de secrétaire / j'ai mon bureau en haut d'une tour / d'où je vois la ville à l'envers / d'où je contrôle mon univers / je passe la moitié de ma vie en l'air / entre New York et Singapour / je voyage toujours en première / j'ai ma résidence secondaire dans tous les Hilton de la terre / je peux pas supporter la misère / je suis pas heureux mais j'en ai l'air / J'ai perdu le sens de l'humour depuis que j'ai le sens des affaires / j'ai réussi et j'en suis fier / au fond je n'ai qu'un seul regret / je fais pas ce que j'aurais voulu faire /

وذلك فيما هو يتأمّل ليس العرض ذاته ولكن قدرته على تمويله. أياً ما كان ما يراه راقصاً على خشبة المسرح أو متفجراً من داخل لوحةٍ فنيةٍ فيه فإنه يمثل، مرة أخرى، رأس ماله الخاص. إن الأوليجارش Oligarch لا يَتَوحّد مع الجمهور، حتى وإن كان يستهلك - مثلهم - القِمامة الثقافية ذاتها. ورغم إدائه السيّئ في خلق النّظرة التي كان يتطلّع إليها من البلاط، إلا أن المُموّل العظيم، قطب الصّحافة، ومدير شركة البترول راضٍ رغم ذلك بالخدعة التي يتشرّبها هو ومن حوله. في الحقيقة، هو راضٍ عن الاستعراض لأنه ضخم، مما يعني، من وجهة نظره، أنه من الممكن تسويق نسخةٍ مسلسلةٍ منه. هذه هي علامة سُلطته: إنه يستطيع جعل مجتمعٍ كاملٍ يختبر نتائج ذائقته الرديئة، من دون مقاومةٍ محتمَلة، ثم طرح هذه النتائج للجمهور تحت مسمّى «الثقافة».

لقد جاءت مجموعةٌ من مغنّي التينور[27] إلى ساجارد Sagard حتى يغنون قصّة حياة ديسماريه Desmarais: لقد مثّل هذا العرض الخاص ذروة أحلامه. فبينما كان بول ديسماريه الحقيقيّ Paul Desmarais جالساً على كرسي المُلْك، كانت شخصيّة بول ديسماريه Paul Desmarais المُمَثّلة تتهادى على خشبة المسرح، وتغني كلماتٍ كُتِبَت لهذه المناسبة خِصّيصاً من قِبَل كاتب أغانٍ شهير.

---

j'aurais voulu être un artiste / pour pouvoir faire mon numéro / quand l'avion se pose sur la piste / à Rotterdam ou à Rio / J'aurais voulu être un chanteur".

«إنني أبلي بلاءً حسناً في أعمالي التجاريّة / وأبلي بلاءً حسناً في الحب / كثيراً ما أغيّر سكرتيرتي / لي مكتبٌ في أعلى برج / منه، يمكنني رؤية المدينة مقلوبة / منه، يمكنني السيطرة على عالمي / أضيع نصف حياتي في الهواء بين نيويورك وسنغافورة / أسافر دائماً في الدّرجة الأولى / بيتي الثاني هو كل فنادق هيلتون حول العالم / لا أطيق التّعاسة / لست سعيداً، ولكنني أبدو كذلك / فقدت حسّ النكتة منذ أن اكتسبت حسّ العمل التجاري / لقد نجحت، وأنا فخورٌ بذلك / في الحقيقة، أنا نادمٌ على شيء واحد / أنا لا أقوم بما كنت أتمنى لو أنني أردته / ليتني أردت أن أصبح فنانا / حتى أستطيع أن أقدم عرضي / عندما تحطّ الطائرة على منصّة العرض / في روتردام أو في ريو / ليتني أردت أن أصبح مغنياً». - [المُترجِمة].

(27) التينور Tenor هو فئةٌ من الأصوات الرجاليّة القوية، وهو أحد تصنيفات الأصوات في المجال الغنائي، لا سّيما في الأوبرا. - [المُترجِمة].

فجأة، يُصبح كل شيء عن ديسماريه Desmarais تبجُحاً مسرحيّاً: التبرّم الاستبداديّ الذي يُظهِره وكأنه فضيلة، وجنون عظمته الهاذي. لقد صارت تفاهة علاقته بالعالم أنموذجاً. وكصانع، يستطيع ديسماريه Desmarais أن يُهنئ نفسه على كونه واحداً من يملكون سلطة اختيار نوعيّة الفن الذي سينظر إليه الجمهور كمسألةٍ مرجعيةٍ؛ تُعرَف ويُشار إليها بصفتها كذلك. بذلك، فرغم أنه لا يستطيع أن يكون أصيلاً original، إلا أنه يستطيع أن يكون هو الأصل.

في عصر إعادة الانتاج التقنيّ للأعمال الفنية،[28] يجد الرُّعاة sponsors أنفسهم يدعمون ليس فقط فناناً منفرداً، مدرسة، أو حقلاً معرفيّاً discipline، بل يدعمون كذلك المنتجات الاستهلاكيّة لصناعةٍ جماهيريّةٍ مرتبطةٍ بشكلٍ عميقٍ مع قطاعاتٍ أخرى تمثّل جوانبَ من نشاط العاصمة الكبيرة. إن القرارات المتعلّقة بما ينبغي على الناس استهلاكه هي ما يحدّد إنتاج خطوط التّجميع. هذا أمر لاحظه، سلفاً، كل من ثيودور أدورنو Theodor Adonro وماكس هوركهايمر Max Horkheimer،[29] فأشارا له في كتابهما «ديالكتيك التنوير» *Dialectic of Enlightenment*:

> لا حاجة لكلٍّ من السينما والإذاعة لأن تتظاهرا بعد الآن بكونهما فناً. حقيقة الأمر هي أنهما لا تعدوان أن تكونا أعمالاً تجاريّةً تمّ تحويلها إلى آيديولوجيا، بهدف تبرير الهُراء الذي تنتجانه عن عَمَد. إنهما تسمّيان نفسيهما بالصّناعات: ولكن عندما تُعلن مدخولات المُخرجين

---

(28) يبدو أن العبارة تستحضِر عنوان المقال الشّهير للكاتب الألماني فالتر بينجامين Walter Benjamin (1892-1940)، المُعنوَن «العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه تقنياً» The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction (1935). - [المُترجِمة].

(29) ماكس هوركهايمر Max Horkheimer (1895-1973) هو فيلسوفٌ وعالم اجتماعٍ ألماني. كان أحد أعضاء مدرسة فرانكفورت النقديّة Frankfurt School of Critical Theory، التي ضمت العديد من كبار مفكّري القرن العشرين، وله كتاباتٌ معروفةٌ ضد السلطوية والعَسكَرة. كتابه الأهم هو «أفول العقل» *The Eclipse of Reason*. - [المُترجِمة].

العامِلين فيهما، فإن أيّ شكٍ حول الفائدة الاجتماعيّة للمُنتج النهائيّ سوف يزول.[30]

قليلةٌ هي العناصر التي يمكن أن تُفلِت من عمليّة التّجانس هذه homogenization، فبعض الأعمال الفنيّة قد لا يمتثل للحسّ الجماليّ السائد، إلا أن ذلك سوف يقع - بالدّرجة الأولى - إرضاءً لمبدأ الاختلافات الصّغيرة لعددٍ محدودٍ من المستهلِكين المميّزين، أكثر منه رغبةً في تحقيق تغيير راديكاليٍّ في النظام. يشير أدورنو Adonro وهوركهايمر Horkheimer إلى أنه «كلما تجاوَز أورسون ويلز Orson Wells[31] أصول الصّنعة، فإنه يُغفر له ذلك لأن الانحراف عن القاعدة يُنظر إليه وكأنه تحويرٌ محسوبٌ يخدِم، بقوة، تأكيد حيويّة النظام».[32] أساساً، فما الهدف من «السلع» الثقافيّة إلا تشكيل الجماهير الذين يُمثّلون كتلة الزبائن والداعمين، باعتبار الاثنين لازمَين لرأس المال. يؤكّد الفليسوف هيربرت ماركيوز Herbert Marcuse ذلك في كتابه «الرجل ذو البعد الواحد» *One-Dimensional Man*:

> «إن كان العامل ومديره يستمتِعان بذات البرنامج التلفزيوني ويرتادان ذات الأماكن الترويحيّة، وإذا كانت السكرتيرة ترتدي ملابسَ بذات جَودة تلك التي ترتديها ابنة رئيسها، ولو كان للرّجل الأسود (سيارة) كاديلاك، ولو كانوا جميعاً يقرأون ذات الصّحيفة، فإن هذا التماثل لا يعني اختفاء الطبقات. على العكس، إنه يبيّن إلى أية درجةٍ يشارك

---

(30) Theodor Adorno and Max Horkheimer, 'The Culture Industry: Enlightenment as Mass Deception', in *Dialectic of Enlightenment*, tr. John Cmming (New York: Continumm, 1989), p. 121.

(31) أورسون ويلز Orson Welles (1915-1985) كان مخرجاً سينمائياً وكاتباً وممثلاً ذا رؤية وتفرّد. كما عمل في المسرح والإذاعة، وهو يُعتبر من أهمّ فناني القرن العشرين. ما زال فيلمه «المواطن كين» Citizen Kane، المُنتّج عام 1941، يُعتبر واحداً من أهمّ الأفلام الأمريكية. - [المُترجِمة].

(32) Theodor Adorno and Max Horkheimer, 'The Culture Industry', p. 129.

المُسَيطَر عليهم في الاحتياجات والإرضاءات الضّامنة للإبقاء على الطّبقات المُهيمِنة».(33)

إن المشهد الثقافيّ الذي يصفه ماركيوز Marcuse يقدّم نفسه كجهازٍ رسميٍّ ورمزيٍّ، يقود الناس المرؤوسين والمُسَيطَر عليهم من قبل النُّظُم اللّيبرالية إلى تحويل طاقاتِهم الروحيّة باتجاه دعم هيكلٍ اجتماعيٍّ كان موجوداً من قبل أن يوجَدوا هم؛ هيكلٍ مصَمّمٍ ومنفّذٍ من قِبَل الطّبقة المُسيطِرة ، فتعبيرات الرّغبة والدوافع الدّفينة تتضمن تشفيراً على أساسٍ من نماذج نمطيّة في الأفلام والأغاني والإعلانات ووسائل الإعلام العامة. وفي حين أن مثل هذا التفسير قد لا يكون كافياً - كما أن اختزال «صناعة الثقافة» إلى مجرّد قطاعٍ للحياة الشّموليّة totalitarian life هو أمرٌ لا يمكنه استيعاب واقع جميع الأعمال الفنيّة - فإن هذه المقاربة، رغم ذلك، تُترجِم بشكلٍ دقيقٍ موقف المستثمرين الماليين في الأعمال الفنية، والطريقة التي يعتزم أصحاب رأس المال إجبار الفنانين من خلالها على الاستسلام.

لا اعتبارَ للفنّانين

والآن، يمكننا أن نفهم بطريقةٍ أفضل لماذا يُفرَض على الفنانين العمل وفقاً لأهداف السوق أكثر من الأهداف المرتبطة بعمليّاتهم الإبداعيّة الخاصة. أن تكون فناناً/ مديراً أو مديراً/ فناناً، هذا هو السؤال.(34) ولكن «المُحسِنون» الأثرياء wealthy philanthropists حائرين بسبب هذه المُعضِلات العبثيّة: فعندما

(33) Herbert Marcuse, *One-Dimensional Man: Studies in the Idology of Advanced Industrial society*, 2nd ed. (London and New York: Routledge, 2002), p. 10.

(34) هذا التعبير مستوحىً من العبارة الشهيرة للكاتب الإنجليزي الشهير ويليام شكسبير William Shakespeare (1554-1616): «أكون أو لا أكون، هذا هو السؤال» (To be or not to be, this is the question)، التي وضعها على لسان هاملت Hamlet، بطل مسرحيّته الشّهيرة التي تحمل ذات الاسم. - [المُترجِمة].

يتعلق الأمر بالمال، فهناك معرفةٌ واحدةٌ فقط، وهي المعرفة التي يحتفظ بها من يعرفون كيف يراكِمونه؛ نحن نحب الفن، وفوق ذلك نحن نهتم بالفنانين أيضاً؛ ولكن لا يمكنك أن تتوقع منا فعلاً أن نأخذ في الاعتبار آراءهم في الاقتصاد. وهكذا، تصبح المسألة مناطةً بالفنانين الذين يكون عليهم أن يتعلمون التّأقلم. وفي دفعهم لقِيَم الأعمال الفنية (فيما هم يستمتعون على حساب الفنانين)، فإن المُموّلين يرون أنفسهم وكأنهم هم الخالِقون الحقيقيون، باعتبار أنهم هم من جعل هذا الفن ممكناً: فهم لا يموّلونه فقط، بل هم يستنفدون أنفسهم من أجله أيضاً من خلال العمل كأعضاء مجالس إدارةٍ لإدارة جميع هياكله.

إن الفنانين الذين يقدّرهم المستثمرون الآن هم من يحاولون أن يكونوا «خالقين» بلغة المستثمرين الخاصة. فمثلاً، يُنظر إلى كل من المغنيّة سيلين ديون Céline Dion وسيرك الشمس *Cirque du Soleil* على أنهم حقّقوا «نجاحاً» دولياً، ليس وفقاً للمعيار الجمالي، وإنما بما يتلاءم وخطّة العمل التجاريّ خاصتهم business plan. مثل هؤلاء الفنانين ما عادوا مجرّد مزوِّدين لقوّة العمل التي سوف تنتج سلعاً ثقافية. في غمرة الحماس للاستلاب alienation أو للقيادة leadership، كما نقول في مجال الإدارة، فإن هؤلاء يُتوقع منهم الآن أن يديروا المؤسسات التي تستغّلهم. إن ريادة الأعمال entrepreneurships هي المعيار الذي يُبرز من كانوا جاهزين للانطلاق باتجاه ما هو حقيقي: الخَلْق، من دون شك، ولكننا الآن صرنا نقصد بذلك خَلْق الإيراد، فائض القيمة surplus value، العمل التجاري، أو الوظائف.

بثقةٍ تامةٍ في رأسمالهم الثقافي، يملك الرُّعاة sponsors الآن مدارسهم الخاصة التي يمكن لفنانيهم المُختارين التدرّب فيها. سوف يساعد التدريس الذي توفره كليات التجارة المعتنقين الجُدُد لفكر الحَوْكَمَة على فهم أن عليهم تجاهل أي شيءٍ يُقال أو يتمّ التفكير فيه في أية دوائر عدا تلك التي يتم تقديمهم إليها. هناك مخططٌ خاصٌ بالمنهج الدراسيّ لبرنامجٍ أكاديميٍّ في إدارة الفنون والثقافة لعام 2014 يوضّح نقطتنا: «من المهم أن يكون لمديري الفنون والثقافة

معرفةً أساسيةً على الأقل بالسيّاسات الثقافية. ينبغي أن يكون هؤلاء قادرين على تجاوز الأفكار المسبّقة والمطالب التقليديّة لمجتمع الفنون». وبالنظر إلى «خصائصه»، فإن مجتمع الفنون هذا يقدّم، بطبيعة الحال، «تحدياً ذا خصوصّيةٍ عالية» للمدراء المستنيرين، «بسبب طبيعة المُنتَج الذي يقدّمه (الأعمال الثقافية)، سِمات الناس العاملين في قلب إنتاجه (الفنانين) ومعاني هذه المنتجات (عروض، أعمالٌ فنيةٌ أو سلع رمزية) للناس الذين يطلبونها»، بحسب ما ورد في مخطّطٍ آخرَ للمناهج الدراسيّة في ذات المعهد.

الفنانون غير قابلين للإصلاح؛ إنهم يميلون لأخذ التزاماتهم بجديّةٍ تتعدى الجديّة التي يُظهرونها تجاه المؤسّسات المُنفِّذة للتسويق الذي يعتمد عليه عملهم. لذلك، ينبغي تعليمهم الآداب الحَسَنَة في المدرسة: كيف يُغرون الشركاء، لا من خلال الطّرق التي كانوا يتّبعونها بها حتى الآن (قطرات الطلاء، النثر المنمّق، أو غيرها من طرائف) بل من خلال إيجاد الحجج التّجاريّة التي سوف تقنع شركةً كبيرةً بأن تضع علامتها التجاريّة على الورق الذي يغلّف به هؤلاء الفنانين أعمالهم الفنية. عليهم أن يتعلموا ليس فقط أن يحتملوا هذا الموقف، بل أن يريدوه أيضاً. سوف يتنازلون عن الاعتقاد الساذج بأن ملّاك الأصول ينبغي أن يساهموا في دعم الفنون من خلال دفع الضرائب. كليّة التجارة، التي يُحتمل أن يكون مجلس إدارتها مرؤوساً بواسطة عضوٍ من الأوليجارشية، سوف تعمل على التثبّت من أن هذه الأفكار يتم التعبير عنها بلغةٍ من الشِّعر التجاريّ المناسب لمزاعم النّظام، مع مقرّراتٍ دراسيةٍ تركّز على «قرارات الإدارة» المتعلقة بـ «التحليل الاقتصادي للصناعات الثقافية» economic analysis of cultural industries.

إن الضغط الاجتماعيّ للسير في هذا الاتجاه قويّ جداً الآن. بمجرد التحوّل إلى مبادئ كلية التجارة، فإن أيّ رائد أعمال/ فنّان entrepreneur/artist يحترم نفسه سوف ينطلق بجديّة باتجاه «الثقافة المؤسسيّة، الحَوْكَمَة، توزيع الموارد، العلاقات بين الفنانين والمدراء، وديناميكيّات السّلطة بداخل هذه

المؤسّسات وحولها»، وسوف ينظر إلى الرائج من المقاربات «التجريبيّة» كمدخلٍ رئيسيٍّ لممارسة السّلطة. في كيبيك Quebec، قام 101 من هؤلاء «الفنانين» بتقيم الدّعم العلنيّ للطموحات السياسيّة لشخصٍ كان قد موّل إنتاجهم؛ قُطبٌ صحفيٌّ لا يمكن - بالحكم عليه من خلال ذائقته الرديئة التي تعبر عنها مطبوعاته - إلا النظر إليه كحفّارٍ لقبر الثّقافة. ولكن هذا لا يهم؛ فالأعمال تصبح مُنتَجات، والفنانون هم «الموارد البشرية لقطاع الثقافة» cultural sector human resources، بما يعني أن الجمهور لا يعدون أن يكونوا «مستهلكين» consumers و«زبائن» clients لها، وهم جميعاً جزءٌ من «صناعةٍ» industry تتّصل اتصالاً وثيقاً بقطاعات الفنادق والمطاعم والتسويق والتوريد. إن وثيقة السّياسة الثقافيّة لحكومة كيبيك Quebec للعام 1992 قد أوردت أن «تطوير الصّناعات الثقافيّة يقوم على كل من التفوّق الإبداعيّ والقدرة التنافسيّة للأعمال».[35] وعليه، فإن مفردات «المنظّمات الاستشاريّة للإدارة الثقافيّة» cultural management consultancy organizations التي توفر «الإرشاد الثقافي» cultural mentoring لا يمكن أن تُدان حتى وفقاً لشروطها الخاصّة: هذه الممارسات الجديدة تضمن «الامتياز» excellence من دون أن يسأل أحدٌ كيف يمكن لذلك أن يُفهم نقدياً.

بعض الفنانين يلعبون «اللّعبة»، مما يعني أنهم يشاركون في سيركٍ من نوعٍ جديد. من خلال إعادة اختراع فنٍّ جديدٍ للخيال وتوسِعته وتعزيزه، يصل هؤلاء الفنانون إلى قناعةٍ مفادها أن أرباح الشركة الثقافيةّ التى «تشارك في الاقتصاد» هي مجديةٌ أكثر من أفكارها الجماليّة، ذلك أنه أياً ما كانت هذه الأفكار، فإنها ستكون مقبولةً بالنّهاية من الجمهور المُستهدف من قِبَل حملةٍ دعائيّةٍ جيّدة التصميم.

ووفقاً لمنطق الحَوْكَمَة الصِّرف، الذي يقرّر أن الكل يجب أن يتكيّف فيصبح تابعاً لمناهج الأعمال التجاريّة، فإن كلاً من المجالس الفنيّة والوزارات العديدة

(35) 'Extrait de la politique culturelle de Liza Frulla', *Liberté*, 303 (Spring 2014), p. 31.

المؤهلة في هذه المنطقة تصبح «شركاء» للشّركات الكبرى، ومن ثمّ تعرِض عليهم حوافز ضريبيّة «للاستثمار في الثقافة». إن الفن الذي يُخضع لهذه المقاربة يصبح قوةً ضامنةً للتوحيد السّياسي والإدارة الاجتماعية والإنتاج الصناعي، أو - حتى نقتبس الصّيغة المُستخدَمة من قِبَل «صُنّاع الأعمال التجاريّة»[36] في غرفة تجارة مونتريال الكبرى Board of Trade of Metropolitan Montreal - يمكن أن نقول إن الفن هو في الآن ذاته «مولدٌ لجودة الحياة لجميع أهالي مونتريال»، أداةٌ للتخطيط الضريبيّ أو العقاري، ومصدرٌ «لمنافع مباشرة تقارب قيمتها ثمانية بلايين دولار، أو 6% من الناتج المحلي الإجمالي GDP لمدينتنا».[37] كان ذلك في عام 2011. إن نقد أدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer لم يذهب إلى هذا المدى.

وببساطة، فالفنان، إن لم يَخضَع لهذا الترويض، فإنه لن يُعتدّ به. ما دامت الأرقام لا سلطة لها على روحه الرائعة، فلماذا يؤخَذ بالاعتبار؟ ما الفائدة من شاعرٍ يشير، مثلاً، إلى ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé،[38] في حين أن الأخير ما هو إلا شاعرٌ فاقد لإيمانه، فقط لأن شركةً ما قد دمّرت بضعة مستثمرين في فضيحة باناما Panama Scandal؟[39] «إن عجز الأرقام، مهما

(36) التعبير المستخدم في النسخة الفرنسية هو *createurs d'affaires*. - [المُترجِمة].

(37) Board of Trade of Metropolitan Montreal, 'The Art of Investing in Culture: A Guide for Businesspeople", www.artsmontreal.org, 2011; "Leave a Legacy", n.d., www.montrealrtsaffaires.org.

(38) ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé (1842-1898) هو شاعرٌ وناقدٌ فرنسي، يتبع التّيار الرمزي في قصائده. كان في أعماله إلهامٌ لتيارات فنيةٍ لاحقة ملأت الأسماع في القرن العشرين، مثل الدادائيّة Dadaism والتكعيبيّة Cubism والسرياليّة Surrealism. - [المُترجِمة].

(39) كانت «فضيحة قناة باناما» Panama Canal Scandal التي وقعت عام 1892 واحدةً من أكبر فضائح الفساد التي عرفتها فرنسا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وهي تتعلّق بالانهيار الماليّ لشركة قناة بنما الفرنسيّة إثر سلسلةٍ من التجاوزات الماليّة والسياسيّة التي تكشّفت واحدةٌ إثر الأخرى، والتي طالت سياسيين ومتنفّذين (منهم ستة وزراء وأكثر من مائة عضو في البرلمان (بالإضافة إلى فرديناند دي ليسيبس Vicomte de Lesseps الذي وضع

كانت فخمة، عن الترجمة، هو أمرٌ تقوم معه حالةٌ للنظر: يتنبّه المرء، مع هذه الإشارة، إلى أن الرقم كلما ازداد فإنه يرتدّ نحو ما هو مُستبعد، فيُكتب مع أصفارٍ أكثر فأكثر، مما يعني أنه - روحياً - لا يساوي إلا العدم، تقريباً».[40]
فوق كل شيء، إن الفنان الذي لم يتدرّب في مجال ريادة الأعمال entrepreneurial training لا ينبغي أن يُسمح له ابداً بأن يَقرُب السجلّات الماليّة، أو حتى أن يأخذ فكرةً عن محتوياتها، فقد يتكوّن لديه اهتمامٌ غير مناسبٍ بحيلٍ واضحةٍ يسهل كشفها، ذرائعُ مبالغٌ فيها، أو تزويرٌ قاصدٌ لكسب التّعاطف، أو قد يجد هذا الفنان أن بعض العناصر في مجال التمويل والإدارة هي في حقيقتها تقع ضمن منطقته كمختصٍّ مهتمٍّ بالنّواحي الجمالية aesthetics: كمَسْرَحَة العقلانيّة الاقتصاديّة، وَهْم الخبرة، التعرّف على مستثمرين ذوي لاعبين معروفين في السوق، الخيال الدراميّ المثير للشّفقة والرعب.

هذا أمر يسهل فهمه عندما نأخذ بالاعتبار كيف أن رأس المال الضخم يُمسْرِح العرض اليومي، سواء من خلال الأيقونات التي تم تبنيها حتى من قبل جريدة وول ستريت جورنال *Wall Street Journal* المتقشّفة - الصور الضبابيّة بشكلٍ ديناميكيّ والتي تُظهر النّشاط المُفرط لرجال الأعمال؛ صورٌ مقنِعةٌ بشكلٍ خادع - أو من خلال سِيَرٍ ذاتيّةٍ متملّقةٍ تردّد أصداء كل تعبيرٍ مجازيٍّ شاعريٍّ ورد في روايةٍ فكريةٍ حول اكتشاف الذّات. مستثمرون، مدراء تنفيذيون، وتجّار تجزئةٍ يظهرون في حفلاتٍ تتحوّل غالباً إلى مسابقاتٍ في التملّق. وحدات المعنى المقبولة بشكلٍ عامٍ - مثل «ثقة»، «مخاطرة»، «أزمة» أو «قيادة»؛ هذه الكلمة التي لا تقدّر بثمنٍ - تملأ عناوين الصحافة الماليّة بلا هوادة، مؤديةً إلى اعتباراتٍ خطابيّةٍ مُشتقةً من جماليّات الأفلام والدراما والروايات. الرّطانة التي

مخطط شقّ قناة السويس في مصر وجوستاف إيفيل Gustave Eiffel مهندس برج إيفل في باريس)، مؤديةً بذلك إلى خسائرَ كبرى للكثير من مستثمري الشركة. - [المُترجِمة].

(40) Stéphane Mallarmé, 'Gold', in *Divagations*, tr. Barbara Johnson, (Cambridge, MA: Harvard Univrsity Press, 2007), p. 255.

يتم إطعامنا إياها اليوم من خلال سرديّات الحَوْكَمَة والابتكار هي مجرّد جزءٍ من المهزلة ذاتها. وفقاً لنصّ هذا العرض، فإن مجال المعرفة الغامض يضمّ الاقتصاد وإدارة شؤون العالم. يود المستثمرون لو أصبح الفنانون جمهوراً سلساً يُصفّق لشعوذاتهم.

ولكن المستثمرين لا يحصلون دائماً على ما يريدونه. فكم من فنّانٍ لا يمكن هزمه، أدرك أن الخبراء الذين يعيّنهم مجلس الإدارة لا فهم لديهم لموضوعات مؤسّستهم، وأن الموظفين ذوي الأجور المنخفضة هم في حقيقتهم الغِراء الذي يُبقي على كل شيءٍ ملتصقاً من دون أن يتفكك؟ وسُرعان ما يفهم الفنّان أنه لا يوجد ما يسمى قدرة على الإدارة استقلالاً عن الممارسة، مثلما ليس هناك فنٌّ للاتصال art of communication أو تكنيكٌ للتسويق marketing technique يمكنك تعلّمه في الجامعة ويمكنه أن يعمل من دون فكرةٍ محدّدةٍ حول المحتوى الذي ينبغي إيصاله. إن آيديولوجيا الإدارة، عندما تطبّق، يمكن أن تقود إلى الكارثة: أيّة حماقاتٍ لا نسمعها تحت مُسمى الابتكار innovation، التنمية development، التحوّل transformation، ريادة الأعمال entrepreneurship، أو الربحيّة profitability؟ إننا نعرف فنانين أُلزموا - من قبل خبراءَ عُيّنوا فجأةً لإدارة منظّماتهم - على الاستثمار في العقار، وهي خطوةٌ كانت ستقضي عليهم بالتأكيد فيما لو كانوا قد أخذوا بالنصيحة فعلاً. فيما اضطر فنانون آخرون للتعامل مع مقترحاتٍ «ابتكاريّة» innovative كانت تتطلّب منهم تغييراً كاملاً لمهنتهم والتّوجه إلى مجالٍ تم تعريفه بشكلٍ غير دقيقٍ بأنه «منطقة نمو» growth area. وكثيراً ما حدث أن إداريين غير أكفّاء قاموا بلوم الفنانين المقاومين، بصوتٍ عال، لكونهم «يَتَحدّون السّلطة»، مع ما يلي ذلك من قراراتٍ لاحقة، عادةً ما يظهر معها أن مقاومة الفنّانين كانت مُبرّرة تماماً.

في بعض الحالات، عندما يكون الفنانون مقتنعين بأنهم يواجهون من يعرف أكثر منهم، فإنهم قد يسألون أساتذتهم أسئلةً جِدّ بسيطة، تذهب إلى قلب المسألة. فقد تساءلت الكاتبة وهاوية جمع القطع الفنيّة جيرترود شتاين

Gertrude Stein - بشكلٍ مهووس - حول طبيعة النّقود («هل النّقود نقود أم أنها ليست بنقود؟»)[41] وذلك عندما كانت في معرض التّفرقة بين النّقود المُحوَّلة، النّقود المُراكَمَة، والنّقود التي يتم تداولها في عالم مُدركٍ بالحواس. كما سأل النّحات والفنّان التشكيليّ جوزيف بيز Joseph Beuys ذات السؤال، الذي أصبح عنواناً لكتابه «ما هي النقود؟» *What is Money?*.[42] إن فرضية بيز Beuys - التي وفقاً لها لا بد أن يكون الكل فناناً إذا ما أردنا صنع مجتمعٍ تخلق فيه النّقود علاقاتٍ عادِلة - تخرّب التراتبيّات السائدة تماماً. لأننا إذا ما سلّمنا بأننا جميعاً فنانون، فإن رجال الأعمال سيكون عليهم الإقرار، عندها، بأن الأدوات المُستَحدَثة في مجال التمويل هي أعمالٌ خياليةٌ works of fiction إلى حدٍّ كبيرٍ، فيما يكون على الفنانين التّعاطي مع حقيقة أنهم يستطيعون فعلاً الأخذ بزمام الإدارة والتفكير بشؤون الاقتصاد، مستخدمين في ذلك الأدوات الموضوعة تحت تصرفهم.

في الحقيقة، هذا هو ما يعترف به كل من الحكومات ورجال الأعمال ضِمناً عندما يُخبرون الفنانين بأنهم «هم أيضاً» يجب أن يباشروا الأعمال التجاريّة، على أن يكون ذلك وفقاً للطّريقة السليمة وباتّباع النّصائح السّديدة. ما هو وجه الخصوصّية إذاً بشأن «الخبرة» التجاريّة، إذا كانت عناصرها الأساسيّة يمكن تعلّمها من خلال تعليماتٍ مُبرمَجةٍ بمصاحبة «مُرشد» mentor أو من خلال اتّباع «برنامجٍ دراسيٍّ مُصغّر» micro program مُبتكرٍ من قِبَل كلّية تجارةٍ ما؟ وما هي إذاً الحكمة السحريّة العميقة في هذا الوسط الماليّ الذي يستطيع حتى الفنانون استيعابها، وهم الذين طالما كان يُعتقد - ضمناً - أنهم في أدنى درجات سلّم المعرفة فيما يتعلّق بالحذق التجاري؟ إن هذا في الحقيقة لهو مركزٌ غريب: ماذا

---

(41) Gertrude Stein, "Money", in: *On the Third Hand: Humor in the Dismal Science*, ed. Caroline Postelle Clotfelter (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1996), p. 236.

(42) Joseph Beuys, *What Is Money?*, tr. Isabelle Boccon-Gilbod (Forest Row: Clairview Books, 2010).

لو لم تكن هذه المعرفة حَكراً على أحد؟ وماذا لو كان هناك فنٌّ للإدارة غير قابلٍ للاختزال إلى الحدود الضيّقة الخاصّة بمهارات أيّة جماعة مجتمعيّة بعينها؟ وماذا لو لم تكن هناك أيّة طريقةٍ فنيةٍ بعينها لإدارة الأشياء، وإنما مجرد مقاربةٍ جماليّةٍ للاقتصاد aesthetic approach to the economy، تعيد وضع هذا الاقتصاد في مجال التعدّدية والذكاء والعالم كما تدركه الحواس؟ في عام 1936، خرج الكاتب المسرحي المتهوّر أنتونين آرتو Antoine Artaud - الذي كان مُغتمّاً بعمق بسبب عدم المساواة في الدخول المالية للأفراد - فأكّد بشجاعةٍ على مبدأٍ ذي معقوليّةٍ عالية: «إن إزالة الاحتقان من الاقتصاد تعني تبسيطه؛ تصفيته مما هو نافِل، لأن الجوع لا ينتظر».(43)

وماذا لو فهمنا، أيضاً، أن الأدب والفنون غالباً ما يعيدان الاقتصاد إلى الحقول المعرفيّة disciplines التي تنتمي لها هذه الفكرة، أياً ما كانت أصولها؟ عندما نقرأ رواية أندريه جيد André Gide «المُزيّفون» *The Counterfeiters*، نتذكّر أنه قبل استخدام كلمة «البيئة» ecology، كان العلماء يشيرون إلى «اقتصاد الطّبيعة» the economy of nature. يخبرنا جيد Gide بأن الطّبيعة - التي تعكس عروضها التنوّع المذهل لقوانينها - قد حاولت كما يبدو «مرة تلو أخرى كل طريقةٍ ممكنةٍ للحياة وللحركة»،(44) مما يؤدي إلى التعجّب: «أيّ اقتصادٍ هذا الذي مكّن عدّة أشكال من البقاء؟»(45) يتجاوب هذا التعبير مع المعنى المُعطى لكلمة اقتصاد economy من قِبَل عالم الطبيعة الإنجليزي جيلبرت وايت Gilbert White of Selborne، الذي عاش في القرن الثامن عشر. من منظور وايت White، عندما تتبرّد الأبقار في بركةٍ ما فإنها توفر قوتاً للأسماك هناك بسببٍ من

(43) Antonin Artaud, 'LA Faim n'attend pas ..' (1931-1932), *Oeuvres complètes*, 8 (Paris: Gallimard, 1971): "*decongestionner l'economie, c'est la simplifier, filterer le superflu, car la faim n'attend pas*".

(44) Andre Gide, *The Counterfeiters*, tr. Dorothy Bussy (New York: Vintage Books, 1973), p. 149.

(45) Gide, *The Counterfeiters*, p. 149.

الروث الذي تلقي به في الماء، والذي يستجلب الحشرات التي تتغذى عليها هذه الأسماك؛ هذا هو اقتصاد الطّبيعة، وهو ينظّم نفسه.[46] كما أننا نسمع أيضاً أصداءً لجان جوزيف مينوريه Jean-Joseph Menuret، البيولوجي الذي عاش في القرن الثامن عشر، والذي كتب مقالاً في «الموسوعة» *l'Encyclopédie* (1751) حول «الاقتصاد الحيواني» *l'économie animale*.

في القصيدة الأولى من ديوان «غضبٍ وغموض» *Fureur et Mystère* يكسِر الشاعر رينيه شار René Char الصّمت، ليكتب: «تجاوُز اقتصاد الخَلْق، زيادة دماء المُبادرة، هذا هو واجب الضّوء كله».[47] إن قراءة ذلك تجعلنا نرى الرابطة الأصليّة بين الاقتصاد وأشكال التنظيم العتيقة والمُستفيضة. توضّح المجادلات الثيولوجيّة[48] التي عرفتها بيزنطة حول «قضية الصور» (iconoclastic controversies) طبيعة هذه العلاقة:[49] إنها تصِف علاقة اعتمادٍ مُتَبادلٍ بين كلٍّ من الصّور والرموز، فتجد الأولى سلطتها في المراجع المُتعالِيَة transcendent references، فيما تُدين الثانية بوجودها إلى توسّط الصور mediation of images.[50] وبعد، فما إن تم إطلاقه، حتى وجد لفظ «الاقتصاد» economy

---

(46) Gilbert White, *The Natural History an Antiquities of Selborne*, Letter VIII (London: John Van Voorst, 1877), p. 23.

(47) René Char, 'Man Flees Suffocation', tr. Mary Ann Caws, in *Seleced Poems*, ed. Mary Ann Caws and Tina Jolas (New York: New Directions, 1992), p. 17.

(48) الثيولوجيا Theology هي علم الدراسات الدينية المتعلقة بالإلهيات وطبيعة الاعتقاد. - [المُترجِمة].

(49) يتعلق الأمر بـ «حرب الأيقونات» أو «حرب الصور» (Byzantine Iconoclasm)، وهو جدلٌ دينيٌّ واسعٌ عرفته الدولة البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، بسبب معارضة فصيلٍ دينيٍّ لوجود الصور والتماثيل بداخل الكنائس المسيحية، ومناداتهم بالإصلاحات الأرثوذكسية. وبذلك، نشأ صراع مذهبي بين محبي الصور وعُشاقها أو الأيقونوفيليين iconophiles ومبغضي الصور ومهدّميها أو الأيقونوكلستيين iconoclastes. - [المُترجِمة].

(50) Marie-Josée Mondzain, *Image, Icon, Economy: The Byzantine Origins of the Contemporary Imaginary*, tr. Rico Franses (Stanford, CA: Stanford University Press, 2004).

نفسه في قلب الكِتابات العائدة إلى عدّة حقول معرفية disciplines، من علم الاجتماع sociology لجابربيل تارد Gabriel Tarde، إلى النظريات اللّغوية linguistic theories لألجيرداس جوليان جريماس Algirdas Julien Greimas، فالنقد الأدبي literary criticism لجيرارد جينيت Gérard Genette، ثم فلسفة philosophy هيرمان لوتز Herman Lotze. ما هو الباب الذي تقود إليه هذه السلسلة، والذي يفتحه لنا مفتاح الجماليّات Aesthetics؟: إنه يتمثل في حقيقة أن الاقتصاد ليس شأن الاقتصاديين، وأنه يُعنى قبل كل شيءٍ بعلاقات متوقّعَةٍ ومُثمرةٍ بين عناصرَ مُتداخلة. أياً ما كان المجال محل البحث، فإن الاقتصاد لا يعود إلى أي اختصاصٍ بعينه، الأمر الذي يشهد عليه استخدام هذه الكلمة في جميع المُمارسات الثقافيّة والحقول المعرفيّة.

إن هذا النقد الراديكاليّ للاقتصاد يقود إلى ما هو أكثر بكثيرٍ من إعادة تفسيرٍ بسيطةٍ وبديلةٍ للدوغمائيات[51] التي أنتجها من ينصّبون أنفسهم مُلّاكاً للمعنى المحدّد للاقتصاد؛ إنه يساعدنا على فهم كيف أن «الاقتصاديين» economists الرسميين - المصرفيين بالمعنى الضيّق - يسجنون الفكر ضمن الحدود الضيّقة لتخصّصهم. وما الاستخدام المحموم والمتكرّر لبعض المفاهيم والتدابير والنماذج إلا إحدى صور تحقيق ذلك. في عام 1876، نشر الفليسوف والبيولوجي ريتشارد أفيناريوس Richard Avenarius كتاباً بعنوان «الفلسفة كطريقةٍ للتّفكير حول العالم وفقاً لمبدأ القدر الأصغر من القوة» *Philosophy as a Way of Thinking about the World according to the Principle of the Smallest Amount of Force*، (وهذه ترجمة حرفية للعنوان بالألمانية) ، يصِف فيه فعل التّفكير كطريقة تقطيعٍ للعمليّات المفردة والمحدّدة إلى شكلٍ أقصر، بغرض حفظ الموارد الفسيولوجية. فالتفكير مكلّف، من وجهة نظر بيولوجية،

---

(51) «الدوغما» Dogma هي الوثوقيّة أو التصلّب الفكري، وهي تسميةٌ تطلق على الجمود العقائدي، سواء تعلّق بمذهبٍ أو آيديولوجيا أو رأي، عندما يقترن بالتمسك بالفكر المُعتنق دونما اعتبار للحقائق المُناقِضة له. - [المُترجِمة].

والجسم بحاجة إلى أن يقتصِد في العمليات النفسيّة. للقيام بذلك، يزوّد الفكر نفسه بما يصفه أفيناريوس Avenarius «تأكيدات» (*affirmations* بالفرنسية / *aussagen* بالألمانية)، وهذه مصمّمة لتحييد معاني أحداثٍ معينة، أو أشياء في حالة تحوّرٍ مستمر، من خلال معارضتها بمخطّطات نمطية standard schemata تحلّ محل ردود الأفعال الظّرفية *reflection circonstancielles*.[52]

وتُستَمد قيمة هذه «التأكيدات» statements من قدرتها على التوافق مع كثير من المواقف المنوّعة، ومن كونها تستطيع التكيّف مع هذه المواقف بأدنى درجةٍ من الاستثمار. إن استخدام هذه التأكيدات هو ما يقصد إليه «علم» الاقتصاد economies science إلى حدٍّ أقصى ومُفرط. ولتجاوز ذلك، فإن الهدف هو أخذ ما هو مشترك بيننا سلفاً على أساسٍ من كل ما هو موجود، وإدماجه في نموذج مستقل عن هذه التأكيدات. إن مبدأ الاستقرار الاقتصادي economic stability، بالمعنى البيولوجيّ لكلمة «اقتصادي»، هو التقليل - إلى أقصى حدٍّ مُمكِن - من الإنفاق الذي ينطوي عليه أيّ عملٍ يتعلق بالتأقلم على التغيير. إن هذا يفسّر السّبب وراء كون من يعرِضون أنفسهم كخبراءَ اقتصاديين لديهم قدرة ضعيفة جداً على تصوّر هويّة الشيء في ذاته *l'ipseite*؛ الشيء المُدْرَك، الاستثناء، غير المعتاد: إن أي شيءٍ لا يستطيع هؤلاء إدخاله ضمن نموذجهم الأعمى سوف يُرفَض باعتباره عديم القيمة أو بدعوى الخطورة حتى. ما هو اقتصادي، في نظر أفيناريوس Avenarius، هو الجهاز apparatus الذي يجعل من الممكن إدماج أيّ تغييرٍ خارجيّ وأيّة سِمةٍ فرديّة، وبأقلّ مجهود ممكن، لمصلحة نظامٍ محدّدٍ هو «العلم» الاقتصادي، الذي صار مُدمِّراً، بسببٍ من هيكله الذاتي، وبسبب كل شيءٍ لا يفهمه. بطبيعة الحال، لا شك أن الحقل المعرفي discipline الذي استولى على تسمية «الاقتصاد» يستطيع أن يستمر في الوجود على أُسسٍ إقليميّة،

---

(52) المقصود هنا هو الفكر المُتجاوِب مع المحتوى الظرفيّ الذي يجد المرء نفسه فيه. - [المُترجِمة].

وأنه، على ما نأمل، سيأخذ شكل الجدل المفتوح، كحقلٍ معرفيٍّ يحلّل الإنتاج، المُحاسبة، وتبادل السلع - ولكن، وكوضعٍ مثاليّ - تحت واحدٍ أو أكثر من المسمّيات التي مُنِحت له بالماضي، سواء كان الاسم هو دراسات الثّروة chrematistics،[53] الفيزيوقراطية physiocracy،[54] أو الاقتصاد القياسيّ econometrics.[55]

في هذه الأثناء، فإن الفن يذكّرنا بأنه ليس هناك شيءٌ من قبيل الفن المُقتَصِر، حكراً، على التفكير الاقتصادي. فلكلٍّ منا طريقةٌ متعمّدةٌ للإدارة، وهي تجعلنا على علاقةٍ جيدةٍ بالغير. هذه هي السلطة التي تعيدنا الجماليات إليها: إن معنى الاقتصاد ذاته هو على المحكّ هنا.

---

(53) تضطلع «دراسات الثّروة» Chrematistics بنظرية الثروة بحسب قياسها بالمال. وهي تُعنى بعملية التأثير على نظم التسويق من حيث البنى والوظائف النتائج. ولكن من الملاحظ أن هذه التسمية صارت مهجورة نوعاً ما الآن. - [المُترجِمة].

(54) «الفيزيوقراطيّة» Physiocracy هي المذهب الطبيعيّ الذي يقرّر بأن الأرض هي مصدر كل الثروة وهي وحدها ما يغلّ عائداً صافياً من خلال المنتجات الزراعية التي ينبغي أن تُقَيّم بقِيَمٍ أعلى (ربما وجد هذا المذهب أصوله في العادات الأوروبية القديمة التي تمجّد الأرض، مثل إراقة النبيذ عليها إكراماً للآلهة أو ما يسمى Libation، أو تحريم حصاد السنابل المنسيّة، أو منع جمع العناقيد المتساقطة، حتى تستمر الأرض بمنح بركاتها). وبذلك، يخالف هذا الاتجاه نظيره المركنتيلي mercantile الذي يذهب إلى أن ثروة الأمم تُقاس بما تنتجه الصّناعة والتّجارة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة، من حيث إنها ترى أن هذه المعادن هي مجرد أعمال خَدَميّة عير مُنتِجة ومن ثمّ فهي وسيلةٌ للنشاط الاقتصاديّ وليست غايةً له. - [المُترجِمة].

(55) باعتباره أحد أساليب التّحليل الاقتصادي، يتعلق «الاقتصاد القياسي» Econometrics بالتقدير الكميّ للعلاقات بين المتغيّرات الاقتصادية، من خلال إجراء الدراسات البينيّة interdisciplinary studies التي يتم من خلالها الاستعانة بالعلوم الأخرى كالرياضيات والإحصاء وغيرها، بهدف التنبؤ بالظّواهر الاقتصادية المستقبليّة. بذلك، فهو يمكن أن يستخدم كأداةٍ لرسم السّياسات واتّخاذ القرارات على مستوى الدولة. - [المُترجِمة].

بورتريه للفنّان كعاملٍ اجتماعيّ[56]

كما هي الحال مع الخبير، فإن الفنان الخاضِع لقيود الإدارة الخاصّة يمكن أن يُجنَّد في أوقات الأزمة. وفيما يحاول الخبير طمأنَتنا من خلال سرد الفضائحيَّ وما لا يُغتفر وإظهاره وكأنه أمرٌ لازمٌ ومنطقي، فإن الفنان يُطلب ليكون إلى جانب سرير الضّحية، فينزِع الطابع السياسيّ من الحدَث من خلال إحياء عدّة حفلاتٍ موسيقيّةٍ خيريّةٍ والحصول على إعلانات الدّعم. إنه يُعطى دور اللّاعب الاجتماعيّ لحياتنا الجمعيّة. مقيداً بابتزاز ذوي السلطة، يُشجَّع الفنان بشدّة على الظهور العلنيّ لدى وقوع أدنى كارثة، ويُنظر إلى الدّعاية المجّانية وكأنها تعويضٌ كافٍ له. هذا ما حدث إثر كارثة لاك ميجانتيك *Lac-Mégantic* التي وقعت في الثاني من يونيو 2013. في تلك الليلة، انفجر قطارٌ مليءٌ بالنّفط الخام في أوجه الناس، فمات سبعة وأربعون شخصاً في الحريق الذي دمّر مركز هذه المدينة الصّغيرة في كيبيك Quebec. بسببٍ من إهمالها وجشعها، كانت شركات النّقل العاملة في مجال السّكك الحديديّة مسؤولةً من دون شك. ومع ذلك، فإن الأهالي، المبهوتين بالصّدمة والحزن، لم يهبّوا غضباً أو يتصدّوا بحدّةٍ للنّموذج الذي أظهر قدراته التدميرية مرّةً أخرى. لقد تمّت دعوة الفنانين من أجل إنقاذ الشّركات والحكومات تحديداً، من خلال التثبت من أن أحداً لا يتعدّى الخطوط المحدّدة لإدارة المشاعر. فبالدرجة الأولى، ينبغي عدم إفساح المجال لبروز الفكر النّقدي في مثل هذه الحالة الرّوحية.

---

(56) يُلاحظ أن العنوان بالنسخة الفرنسية من هذا الكتاب هو *Portrait de l'artiste en travailleur social*، كما أنه بالنسخة الإنجليزية *Portrait of the Artist as a Social Worker*، ويبدو لي، بذلك، أنه مستوحىً من عنوان روايةٍ للكاتب الآيرلندي جيمس جويس James Joyce (1882-1941)، الذي كان واحداً من أعمدة الكتابة الروائية في العالم، وهي تلك المُعنوَنة *A Portrait of the Artist as a Young Man*. - [المُترجِمة].

ولكن ما وقع في لاك ميجانتيك *Lac-Mégantic* لم يكن حادثاً. ففي حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً من يوم 5 يوليو، تم الإبلاغ عن حريقٍ في القاطرة الرئيسيّة للقطار المُقدّر له الانفجار لاحقاً. ولإيقاف المحرّك، الذي كان يعمل من دون أي وجودٍ بشري، قام رجال الإطفاء، دونما انتباهٍ منهم، بتعطيل نظام المكابح الهوائية. بذلك فإن هذا القطار - الموقَف بشكلٍ خاطئ، المُؤَمّن بصورةٍ سيئة، والمتروك من دون رقابة - بدأ في رحلة نزوله المجنون قبيل الساعة الواحدة صباحاً بقليل في السادس من يوليو. في تقريره الخاص بنتيجة التحقيق، قام مجلس سلامة النقل الكندي The Transportation Safety Board of Canada (TSB) بملاحظة أن شركة Montreal, Maine & Atlantic Company (MMA) للقطارات كانت ذات «ثقافةٍ ضعيفةٍ في مجال السلامة» weak safety culture، الأمر الذي «ساهم في استمرار الظّروف والمُمارسات غير الآمِنة»، وأنه كانت هناك «ثغراتٌ هامّةٌ بين تعليمات الشركة الخاصة بالتشغيل والطّريقة التي كان العمل يُمارس فيها على أساسٍ يومي»، كما أن «تدريب الموظفين، اختباراتهم، والإشراف عليهم لم تكن كافية، لاسيما عندما يتعلّق الأمر بتشغيل المكابح اليدويّة وتأمين القطارات». ويذكر تقرير TSB هذا أن الهيئة الكندية للنقل Transport Canada كانت على علمٍ مسبّق، بسنوات، بأن MMA ينبغي فحص مرافقها بصورةٍ أكثر تكراراً لأنها كانت تمثّل خطورةً عالية، إلا أن مسؤولي الحكومة «لم يتّبعوا ذلك دائماً» للتثبّت من أن المشكلات قد تم تصحيحها، وإنما انتظروا ثماني سنواتٍ حتى يقوموا بالتدقيق على نظام السلّامة في الشركة، رغم أن الفحوصات كانت قد أظهرت بوضوح أن النّظام لم يكن فعّالاً.[57] بعبارةٍ أخرى، إن انفجار عربات الصهاريج - الذي أدّى لسقوطها في بحيرة لاك ميجانتيك *Lac-Mégantic*، والمُحمّل كلٍ منها

(57) Transportation Safety Board of Canada, *Lac-Mégantic Runaway Train and Derailment Investigation Summary* (Ottawa: Public Waorks and Government Services Canada, 2014), p. 7.

بـ 131,000 لترٍ من البترول سريع الاشتعال[58] من صنفٍ حُدِّد بشكلٍ خاطئ[59] من قِبَل مُدراءَ غير أكفّاءٍ أو متخاذلين - لم يكن بأي شكل من الأشكال «حادثاً» accident (يُعرّف قاموس Merriam-Webster's Unabridged «الحادث» بأنه: «حدثٌ أو حالةٌ تقع بطريق الصّدفة أو تقوم لأسبابٍ بعيدةٍ أو غير معروفة»)،[60] لقد كانت هذه كارثةً بانتظار الوقوع (و مثل هذه الحوادث ليست نادرةً بأيّ شكلٍ من الأشكال، ففي عام 2016 كان هناك أكثر من ألف «حادثٍ» في السكك الحديدية في كندا، وما يقرب من أحد عشر ألفاً في الولايات المتحدة الأمريكية).

لزيادة هوامشها الربحية، قامت شركة MMA بتقليص استثماراتها في السلّامة إلى الحدّ الأدنى، مُستبعِدةً بذلك خطر وقوع كارثة ومعرِّضةً المجتمعات المجاورة لسككها الحديدية لمشكلاتٍ جمّة. أورد تقرير TBS أن حوالي ستة ملايين لترٍ من النفط قد تسرّبت من عربات الصهاريج إلى مياه بحيرة لاك ميجانتيك *Lac-Mégantic*. في عام 2012، قامت Transport Canada بمنح MMA إذنٍ خاصٍ لتخصيص مهندسٍ واحدٍ فقط لقطاراتها. هل كان ذلك بسببٍ من ضغطٍ سياسي؟ فساد؟ لقد كانت حكومة كيبيك Quebec على علمٍ بالتأكيد بنشاط النّقل هذا، إلا أنها لم تعارضه قط. وفقاً لمنظّمة *Société pour vaincre la pollution (SVP)* النّاشطة في مجال البيئة، فإن مقاديرَ كبيرة من المُنتجات المُسَرْطِنة carcinogenic products قد وجَدَت طريقها إلى النّظام المائيّ للمنطقة، إذ أظهرت دراسةٌ لهذه المنظّمة أُجرِيَت عام 2013 أن هذه النسبة المُسَرْطِنة من الهيدروكربونات العِطريّة متعددة الحلقات carcinogenic polycyclic aromatic

---

(58) Anne-Marie Saint-Cerny, 'Les tragédies sans fin de Lac-Mégantic', *â Bâbord* 68 (Feb- March 2017).

(59) Jacques Mcnish, Grant Robertson, and Kim Mackrael, 'Crude That Exploded in Lac-Mégantic Was Mislabelled: Officials', *Globe and Mail*, Sept. 11, 2013.

(60) "An event or condition occurring by chance or arising from unknown or remote causes".

hydrocarbons تفوق النّسبة المسموح بها وفق مقاييس كيبيك Quebec للمُسطحات المائيّة بـ 394,444 مرّة.[61] لقد تسّرب ما يقرب من 100,000 لترٍ من النّفط إلى بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* التي تمثّل أعلى نهر Chaudière. كنتيجة، فإن هذا الموقع هو الآن مصدر تلوّثٍ لمناطق أخرى في كيبيك Quebec.

قامت السلطات باستدعاء فنّانين لصرفِ الأنظار عن هذه الجريمة، فذهبوا كجماعةٍ لدعم مجتمعٍ مصدومٍ بشدّة. تم نصبُ منصةٍ خارجيّةٍ ضخمةٍ للترحيب بمجموعةٍ من النجوم المؤدين الذين تم استيرادهم من مونتريال Montréal. حرص الرُّعاة sponsors على أن يُفسِحوا مكاناً لأنفسهم أيضاً: لقد أمضى سيئو الحظ من أهالي منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* الصّيف كاملاً وهم يُوَاجَهون بلوحةٍ إعلانيّةٍ كبيرةٍ لمراهنات كيبيك *Loto-Québec*. في حالةٍ من الصدمة، استجاب الفنّانون من القلب، إلا أنهم لم تُتَح لهم بَعدُ المسافة الحرِجة التي تحمِلَهم على التساؤل: هل يجري التلاعُب بي؟ ما هو دوري بداخل نظامٍ يستأجرُني لمواساة ضحايا كارثةٍ كان هذا النّظام ذاته مسؤولاً عنها؟ بمسارعتي لمساعدة جماعةٍ تريد - فرضاً - المواساة فقط، ألست أُشَرْعِن بذلك الادعاء القائل بأن هذا كان محض حادِث؟ هل الفن الذي أقدّمه هو محض مُخَدِّر؟ هل يجب على أدائي أن يعمل بهدف عزل المشاعر ثم إطلاقِها لجعل الناس ينصرفون عن المُعطَيات الظَرْفيّة للموقف؟ قام خبراء إدارة الأزمات باستغلال كرم الفنانين، الذين قدّم دعمهم لهؤلاء الخبراء أسبقيّةً في تنظيم عملية تطهيرٍ للدولة state catharsis. لقد قام نموذج الضّمير الحي، بول ماكارتني ذاته Paul McCartney،[62] بدعوة كل من الناجين من الحادث وأعضاء المجتمع

---

(61) Melanie Marquis, 'Study Shows High Pollution at Lac-Mégantic: One Carcinogen 394.444 Times above Limit', *Global and Mail*, Aug 13, 2013.

(62) بول مكارتني Paul McCartney (1942-) هو مغنٍّ بريطانيّ وأحد أعضاء فرقة البيتلز Beatles الإنجليزيّة الشهيرة. له جهودٌ كبيرةٌ في مجال إحياء الحفلات الخيرية لمساعدة

المَكروب لرؤيته وهو يؤدّي في مدينة كيبيك Quebec. لقد أصبحت منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* شيئاً يمكن أن تقرأ عنه في مجلة *People*.[63] فجأة، لم تعد هذه القصّة سياسيّة: لقد اختُزِلَت في ضرورة الشعور بالمشاعر الطيّبة فقط. وهكذا مَحَت السلطة كل ملحوظةٍ حول أيّ مسلكٍ خاطئ.

على أيّة حال، وللأجيال القادمة، كان لا بد من عمل لوحةٍ tableau لهذه القضية؛ دراما مؤثّرة. في ظل حقبة «الرأسمالية الفنيّة» artistic capitalism التي وصفها كلٌّ من جيل ليبوفيتسكي Gilles Lipovetsky وجان سيروي Jean Serroy في كتابهما الأخير «إضفاء الجمال على العالم» *L'esthétisation du monde*، فإن نظامنا قد أدمَج الممارسات الفنيّة فيه بالكامل، إلى درجة إعطائها الأهميّة في كل الظروف:

> كلما أُنْقِعَ الفن في الحياة اليوميّة وفي الاقتصاد، قلّت حمولته من القِيَم الروحيّة. كلما تعمّم البُعد الجمالي، ظهر أكثر فأكثر كمحض واحدٍ من الانشغالات البسيطة للحياة؛ إكسسوارٌ لا هدف له سوى تنشيط الحياة العاديّة، زركشتها، وجعلها أكثر حِسيّة.[64]

ليس من شكٍّ في ذلك هنا. إن دمار منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* كان فرصةً لحكومة كيبيك Quebec للتخطيط، بمفردها، لإعادة إعمار منطقةٍ كان الأهالي فيها يعانون من الصّدمة؛ يمكن للسلطة أن تظهر ذوقاً جيداً، حتى في الأوقات الصّعبة. ستصبح ذكرى الكارثة مجرّد أداءٍ فني الآن، وسوف يُغطّى مسرح الجريمة بـ «حديقةٍ تذكاريةٍ» مُصمّمة للسياح، ومعها مِنطقة تسوقٍ مجاورة، لاستكمال المشهد، وعرضٌ إلكترونيٌّ يدور حول «منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-*

متضرّرى الكوارث حول العالم، حتى أن الملكة إليزابيث الثانية Queen Elizabeth II منحته رتبة فارس تقديراً لمسيرته. - [المُترجِمة].

(63) مجلة *People* هي مجلةٌ أمريكيةٌ أسبوعية. - [المُترجِمة].

(64) Gilles Lipovetsky and Jean Serroy, *L'esthétisation du monde: Vivre à l'âge du capitalisme artiste* (Paris: Gallimard, 2013), p. 34.

Mégantic بعد . . . » *Lac-Mégantic après* . . . ، ليظهر الدور المحوريّ والاستراتيجيّ الذي لعبته الجماليّات aesthetics في إدارة الأزمة من خلال التّلاعب بالجمهور. بعد ثلاثة أشهرٍ من الكارثة، كان من المتوقع أن ترحّب البلدة بخمسة آلاف سائحٍ حضروا لرؤية الحطام. الآن، وقد صار «الجمال» في كل مكان - ولما كان الذّوق يُنظر إليه كمسألةٍ شخصيةٍ تماماً وكان كل شيءٍ يمكن تحويله إلى سلعةٍ قابلةٍ للبيع - فإن مشهد الخراب في قلب منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* يمكن أن يحتمل تزويده بمنشأةٍ مربحةٍ ذات جهاز رؤيةٍ عن بُعْد voyeuristic business يُغطي المنظر كاملاً.

ولتسهيل هذا التحول، فإن مشروع القانون Bill 57، الذي تم التصويت عليه على عجالة من قِبَل حكومة كيبيك Quebec من أجل التّخطيط لإعادة تنظيم المنطقة، كان يهدّد بمصادرة بيوت العديد من المواطنين، رغم أن بيوتهم تم تجنيبها هذا المصير بالنهاية. في البداية، تمّت دعوة الأهالي لترك المنطقة والانتقال إلى مكانٍ آخرَ بإرادتهم، فباعوا بيوتهم بأثمانٍ متدنيةٍ إلى مقاولي بناء سوف يستفيدون لاحقاً من عقود إعادة الإعمار. في وقتٍ كانت قضايا الفساد فيه موضوعاً لمسلسلاتٍ في وسائل الإعلام، فإن المرء لا يملك إلا التّساؤل حول الأمر برمّته. لقد «أغمست» الحكومة أهالي منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* في حالة الاستثناء *situation d'exception*، مع إعطاء صلاحيّاتٍ كاملةٍ للسلطات العامّة: لقد تمّ تمديد مدّة ولاية مجلس المدينة City Council، وتم تجاوز عمليّة الدّعوة العامّة للتّقدم بعطاءات المناقصات call for tenders، وصار تحويل الأعمال التّجارية ومُصادرة أملاك السكّان مسألةً اعتباطيةً تماماً؛ لقد كانت قيمة الجائزة ستين مليون دولار. وبالنهاية، تم منح عقدٍ خاصٍّ لشركة بومرلو Pomerleau لأغراض تنظيف الموقع وتحديد خصائص التربة. لقد أُشير إلى هذه الشركة من قِبَل أحد الشهود أمام لجنة شاربونو Charbonneau Commission في مارس 2013؛ وهي لجنة تحقيقٍ عامة، كان يرأسها القاضي فرانس شاربونو France Charbonneau وشُكِّلَت للنّظر في دعاوي الفساد التي

شابت إرساء عقود الأشغال العامّة في كيبيك Quebec واستخدام شخصياتٍ وهميّةٍ لتحويل الأموال إلى الأحزاب السياسيّة بطرقٍ غير مشروعة. كما عُهِدَ إلى شركة بومرلو Pomerleau أيضاً بمهمّة تخطيط المراحل المختلفة لإعادة بناء السكك الحديدية. وبحلول أكتوبر 2013، ادّعى بعض موظّفي عددٍ من شركات المقاولة من الباطن أنه قد طُلِبَ منهم العمل بشكلٍ أبطأ، أو حتى نقض ما كان قد تم عمله للتو فعلاً، بهدف إبطاء تنفيذ العقود.(65)

عِلاقةٌ مُنفَصِلَةٌ عن الواقِع

ولكن، حقاً، من ذا الذي يتذكّر كارثة منطقة بحيرة ميجانتيك *Lac-Mégantic* الآن؟ مثل غيرها من «الأحداث الكبرى»، فإن هذه «اللحظات التاريخيّة» التي نشهدها على شاشات التلفاز تختفي بمجرد استهلاكها. في مقاله المُعَنْوَن *Die Antiquiertheit des Menschen* الذي نشره عام 1956، كان الفليسوف الألماني جونتر أنديرس Gunther Anders قد عرّف التلفاز سلفاً بأنه ضارٌّ بعلاقات المجتمع مع الواقع. حتى أكثر الناس معارضةً لهذا الوسيط (التلفاز) هم في الحقيقة متأثّرون به: عندما يخرج أحدهم من البيت ليقضي بعض الوقت مع أقرانه من البشر، يُدرك أن هؤلاء الناس - الذين كان يعوّل عليهم لتحويل «الواقع» إلى وجودٍ بالمعنى الاجتماعيّ - إنما ظلّوا بالمنزل لمشاهدة نسخةً تُحاكي الواقع الاجتماعي على التلفاز.

بعيداً عن الإعلام الجَمعيّ، فإن التلفاز، على خلاف ذلك، هو قوةٌ لنزع الصِفة الجَمعيّة: إنه يَفصِل الأفراد الذين يشكّلون الجماعة ويعزِلُهم عن بعضهم، فيما هو يقدّم لهم الشيء ذاته بالتّزامن (في الوقت ذاته) وبالتّشابه (المُحتوى ذاته). نحن نتعايش اجتماعياً من خلال التّشارك في واقعٍ لا نستهلكه إلا في

(65) Radio-Canada, 'Reconstruction de Lac-Mégantic: Des travailleurs critiquent la gestion des travaux', Oct 23, 2013.

العزلة. وهكذا، يُنتج التلفاز كائناً اجتماعياً جديداً، هو «السّلطعون الناسك الجمعي» *l'ermite de masse*:[66] «يجلسون، الملايين منهم في الآن ذاته، منفصلين، ومع ذلك متماثلين، منغلقين في أقفاصهم كما السلطعونات الناسكة hermit crabs، لا رغبةً في الفِرار من العالم، بل من أجل التأكّد تماماً من ألا يفوتهم - أبداً، أبداً - أيّ فتاتٍ من أي صورةٍ تظهر لهم على الشّاشة».[67] وهكذا، يكون الواقع متأنقاً، مُقتطعاً من سِياقه، مؤطّراً، ومُعدّاً كما ينبغي، فيوصِله التلفاز إلى بيوتنا مثل سِلعة، حتى لا نكون بحاجةٍ إلى معايشته أو القيام به.

يمَكّنُنا التلفاز من أن لا نعيش شيئاً يحدث على مسافةٍ منا، بل من إنكار وجود المسافة. إنه لا يُرسي علاقةً مع شيءٍ عظيمٍ وعميقٍ إذا كان يحدث بالانفصال عنه؛ عوضاً عن ذلك، هو يبدو وكأنه يحتوي ما يقدّمه تماماً. للمفارقة، ما ينفيه التلفاز هو بُعْدُ ما ينقله. والسبب الأول لذلك هو أن الشاشة لا تقدّم نفسها كإعادة إنتاجٍ للعالم، وإنما كنافذةٍ مُطلّة عليه. يصمّم أنديرس Anders على أن التلفاز لا يركّب صُوَرَهُ بناءً على العالم (*nach*)، بل إنه يحلّ محلّ العالم بالكليّة. إن هذا يعني أننا، بالنهاية، لن نعرف - بشكلٍ أصيل - الفرق بين حضور حدثٍ ما عن طريق وسائل الإعلام وبين المشاركة فيه جسدياً. أما السبب الثاني فهو أن معدّي البرامج نجحوا في جعل الشخصيّات التلفزيونيّة تُنتج علاقاتٍ حميمةً زائفة pseudo-intimacy مع الجمهور:

> عندما أشعل تلفازي فأرى الرئيس - رغم أنه على بُعدِ آلاف الأميال -
> فجأة، ها هو، جالس في غرفة المعيشة خاصتي لكي يتجاذب أطراف

---

(66) «السّلطعون الناسك» Hermit Crab، هو كائنٌ بحريٌّ قشريٌّ صغير، يُشبه السرطان، يعيش مختبئاً في قشرةٍ حلزونيةٍ كحمايةٍ له من الكائنات البحريّة الأخرى التي قد تهاجمه، يتحرّك ويتغذّي من داخلها، فلا يخرج منها. - [المُترجِمة].

(67) Günther Anders, *Die Antiquiertheit des Menschen* (Munich: Verkag C. H. Beck, 1956), p. 102.

> الحديث معي . . . عندما تظهر مقدّمة البرامج التلفزيونيّة على الشاشة، مظهرةً عاطفةً ذات عفويّةٍ محسوبة، مشاركةً أفكاراً عميقةً معي، كما لو كان هناك شيء ما بيننا . . . سواء بصفةٍ مألوفةٍ أو متخفيّة، فإن هؤلاء الزوّار يأتون إليّ وكأن بيننا معرفةً مسبّقةً ما.[68]

وهكذا، فإن السلطة التي يمنحها التلفاز لمشاهديه، باعتباره وسيطاً، والمتمثّلة في القدرة على متابعة حدثٍ ما عن مسافةٍ ومعرفة ما يفكّر فيه الآخرون من دون الحديث معهم، تصبح التزاماً، وهو: الالتزام بالبقاء في المنزل وعدم حضور الفعاليات، التوقّف عن جعلها ممكنةً من خلال الحضور الجَمعيّ للمشاركين فيها، والتوقّف عن الانخراط في الحوار مع الآخرين. إن الفعاليات «المُرخّص بها» هي تلك التي ينظمها التلفاز، والتي تُرفد بمشاركة بعض المجاميع وفق ما يتطلّبه الحال.

هذه التجزئة fragmentation هي أمرٌ مثاليٌّ من منظور التجارة، من حيث إنها تمكّن التّجار من أن يقدِّموا، من خلال قنوات التلفاز، منتجات تحلّ المحلّ العاطفيّ للرابطة الاجتماعيّة التي يُعيقها التلفاز كوسيط.

إن النظام التّافه يستمرّ في إلقاء ثقله كاملاً. إن كنا نريد انتقاده بطريقة نُسمَع معها خارج دوائرنا الداخلية، سوف نضطرّ إلى محاولة استخدام لغة هذا النظام، على التلفاز، تحديداً. إن السّحر الضار لهذا الوسيط، وفقاً لأنديرس Anders، يأتي من حقيقة أنه يقدم عالَماً كان قد سبق تحليله وتصريحاتٍ سبق التفكير فيها. فالتلفاز «يُنسينا حقيقة أنه يصدر حكماً كان قد سبق النطق به سلفاً . . . حتى يُقنع المستهلك أنه لا يجري اقناعه لتصديق أي شيء، فهذا الحُكم - الذي تحوّل إلى صورة - يتخلّى عن مظهر الحُكم».[69] وفيما يتعلق بالفكر، فإن الشّاشة تدّعي أنها تُعطينا محتوىً مطوراً بشكلٍ ذكي؛ إنها تمُدنا بنتيجة، حقيقةٍ

(68) Anders, p. 118.
(69) Anders, p. 161.

مُستوعَبَةٍ سلفاً، من دون أن تطلب منا المرور بالمراحل التي مكّنَتنا من الوجود: إنه مجرد طعام أطفالٍ للعقل. هذا هو السبب وراء حقيقة أنه يصعب على أيّ شخصٍ يظهر على التلفاز أن يحاول التفكير. إن التجربة عنيفةٌ لجميع الأطراف، مثل محاولة إقحام ساق دجاجةٍ بالمعدة مباشرة.

قد يُستخدم التلفاز أحياناً في محاولةٍ لمفأجاة الناس، والهدف طبعاً هو دائماً نقل الأفكار. إلا أنه لا يمكنك فعل ذلك إلا إذا تمكّنتَ من الظهور على التلفاز. وكما أشار نعوم تشومسكي Noam Chomsky،[70] فإن التلفاز يفوز دائماً من حيث إنه لا يمنَحُكَ إلا وقتاً قصيراً جداً للحديث. إنه يصبح حاوية للكليشيهات؛[71] المحيط الأمثل لمباراةٍ في الصراخ. أية ملاحظةٍ تتضمّن مفارقةً أو تأملاً سوف تُبصَق مثلما تُبصَق بذور الفاكهة. هذه هي المحنة اليائسة التي يواجهها المثقفون الذين يحاولون استخدام مكبّر الصوت لتعظيم أصواتهم: إن الظّهور العام، الذي يمثل الطّريقة الوحيدة للوصول إلى مئات الآلاف من الناس، لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الظهور المُفرَط الذي سوف يتسبب بحرقِك. لا شيء مما تحاول قوله سيبقى، فيما عدا ربما - وهذا ما تُراهن أنت عليه - شكّاً ما، يتسبّب في أن بضعة أشخاص (أو ربما حتى العديد منهم)، سوف يمضون أبعد، إلى ما يتجاوز مجرد العلاقة بالصورة.

(70) نعوم تشومسكي Noam Chomsky (1928-) مفكرٌ أمريكيٌّ بارزٌ وأستاذٌ جامعيٌّ متخصّصٌ باللسانيات، وهو أيضاً ناشطٌ سياسيٌّ معروفٌ في العديد من القضايا العامة كالحرب والمجتمع والديمقراطية والمرأة والمساواة والاقتصاد. له العديد من الكتب والدراسات. - [المُترجِمة].

(71) الكليشيه cliché هو التعبير الأدبيّ أو الفلسفيّ أو الآيديولوجيّ الذي قد يكون ذا قيمة، ولكنه مكرورٌ إلى درجة الابتذال. - [المُترجِمة].

الفَنّ التَخريبيّ المَدعوم[72]

يستنكر عددٌ من الفنّانين، مثل درايس فيرهوفن Dries Verhoeven، حقيقة أنه في الفترات الأخيرة، صارت «مَأْسَسَة» الفن institualization of art تُحبِط مساعي كثير من الفنانين من أن يكونوا فنانين «تخريبيّين» subversive. إن أعمال هؤلاء الفنانين، وفق ما تذهب إليه الرواية، صارت مُنَمّطةً لإرضاء توقّعات وزارات الثقافة، المتاحف، وغيرها من الأكاديميّات. أراد فيرهوفن Verhoeven أن يضع المؤسّسة في قلب عرضٍ دراميّ بعنوان «... *Ceci n'est pas*»، قُدِّم في وسط مدينة مونتريال Montréal في ربيع عام 2015، لمدة عشرة أيّام مُتتالية. كان العمل يقصد لأن يكون صادِماً ومستفزّاً. في قفصٍ من زجاجٍ تبلغ مساحته مترين مربعين بالكاد، جرى عرضٌ يتغيّر يومياً ومُصمّمٌ لجذب انتباه المتفرجين: لساعات، كان جنديٌّ يحطّم طبلهُ باستمرار، لاعب هوكي أسود يقوم بحركاتٍ ملتويةٍ مع كونه مربوطاً بسلسلةٍ حول قدمه وكأنه حيوان سيرك، امرأةٌ قِزمةٌ مغريةٌ تحاول أن ترمي شِباكها على الناس في مِشرب (بار)، أبٌ - عارٍ تقريباً - يقرأ قصةً لطفلته الصّغيرة التي كانت تجلس في حضنه بلباسها الداخلي، أمٌّ غير متزوّجة، عامل مناجم كنديٌّ في حملةٍ لاستكشاف الجنوب. كان القفص شفافاً، إلا أنه، في الآن ذاته، لم يكن كذلك. لقد كان القفص يحوي بشراً فعلاً؛ أن ترى إنساناً في قفصٍ هو ليس بالأمر الهيّن، لقد كان القفص جزءاً حقيقياً من العرض. ما حدث في القفص لم يحدث بذات الطريقة التي يمكن أن يحدث فيها في أي عرض اعتيادي. يمكننا فقط أن نرى الجندي، الرجل الأسود، القِزمة، الطفلة الصغيرة، الأم غير المتزوّجة وعامل المناجم ككائناتٍ مأسورةٍ في قفص،

---

(72) كتعريفٍ عام ومُدخلي، يمكن تعريف «الفن التخريبي» subversive art بأنه الفن الذي يتحدّى الأفكار ذات العلاقة بالمؤسّسات الاجتماعيّة الراسخة، كالحكومة أو الدين أو الأسرة. أما كلمة subversidized الواردة في عنوان هذا الفصل فهي نحتٌ من كلمتَي subversive (تخريبي) وsubsidized (مدعوم)، فيراد بهذا العنوان إذاً الحديث عن مفارقة الفن التخريبيّ المدعوم من الحكومة. - [المُترجِمة].

رغم أنه يبدو - على الأغلب - أن المقصود من هذه اللّوحة الحيّة *tableux vivants* هو أن تتضمن «حائطاً رابعاً» forth wall[73] (أو ربما حتى أربعة منه)؟

إنه أمرٌ تخريبي. انتبه. هنا، هناك ما يصدم! كان ذلك مبيناً على لوحةٍ شارحةٍ منذ اليوم الأول. إلا أن الأمر انطوى على مفارقة، رغم ذلك. إن إعادة الإحياء هذه للفن الصادم، القاصد إلى تجاوز الأنماط المؤَسَسيّة، كان هو في ذاته مدعوماً، إذ في حين أن هذا العمل التخريبيّ تم الإعلان عنه بصفته كذلك وتم حمله على مِحْمَل الجد، إلا أنه كان مُقدماً ضمن أعمال مهرجان «عبر أمريكا» *Festival TransAmériques* المُمَول من قِبَل إداراتٍ ووكالات حكوميّة، قطاع الفندَقة، ووسائل الإعلام الكبرى. لقد كان الهدف من هذا العمل أن يكون تخريبياً، ولكن في نطاق الحدود المُقرَّرة من قِبَل مؤسّسات الفن المُمَوِّل. لقد كانت الطبيعة «التخريبيّة» للعمل واضحة، كما لو أنه حاصلٌ على شهادةٍ رسميّة بذلك من قبل مسؤولي وزارة الثقافة؛ إنها مَأْسَسَةٌ على نطاقٍ كامل. لا يعدو عمل فيرهوفن Verhoeven هذا أن يكون إعادةً للمشاهد التخريبيّة التي عرضها كلٌّ من جوديث مالينا Judith Malina وجوليان باك Julian Back في ماضي الأيام التي كان المسرح الحيّ يُبهِرُ فيها أهالي نيويورك في الشارع؛ إن ابتذال جنونه «المُمَأْسَس» هو شيءٌ مألوفٌ كأُلْفَةِ نافورة دوشامب *la Fontaine de Duchamp*.[74]

---

(73) «كسر الجدار الرابع» Breaking the fourth wall هو مفهومٌ خرج به المخرج والكاتب المسرحيّ الألمانيّ برتولت بريخت Berthold Brecht (1898-1956) الذي يُعتبر من أبرز مسرحيي القرن العشرين. والفكرة تعني إشراك جمهور المسرح بما يحدث على الخشبة وعدم جعلهم متلقين سلبيين فقط، وكأن بينهم وبين الممثلين حائطاً ما، وهو الحائط الذي ينبغي إسقاطه مَجازاً. - [المُترجِمة].

(74) «النافورة» *la Fontaine* هي عملٌ فنيٌّ استفزازيٌّ نفذه الفنان الفرنسي مارسيل دوشامب Marcel Duchamp عام 1917. وهي عبارةٌ عن مِبْوَلَة كُتِبَ عليها «ر. المغفل» R. Mutt. يُعتبر هذا العمل من أهم الأعمال الفنية للقرن العشرين لأنه يعلن بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفن، تقوم على الاستفزاز الفكري. - [المُترجِمة].

كل تابو taboo[75] معروف كان مُمَثّلاً هنا: الجندي المنتمِ إلى الطبقة العاملة والمُحطَّم لطبلةُ مثل أعضاء جماعة معارضي الآلات Luddites،[76] شعبيّة الرياضيين السود في ألعاب السيرك التي تُذكّر بالعروض الكولونياليّة، الأب شبه العاري والطفلة الصغيرة اللذين يقرآن القصّة معاً في توازنٍ نفسيٍّ صحيٍّ هو قاب قوسين أو أدنى من قضايا زنى المحارم incest والغُلمانيّة pedophilia،[77] والمرأة القِزمة ذات الملابس المُغرية التي تكشف التاريخ التمييزيّ للجنسانية sexuality. يشقّ التخريب طريقه ويتقدّم بطريقةٍ «علاماتيّة» *manière signalétique*، وإذا كان المرء لا يفهم ما هو موضع الاستنكار بالمعنى الواسع، فسوف يُصار إلى جعل الأمر صريحاً من خلال لافتةٍ شارحةٍ أو أغنيةٍ ناقلةٍ للرسالة: الصّراع ضد العنصريّة، رفض السّياسة الكنديّة الخارجيّة، الحاجة إلى الاتصال الجسدي بين الأب وابنته، الحق في أن يكون المرء مُختلِفاً في سياق الإغواء، وهكذا. نحن بداخل الحدود التي يسمح بها هذا الفن التخريبيّ ويفهمها: مجموعةٌ من الكليشيهات التي نجدها كل يوم في الصّحف ذات التداول الواسع، المنشورات الحكومية، وبرامج المنوّعات التلفزيونية.

---

(75) تجد كلمة «تابو» Taboo أصلها من لغات قبائل الجزر البولينيزيّة، هي تعني ما هو محرّم عند المجتمع من منظور العرف أو الدين أو السياسة، فلا يستسيغ تغييره، أو حتى الحديث فيه في بعض الأحيان. ولكثيرٍ من باحثي علم النفس كتاباتٌ هامةٌ في هذا الشأن. - [المُترجِمة].

(76) «اللوديون» Luddites هم أعضاء في حركةٍ ظهرت إبّان الثورة الصناعيّة في بريطانيا، كانوا يقومون بمظاهرات في الفترة من 1811 الى 1816، فيخربون الآلات احتجاجاً على إحلال قوّة الآلة محل القوّة البشرية في قطاع صِناعة النسيج، وما ترتّب عن ذلك من انخفاض للأجور وبطالة. نُسِبَت هذه الحركة إلى نيد لود Ned Ludd، العامل الذي كان أول من حطّم الآلات في سورة غضب، فحملت اسمه. الآن، صارت التسمية تُطلق على معارضي الحوسَبة والتقدّم العلميّ بشكل عام، مع تعديلها إلى «اللوديون الجدد» Neo-Luddites. - [المُترجِمة]. انظر:

Alessandro Nuvolari, 'The Machine Breakers and the Industrial Revolution, paper prepared for the Eight International Joseph A. Schumpeter Society Conference, Manchester/UK, 28th June- 1st July 2000.

(77) « الغُلمانية» Pedophilia هي الوَلَع الجنسيّ بالأطفال. - [المُترجِمة].

الفن التخريبيّ هو فنٌّ صادمٌ بشكلٍ أصيل. ولكن هذا لا يعني أنه يعمل على الجمهور بأسلوب تخريبي. قد يُزعجنا الذوق السيّئ، الوقاحة، الاستفزاز، أو الإهانة، ولكن في الحقيقة، ينبغي التنبّه إلى أنه ما يتم مهاجمته هنا فعلاً هو ذكاؤنا: يصعُب تصديق أن الفنّان ما زال يتوقّع أن يصدمنا بمثل هذه الحِيَل القديمة. إن ما نراه في القفص الزجاجيّ هو التكرار الضَحِل لإيماءةٍ تَعِبَة. ومثلما لاحظ أحد المارّة عن بُعد: «لم أكلّف نفسي مغبّة النظر، فنحن بالقرب من متحف الفنون الحديثة، لذا، فأنا على ثقةٍ من أن الأمر لا بد أن ينطوي على فنٍ حديث». نحن نعرف الأغنية.

هذه التخريبات النمطيّة المُدارة بأجهزة التّحكّم عن بُعد لها أيضاً أثرٌ أكثر عمقاً وإقلاقاً؛ إننا نشعر بالتقزّز من دون أن نعرف سبباً واضحاً لذلك. هل لأنها تبدو كنُكاتِ الطّلبة السيئة؟ هل يتعلق الأمر بافتقار الفنّان للشجاعة؟ الشعور بأن الأمر يتعلّق بأَلَفة الرُؤية *deja vu*؟ ربما كانت الإجابة توجد في القُرب الخطر «للتخريب» subversion من «الانحراف» perversion، وهو ما تم تحليله بشكلٍ ألمعيٍّ من قِبَل الفليسوف ميكيل دوفرين Mikel Dufrenne عام 1977، في كتابٍ كان عنوانه يضع الكلمتين إحداهما بجوار الأخرى.[78] إن أقلّ حركةٍ خاطئةٍ قد تقود من واحدةٍ إلى الأخرى، وعندها، تُبرِّر فكرة «التخريب» التعبيرات الفظّة للمتعة المنحرِفة المُستنكَرَة، ولكن فقط على المستوى السطحي. هذا ما يفعله التلفاز عندما يعرض - بشكل هوسيّ - الصّور المثيرة، لجريمة قتلٍ وحشيةٍ أو شجاراً مهنيّاً، يدّعي هذا التلفاز شجبها.

إن المشاهد التي تُلقي بوجوهنا في وسط مدينة مونتريال Montréal لحملنا على مواجهة ما يسمى بالتابو taboo، من خلال وضع مُمَثِلين في مكعبٍ زجاجي - بما فيهم طفلةً ترتدي حمّالة صدرٍ صغيرة، وهي بالتأكيد ليست في

(78) Mikel Dufrenne, *Subversion perversion* (Paris: Presses Iniversitaires de France, 1977).

سنٌّ تسمح لها بإعطاء موافقتها على المشاركة في هذا العرض، تمّ تصويرها طوال اليوم بواسطة متفرّجين أغبياء، ولم يكن لديها ما تفعله سوى أن تدع انتباهها يتشتّت بواسطة صيحات الاستهجان الصّادرة عن نساءٍ يستنكِرن مشاركتها - هذه المشاهد تخلق لحظةً عَدَميّةً منحرفة. عرض الغُلمانية pedophilia، الحطّ من قيمة رجلٍ أسود والنزول به إلى مستوى حيوان السيرك، عرض امرأة قِزمة في لباسٍ يفترض أن كل النساء يتطلّعن إلى مثله (رغم أن النسويّة feminism[79] قد شجبت هذا التصغير لعقود)، وَصْم امرأةٍ شابةٍ حاملٍ بسوء السّمعة، هذا ما كان العرض المسمى «*Ceci n'est pas* . . .» يستمتع بعمله، تحت ذريعة عرضٍ ما هو غير مريح، كشيءٍ كان من المُفترض على الجمهور سيّئ الحظ الشعور بالذّنب من أجله. كل ذلك باسم الانعتاق emancipation من المؤسّسات الثقافية، رغم أن الأمر لا يفعل سوى كشف إهمال هذه المؤسسات، مرّة أخرى.

نظرةٌ كارتونيَّةٌ للعالَم

يُظهر آخرون تكتيكاً أفضل. يحيّرنا الفنان التشكيلي ميتش ميتشيل Mitch Mitchell بطريقةٍ منتجةٍ من خلال العمل على الحاويات الكارتونيّة الصّغيرة. المئات من هذه الأشياء البسيطة ولكن المُفعَمة بالمعنى تم رصُّها أو تكويمها بعضها فوق بعض في غرفةٍ كبيرةٍ بحيث يمكننا رؤيتها من موقعنا بالأعلى فيما نحن نتحرّك بداخل هذه الغرفة. بذلك، يمنحنا الأمر وجهة نظرٍ هامةً حول

(79) «النسويّة» Feminism هي اتجاهٌ فكريٌّ يضع قضايا المرأة في مركزه، من خلال جملةٍ من أدوات الفكر الاجتماعيّ والتحرّكات السياسيّة والفلسفات القيميّة. بواسطتها، يعرِض النسويون لإشكاليّات الوضع المجتمعيّ للمرأة، وربما تجاوزوها إلى جميع موضوعات القهر، سواء تعلّقت بالنوع الاجتماعي (الجندر gender) أو الأقليّات أو الفقر أو الهوية أو العنف، وعداها. - [المُترجِمة].

الصّناعة الهائلِة المتعلّقة بنقل السِلع، ولكنها ليست وجهة نظرنا نحن، وإنما وجهة نظر اللاعبين الماليّين والفنيّين الذين يديرون هذا المشروع العالمي الضخم. وفجأة، يخرج كل من نقل البضائع والإنتاج المُفرَط للسلع من العالم المُجَرّد، الذي يظهران فيه بشكلٍ منطقي ومُحتمل، فيُظهران نفسيهما من خلال تكاثِرهما الذي لا يُصدّق والمَشوب بجنون العَظَمة.

تجسّد هذه الحاويات الصّغيرة - المُبَعثرة بالمئات في صالة عرض سبوروبول Sporobole في منطقة شيربروك Sherbrooke في كيبيك Quebec - تجسّد ثلاث مراحلٍ أساسيّة في حياة الحاوية: أولاً، يُظهر لنا ميتشيل Mitchell لقطاتٍ لا حصر لها لحاوياتٍ مصفوفةٍ بعضها فوق بعض بتنسيقٍ يشغل مساحةً واسعةً وذي شكلٍ عشوائي. وبعدها، يبيّن لنا اللحظة التي يتمّ فيها تحميل هذه الحاويات على مركبات نقلٍ مختلفة. وأخيراً، يُرينا ميتشيل Mitchell الموقع الأخير الذي تنتهي إليه هذه الحاويات، وهو موقع نفاياتٍ تظهر فيه متراكمةً في فوضى لا شكل محدّداً لها. من خلال إعطائنا منظوراً من الأعلى، نكون كالعمالقة في وسط ما يبدو وكأنه صناديقُ صغيرةٌ جداً يمكن سحقها بسهولةٍ أثناء السير. يضعنا هذا التركيب الفنيّ installation في موقع المدير الذي يرى هذا التوزيع بالمعنى المُحاسبيّ الضيّق. كل عنصر، بذاته، يصبح تافهاً؛ فالورق المقوى (الكارتون) الذي صُنِعَت منه كل وُحدةٍ يعزّز من الانطباع بقلّة القيمة. وفيما نُغادر المعرض، يزودنا ميتشيل Mitchell بمخططٍ يمكّننا من صنع وحداتنا الخاصة. هنا، يتغلّب الفنان على التوتّر الداخليّ بين الجماليّات aesthetics والأعمال business من خلال استغلال الجماليّات لإبراز الرؤية العامّة السائدة في عالم الأعمال.

ولكن وجهة النّظر الإداريّة هذه يمكن أن تقود إلى تأملٍ نقديٍّ كذلك. فهذا المعرض يقودنا إلى ملاحظة أن مشاركة وجهة نظر الآيديولوجيا هو طريقةٌ لنا نحاول من خلالها إسقاطها؛ فالثورة ليست شيئاً مجيداً. عندما يتم الانحدار بالرّؤية العامّة إلى البُعد المُحاسَبي، فإن التّداعيات الاجتماعيّة والسياسيّة

والاقتصاديّة للتوزيع الصناعيّ يتم إخفاؤها؛ ولكن إذا كان العمل يُجسِّد رؤيةً منفتحةً على الأسئلة السياسيّة، فإنه يُساعدنا على إيجاد الارتباط الذي لا يمكن لفردٍ أن يلمحه، إن كان يفكّر لوحده وبمعزلٍ عن الآخرين. بذلك، فإننا إذا ما انتقلنا إلى حاويات الشّحن المعدنيّة وجدنا أنها تنقل ما هو أكثر من البضائع والحُليّ الرّخيصة المُصنّعة على يد أشخاصٍ هم عبيدٌ في الشّرق لأشخاصٍ ذوي قوة شرائيةٍ في الغرب. إنها تأتي بالكوكائين الكولومبي إلى نيويورك من خلال قنواتٍ سرّيةٍ في ترينيداد وتوباجو Trinidad and Tobago،[80] أو بالأسلحة من الجمهوريات السوفيتيّة السابقة إلى أنجولا Angola، بل إنها قد تلعب دوراً في صرخات المهاجرين المتسلّلين الذين يسافرون من المغرب عبر البرتغال إلى مياه سانت لورانس St. Lawrence.[81]

إن حاويات البضائع هذه تعرض الحقائق الفظّة بشكلٍ واضح وتخفيها بأن تلفّها بالصمت والظلام في الآن ذاته: إنها علبٌ سوداء، محاطةٌ بخرائبٍ من المعاناة الإنسانيّة التي لا يريد أحدٌ استكشافها أو الاستماع إليها. من خلال إدارتها من قبل شركات استيرادٍ وتصديرٍ مُسجّلة في الجنان الضريبية tax havens، فإن حاويات البضائِع تُنقل بواسطة سفن شحنٍ مُسجّلةٍ في موانئ المناطق الحرّة، وهي مليئةٌ بالمنتجات المصنّعة في مصانعٍ تقع في المناطق الحرّة وتمارُس نشارطها من خلال استغلال العمال sweatshops. الدمى، الكراسي البلاستيكية، وفصوص الثوم التي تحضرها لنا هذه الحاويات هي مجرّد عارِضٍ مَرَضيٍّ لما نختار أن نتركه غير محكيٍّ عنه حول الصناعات التي

---

(80) جمهورية ترينيداد وتوباجو Trinidad and Tobago هي دولةٌ تقع في جنوب البحر الكاريبي، تبلغ مساحتها حوالي خمسة آلاف متر مربع، وهي تتكوّن من جزيرتي ترينيداد وتوباجو، بالإضافة إلى عدّة جزرٍ صغيرةٍ أخرى. - [المُترجِمة].

(81) طريق سانت لورنس البحري، بالإنجليزية The Saint Lawrence Seaway وبالفرنسية *la Voie Maritime du Saint-Laurent* هو نظامٌ متكاملٌ من السّدود والقنوات التي تتيح للسفن القادمة من المحيط الأطلسيّ الدخول إلى المياه الداخليّة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. - [المُترجِمة].

تستغلّ العمال حالياً وكأننا ما زلنا في القرن التاسع عشر. هذه الحاويات تُظهر ما يدور وراء الكواليس من «وثنيّةٍ سِلَعيّةٍ» commodity fetishism وما يتعلّق بها من وَهْم الإنتاج الذاتي للسّلع.

إلى أي واقعٍ تُشير القصص المُحتَواه في هذه الصّناديق السوداء؟ على مدى السنوات القليلة الماضية، جاء التركيز على الحاويات من قِبَل الفن. ولأنها صامتةٌ حول ما تكشفه، فإن الحاويات تصدِمنا وتُبهرنا. كثيراً ما يستخدِم المُصوِّرون مناظير مدهشة لإظهارها لنا؛ إننا نشهق عندما نرى عشرات الآلاف منها تشغل مساحاتٍ صناعيةً بشكل رتيب، أو في ضواحي المُدن الكبرى التي تُعرض فيها السّلع بشكل أقرب إلى الأوثان: قام أندرياس جيرسكي Andreas Gursky بالتقاط الصّور لمناظر من هذا القبيل. من طَرَفه، تعرّض إدوارد بورتينسكي Edward Burtynsky لـ «ثقل وزنها البارد» la lourde froidcur بصورِهِ التي أخذها للموانئ التجاريّة الشماليّة. كما استخدمها المهرجان المسرحيّ الألمانيّ *Politik im Freien Theater* في بعض صوره عام 2005. أما المصوّر كريس جوردان Chris Jordan، فإنه يقدم صوراً مدهشة لحاوياتٍ مصفوفةٍ بعضها فوق بعض في مقالب قمامةٍ اعتياديةٍ على السّاحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية.

في عام 2005، كان هناك أكثر من عشرة ملايين حاويةٍ مهجورةٍ تُحيط بالموانئ الأمريكية. حين وجدوا في الأمر فرصةً تجاريّة، حوّل بعض المستثمرين هذه الحاويات إلى بيوتٍ أو إلى سجونٍ مُحتَمَلة. كما أن هناك فنّانين من مشارب أخرى - مُلْهَمين بدورهم أيضاً بقابليّة هذه الحاويات لإعادة الاستعمال - صاروا يأتون فجأة باقتراحات إعادة تدويرٍ غير مُعتادة لإسباغ وجهٍ إنسانيٍّ على هذه الحاويات، حتى أن المهندس المعماري الياباني شيجيرو بان Shigeru Ban قد صمّم وحداتٍ سكنيّةً مبنيّةً على أساسٍ من الحاويات، وهو مشروعٌ ذو طبيعةٍ جماليّةٍ أصيلة. وقد تخصّص البعض في استخدامها على منصّات العروض. فيما يمكن إيجاد أمثلةٍ أخرى لاستخدامها على الإنترنت،

وهي تبيّن صوراً لتطبيقاتٍ خاصةٍ بتحويلاتٍ مدهشةٍ لهذه الحاويات، بلغ من فاعليتها أننا نخاطر معها بنسيان الواقع المُظلم للاقتصاد الذي تخفيه هذه الاستخدامات المقترحة. لقد تم منح الحاويات حياةً جديدة، ولكن ليس لكي ننسى من أين جاءت، وإنما كي نضيف إلى قصص الرّعب التي تُجسّدها حلقةً جديدةً يمكنها تطهير معناها، وأمل في أنه، في يوم من الأيام، سيكون النظام الرهيب الذي جعلها ممكنة مجرّد شيءٍ من الماضي.

الفصل الرابع

ثورة - إنهاء ما يُضِرُّ بالصّالِح العام

لدى قبوله بجائزة نوبل للآداب للعام 1957، تأمل ألبير كامو Albert Camus[1] في الزّمن الذي كان يعيش فيه، فكتب:

> تغيّر كل شيء اليوم؛ حتى الصّمت صارت له تداعياتٌ مُخيفة. في اللّحظة التي يُنظر فيها إلى الامتناع عن ممارسة خيارٍ ما - وكأن هذا الامتناع هو بحدّ ذاته خِيارٌ، فيُعاقَب أو يُمتدح على هذا الأساس - فإن الفنان، شاء أو لم يشأ، يكون قد جُنِّد للخِدمة. في هذا الصّدد، فإن كلمة «جُنِّد» تبدو لي أدقّ من كلمة «التزم». بذلك، فعِوضاً عن التطوّع في الخِدمة التطوّعية فعلاً، فإن الفنان يؤدّي الخدمة العسكريّة الإلزاميّة. اليوم، يركب كل فنانٍ على متن سفينة العبيد المعاصرة.[2]

مثل أيّ فنان، نحن مولودون في خِضمّ بحرٍ عاصف، وقد أُركِبْنا على السفينة جبراً.

(1) ألبير كامو Albert Camus (1913-1960) هو كاتبٌ ومسرحيٌّ ومفكرٌ فرنسي. كان ناشطاً سياسياً، ويسارياً فاعلاً معارضاً للنّظم الشمولية. في قناعاته الفلسفية، كان معتنقاً للفلسفة الوجوديّة Existentialism، وفي كتاباته كان أقرب للعبثيّة Absurdism أو ربما العدميّة Nihilisme. حصل على جائزة نوبل عام 1957 وهو في سن الثانية والأربعين، فكان من أصغر الحاصلين على هذا الجائزة. - [المُترجِمة].

(2) Albert Camus, *Resistance, Rebellion, and Death: Essays*, tr, Justin O'brien (New York: Vintage International, 1988), p. 249.

ولكن عندما يتم إنتاج المعرفة بمهارةٍ حتى تمتثِل للآيديولوجيا، فإن كل شيءٍ يتآمر لإنكار الحالة التي نكون عليها. من المُفترض أن تضمن لنا الطريقة التي نُدير بها معارفنا المعاصرة اعتقادنا بأن كل شيءٍ هو تحت السّيطرة. المعرفة - وهي وحدها ما يُعتدّ به لأنها مُموّلة، ومُعترفٌ بها من قبل الأقران والأعوان - تدعم المجال التطبيقي. هذه المعرفة الرسميّة تُضفي المعنى على هياكل السلطة وفقاً لتوقعات ذوي السلطة، أي مموّليها. إنها تحيل الهياكل إلى واقعاتٍ طبيعيّة، مزوّدة بالإسمنت الدّلاليّ semantic mortar لتنظيم وتدعيم مؤسّسات السلطة في عقولنا. كل شيءٍ مصممٍ لتجنّب أي انقطاعٍ في النّبرة، ما عدا في الأحلام اليوتوبية[3] للمثقفين الذين أضاعوا طريقهم. ومع ذلك، فإن أخذ الطريق

---

(3) يوتوبيا Utopia (وتسمى أيضاً «المدينة الفاضلة» أو «المدينة الطوباوية») هي مكانٌ خياليٌّ تسعى إلى خلقه، ذهنياً، العديد من الفلسفات. وهو يتكوّن من مجتمعٍ سعيدٍ فاضل، يخلو من الفقر والجهل والمرض، ويفيض بأسباب الراحة والسعادة لجميع من فيه. والكلمة من ابتداع الفيلسوف الإنجليزي توماس مور Thomas More (1478-1535)، حيث جاء بكلمة topos اليونانية التي تعني «مكان» وجعل قبلها سابقةً تفيد النفي، فصارت الكلمة تعني «اللامكان». وكان أفلاطون أول من طرح هذه الفكرة في كتابه «الجمهورية»، ثم توالت بعده الأدبيات اليوتوبيّة في كتابات الكثيرين ممن نادوا بخلق مجتمعٍ جديدٍ يستكشف الممكن والمحتمل، مثل سان أوغسطين (كتابه «مدينة الله»)، الفارابي (كتابه «المدينة الفاضلة»)، أبو العلاء المعري، إخوان الصفا، توماس مور (فكرة الملكية الجماعية)، فرانسيس بيكون (كتابه «أتلانتا الجديدة»)، جوناثان سويفت (جزيرة Houyhnhnms في رواية «رحلات جاليفر»)، ابن رشد، الراهب توماس كامبانيللا، أنصار كرومويل الراديكاليين (The Levellers)، القس موريللي، توماس هوبز (كتابه «ليفياثان» في المجال السياسي)، آدم سميث (كتابه «ثروة الأمم» في المجال الاقتصادي)، كارل ماركس (اختفاء الطبقية)، جيمس هيلتون (روايته *Lost Horizon*)، وغيرهم. يُذكر أن لفكرة اليوتوبيا نقيضاً ضِدّياً هو «ديستوبيا» Dystopias (وتسمى أيضاً cacotopia) أو المدينة الفاسدة أو الخبيثة. وهذه أيضاً مجتمعٌ خيالي، إلا أنه محكومٌ بالشّر والخراب، وما يتبعهما من فقرٍ وجهلٍ ومرضٍ وتلوّثٍ وجريمة. وقد كُرّسَت العديد من الأعمال الأدبية لهذا الموضوع، مثل روايات أورويل 1984 وحديقة الحيوان، وكذلك رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» *Brave New World*، وهي أشهر الروايات الديستوبية، وكثيراً ما وّظِّفَت لأغراضٍ سياسيّةٍ بروباغنديّة. - [المُترجِمة].

السياسيّ هو ضرورةٌ منطقية. جَمعيّاً، ما زلنا لا نستطيع منع أنفسنا من الانخراط في ردود الفعل المتوتّرة والانفعاليّة لمجتمعنا، حتى وإن كنا نؤمن بأن هذا النوع من التعبير صار الآن مُقتصراً، بشكلٍ دائمٍ، على المجال الهامشيّ للنّقد.

بذكاء، أشارت روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg - الكاتبة الماركسيّة التي نشطت في أوائل القرن العشرين - إلى أن الناس لا يصبحون ثوريّين لأنهم يحبون الأزمة أو الكارثة، بل يصبحون كذلك لأنهم يخشون هذه الأزمة أو الكارثة التي يقودنا إليها النظام الراسخ لزمننا. وذكّرت لوكسمبورج Luxemburg الجميع بأن الاقتصاد الرأسمالي كان متجهاً نحو الكارثة وكان يجلب الكارثة للناس الخاضعين لنظامه، لهذا السبب، فإن الإرادة السياسية، ضمن أشياءَ أخرى، كانت لازمةً للإطاحة به.[4] في زمن لوكسمبورج Luxemburg، فإن توقّعات كارل ماركس Carl Marx - الذي قام فريديريش إنجلز Friedrich Engels[5] بكل ما بوسعه لتقديمها باعتبارها «علميّة» (وضعيّة) -[6] كانت تتمتّع

(4) Rosa Luxemburg, *The Essential Rosa Luxemburg: Reform or Revolution and the Mass Strike*, tr. Integer and Patrick Lavin (Chicago:Haymarket Books, 2008).

(5) فريدريش إنجلز Friedrich Engels (1820-1895)، مفكّرٌ وعالِم اجتماعٍ ألماني، عمل على المشروع الماركسيّ إلى جانب كارل ماركس Carl Marx منذ البداية حين نشرا «البيان الشيوعي» *The Communist Manifesto* (1848)، فكان صديقاً طيباً وحليفاً قوياً له، وساعد في نشر كتبه بعد وفاته. ولإنجلز Engels كتبٌ هامة، مثل «أحوال الطبقة العاملة في إنجلترا» *The Condition of the Working Class in England*، «ديالكتيك الطبيعة» *Dialectics of Nature*، «أصل العائلة والملكية والدولة» *The Origin of the Family, Private Property and the State*، وغيرها. - [المُترجِمة].

(6) «الوضعيّة» Positivism في كلٍّ من العلم والفلسفة والأخلاق والسّياسة هي اتجاهٌ فكريٌّ يمتنع عن البحث في الأسباب الأولى والغايات النهائية، فلا يتقدّم إلا بواسطة النتائج القابلة للإثبات الموضوعي. بذلك، فإن المنهج الوضعيّ لا يستند إلى الأدلّة إلا إذا كانت مدعّمةً بقوّة البديهة أو العقل أو التجربة، فلا يقبل بالأفكار الميتافيزيقيّة (كالدين أو القانون طبيعي أو العقد الاجتماعي) أو كل ما هو غير قابلٍ للإثبات، مما يعني أنها منهجٌ معياري، يطرح كل ما هو قَبْليّ *a priori* ويستبدله بملاحظة الواقع من خلال التجربة الحسيّة والأبحاث التجريبيّة. - [المُترجِمة].

باعتقادٍ قويٍّ بصحّتها: توقعاتٌ بأن الرأسمالية كان مقدراً لها أن تنهار بسبب تناقضاتها الداخلية، وأن الحاجة إلى القوى الثوريّة كانت تتعلّق فقط بالمساعدة على تعجيل هذا السقوط المحتّم.

لقد تحلّل موقف لوكسمبورج Luxemburg المتصلّب إلى مقارباتٍ أخرى تتضمن التعايش مع قوّة رأس المال التي يبدو أنها لا تتزحزح. فالديمقراطية الاجتماعية social democracy، أو الليبرالية الاجتماعية social liberalism كانت تعني حماية هياكل الإنتاج ورأس المال المُمَوِّل، مع الصراع ضد استغلال العمّال والموظفين الذين لا يعمل النظام إلا بفضلهم. وفي بعض الحالات، كانت أيضاً تعني حفظ رأس المال ذاته مما يخالطه من ميل لخلق الأزمات، وذلك من خلال امتصاص النّتائج التي تُطلق من عقالها بفعل متدرّبي السحر sorcerers' apprentice في مجال الإدارة الخاصة.

ولمّا كان بعض النّقاد قد أدركوا قلة حيلتهم بشأن تغيير العالم الواسع، فقد عملوا باتّجاه عالمٍ أصغر: مايكروسومات؛ عوالم يوتوبيّة صغيرة، تُعكَس فيها مسارات السلطة. فالهدف هو أن يُرسي المرء ذاته في مركز عالمٍ صغيرٍ على مسافة من عالمٍ أبعد، لا يعود فيه أيّ شيءٍ متوقعاً. هذه العوالم الشعبيّة plebeian worlds، الغنيّة بالأفكار والمبادرات، والمثالية أحياناً في تجديدها للّحظات الديمقراطيّة، يمكنها أيضاً أن تتطوّر إلى أماكنَ مركّبةٍ تماماً، يعيد فيها الناس اختراع العَجَلة:[7] يُرسون «عقوداً اجتماعيّة» social contracts جديدة تتّسم بجميع عيوب الأولى، ويمارسون العنف المرتبط بالأفعال التأسيسيّة الأصليّة بطريقةٍ لا تختلف عن نظمٍ شموليةٍ معيّنة totalitarian regimes، وإن كان ذلك على مستوىً أصغر. بعد ذلك، يُستبدل النّقد بالتبشير proselytism وبالتفكير بالأبيض والأسود.

---

(7) بالفرنسية، كما وردت في النسخة الأصلية في الكتاب، *réinventer l'eau chaude*. – [المُترجِمة].

إن الليبرتاريّين[8] والليبراليّين[9] المضّطربين قد أعادوا الآن إرساء المظهر الخارجي للطّيف السياسيّ لليسار واليمين، بطريقةٍ منظمةٍ - حصراً - حول فكرة «الحريّة» المريحة. في واقع مقارباتِهم وممارساتِهم، غالباً ما تبدو الحقوق والمبادئ مثل عروضٍ في السوبر ماركت لعناصرَ يتم الانتقاء منها والتلويح بها، اعتماداً على الظّروف والاهتمامات. صار الشعار الآن هو «حقوقي» my rights أو «ما أريده» what I want: من ذا الذي يهتم بأيّ شيءٍ آخر؟ لقد تفكّك العالم واختفى، فصار التفكير بتطوير القيود - عِوضاً عن الحريات - صعباً؛ فالعمل الجماعيّ من منطلقاتٍ متساويةٍ لتصميم القيود التي نريد فرضها على أنفسنا كأساسٍ لحياتنا في المجتمع - قيودٌ تضمن الإمكانيّات التي توفرها حريّاتنا للعالم أجمع - هو أمرٌ لم يعد من الممكن حتى التفكير فيه.

إننا نصارع، في الحقيقة، لترسيخ علاقاتنا الاجتماعية، بالقدر نفسه الذي نجد فيه من المستحيل أن نفكّر في أنفسنا كثوريّين بطريقةٍ غير رومانسيّة. ومع ذلك، فالثورة - التي تعني إسقاط المؤسّسات والسلطات التي تدمّر الصالح العام بشكلٍ خطير وجعلها من الماضي - هي مهمةٌ عاجلةٌ جداً، حتى ولو كانت مجرّد مسألة تتعلّق بأشياء مثل حماية أي نظام بيئيٍّ ما زال يمكنه الإفلات من الدّمار الأعمى الذي توقِعه الصّناعات الكبرى والأموال الطائلة، أو حمل

---

(8) «الليبرتارية» Libertarianism هي مجموعةٌ من الفلسفات والحركات الفكريّة التي تدعو إلى تحرير الفرد وممتلكاته من القيود المفروضة عليه، من خلال تقليصها ما أمكن، سواء كانت مفروضةً من المجتمع (من خلال تشجيع الحرية الفردية)، أو من الدولة (عن طريق غلّ يد الحكومة عن التدخل في الاقتصاد أو التوسّع في التشريع، وقصرِ دورها على المهام الأساسيّة المتمثلة في حماية الأمن والمُلْكيّة الخاصة وتنظيم الأسواق من دون تدخلٍ فيها). - [المُترجِمة].

(9) «الليبرالية» Liberalism هي الفكر السياسيّ الذي يجد جذوره في فكر التنوير Enlightenment الذي ظهر في أواخر القرن السابع عشر والممتد إلى الممارسات الديمقراطيّة كما نعرفها اليوم، والقائم على مبادئ الحريّة والمساواة ودولة القانون، مع ما يستتبعه ذلك من حريّات الانتخاب والتعبير والصحافة والعقيدة والتجمّع والمُلْكيّة والمنافسة التجارية وغيرها. - [المُترجِمة].

متّخذي القرار الاقتصادي على إجراء تغييرات راديكاليّة على الطريقة التي يفكرون بها في البلايين من الناس الذين تم إفقارهم والذين يعانون إقصاءً مجنوناً يستشعِرونه في دمائهم.

في حال ما إذا تمّ إعلانها بوضوحٍ زائد (أو ما إذا تم التّغني بها)، فإن الثورة قد تصبح مجرد نسخةٍ أخرى من «اللعبة» the game، التي كان مُلّاك العقار وغيرهُم من الوجهاء يعرفون دائماً كيف يلعبونها لمصلحتهم. لقد تم التّعبير عن هذا الأمر، بقوّة، في رواية جيسيبي توماسي دي لامبيدوسا Giuseppe Tomasi di Lampedusa المُعَنْوَنَة «الفهد» The Leopard، كما تمثلت في نسختها السينمائيّة التي أخرجها لوتشينو فيسكونتي Luchino Visconti: ملحمةٌ ثوريةٌ تصبح قصّة تغييرٍ هيكليٍّ مصحوبٍ من قِبَل نخبةٍ تحرص على التأكّد من أن شيئاً لا يتغيّر. إن التفكير في الثورة بطريقةٍ غير رومانسيةٍ يفترض أنه ليس لدينا أفكارٌ مُسبّقةٌ حول الكيفيّة التي ينبغي أن تكون عليها. فالتعرّف على الثورة باعتبارها شيئاً ينتمي إلى مجال الضّرورة هو أمرٌ أكثر أهميّة من التعرّف على تكتيكاتٍ حصريّةٍ أو حركاتٍ تاريخيّةٍ حتميّة. إنهاء ما يضرّ بالصالح العام: لقد وصلنا الآن إلى النّقطة التي صار يجب أن يتوقف فيها الدمار المُستَفيض للنظم البيئيّة، كما يجب أن يتوقف كلٌّ من الاستخراج الاستغلالي للموارد الطبيعيّة بطريقةٍ تطحن الناس وتسحقهم والديناميكياّت الماليّة التي تستمر في تعميق الهوّة الساحقة ين الأغنياء والفقراء. ربما كانت الظروف بحدّ ذاتها هي ما سيعهد بالمؤسّسات المُضِرّة بالصالح العام إلى الماضي، ولكن هذا أيضاً قد يصبح أمراً تراجيدياً إن لم يتم عمل شيءٍ لتغيير الطريق الذي يقودنا إلى الكارثة حالياً.

إن الدعوات إلى التصرّف تُطلق في حالة ارتباكٍ ظاهر. ما الذي ينبغي علينا فعله؟ لنفعل أيّ شيء. كلما كان هناك موقفٌ يحرّرنا من حالات التفاهة المُضنية؛ كلما وُجِدَت فكرةٌ تساعدنا في تطوير حياةٍ مُمَأسَسَةٍ بشكلٍ كريم؛ ستكون هذه طُرُقاً لنا للمضيّ إلى الأمام، من دون أيّة ضمانات. وفقاً لباتريس

لارو Patrice Laraux، فإن «السّياسات ذات الاتّجاهات اليساريّة هي سياساتٌ لا تعرف إلى أين هي مُتّجهة».[10] علينا أن نترك الطريق الذي يقودنا إلى الفوضى المُتوَقّعة فنؤسّس طريقاً يمكن أن يرغب قاطنو الضواحي بأخذه عندما يبدأ القلق في أن يعتورَهم، قد يحدث ذلك في اليوم الذي سيكلّف فيه ملء خزّان الوقود أكثر من أجرة يوم عمل. وعندما يتحوّل الكورَس الآيديولوجيّ إلى أصواتٍ نشزةٍ، فسيكون هذا هو الوقت المناسب لنا، إلى حدٍّ كبير، للقيام معاً بالفعل المطلوب؛ هو الوقت الذي نقوم فيه بالانفصال الجمعي co-rupture عِوَضاً عن الخضوع للفساد corruption. هذا هو رهان باسكال *Le pari de Pascal* (Pascal's wager)،[11] مُكيفاً على نحوٍ يتلاءم والسياسة. يمكننا أن نتصرّف كما لو أن أفعالنا ستطيح بالضّرورة بنظامٍ يتسبب في خرابٍ كبيرٍ في ذات الوقت الذي يؤكد فيه على حقه في أن يُطعمنا بالملاعق؛ يمكننا أن نتطلّع إلى اليوم الذي ستتداعى فيه ثقة الأغلبيّة بخطاب هذا النظام؛ يمكننا أن نعوّل على الوضوح المبهرج لتدليسه؛ يمكننا المضيّ إلى الأمام، واثقون من أن النقد الذاتيّ والحرص العميق سيكونان جزءاً من أسلوبنا في التفكير؛ وإذا ما آمنا بأن النجاح التاريخي مقدّرٌ لتصرّفاتنا، فإن هذه التصرّفات سوف تتحقّق في الواقع، متى ما قامت الفرصة، فتنقلنا إلى فضاءٍ أوسع.

---

(10) Patrice Laraux, *Le tempo de la pensée* (Paris: Seuil, 1993).

(11) كان بليز باسكال Blaise Pascal (1623-1662) فيلسوفاً ورياضياً فرنسيا مُبَرّزا. عُرف بمنطقه نحو الدّعوة إلى الإيمان بالله من خلال منطق الرهان (Pascal's wager)، حيث كان يقول بأن الاعتقاد الديني هو رهانٌ حكيم، فرغم أن الدين لا يمكن إقامة الدليل على دعاواه، فما هو الضّرر الذي سيلحق بالمرء لو راهن على أن دعوى الدين حقيقية، ثم ثبت العكس؟ ذلك أنه إذا ربح، فسيربح كل شيء؛ وإذا خسر، فلن يخسر أي شيء. وفي ذلك يقول باسكال: «فلنوازن بين الربح والخسران، مراهنين على أن الله موجود. ولنعتبر هذين الواقعين: إذا ربِحت، فقد ربِحت كل شيء. وإذا خسِرت فإنك لا تخسر شيئاً. فراهن إذن على أنه موجود، ولا تتردّد». انظر: بليز باسكال، *خواطر: سِمات في الفكر والأسلوب والخلقيات والمعتقد*، ترجمة إدوار البستاني (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2015)، ص. 103. - [المُترجِمة].

قطيعةٌ جَمعيّة

في هذه المرحلة، يمضي موضوع الفساد إلى ما هو أبعد من استغلال النّفوذ influence peddling؛ الأظرف المليئة بالنقود؛ والمعاملة الفُضلى التي يرتبط بها عادة. هذه مجرّد عوارِض symptoms، فالفساد أكثر خطورةً من ذلك بكثير: إنه عملية تدهورٍ راديكاليّةٍ ذات تأثيرٍ سلبيٍّ عميقٌ على ما هو أساسي.

يساعدنا عملٌ قديم، هو كتاب أرسطو Aristotle[12] المُعنوَن «حول الكون والفساد» *Generation and Corruption* على تحديد الأفكار من جانبين. في عمله هذا، يوضّح أرسطو أن الفساد ليس أمراً يحدث - ببساطة - بمجرّد أن يتحوّل شيءٌ أو يبلى، بمعنى أن تتغيّر بعض خواصه. فمثلاً، عندما ينتقل القضيب المعدنيّ من حالة السخونة إلى حالة البرودة فإنه يتغيّر بلا شك، ولكنه لا يفسد بَعد. بذلك، فإن الفساد لا يقع إلا عندما يتغيّر الشيء بشكلٍ عميقٍ حتى لا يعود من الممكن التعرّف على طبيعته. «إنه يحدث، ليس بفضل التجميع aggregation أو العزل segregation (لعناصره المكوّنة له)، وإنما عندما يتغيّر شيء من هذا إلى ذاك بكليته».[13] وهكذا، يصبح الشيء فاسداً عندما يتغيّر في عناصره الدائمة؛ فعندما تصبح البذرة قمحاً، فإنها قد تكون قد فسدت حتى تُنتج شيئاً آخر. إن العملية تتسبّب في أن شيئاً يقوم مختلفاً عن أكثر عناصره أوليّة.

إن فرضيات أرسطو تقترح بعد ذلك بأن نعرّف الفساد كعمليةٍ لا بدّ لها من نهاية. إن الفساد يلاعب نفسه بنفسه. إنه يصل إلى حدّ الاكتمال. بهذا المعنى،

---

(12) أرسطو Aristotle (384-322 قبل الميلاد) هو فيلسوفٌ يوناني، كان تلميذاً لأفلاطون ومعلّماً للإسكندر الأكبر. وهو أحد عظماء المفكّرين عبر التاريخ إن لم يكن أعظمهم تأثيراً على الإطلاق. تغطّي كتاباته عدّة مجالاتٍ، كالفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللّغويات والسياسة والحكومة والأخلاق وعلم الجمال وعلم الأحياء وعلم الحيوان. أحد أهم مؤسّسي الفكر الفلسفي الغربي. - المترجمة.

(13) Aristotle, *De generatione et corruptione*, 317a20, tr. C.J.F. Williams (Oxford; Clarendon Press, 1982), p. 8.

فإن الفساد ليس دماراً هامشياً، شراً محدوداً، علامةً سطحيّة. إذ علينا أن نفهمه كهجوم، فلا يمكننا الاستمرار في تعريفه كمحض تهديدٍ أو مجرّد عنصرٍ مؤدٍّ إلى التآكل: علينا أن نفكّر في النتائج المترتّبة عليه، فالتفكير في عملية الفساد يتطلّب تأملاً إيجابياً في نتائجه. ولأن للفساد نتائجَ مترتبةً عليه، فإن التعامل معه يفترض بالضرورة التعرّف على ما يلي: الشيء الجديد الذي يظهر في نهاية العملية. لقد انتقلنا من حالةٍ إلى أخرى، فما هي هاتان الحالتان؟

لا يمكن للفساد أن يكون أبدياً. ليس هناك ما يمكن وصفه كعمليةٍ أبديةٍ من «قبول الفساد» Corru-ptance.[14] فالفساد - من خلال فعل التحوّل الراديكاليّ ذاته الذي يميّزه - يصل إلى نهايته الخاصة. وفيما يتعلق بالآداب السياسيّة والحياة العامة، على سبيل المثال، فلا يمكننا الحديث عن فساد المؤسّسات العامة والمبادئ على مدى عقودٍ من دون التساؤل عما حدث لها كنتيجةٍ للتغييرات العميقة التي نُسبغ عليها هذا الاسم.

بشكل تاريخيٍّ وجمعي، لقد وصلنا الآن إلى النقطة التي يمكننا القول فيها بأنه كان هناك فساد. وما دامت هذه هي الحالة، فإلامَ وصلنا؟ أين نجد أنفسنا الآن، وما الذي نواجهه؟

إن هذا عملٌ للفلسفة: عدم الرضاء بالمعرفة المتخصّصة بالكلاسيكيات - التي تُنمذِج النّظم المجرّدة، والتي بصددها يستطيع العارفون القيام بالتقدير السلبي للطّبيعة المتقلّبة لنظام الأشياء - وإنما الخروج بمفاهيمَ يمكننا من خلالها استيعاب النظام الجديد الذي يتمخّض عنه الفساد، فيما هو يُنهي نفسه. كيف يمكننا تسمية هذا الشيء، البُنية، أو المنظّمة - الجُدُدُ بشكلٍ راديكاليٍّ - التي سوف تنتج عن الفساد، وكيف يمكننا التفكير فيها أو تنظيمها؟ ما عدنا نقول إن

(14) هنا تعاطٍ ذكيٌّ آخرُ مع اللّغة، وهو نَحْتٌ من كلمتَي corruption التي تعني «الفساد» وacceptance التي تعني «القبول»، لإنتاج كلمة corru-ptance بمعنى «قبول الفساد». - [المُترجِمة].

الفساد يهدّد الديمقراطية بشكل دائم، وإنما ينبغي الآن أن نقول إن مبدأ الديمقراطيّة - وقد أصبح الآن فاسداً - صار يفسح المجال لنظامٍ جديدٍ يوصَف بكلمة «الحَوْكَمَة» governance: إن الجامعة الفاسدة ينتهي بها الأمر كمؤسّسةٍ تعمل في مجال بيع الخِبرة؛ والاقتصاد الفاسد يؤدي إلى ظهور الأوليجارشيّة الماليّة؛ والمؤسّسات القضائيّة الفاسدة تقود إلى قيام جهاتٍ خاصةٍ تُعنى بالتّسويات المكلِّفة للمنازعات. بذا، فلا يمكننا، بالتأكيد، أن نسعد بمحض الشعارات والتسميات، وإنما علينا أن نعرّف أشكال هذه المؤسّسات الجديدة، فهم كيفيّة عملها، ونرى كيف يمكننا عرقلة عملها، مرة أخرى.

لذلك، دعونا ننظر إلى المبدأ الديمقراطي باعتباره فاسداً. أحد الأمثلة على ذلك هو الطريقة التي تحقّق فيها التحوّل الإداري للعالم managerial transformation، في أذهان الناس، تحت تسمية «الحَوْكَمَة». تُمَثِّل المؤسّسات العامة - بشكلٍ كاريكاتوريّ - بوكرٍ يعيش فيه أناسٌ لا يمكن الوثوق بهم: زمرةٌ من اللاعبين ذوي الامتيازات (موظفون عامّون وعاملون من ذوي العقود الثابتة). ويؤكد صنّاع الرأي أن هذه الزمرة ينبغي احتواؤها - لمنع التهديد الذي تمثله - وذلك من قِبَل القطاع الخاص والاتحادات المَمثّلة لمصالح «المجتمع المدني» civil society. فقد صارت المُواطَنَة تفهم الآن على أنها تجمّع لأشخاصٍ من المناصرين للمصالح الخاصّة على طريقة الجماعات الصّغيرة الناشِطة سياسيّاً lobbyists. إن نوايا النّظام بسيطة: هؤلاء اللاعبون غير المتساوين عليهم الآن تشكيل شراكاتٍ partnerships يحاول فيها اللاعب الأصغر إلصاق مصالحه بتلك الخاصّة بنظيره الأكبر. فعلى سبيل المثال، عندما تحاول شركةٌ متعدّدة الجنسيات الحفر في موقعٍ ما، فعلى الأهالي إيجاد طريقةٍ لجعل الأمر مفيداً لهم محلياً. إن الشّراكة هي حتميةٌ أخلاقيّة: ينبغي أن يكون كلا الطرفين منفتحين على قدرٍ مساوٍ، حتى وإن كانت ديناميكيّات القوّة غير متساويةٍ إطلاقاً. في هذه الأثناء، فإن أقوى الأفكار في تاريخ الديمقراطية، مثل الناس، المصالح المُشتَرَكة، أو الصّالح العام، تختفي بهدوء.

لننظر أيضاً إلى فكرة الدولة القائمة على حكم القانون rule of law كفكرةٍ أصابها تغييرٌ عميقٌ بسبب الجِنان الضّريبيّة tax havens وغيرها من نُظمٍ قانونيّةٍ مهادنة. إن الدول التي تتنافس فيما بينها الآن لجذب المستثمرين ذوي السيادة قد دخلت في دوامةٍ من الإغراق المالي، التشريعي والقضائي، فلم تعد الجِنان القانونيّة والضّريبيّة توجد في الدول التي عُرفت بها تقليدياً مثل البهاماس Bahamas أو لوكسمبورج Luxembourg أو سنغافورة Singapore، بل صارت تشمل أيضاً كندا وولاية ديلاوير Delaware في الولايات المتحدة الأمريكية USA والنمسا Austria وآيرلندا Ireland وساحل العاج Côte d'Ivoire . صارت الدول تعهد - «عبر الأفق» - بأجزاءٍ كاملةٍ من تشريعاتها، حتى تنظّم المناحي الإدارية من مناطِقها الحرّة *laisser faire zones*، وذلك بما يعود بالمصلحة على الجماعات الكبرى الصّناعية والمالية، وعلى الجريمة المنظّمة التي طالما عملت بصورةٍ عابرةٍ للحدود الوطنيّة، أي بشكلٍ يخرج عن الأُطُر التي رسمتها الدولة.

وأخيراً، لنتّفق على أن النظام الذي نجد أنفسنا فيه الآن ما عاد يُهدّد الديمقراطية؛ لقد نفّذ هذه التهديدات فعلاً. لنسمّي هذا النظام بلوتوكراسي plutocracy، أوليجارشية oligarchy، طغيانٌ برلماني parliamentary tyranny، شمولّية ماليّة financial totalitarianism، أو أيّ شيءٍ آخر، ولنتجادل حول الطريقة المُثلى لتعريف أساس هذه السلطة الخاصّة بشكل فائق ultra-private power. ومع ذلك، فتظل واحدةٌ من خصائِصها - التي تُعرّفها كأوليجارشية لا شك - هي قدرتها على التقاط وترميز أي نشاطٍ خاصٍ بحيث يصبح جزءاً من عملية الرسملة capitalization المُثرية لمن يتربّعون على عرشهم في قمّة التراتبيّة. أياً ما كان النشاط الاجتماعي ومهما بلغت بساطته - الغناء، جمع الطوابع، ضرب الكرة بالمضرب، قراءة بلزاك Balzac أو تركيب المحركات - فإن الأوليجارشيّة تحرص على أن تدرجه ضمن نظامٍ يتعامل مع الكتابات والرّموز بما يفيد تركيز السلطة بالأعلى. إن كل نشاطٍ بشريٍّ إنما يُنظّم بطريقةٍ

تؤدي إلى ازدياد رأسمال من يشرفون على العمليات المُجَمّعة aggregated operations؛ إن هذا لأمرٌ يفقِرنا بكلّ طريقة.

وبعد، فمتى ما وجدنا الاسم المناسب لهذه النُّظم، يصير علينا عندها أن نقاومها، إن كنا ديمقراطيين، بالنّظر إلى أننا كنا - تاريخياً - دائماً ما نسعى إلى إسقاطها. إن هذا يعني القطيعة مع النظام الجديد، تعزيز القطيعة بديناميكياتٍ ضارة بها ومخرّبة لها، ثم إعتاق أنفسنا بشكل جَمْعي. إنها قطيعةٌ علينا أن نقوم بها معاً: قطيعةٌ جَمْعيّة co-rupture.

إنه دورنا كي نقوم بتغيير النظام الراسِخ تغييراً جذرياً. منذ الآن، نحن القوّة المخرّبة، علينا أن نقوم بقطيعةٍ جَمْعيّةٍ مع هذه الأشكال الرّهيبة حتى نستطيع توليد أشكالٍ جديدة أخرى.

لنعد إلى فيلسوفنا الكلاسيكي، أرسطو. بالنسبة له، لم يكن هناك فسادٌ من دون توليد generation. «عندما يتعلّق الأمر بالعناصر، فإن توليد شيءٍ ما ينطوي دائماً على فسادٍ لعنصرٍ آخر، وفساد شيءٍ ما هو توليدٌ لشيءٍ آخر».[15] بذلك، فإن موقفاً جديداً قد تولّد على أساسٍ من موقفٍ صار عتيقاً، كما أن التوليد والفساد يُنتَجان بواسطة نفس السلطة. فما الذي يميّز بين الفعلين؟

لا يقدم أرسطو أحكام قيمةٍ واضحة value judgments،[16] ولكنه يميل إلى تقييد التوليد في الجانب الموجِب من السجل ledger،[17] فما تم توليده هو ما يميل نحو الأفضل، أما الفساد، كنتيجة، فهو ما يميل نحو الأسوأ. هنا،

---

(15) Asritotle, *De generatione et corruptione*, 319a15, p. 13.

(16) «حكم القيمة» value judgment هو الحكم الذي يصدره الفرد حول مدى القيمة الأخلاقيّة أو النفعيّة أو الجمالية لشخصٍ أو لشيءٍ أو لفكرةٍ ما، من منظور المقارنة أو النسبيّة، وذلك بناءً على معايير الشّخص مُطْلِق الحكم وأولوياته. - [المُترجِمة].

(17) يُشَبّه المؤلف الأحكام القيميّة لأرسطو هنا بسجلّ التّجار ledger، الذي يتضمن خانتَي الموجب (الدائن) والسالب (المدين). - [المُترجِمة].

يضرب أرسطو مثالاً بالمعرفة knowledge، التي تنتمي إلى التوليد، بينما ينتمي الجهل إلى الفساد.[18]

من دون تمديدٍ أو مطٍّ لمعنى النّص، يمكننا القول إن التوليد يتعلّق بالنتيجة الإيجابيّة لعملية التحوّل الراديكالي. ولنأخذ هذه الكلمات إلى الأمام أكثر، فنقول إن البرنامج السياسيّ الذي يجسّد التوتّر بين الفساد والتوليد يمكن أن يقودنا إلى تصميم مشروعٍ سياسيٍّ يقصد إلى تحقيق تحوّلٍ كبيرٍ في المجتمع، فيخلق فيه أشكالاً نظنها مرغوبة.

هنا والآن، نحن نطوّر قدرةً أكبر على تسمية واقعٍ معقّد: عمليّةٌ من الفساد، تحدو بنا إلى أن نعلن الحِداد على أفضل الافكار التي خرجنا بها بشكلٍ جَمْعِي: عملية تمخضت عن مربعاتٍ حمراءَ *carrés rouge* انعتاقيّة،[19] حركات احتلالٍ للشوارع Occupy movements،[20] انتفاضاتٍ ربيعية spring uprisings،[21] وغيرها من تجديداتٍ تستمر، رغم الأخطاء، في محاولاتها لتقويض وتخريب أسس المؤسّسات التافهة.

---

(18) Asritotle, *De generatione et corruptione*, 319a15, p. 13.

(19) في كيبيك، كندا، تعتبر «المُربّعات الحمراء» *carrés rouge* شعاراً لحركةٍ شعبيةٍ مناهضةٍ لرفع الرّسوم على الخدمات العامة. - [المُترجِمة].

(20) حركة «احتلوا» Occupy movement هي حركةٌ تقدميّةٌ ذات أهدافٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ معاً، تقصد للمناداة بتطبيقٍ أفضل للدّيمقراطية الحقيقيّة والمطالبة بالمزيد من العدالة الاجتماعية، احتجاجاً على التفاوت الكبير في مصادر الدخل. وقد بدأت فعاليات هذه الحركة باحتلال شارع المال «وول ستريت» Wall Street، نيويورك New York، في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2011، ومنه انتشرت إلى عدّة دولٍ حول العالم. - [المُترجِمة].

(21) يبدو أن الإشارة هنا تقصد ثورات الرّبيع العربي الأخيرة. - [المُترجِمة].

خاتِمـة

سياسـات الوَسَط المتطـرّف

(1)

في مـرحـلـةٍ مـا، بـدأ الـشـيـوعـيّـون الأوربـيّـون European communists، الاشتراكيّون socialists، والديمقراطيّون الاجتماعيّون social democrats، بدأوا في وصف أنفسهم بـ «جناح اليسار، ولكن . . .» (left wing, but ...). نحن يساريّون، ولكننا لسنا ستالينيين not Stalinists، لا نريد أن نجعل المؤسسات العامة بيروقراطيّة، لا نريد تأميماً مبالغاً فيه، لا نريد أن تكون الضّرائب على الشركات عاليّةً جداً فالأعمال التجاريّة بحاجةٍ إلى «تحفيز» stimulation، لا نريد أسابيع عملٍ أقصر بشكلّ إلزامي. لا نريد استقبال أُناسٍ يمكن بسهولة تحديد كونهم «طبقاًت خطرة» dangerous classes وغيرهم من «العناصر الأجنبيّة» foreign elements. في ذاك الوقت، كان ولاء المرء يتحدّد بالمسافة بين «قِيَم الجناح اليساريّ» المُقدّس left wing values والبرامج السياسيّة التي كان من المُفترض أن تجسّدها. ومع ذلك، فليس لكل شخصٍ ما يتطلّبه الأمر ليكون أندريه جيد Andre Gide الذي تسبّب انتقاده للاتّحاد السوفيتي USSR عام 1936 في صدمة متملّقي ستالين Stalin وساعد في إعادة تعريف المواقع في اليسار الفرنسي، والذي، مع ذلك، وضع نصب عينيه دائماً المبادئ التّقدمية الأساسيّة.

بوجود الكثيرين ممن يدّعون أنهم ينتمون إلى «جناح اليسار، ولكن . .»

left wing, but ...، فقد انتهى الأمر بقيم الجناح اليساريّ بأن فُرِّغت من محتواها من خلال الإجراءات المُتتالية التي ناقضتها. فالبرامج السياسية التي تُعَرّف بأنها يساريّة - رغم كونها تتطابق من كل جانب مع الأطروحات النيوليبرالية neoliberal أو الليبرالية الفائقة ultraliberal التي تدّعي معارضتها - انتهت إلى إفساد حتى تعريف قِيَم الجناح اليساري. من في المملكة المتحدة يستطيع أن ينسى الإعجاب اللّاهث لتوني بلير Tony Blair[1] بـ «صُنّاع الثّروة» wealth creators، أو ما ذكرته مارغريت تاتشر Margaret Thatcher[2] من أن أعظم إنجازاتها كان «توني بلير وحزب العمل الجديد» Tony Blair and New Labour؟ من كان ليتخيّل أنه، عندما تولّى اليسار في الحزب الألماني الاشتراكيّ الديمقراطيّ German Social Democratic left السلطة تحت قيادة جيرهارد شرودر Gerhard Schroder،[3] فإن النتيجة الوحيدة ستكون برامج تقشُّفيّةً austerity programs موجَّهةً ضدّ الفقراء؟ من، في فرنسا، يمكن أن ينسى سماع لوران فابيو Laurent Fabius،[4] وهو رجلٌ ينتمي إلى الحزب «الاشتراكي» socialist party - إن كان هناك قطّ شيءٌ مثل هذا - وهو يستدعي قِيَم اليسار «الأبديّة» left's eternal values فيما هو يتلو الأسماء المقدّسة للحريّة Liberty، المساواة equality، والأخوّة fraternity،[5] والعلمانية / secularism *laïcité* ، مع إغفاله التام للمنطلق الأساسي للاشتراكيّة Socialism، وهو: تضافر

---

(1) توني بلير Tony Blair (1953-) هو رئيس وزراء المملكة المتحدة للفترة من 1997 وحتى 2007. - [المُترجِمة].

(2) مارغريت تاتشر Margaret Thatcher هي رئيسة وزراء المملكة المتحدة للفترة من 1979 وحتى 1990. - [المُترجِمة].

(3) جيرهارد شرودر Gerhard Schroder هو مستشار (رئيس) ألمانيا في الفترة من 1998 إلى 2005. - [المُترجِمة].

(4) لوران فابيو (1946-) هو وزير الخارجية الحالي لفرنسا، وكان قبل ذلك رئيساً للبرلمان لفترتين. - [المُترجِمة].

(5) «حرية Liberty، مساواة equality، وأخوّة fraternity» هي شعارات الجمهوريّة الفرنسيّة، وهي تجد أصلها في الثورة الفرنسيّة التي قامت عام 1789. - [المُترجِمة].

الجهود، من خلال الإرادة الجماعيّة، لوضع القيود على نوايا ذوي السلطة؟ من يستطيع أن ينسى سماع ميشيل روكار Michel Rocard،[6] حامل الراية لجناح يسارٍ آخرَ مشابه second left wing، وهو ينادي بـ «نهاية الآيديولوجيا» end of ideology، من أجل الصّالح الأعلى للتّحالف مع القطاع الخاص القوي؟ من هذا المنظور، فإن الشيء الوحيد الذي كان يمكن عمله هو تزويد الطّبقات الدنيا بأدواتٍ للتعامل مع ديناميكيّات المنافسة - سواءٌ كان ذلك بين العاملين بأجر، الأعمال التجاريّة، أو الدول - تحت ذريعة «معرفة الاقتصاد» knowing the economy ومحاولة التوصل إلى «تسوية» compromise بين الطبقات، بدلاً من العمل على تجاوز هذه المرحلة في التاريخ.

لقد تماهى الاشتراكيّون بشكلٍ قريبٍ مع كلمة «و لكن» but أكثر منهم مع كلمة «اشتراكي» socialist. من الثّبات إلى التراجع، من التراجع إلى الانسحاب، ومن الانسحاب إلى الاستسلام، فإن «اليسار» الفرنسي سمح لنفسه بأن يتم تمثيله، بشكلٍ رجعي، من قبل الآتي: مديرٌ مُستَقبليٌّ في صندوق النّقد الدولي International Monetary Fund - IMF، طبيبٌ متخصّصٌ في زراعة الشّعر المجزية مادياً capillary implants، وناشطٌ سياسيٌّ سابقٌ أصبح لاحقاً الوزير المسؤول عن الميزانية فيما هو يستخدم البنوك السويسريّة للاحتيال على حكومته، ومُحدَثُ نعمةٍ خرج من بنك روتشيلد Rothschild Bank مباشرةً.

(2)

في أمريكا الشمالية النّاطقة بالإنجليزية، فإن الأمر على العكس من ذلك. فلكلمة ليبرالي liberal نفس الجذر باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وإنما على

(6) ميشيل روكار Michel Rocard (1930-2016) كان رئيساً لوزراء فرنسا للفترة من عام 1988 إلى عام 1991. - [المُترجِمة].

أساسٍ من تقليدين سياسيّين مختلفين، ولذلك فهي تضع الناس في مواقعَ مختلفة: على اليسار (بالإنجليزية) أو على اليمين (بالفرنسية). من هنا، فإن النّاس في الولايات المتحدة يصِفون أنفسهم بأنهم «ليبراليّون، ولكن على اليسار». إن مِحور اليسار/اليمين قد تحوّل كثيراً وفقاً لقاعدة القوى، حتى صار إظهار درجةٍ بسيطةٍ من «الليبراليّة»، بالمعنى شمال الأمريكي، يمكن أن يجعلك تبدو ثورياً. على الأكثر، سوف تناصر الحقوق الرّسمية فيما تدع هياكل النّظام من دون مساس. إن من يسمّون أنفسهم «ليبراليون، ولكن على اليسار» Liberals, but on the left لا يُعطون الأولويّة أبداً لما يمكن أن تكون عليه المساعي الجَمعيّة. أما اللّحن السياسيّ الذي يترنّمون به فهو يبدو دائراً حول السّياسة الماليّة، عبادة المال، أسطورة النّجاح الفردي، الخضوع للمؤسّسات الخاصة، الجنون الاستهلاكي، والمواطنة المتعجرفة؛ وبين آن وآخر، يُضاف شَطرٌ شِعريّ أو شطران حول حقوقٍ محدّدةٍ جديدة. الشيء الوحيد الذي يهمّ هنا هو التّفاعلات بين الأفراد الذين يمتثِلون لأصنافٍ معيّنة، هذه التفاعلات تُعرَف وتُنظّم بواسطة نظامٍ رمزيٍّ يُسجّل كلمة «امتياز» privilege فوق رأس كل شخص، لذلك فوحدها سيكولوجيا التّحكّم imperious psychology في هذه الرّموز يمكن أن تكون موضوعاً للنّقد.

هذا، وتكون المؤسّسات السياسيّة والاجتماعيّة محلّ اهتمامٍ من حيث إنها تُدخِل الناس إليها وفقاً لمعاييرَ متداخلةٍ تتعلّق بالسّن، اللّون، الجنسيّة، النّوع الاجتماعيّ gender، والتوجّه الجنسي sexuality. إن الانتماء إلى واحدةٍ من هذه الفئات الاجتماعية يمكن - في نهاية المطاف - أن يحلّ محلّ المبادئ السابقة الخاصّة بالمشروعيّة. فجأة، تكتشف الأقليّات أن صراعها الشَّرِس ومقاومتها التاريخيّة المنظّمة سوف يكونان - بالدرجة الأولى - قد زوَّدا من يتخذون من الليبرالية حرفةً بالبضاعة التي يحتاجون إليها بشدّة لعرضها في واجِهاتهم الانتخابيّة، وأن الليبراليين سوف يطلبون أصواتهم ولكن بطريقةٍ كاريكاتوريّة. إن الليبراليين لا يهاجمون الإعلان advertising بصفته مؤسّسة،

فهم يريدون من الأشخاص المهمّشين عادةً الظهور في الإعلانات - بكرامةٍ - وهم يبيعون سوائل التنظيف. إنهم لا يهتمون بكون الجامعة تعمل وكأنها مصنعٌ للسجّق، ما دام أعضاء هيئة التدريس والطلبة قد ضُمِنَ لهم الاعتراف بهوياتهم المحدّدة.

ويمارس «ليبراليو اليسار» left liberals الفعل السياسي من خلال كونهم نموذجاً: إنهم يقودون سيارة ولكنها صغيرة، يشربون حليب البقر ولكن البقرة كانت سعيدة، يستهلكون ولكنهم يختارون مُنتجات «التّجارة العادلة» Fair Trade،[7] يطبّقون نظريات الإدارة ولكنهم يقصِرون ذلك على اللّطيف منها، يبيعون بنشاطٍ ولكنهم لا يبيعون إلا النّبيل فقط من المنتجات، يستقبِلون الطائرات ولكن لديهم اعتماداتٍ للكربون carbon credits،[8] يصوّتون لأحزابٍ

---

(7) يتعلق مفهوم «التجارة العادلة» Fair Trade بتحقيق نوعٍ من العدالة المجتمعيّة في التبادل التجاريّ الدوليّ، الذي يميل - بشدة - لمصلحة الدول الغنية. وقد روّجت منظمات غربية (مثل منظمة Oxfam) لهذا المفهوم من خلال شراء سلع الفقراء وبيعها في دول الشمال الغنيّة لتحقيق سعرٍ عادلٍ لهم. وتقوم آليات التجارة العادلة على تحديد جهاتٍ تمثل مجموع المنتجين في عمليّة التفاوض مع كبار المشترين لتحقيق أكبر عائد تجاري ممكن (وهو ما تفعله Oxfam)، أو قد تقوم هذه المنظمات بشراء جزءٍ كبيرٍ من منتجات البلدان الناميّة ثم تتولى تسويقها بنفسها، وهو ما يتيح لها فرصاً جيدةً للتفاوض مع كبار المشترين، ومن ثم تحقيق عائدٍ يرضي المنتجين. وفي السنوات الأخيرة، قامت مشروعاتٍ ناجحةٍ كبرى (كشركات القهوة مثلا) بتبني فكرة «التجارة العادلة»، فصارت تنظر ليس فقط إلى مصلحتها وحدها، ولكن أيضاً إلى ما يحقق الربح العادل والمنطقي للمورّدين من الفلاحين الذي يزودونها بالمحاصيل والمواد الأولية اللازمة لتجارتها، بعيداً عن الاستغلال، ومن خلال التمسك بشرف التعامل التجاري. ويتجاوز الأمر التّنظير الأخلاقي، فيتعداه إلى الجانب العمليّ الصِرف، إذ رغم أن منطق التغلّب في العلاقات التجاريّة قد يؤدي إلى كسبٍ سريع، إلا أنه لا يصبّ في مصلحة مساعي الاستدامة. - [المُترجِمة]. انظر:
David Ransom, *Fair Trade* (London: New Internationalist Publications Ltd, 2006).

(8) سواء جبراً (إثر توقيع اتفاقيةٍ دوليةٍ ملزمةٍ، مثل بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol 1992) أو تطوعاً (بدواعي الشعور القيمي بالالتزام)، زاد الوعي البيئيّ في السنوات الأخيرة، وصار هناك العديد من الأطراف - دولاً ومنظمات وشركات وأفراداً - الذين يستشعرون خطورة الاحتباس الحراري global warming على كوكب الأرض وما يرتبط به من الانبعاثات

رأسماليّةٍ ولكنها «ليبراليّة». وشعارهم هو: «فقط لو أن الجميع تصرّف مثلما أتصرف أنا» if only everyone did as I do. في السيّاسة، عندما يكون عليهم أخذ جانبٍ ما، فإن الأخلاق الفرديّة هي زاويتهم المفضّلة. من خلال إزالة جميع الوسائط الاجتماعية التي تخنق الذات، فإن الفرد يود أن يظهر بمظهر المنتصر على التاريخ، حتى وإن كانت الفردية individualism ليست من عمل الأفراد، وإنما بناءٌ آيديولوجيٌّ جُعل ممكناً بفضل المُحاكاة الفقيرة.

هذه الفكرة عن النفس، التي لا تقوم من داخل المرء والتي لا يمكن أخذها كمُسلّمة، تميل إلى إنتاج ذواتٍ عليها محاولة إنقاذ أنفسها من خلال زراعة نرجسيّة الاختلافات الصّغيرة، فدعم ميتم أطفالٍ بعيد أو جمع الأباريق الصينيّة صار مركز تميُّزٍ أهمّ من أي شيء آخر سواه. في أوقاتٍ مثل هذه، يلزم في جميع الأحوال ترسيخ ذاتٍ قويّةٍ من أجل القدرة على استغلال الآخرين، ومن أجل التّعويض عن النّقص في العدالة الاجتماعيّة من خلال الإشارة إلى جماعات مُصنّفة على أساسٍ من قاسمٍ اجتماعيٍّ مُشتَرك كان ذا طبيعة انعتاقية emancipatory في الماضي: النوع الاجتماعي gender، اللّون، الدين، التّوجه الجنسي sexuality، وهكذا.

الغازية الضارة greenhouse gases - GHG، فيرون أن عليهم أن يتحملوا مسؤولياتهم عن التغيير المناخي، وذلك عن طريق حساب القيمة المالية لبصمة الكربون (carbon footprint) الخاصّة بهم (أي دورهم في التلوث)، ثم دفعِ هذه القيمة للمشروعات التي تسعى لإعادة التوازن البيئي للأرض. لذلك، ظهرت أسواقٌ وبورصاتٌ خاصةٌ بالمتاجرة بـ «اعتمادات الكربون» carbon credits، حيث يتم شراء وبيع تصاريح الانبعاثات أو وحدات تخفيض الكربون، وذلك عبر نوعين من المعاملات: (1) معاملاتٌ متعلقةٌ بالمشروعات المُخفِّضة للانبعاثات، كمشروعات الطّاقة المتجدّدة، أو مشروعات التشجير، (2) معاملات بيع فائض الحدّ الأقصى المسموح به من الانبعاثات الكربونيّة، من ذلك أن تبيع الدول ذات المتوسط المنخفض من الانبعاثات ما يفيض من حاجتها من الحدّ الأقصى المخصص لها، وذلك لمصلحة مشروعات تقع في الدول ذات المتوسط المرتفع. انظر: أمينة التيتون، «أسواق الكربون البيئية»، *مجلة العربي*، العدد 713، إبريل 2018. - [المُترجِمة].

وعلى أيّة حال، فحقيقة أن التفكيك deconstruction الذي ظهر به دريدا Derrida، نسويّة مايو 1968 May '68 Feminism،[9] حركة الشّواذ والسّحاقيات gay and lesbian movement، أو المطالب البيئيّة environmental demands هي جميعها قضايا لم يُقصد بها من حيث الأصل أن تكون ليبراليّة هو أمرٌ لم يمنعهم من اقتيادها حتماً إلى التطبيق الليبرالّي. على الذوات استعمال هذه المعايير المُتداخِلة لنسج نسيج تفرّدهم المميّز. وفي آخر الأمر، فإن عنصراً سوف يُنشئ لضمان «إنيّة» ipseity (selfhood) الشّخص، مسبغةً عليها المعنى: كالصّفحات ذات الإعدادات الخاصة على وسائل الاتصال الاجتماعي customized pages، وكالات الأخبار الحقيقيّة المُكرّسة للنفس، أو انتقاء وتسويق الأخبار الجيّدة فقط.

(3)

تاريخياً، فإن الطيف السياسي لليسار/اليمين في أمريكا الشمالية مبنيٌّ بالدّرجة الأولى على طرق تصنيف لليبراليّة. من اليسار إلى اليمين، يمكن أن يُعرف الواحد من الناس بأنه ليبراليّ يساريّ left libertarian، ليبراليّ على النمط

---

(9) كانت انتفاضة مايو من العام 1968 فترة تاريخية بارزة في تاريخ فرنسا، حافلة بالإضرابات والاعتصامات التي بدأها طلاب الجامعات وامتدت إلى عمال المصانع وغيرهم في المؤسسات أخرى، حتى شارك فيها العديد من الأدباء والفنانين مثل جان بول سارتر Jean-Paul Sartre وسيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir وجيل دولوز Gilles Deleuze وغيرهم. وقد تعددت أسباب هذا الغضب وتداخلت من اعتراض على سلطة رئيس فرنسا الجنرال شارل ديغول Charles de Gaulle إلى المطالبات المالية وتقليل ساعات العمل وزيادة الحريات ونبذ آلية العمل اليومي المغيّبة لروح الإنسان وما إلى ذلك من مطالباتٍ عديدة، كان بعضها غير محدد. كما تزامنت هذه الانتفاضة مع الاعتراض على حرب فيتنام وتأييد الثورة الثقافية في الصين تحت قيادة الزعيم ماو، إضافة إلى حداثة العهد باغتيال تشي جيفارا Che Guevara، أيقونة الثوار حول العالم. انتهت الانتفاضة بترضياتٍ بسيطةٍ وبتسوياتٍ إداريةٍ كانت مخيبةً لآمال الكثيرين. - [المُترجِمة].

شمال الأمريكيّ North American style liberal، ليبراليّ على النمط الأوروبيّ European style liberal، ليبراليٌّ جديد neo liberal، ليبراليٌّ متطرّف ultra-liberal، ليبراليٌّ يمينيّ right libertarian. فأما الأوائل، فإنهم يرون الحريّة كفرصةٍ لإعتاق أنفسهم من المشكلات الموروثة في التاريخ ذي المركزيّة الغربيّة، البطرياركي، البرجوازي. وأما الفئة الثانية، فإنهم يتفقون مع الأولى إلا أنهم - لأنهم يعوزهم الخيال - يؤمنون بأن البِنى الأيديولوجيّة لا يمكن تجاوزها. وأما الفئة الثالثة، فهم يثرثرون حول فضائل الحرّية، مع اهتمامٍ بالمفاهيم الخالِصة التي كثيراً ما تقودهم إلى إغفال موضوعات اليوم العمليّة، إذْ بالنسبة إليهم، فإن كلماتٍ مثل «العدالة» justice و«الاتّصال» communication هي محض تعويذاتٍ قويّة mantras. أما بالنسبة لليبراليّين الجدد وneo-liberals والليبراليين المتطرّفين ultra liberals فإنهم على استعدادٍ للإقرار - بدرجاتٍ متفاوتة - بأن الحريّة تساهم - حتماً - في تطوير أشكالٍ من السّيطرة المنظّمة؛ هذا أمر ينظر إليه كضرورة. إنهم شغوفون بالمَجازات المأخوذة من الطّبيعة، والداروينية المُبتَذَلة Darwinism هي مرجعٌ أساسيٌّ لهم. وأخيراً، فإن الليبرتاريين اليمينيين يدّعون أنهم في حربٍ مفتوحةٍ ضد جميع البِنى الاجتماعية، ما عدا الأعمال التجارية الكبرى، التي ينظرون إليها كقُدوة. من حيث الحريّة، هناك شيءٌ مناسبٌ لكل ذوقٍ في معرض الأذواق هذا، مما يبيّن بوضوح طبيعة النّظام الذي يوفّر مثل هذا العرض.

(4)

ينحو الأشخاص الأكثر شدة إلى الميل نحو الفوضويّة Anarchism[10] الصريحة والمُعلنة. وعادةً ما ينقاد هؤلاء نحو هذا الموقف بسببٍ من وحشيّة

---

(10) لـ «أناركيّة» Anarchism (أو اللاسلطوية أو الفوضوية) - كاتجاهٍ سياسي - صيغٌ عديدة. في صورتها الأولية، هي تنادي بتغييب دولة القانون والاكتفاء بالطبيعة البشريّة السويّة والنظام

الرأسماليّة. ولأنهم قليلون من حيث العدد، فإنهم وحيدون تقريباً في تجسيد قوّة السلبيّة، كما أنهم يقومون بعملٍ مفيدٍ في هذا الصدد: فهم عندما يقومون بالغوص لاستخراج النفايات من البحر dumpster diving فإنهم يكشفون بفجاجةٍ عن الواقع البشع للإنتاج الزراعي-الصناعي agro-industrial production، وعندما يسخرون من الأحزاب السياسيّة والمنظّمات غير الحكوميّة فهم في حقيقة الأمر يُدينون الطّبيعة الطّفولية للحملات الانتخابيّة والمدنيّة، وعندما يرفضون التصويت فإنهم بذلك يلقون الضوء على الطبيعة المُنحازة للعمليّة الانتخابيّة، وعندما يقاطعون نقابات العمل فإنهم يؤكّدون على تخاذل تلك النقابات، وعندما ينهبون المَحال التّجارية الفاخرة أو المتاجر الكبرى فإنهم يدفعون إلى الواجهة بالعلاقات الطّبقية في الإنتاج، التوزيع، والتّنمية الحَضَريّة urban development، وعندما يتَحدّون قوات الشرطة فإنهم يُظهرون القوّة الوحشيّة لهذه القوات، وعندما تقوم النسويّات feminists في هذه الحركة بإعلان الحرب على الذكور ذوي الشخصيّات المُسيطِرة alpha males، فإنهم يتَحدّون أيضاً السيطرة الاعتيادية التي تمنحها البطريركية للمُشرّعين والعلماء والمدراء والأزواج.

بالنسبة للفوضَويّين، فإن الكثير من السلطات والأحكام لا شرعيّة لها! في القيامِ بهذا العمل، يصل الفوضَويّون أحياناً إلى نقطةٍ يكونون هم أيضاً «سلبيين» فيها بمعنىً أكثر ركاكة: موهومون، على الحافّة، حتى أنهم يمكن أن يفقدوا

العفويّ لـ «ترتيب» العلاقات الإنسانية (فمثلاً، في بداية قيام الولايات المتحدة كدولة مستقلة، كان هناك نقاشٌ محموم، تعبر عنه أفكار توماس باين Thomas Paine وآخرين، حول مدى الحاجة لوجود الحكومة، وخصوصاً في الفترة التي تلت الاستقلال عن بريطانيا مباشرة، والتي أظهر فيها سكّان المستعمرات الأمريكية المتفرّقة قدرةً وفعاليةً على إدارة شؤونهم من دون قيادةٍ مركزية). والأناركيّة في جوهرها هي عقيدةٌ رومانسية، ولذلك كانت مادةً خصبةً للشعراء الذين تغنّوا بها كثيراً (هناك الكثير من القصائد الجميلة التي كتبت تخليداً لفوضويي الحرب الأهلية الأسبانية التي وقعت عام 1936، على سبيل المثال). - [المُترجِمة].

حيويّتهم، بالنهاية. «تباً لكل شيء!» كانت هذه صيحة التعبئة rallying cry لمجموعاتٍ من هذا الاتّجاه في كيبيك Quebec؛ مجموعاتٍ ذات الكثير من القواسِم المُشتركة مع منظماتٍ فرنسيّةٍ صغيرةٍ منخرطةٍ بشكل دائمٍ في إعادة تنسيق جزيئات الثورة التي لم تأت بعد. من وجهة نظرهم، فقد رُفِعَت الدعوى فيما يتعلّق بالديمقراطية التمثيليّة: يجب أن تكون الديمقراطيّة مباشرةً دائماً، هنا والآن، أما المؤسّسات السياسيّة الحديثّة فقد حَفَرَت قبرها.

لو كان الناشِطون من هذه الجماعة قد قرأوا ساسكيا ساسين Saskia Sassen في أي وقتٍ من الأوقات، فمن المُفترض أن لا يشعروا إلا بالازدراء. في كِتابها المُعنوَن «الأرض، السلطة، الحقوق» *Territory, Authority, Rights* لاحظت ساسين Sassen أنه على الرّغم من أن السلطتين التشريعيّة والقضائيّة قد قامتا - بشكلٍ لا شكّ فيه - بمصاحبة رأس المال أثناء إخضاعه للفلاحين والنساء والعمّال والشعوب المُستَعْمَرَة، فإن هاتين السلطتين كانتا أيضاً الوسيلة التي حاولت من خلالها هذه الجماعات أن تعكس العلاقات التاريخية للحصول على الحقوق والضمانات.[11] ولأن هذه المحاولات قد قادت إلى نتائج غير مُرضيةٍ تماماً، فقد أعلن الفوضَويّون استقلال عشيرتهم السياسية على أساسٍ من الاكتفاء الذاتي الشعبي. إن خلق الفرصة يصبح فكرةً أساسية، لا سيما في سياق نظامٍ يجسد حضارة البِيض whites civilization، المال، والجنس الأقوى، من ضمن أشياء أخرى.

وماذا يهمّ لو كان القتال ضد الانتخابات يعطي الانتخابات، في حقيقة الأمر، أهميةً أكثر من تلك التي يوليها لها الناخِب المُعتاد؟ إن ما يهم هو عرض حقيقة المُعارَضة وإظهار إلى أيّة درجةٍ يمكن أن يكون المرء خلّاقاً. في كونهم ضد الجيش، ضد الإعلام، ضد النظام البطريركي، ضد الثقافة البرجوازية، ضد

(11) Saskia Sassen, *Territory, Authority, Rights: From Medieval to Global Assemblages* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2007).

النّظم القانونيّة المُتحجّرة، ضد الجامعة، ضد المنهج الدراسي، ضد الأحزاب السياسيّة، ضد النظام التمثيلي، ضد الرأسماليّة، وضد الأعمال التجارية، فإنهم يفضّلون، على العكس، أن تكون مشاركتهم مرئيةً من خلال الفعل المحسوس. مُحتشدين في وكرِهم الخاص، فإنهم يحتلفون، كمجموعة، بانتصارهم على الأوهام التي ما زال المغفّلون المُحيطون بهم يتعهّدونها بالرعاية. هنا يستعيدون ذاتيّتهم الحقيقيّة؛ الآن هو دورهم للإيمان بالحريّة. في داخل هذه المجتمعات، هناك لحظاتٌ من النّعمة التي يمكن تصويرها في الروايات - على الأخص تلك الجافّة والخشِنة منها - مثل رواية «صيف الفوضويّة القصير» *Brief Summer of Anarchy* للكاتب هانس ماجنوس إينزينسبرجر Hans Magnus Enzensberger:

موجةٌ عظيمةٌ من العاطفة غَشَت الجُموع.
لسببٍ ما، أو بطريق الخطأ، دُعيَت فِرقتان للعزف في الاحتفاليّة.
عزَفت الأولى بصوتٍ منخفض، فيما عزَفت الثانية بصوتٍ عالٍ جداً
... لم يكن من الممكن تنظيم مرورٍ حرٌّ لموكبٍ جنائزيٍّ خلال هذه الفوضى ... يمكنك أن تسمع الأنغام، إلا أن اللّحن ما كان يمكن التعرّف عليه.
كانت قبضات الجميع مرفوعةً في الهواء. أخيراً، توقّفت الموسيقى، أُرخِيَت القبضات، وصار يمكنك أن تسمع صَخَبَ الجُموع فيما كان دوروتي Durruti محمولاً على أكتاف رفاقه.
لا، لم تكن هذه طُقوس جنازة مَلِك؛ لقد كانت هذه احتفاليّة دفنٍ نظّمها الناس.[12]

مثل هذه النوازع إلى التضامن ليس بمُستثناة، رغم ذلك، من الميول الشموليّة أو حتى الفاشيّة المُستتِرة ضمن كل موقفٍ سياسي. إن السلطة الكاريزمية لا يمكنها إلا أن تنبثق، فتظهر، كما تفعل كلما تجمّع البشر. كما هي

(12) Hans Magnus Enzenberger, *Der Kurze Sommer der Anarchie* (Frankfurt: Suhrkampf Verlag, 1972).

الحال في أوضاعٍ اجتماعيّة أخرى، فإن المخدِّرات عادة ما تكون العلاج المرّ الذي يتم توظيفه للتأقلم مع الصدمة العميقة التي يسبّبها النّظام المكروه. وعندما تخرج الأمور عن السيطرة، فإن الأشخاص غير المرغوب بهم - الذين تخونهم أفعالهم أو يخونهم الافتراء عليهم - يتم دفعهم إلى الخلف، بواسطة مَحاكِم مُرتَجَلة، إلى زواياً غير رسميّة. وإذا ما أعدنا اليوم الأول من العقد الاجتماعي social contract، فإننا نرى أن الجماعة غالباً ما تجد ليفياثان Leviathan جديد يخرج من مكانٍ ما قريب منهم. إن النّزعة إلى تحدّي مؤسّسات السلطة المعاصرة لا يمكن اعتبارها نصراً على السؤال المُلحّ حول الرابطة الاجتماعيّة، الحاضر دائماً هنا وفي كل مكانٍ آخر.

(5)

لقد بلغت الحِدّة في ما نعانيه من نقصٍ في الفِكر الجَمْعيّ أننا صرنا سعداء لرؤية هذا الفِكر يظهر مؤخراً على التّخوم العَدَديّة الضَبابيّة لنسبة الـ «99 بالمائة». فحركة «احتلوا» Occupy movement عرّفت نفسها من خلال معارضة طبقةٍ حاكمةٍ كانت جذلةً بانضامها إلى الـ «1بالمائة». وقد كانت حركة Occupy خليطاً هشاً من مجموعاتٍ من الحركات الراديكاليّة وجماعات «ليبراليون-و لكن» liberals-but اليساريّة، وكانت التوترات الداخليّة مستشريةً فيها، لأن وحدتها الهشّة بُنِيَت على المشاعر أكثر منها على الأفكار: «السّخط» indignation.[13] إن الحركات الانعتاقيّة التقليديّة traditional emancipatory

(13) في اللفظ إشارةٌ إلى كتابٍ كان في قائمة أكثر الكتب مبيعاً، وضعه المؤلف الفرنسي ستيفان هيسيل Stéphane Hessel بعنوان «اسخطوا!» *Indignez-Vous* (2010)، وقد نُشِر بالإنجليزية تحت عنوان *Time for outrage*. الترجمة الإسبانية *Indignaos* أعطت الاسم لحركة *Los indignados*، وهي حركةٌ قامت ضد الإجراءات التقشفيّة والفساد الذي ظهر في إسبانيا عام 2011، ولاقت انتشاراً كبيرا. - [المُترجِمة].

movements تمثّل، في ذاتها، أطراً لأشكالٍ بارعةٍ من التفرقة والتمييز، تضعها في الصّدارة مقارباتٌ متداخلة، عدا عندما تكون حاضنةً لحالات تمييزٍ هي أكثر تناهياً في الصِّغَر، تقود - بدورها - إلى تعريفاتٍ، متناهية الصِّغَر كذلك، لذاتٍ هامشية. إن تفكيرنا حول ما نشترك فيه وما أُعطِيَ لنا لنتقاسمه ما عاد يُرى كفرصةٍ للاحتواء في الكلّ الجَمْعي، بما في ذلك الجماعات الاجتماعيّة التي كانت مُهمّشةً أو يُنظر إليها كأقليّات؛ عوضاً عن ذلك، فإن مثل هذا التفكير الجاذب نحو المركز centripetal يُعرَض كطريقةٍ يعهد بهم من خلالها إلى مجالٍ مشتركٍ تغريبيٍّ وقامع، وهو يُقدّم - بطريقةٍ مَضلِّلة باعتباره مَجمَّداً وفي وضعيّة هيمنةٍ ساهمت في معاناة هذه الجماعات. إن تكاثُر الهويّات بطريق الطّرد المركزي centrifugal، وما ينتج عن ذلك من معنىً بالنسبة للمُهمّشين، هو أمرٌ يُنظر إليه الآن وكأنه فِعل خَلاص redemptive.

بطبيعة الحال، عادةً ما تقوم الأقليّات السياسيّة بمقاربة قضايا زمانها بطريقةٍ تتعدى الاعتبارات الطائفيّة أو الهويّاتية وحدها. لا شك أن في إنكار ذلك علامة جهلٍ أو ضعف إيمان: فالحركات النسويّة تناقش قضايا متعلّقةً بالعدالة الاجتماعيّة بالمعنى الواسع، تماماً مثلما أن حركة حقوق الشعوب الأصليّة indigenous rights movement تُعنى بالموضوعات البيئيّة، وهذان لا يعدُوان أن يكونا مجرّد مثالين من ضمن أخرى عديدة. ومع ذلك، ففيما عدا القاعدة الخاصة بكل حركة، علينا أن نعترف بأن هذه الارتباطات لم تثر أية مفاهيم قويّة تقود إلى تشكيل مؤسساتٍ تبعث النّشاط في المجتمع ككل، كما أنها لم تشكّل صوراً تنقل فخر هذا المجتمع الأوسع. وهكذا، فإن الميل إلى النأي بالنفس عن الجميع يأخذ أولويّة على الأسباب التي تتطلّب الاجتماع معهم. في بعض الأحيان، فإن الشخصيات العامة - مثل لولا Lula، [14] موراليس

(14) لولا دا سيلفا Lula da Silva (1945-) كان رئيساً للبرازيل للفترة من عام 2003 إلى عام 2010، وذا شعبيةٍ محليةٍ وعالميةٍ كبيرةٍ بسبب ما قدمه من مساعٍ جادةٍ للإصلاح الاجتماعيّ

Morales، [15] كوريا Correa، [16] ميلينشون Mélenchon، [17] تسيبراس Tsipras، [18] كوربين Corbyn، [19] أونج سان سو كي Aung San Sun Kyi، [20] إجليسياس توريون Iglesias Turrión، [21] وساندرز Sanders[22] - تخطو إلى الأمام لتجسيد التطلّعات المُتباينة لجمهور هو دائماً على حافة التفكّك: فالبِنى المؤسسيّة تدفع هذه الشخصيّات بلا هوادة إلى الهامِش أو

ومحاربة الفقر والحفاظ على البيئة. تمت ملاحقته قضائياً، فيما بعد، والحكم عليه بالسجن في بعض قضايا الفساد. - [المُترجِمة].

(15) إيفو موراليس Evo Morales (1959-) هو أول رئيس لبوليفيا ينحدر من الشعوب الأصلية للبلاد. قام بإصلاحات كبيرة في البلاد، وله مواقف يسارية واضحة. - [المُترجِمة].

(16) كوريا ديلغادو Correa Delgado (1963-)، هو الرئيس السابق للإكوادور للفترة من عام 2007 وحتى عام 2017. أخذ موقفاً قوياً حينما أعلن أن ديون بلاده هي ديون غير شرعية، استناداً إلى أن الأنظمة السابقة له - والتي كانت سبباً فيها - هي أنظمةٌ شابها الفساد، ونجح فعلاً في تقليص كلفة هذه الديون. - [المُترجِمة].

(17) جان لوك ميلينشون Jean-Luc Mélenchon (1951-) هو سياسيٌّ يساريٌّ فرنسي، عضو الجمعية الوطنية الفرنسية وعضو البرلمان الأوروبي. عُرِف بمهاجمته للسياسات الألمانية في أوروبا. - [المُترجِمة].

(18) أليكسيس تسيبراس Alexis Tsipras (1974-) هو سياسيٌّ يوناني، كان رئيساً لوزراء اليونان من عام 2015 إلى عام 2019، وهو الآن رئيسٌ للمعارضة وعضوٌ في البرلمان، كما أنه رئيس حزب Syriza اليساريّ منذ عام 2009. - [المُترجِمة].

(19) جيريمي كوربين Jeremy Corbyn (1949) هو سياسيٌّ بريطانيٌّ ورئيس حزب العمال هناك، وعضو برلمان منذ عام 1983. - [المُترجِمة].

(20) أونج سان سو كي Aung San Sun Kyi هي سياسيةٌ وكاتبة من ميانمار (بورما سابقاً). كانت لها مسيرةٌ حافلةٌ بالنضال ضد النظام العسكريّ الحاكم للدولة، فوُضِعَت قيد الإقامة الجبريّة في منزلها منذ عام 1989. بعد تغيير النظام الحاكم، أصبحت مستشارةَ الدولة وحصلت على جائزة نوبل للسلام. - [المُترجِمة].

(21) إجليسياس توريون Iglesias Turrión (1978-) هو أستاذٌ جامعيٌّ وسياسيٌّ يساريٌّ إسبانيٌّ ورئيس حزب Podemos («قادرون») منذ عام 2014. - [المُترجِمة].

(22) بيرنارد ساندرز Bernard Sanders (1941-) هو سياسيٌّ أمريكيٌّ ديمقراطيٌّ وعضوٌ في مجلس الشيوخ، كما كان مرشحاً قوياً في انتخابات الرّئاسة الأمريكية لعام 2016، وسوف يرشح نفسه في انتخابات الرئاسة لعام 2020. - [المُترجِمة].

تجذبهم - ميكانيكياً - إلى المركز، إلا إذا كان داعموهم المحليون يزدَرونهم؛ فلا شكل من أشكال التحالف كان قادراً على تجنيب قواه الانهيار بهذه الطريقة. ولاشك أنه أن «تتحدّث مثل» (امرأةٍ سوداء، موظف، عامل أجرة، فلاح، شخصٍ يعيش مع مرض الإيدز HIV، وهكذا) هو أمرٌ سوف يقود بالتأكيد إلى الانعتاق من عموميّة المعايير البطريركيّة، ولكن - إذا ما أردنا الذهاب إلى ما وراء الاعتراف السياسيّ المجرّد - فإن هذا الانعتاق سوف يفيد القوى المُحفّزة لتطوير الخصائص الفرديّة. إن يساريّي «ليبراليون-و لكن» liberal-but leftists المقاومين لطواطم[23] الحضارة العليا يوزّعون ادعاءاتٍ سياسيّةً عامّةً على جملةٍ من القضايا الفرديّة، حتى لا نقول الغريبة. إنهم يتصرّفون مثل مركز الجاذبيّة المنخفض لدوامةٍ ارتداديّة regressive spiral.

(6)

في هذا المشهد، تظهر شخصيةٌ سياسيةٌ غير متوَقَعة: شخصٌ من جماعة «يميني-و لكن . . .» (right-wing, but ...). بعد أن خسروا كل خيلاء، فإن هؤلاء هم أُناسٌ على علمٍ بالنتائج الكارثيّة للنظام المُهيمِن الذي دافعوا عنه لسنوات، والذي يأملون الآن في الأخذ بزمامه. لقد ذهبت الأمور بعيداً، هناك ضَعفٌ بالسيطرة، اللاعقلانية تسود. إنهم لا يُدينون النّظام ذاته، بل تجاوزات هؤلاء الذين، بفضله، لم يتم ضبطهم قانوناً بأية طريقة. لم يتساءل أحدٌ عما إذا

(23) الطوطم Totem هو تمثالٌ يمثل رمزاً لشيءٍ مقدسٍ للتنظيمات القبلية. وفي حين أن التسمية تأتي من لغات قبائل أمريكا الشمالية، إلا أن الطوطم، وما يرمِز له، هو تَمثّل معروفٌ للمقدّس لدى كثيرٍ من القبائل في مناطقٍ جغرافيةٍ مختلفةٍ حول العالم، وتحديداً لدى القبائل التي تعتنق الديانات «الأرواحية» أو «الإحيائية» Animism (أي تلك التي تؤمن بقدسيّة الأرواح). لكلٍّ من عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم Émile Durkheim وعالم النفس النمساويّ سيجموند فرويد Sigmund Freud دراساتٌ هامةٌ حول الموضوع. - [المُترجِمة].

كانت هذه التجاوزات يمكن أن تكون مرتبطة، تحديداً، بأسس هذا النظام الأشبه بالمافيا. هناك العديد من شاكِلة هؤلاء النّقاد. أكثرهم شهرة، جوزيف ستجلتز Joseph Stiglitz، الذي استهلّ مسيرته في ظل غموض البنك الدولي World Bank، يُدين الآن حماقة الرأسمالية. إنه يلوم الدول القويّة على تركها قوى المال الكُبرى تجبر الدول الفقيرة على اتخاذ إجراءاتٍ اقتصاديّةٍ ما كانت هذه الدول لتأخذها فيما لو تُرِكَ الأمر لها.

مارك روش Marc Roche، المراسل المالي لصحيفة لوموند *Le Monde* الفرنسيّة في لندن، يقول عن نفسه إنه الآن «ليبرالي ذو شكوك» a doubting liberal، وذلك بعد أن تتبّع تقلّبات جولدمان ساكس Goldman Sachs، البنك الذي يمثل تجسيداً لمسألة تعارض المصالح conflict of interest في العالم أجمع بفضل الشركاء السابقين العديدين الذين قام بوضعهم في مناصب هامةٍ في أجهزة كثيرٍ من الدّول وبسبب العديد من الزعماء السياسيين السابقين الذين قام بتعيينهم فيه. إن روش Roche جَزِعٌ لرؤية الجِنان الضريبية tax havens تأذن باتّخاذ إجراءاتٍ قانونيةٍ كانت ستكون محلّ محاسبةٍ صارمةٍ فيما لو طُبِّقَت في أيّة دولة ينفذ فيها حكم القانون rule of law، مهما كان نظام هذه الدولة مُهادناً. ويستاء البليونير وارين بافيت Warren Buffett لمعرفة أن سكرتيرته تدفع ضرائب بنسبةٍ أعلى منه. ويؤنّب لاري فنك Larry Fink – وهو الأول بين الأنداد *primus inter pars* وسط العظماء من حملة الأسهم ذوي العوائد – يؤنّب زملاءه الذين تسبّب جشعهم نحو الحصول على توزيعات الأرباح في تجزئة الشّركات الكبرى التي تنتج هذه الأرباح. ويتساءل جورج سوروس George Soros[24] عن السّبب الذي يجعل النظام الماليّ المعاصر يسمح له بالمضاربة، بسهولة، على عملات العالم المتعددة، مانحاً إياه القدرة – فقط لكونه شخصاً غنياً – في التسبّب بسقوط

(24) جورج سوروس George Soros (1930-) هو رجل أعمال أمريكي داعم للسياسات الليبرالية، وله يد كبيرة في الأعمال الخيرية. - [المُترجِمة].

اقتصادٍ وطنيٍّ كامل. لقد انسحب آل روكفيلر The Rockefellers من مشاريع بتروليّةٍ لأسباب بيئية. ويستنكر فرانسوا دوبوي François Dupuy،[25] الذي يُدرّس في كليات التجارة، الكسل الثقافي لمُنظّري الإدارة الزائفين واستعمالهم الوثني للأفكار. كما قامت كريسيتين لاجارد Christine Lagarde، مديرة صِندوق النقد الدولي International Monetary Fund - IMF وعضوة البرجوازيّة العليا upper bourgeoisie، بتوبيخ الحكومات الغربيّة لقيامها بإصدار ميزانياتٍ تقشفيّةٍ قاسيةٍ وعقيمة، سنةً إثر أخرى، بما يُضِرّ بشعوبها. يدّعي الجميع أنه من «جناح اليمين-و لكن» Right wing-but، إلا أن أقلّ قدرٍ من الوعي السياسيّ والشّرف الثقافيّ سيقودهم إلى رؤية الفشل الذّريع لنظامٍ سياسيٍّ مبدأ النموّ لديه يعني - تعريفاً - أنه لا حدود له.

(7)

دارساً نشوء البرلمانيّة البورجوازيّة bourgeois parliamentarianism في فرنسا في الأعوام من 1795 إلى 1820، يقدّم المؤرّخ بيير سيرنا Pierre Serna[26] «الوسط المتطرّف» the extreme centre باعتباره يدور حول التناسخ reincarnation.[27] لقد كانت جمهورية «قالبي السترات» Turncoats[28] التي

(25) فرانسوا دوبوي François Dupuy (1963-) هو أكاديميٌّ متخصّصٌ في سوسيولوجيا المنظمات التجارية. له العديد من الكتابات حول الموضوع. - [المُترجِمة].

(26) بيير سيرنا Pierre Serna هو أكاديميٌّ متخصّصٌ في تاريخ الثورة الفرنسية. - [المُترجِمة].

(27) «التناسخ» reincarnation (أو التقمّص والحُلول) هو اعتقادٌ دينيٌّ يذهب إلى إمكان انتقال النّفس البشريّة بعد الموت من جسدها إلى جسدٍ آخر، بشريّاً كان أو غير بشري. ينتشر هذا الاعتقاد لدى اتباع الديانات البوذية والهندوسية، فيما تُنكِرُه الدّيانات السماويّة (و إن كانت بعض فرقها تأخذ به، كالدروز في الإسلام). - [المُترجِمة].

(28) تطلق تسمية «قالِبي السترات» Turncoats على من يقلِبون ولاءاتهم فيحولونها من طرفٍ إلى آخر. وتجِد التسمية أصلها في المجال العسكري الأوروبي، حيث جرت العادة على أن يتم

قدّمها مكونةً من سياسيّين هادئين، راجحي العقل ومدراء حصيفين للشؤون العامة، ولكنهم في الوقت نفسه يحافظون على مناصبهم من خلال التمسّك بكلمتهم والتّراجع عنها باستمرار، روحةً وجيئةً ومن دون توقّف، «لقد كانوا مجرّدي الضمير بشأن الوجوه، معنيّين فقط بتقلّبات الدهر وصروفه». وتدريجياً، تم الانتقال من فترةٍ كان كون المرء مخلصاً فيها لقناعاته أمراً يمكن أن يقود إلى مقتله، إلى فترةٍ فاسدةٍ أخرى من سِمَتها أنه «ما إن يعطي المرء كلمته فإن هذه الكلمة - وهي الهشّة، الفانية، المتغيّرة - تصبح معطوبة، رثّة، محدودة، بالية، مفرّغة بفعل مرور الزمن وعوامل الوجود ذاتها، فيما هي تمضي في طريقها، من دون هوادة، خارج الواقع، في الزّمن المُعلّق للوعد».[29] ولكن أن يفكر المرء بالوسط المتطرف extreme centre في يومنا هذا بهذه الصورة سيكون أمراً فيه إعطاءٌ له أكثر ممّا يستحق. منذ الجمهورية الفرنسية الثالثة The Third Republic التي كان مُسيطَراً عليها من قِبَل الأحزاب اللّيبراليّة بالدرجة الأولى (الذين كانوا يُعرَفون بالراديكاليين وقتها)، والتي أجادت فن التقلّب في المواقف إلى درجةٍ مستفزّة - وهي الجمهورية التي تلتها حُقبةٌ من المتفذلكين السياسيين والمُعلِّقين الذين يغرسون المراوغة في عمق الفكر semanticists - فإن تكنوقراطيّي السياسة قد تعلّموا الاستغناء عن («الاقتصاد في» economize on) لحظة الإيمان the moment of conviction. إنك لا تُعتبَر قد رجعت في كلمتك إن كنت لم تقل شيئاً أبداً. هناك تجميعٌ مفرداتيٌّ lexical compendium وُجِدَ في المدرسة الفرنسية الوطنية للإدارة *École nationale d'administration*، يُعلم الطلبة الحديث باللّغة التي يُسميها الفرنسيون «اللّغة الخشبية» *langue de*

إلباس جنود الجيوش المتحاربة ألواناً متباينةً بشكلٍ واضحٍ حتى يميّز أفراد الجيش الواحد بعضهم بعضاً. إلا أنه قد يحدث، في حالة الشعور بهزيمة الجيش، أن يقوم بعض أفراده بقلب ستراتهم بسرعة، حتى لا يكونوا هدفاً واضحاً لنيران الجيش المنتصر، فيتظاهرون بأنهم جزء منه. - [المُترجِمة].

(29) Pierre Serna, *La République des girouettes: 1789-1815, et au-delà* (Paris: Champ Vallon, 2005).

bois،[30] وهي لغة البداهة التقليديّة السّخيفة. فيما تجرّدهم العولمة الماليّة من أيّة قوّةٍ حقيقية، فإن هؤلاء الطلبة يقضون أيامهم الجامعيّة في التدرّب على خطابٍ ذي روحٍ عديمة الجدوى.

(8)

في تقديمه لنفسه باعتباره «اعتياديا»، وفي جعل هذه السّمة الاعتياديّة هي الأساس المُصطَنع لبرنامجه، فإن مرشّح الحزب الاشتراكيّ الذي فاز بالانتخابات الرئاسية في فرنسا لعام 2012 قد نجح - بالدّرجة الأولى - في إعلان أن أيّ شيءٍ لا يتّسم بطبيعةٍ اعتياديّةٍ هو شيءٌ مَرَضِي pathological. لقد كان في فوزه إحياءٌ شبه رسميّ للوسط المتطرّف extreme centre، الذي أخذ تطرّفه شكل التعصّب تجاه أي شيءٍ لا يتوافَق مع ما تمّ إعلانه - اعتباطاً - كوسطٍ عادل *juste milieu*. بذلك، فإن كل ما قدّمته السلطة الراسخة باعتباره

(30) يمكن تعريف «اللّغة الخشبيّة» *langue de bois* بأنها أسلوب الخطاب الذي يركن إلى الإسهاب في الكلمات غير المُجدية، الخالية من التّحديد والتفاصيل، والذي يتجنّب تقديم الإجابات الصّريحة على الأسئلة المُربِكة. بذلك، تُصاغ العبارات بأسلوبٍ مُخاتل، قد يكون غير كاذب ولكنه ساترٌ للواقع ومخفٍ للحقائق، أو مخادع، أو مضلّل، أو مراوغ، أو عبثي، كما أنه يَعِد، تلميحاً، بما لا يمكن تحقيقه. من أجل هذه الأغراض، يستخدم أسلوب اللّغة الخشبيّة تعابيرَ تأثيريّة، غرضُها هو خلق الانطباع المرغوب، وليس نقل المعلومة. بذلك، فهو ليست صنفاً أدبياً literary genre، وإنما طريقةٌ في الحديث والخطاب. انظر: عبدالوهاب الأنصاري، «طلاسم»، *مجلة الدوحة* (قطر)، العدد 79، مايو 2014، ص. 26. ومن أجل مقاربةٍ أدبيةٍ للّغة الخشبيّة، قد يكون في استحضار ما يعرف بـ «نيوسبيك» Newspeak أمرٌ ذو علاقة، فهي لغةٌ ابتدعها الكاتب البريطانيّ جورج أورويل George Orwell في روايته «1984»، لتكون لغةً مليئةً بالاستعارات والكلمات الطّنانة التي لا معنىً لها. يُذكر أن لأورويل Orwell أيضاً مقالاً شهيراً بعنوان «السّياسة واللّغة الإنجليزية» ‘Politics and the English Language’ (1946)، أورَد فيه أن عادات الكتابة الخشبيّة مُستفحلة، أكثر ما يكون، في أوساط السّياسيين. - [المُترجِمة].

مُعتاداً - مع كل ما يحمل ذلك من دلالاتٍ تهديديةٍ لكلمةٍ تبدو غير قابلةٍ للجدل - كان يُرى باعتباره كذلك، بما في ذلك عنصريّة الدولة، وحشيّة الشرطة، العمل غير المستقرّ بدرجةٍ متزايدة، السلطة غير المحدّدة الممنوحة للبنوك، الاستقلاليّة التي تحقّقها الشركات متعدّدة الجنسيّات من خلال فروعها، تسخيف السّياسة، الاعتماد على البترول والطّاقة النووية، والتعايش الإجباري للأضداد من خلال تمويه الأمر تحت مسمى «التوليف» synthesis؛ كل هذه التصرّفات الخاطئة يتم القيام بها بصفة الاعتياد.

إن الاعتيادي، تحت هذا النظام، لا يجد مصدره في تحليلٍ للاحتمالات التي تُلخّص عن طريق الفكر التجريدي: إنه - عِوضاً عن ذلك - يفرض نفسه بطريقةٍ واقعيةٍ ويُملي المعايير التي يجب اتّباعها. لو كان أونوريه دومييه Honoré Daumier[31] قد أنتج تمثالاً نصفياً لسياسيٍّ مُنتَخَب elected representative ليُدرجه ضمن مشاهير ما يُسمى بـ «الوسط العادل» *juste milieu* الذين صنع تماثيلاً لهم، فإنه كان سيسمّيه «الشّخص التّافه» the mediocre one، مُعطياً إياه الملامح المُنتفِخة لرجلٍ لا تعبير له، لأنه يحاول إظهار جميع التعبيرات. مع ذلك، فقد كان فرانسوا أولاند François Hollande[32] يؤمن بأنه إنما يكسو نفسه بالكرامة، فيما كان يُدير هذا الموقف، بسلاسة، مثل قائد أوركسترا: «ليست التّسوية توازناً دقيقاً، شيئاً بالوسط، أو نقطةً وسطيّةً تافهة. إن التّسوية

---

(31) اشتهر الفنان الفرنسيّ هونوريه دومييه Honoré Daumier (1808-1879) برسومه الكاريكاتيرية من خلال تناوله السّياسة الفرنسية ورجالاتها بالنقد. ومن أشهر أعماله في هذا الصّدد سلسلةٌ متكاملةٌ من ستٍّ وثلاثين قطعةٍ من الصِلصال الملّون، تمثل منحوتاتٍ نصفيةً ساخرةً من رجال الحاشية وأعضاء البرلمان، تطفح فيها الوجوه بالغباء والجشع والعَجرفة. انظر: عبدالكريم سعدون، «ملاحظات في طبيعة الرسم الكاريكاتيري»، تمّوز (الجمعية الثقافية العراقية في مالمو)، العدد 54، السنة العشرون، شتاء 2012. - [المُترجِمة].

(32) كان فرانسوا أولاند François Hollande رئيساً للجمهوريّة الفرنسيّة للفترة من عام 2012 إلى عام 2017. - [المُترجِمة].

هي عكس ذلك: إنها التزامٌ».[33] هناك أيضاً جرعاتٌ كبيرةٌ جداً من «الاتّصال» communication. بداخل اليسار الاعتيادي، صار من المستحيل الإصرار على نقد الديمقراطيّة الاجتماعيّة social democracy من خلال الإشارة إلى كونها تساعد على إدامة الرأسماليّة، فتقود القوى المدمّرة للنّظام إلى حدودها القصوى. ومع ذلك، فهل ما زال هناك أي شخصٍ لا يعرف حتى الآن أن قدرة نظامنا البيئيّ على التعامل مع معدّلات النموّ الإنتاجيّة productivity growth rates قد وصلت الآن إلى نهاياتها؟ هل هناك من لازال يفوته أن المبادرات الليبراليّة تساعد في توسعه الهوّة بين الأغنياء والفقراء؟ ومع ذلك، فعِوضاً عن هذه التّحليلات، صارت الأفضلية تُمنح للتعميمات المُبتَذَلة -« كل ميناءٍ تضربه عاصفة»، «كل غيمةٍ لها جانبٌ مضيء» - وللمواعظ الخاصة بالتزام البراجماتية. إن كل ذلك يتسبّب في تصلّب جهازنا العقلي، إذ تُعطى مجموعةٌ من المسمّيات الجاهزة دائماً لسحق النقد - «اليسار المتطرّف» far left، «الإرهاب» terrorism، «الشَعبويّة» populism، «التطرّف» extremism - فتمنع الفِكر من تجديد نفسه.

(9)

هل السّبب وراء عدم حديث وسائل الإعلام والأحزاب السّياسية عن البرولتياريا هو كون الأخيرة لا تنخرط في الحياة العامة، أم أن الأمر على العكس من ذلك؟ في الرابع من نوفمبر 2014، تساءل عنوانٌ في موقع راديو كندا Radio-Canada: «هل أنت تنتمي إلى الطّبقة الوسطى؟»، وطُلِبَ من القرّاء أخذ اختبارٍ لمعرفة الإجابة. وفقاً لباحثي جامعة شيربروك Université de

---

(33) David Revault d'Allonnes, 'François Hollande lance l'opération réhabilitation', *Le Monde*, May 3, 2016.

Sherbrooke المُشار إليهم في هذا الموقع، فإن نصف الكنديين ينتمون إلى هذه الفئة الاجتماعية الواسعة. ولكن ماذا عن البقيّة؟ لم تُذكر كلمةٌ واحدةٌ عنهم؛ هم، ببساطة، خارج الإطار: لا أغنياء ولا فقراء، لا برجوازيين ولا بروليتاريين، لا مُستعمِرين ولا مُستعمَرين. تقوم مجلة «الأعمال» *Les Affaires* بمهمةٍ أفضل: كان السؤال الذي طرحته في 21 أكتوبر 2015 هو: «إلى أيّة طبقةٍ وسطى تنتمي أنت؟». هناك عدّة أنواعٍ ممكنةٍ من الوجود، ولكن فقط ضمن «الطّبقة الوسطى» Middle Class. لو كنت أنت شخصاً منتمياً إلى الطّبقة الوسطى في أمريكا الشمالية وتقرأ صحيفةً عاديةً أو تستمع إلى محطة بثٍّ ذات قيمة، فما زلتَ لا تعرف أي شيءٍ حول الوجود اليوميّ لشخصٍ يعيش على نظام الإعانة الاجتماعية Welfare[34] في بلدك. في كيبيك Quebec مثلاً، كيف يتدبّر الناس أمر المعيشة بدخلٍ يبلغ 623 دولاراً، في الوقت الذي يُواجَهون فيه بازدراءٍ عام؟ سوف تكون جاهلاً أيضاً بعالم العمل. وإن اتّفق أن نهضت باكراً في يومٍ ما، فسوف تكتشف وجود أُناس - كثيرٌ منهم مهاجرون - يبدأ يوم العمل لهم من قبل أن تغادر أنت للّحاق بمكتبك. كما أنك لن تعرف أيّ شيءٍ حول أسلوب الحياة المُنحطّ للطّبقة الحاكِمة، تلك التي تتملّك الثروة المُنتَجة من قِبَل أُجَرائها - فيما هي تتظاهر بخلقِها - من أجل أن تُشبع رغبتها في الأُبّهة والسلطة. كما أنك لن تشكّ في أنهم هم أو أسلافهم كثيراً ما استخدموا وسائل إجراميّةً لمُراكمة ثَرَواتهم. في هذه الأثناء، سوف تكون أمامك آلاف الفرص لتستمع إلى صحافيين أو كتّاب أعمدةٍ يناقشون الأجهزة التي يمكنك الحصول عليها، الأموال التي يمكنك اقتراضها، الوظائف العاديّة التي سوف تُستَحدَث أو تُفقد، وباقات الإجازات التي يبدو أن الجميع يحبّونها. إن وسائل الاعلام تدعوك إلى ترك كل ماعدا ذلك على ركام قمامة العالم، هذا الذي لا ذاكِرة له.

---

(34) نظام الإعانات Welfare هو صورةٌ من صور نظم التأمينات الاجتماعية يهدف إلى قيام الدولة بتقديم المساعدة المالية إلى فئاتٍ معينةٍ من مواطنيها (العاطلين عن العمل، العاجزين، المرضى، كبار السن)، وهو يختلف من دولةٍ إلى أخرى. - [المُترجِمة].

(10)

هذا هو ما يدور الأمر حوله، بالنهاية: جَعْلُ أفراد الطّبقة الوسطى ينسَون أنهم لن يكونوا أيّ شيءٍ سوى بروليتاريين ذوي مال، ليس إلّا، وأنه لا سيطرة لهم على المُتغيّرات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تُشكّل مستويات حياتهم. بعناد، تراوغهم الكثير من الأشياء: نموذج التخطيط الحَضَريّ الذي يعيشون فيه urban planning model، أسعار البترول والمواد الأوليّة التي تحدّد حياتهم، معدّلات الفائدة وأسواق العملة التي تُبقيهم في الدّيَن، العادات الاستهلاكيّة والمزايا المِهنيّة التي يوفرها أرباب العمل، كالملابس والهواتف والسيّارات، والقاصدة إلى إلهائهم. إن وضع «الزبانة» clientele الذي يُرغَمون على التحوّل إليه لا يسمح لهم باختيار جميع «نكهات الشهر» هذه؛ الأمر أقرب إلى كونها تُحشى في أفواهِهم حَشواً. إن العالَم الذي يَشغلونه ليس لهم إلا على سبيل الدَّين، فمَثَلُ هذه «الطّبقة الوسطى» مَثَل بوّاب الفندق في فيلم «الرجل الأخير» *Der letzte Mann* للمخرج ف. دبليو مورنو F. W. Murnau، الذي يترك حَيّه الفقير كل صباحٍ ويرجع إليه كل مساء، فيُعجَب به رفاقه بسببٍ من ملابسه الفاخرة: لأنه يعمل في فنادق البرجوازيّة، فإنه يكون دائماً بكامل أناقته. ولكن هذا اللّباس المُوحَّد الذي يرتديه ما أُعطيَ له إلا لأغراض العمل؛ هو لا يمتلكه. وفي أحد الأيام، قام رئيسه بتخفيض درجته الوظيفية، فأَخَذَ منه هذا اللباس، لينصرف الرجل خَجِلاً، وهو يرتدي - للمرّة الأولى - الخِرَق التي تعكس مرتبته الاجتماعيّة بشكلٍ أصيل. في ذلك اليوم، هزّه فَهْمُ أن الملابس لا تصنع الرجل، ولكن هذا الإدراك لم يكن من القوّة بحيث يدفعه إلى تطبيقه على أفراد الفئات الاجتماعية الأخرى إلى درجة القول بأن المَلِك، هو أيضاً، عارٍ من الملابس. إن بطل الفيلم هذا يُشبه الأشخاص الذين لا يصوّتون لأحزابٍ من الوسط المتطرّف extreme centre إلا لأنهم لا يريدون المَساس بسراب المُلْكيّة الخاصة، كجزءٍ من إيمانهم بهؤلاء الذين لا يحمل النّظام معنىً إلا لهم.

(11)

رغم إخفاقات النظام، فإن الليبراليّة مهيمنةٌ عليه إلى درجةٍ كبيرةٍ، حتى أن من يتحدّونه يضطرّون للعزف على مفاتيحها لضمان أن موسيقاهم سوف تُسمع. في الولاء السياسيّ لمؤرخ كيبيك إريك بيدار Érik Bédard ، الذي يسير على خطى «الفلاسفة الجدد»،[35] مثالٌ على ذلك. فبيدار Bédard يقول عن نفسه إنه «مُحافِظ» conservative،[36] لأنه يريد أن يتحدّى الناشطين الملهَمين بحركة مايو 1968 وبالفرص اللامتناهية لتحقيق الذات التي تمثلها. ولكن ما إن ادّعى هذا التصنيف حتى سارع إلى محاولة تمييز نفسه عمن يشاركونه إياه: الليبراليّين اليمينيّين الذين صنعوا من الفرد موضوعاً مقدساً، الليراليّين المتطرّفين المهووسين بالحقّ في مراكمة رأس المال، أو المتعصّبين الدينيين الذين يستخدمون الإحالات الدينية كوحدة قياسٍ لتحديد معاني الممارسات السياسيّة، فكلٌّ من هذه التيارات يمكن تصنيفه أيضاً تحت بطاقة «المحافظة»

---

(35) المقصود بـ «الفلاسفة الجُدُد» هو الجماعة المُسمّاة بـ *les nouveaux philosophes*، وهم مجموعة من الفلاسفة الفرنسيين ذوي الميول الماركسية سابقاً، الذين أعلنوا القطيعة مع الفكر الماركسي في بداية السبعينات من القرن العشرين، مثل بيرنارد هنري ليفي Bernard-Henri Lévy، كريستيان جامبيه Christian Jambet، باسكال بروكنر Pascal Bruckner، جان-بول دوليه Jean-Paul Dollé وآخرين (تُعزى هذه القطيعة، في جانبٍ كبيرٍ منها، إلى اطلاعهم على كتاب «أرخبيل الغولاغ» *The Gulag Archipelago* للكاتب الروسي Aleksandr Solzhenitsyn، الذي نشر عام 1973، وما تكشف لهم إثره من أهوال معسكرات الاعتقال الستالينية في الاتحاد السوفيتي). لهؤلاء كتاباتٌ عديدةٌ في نقد سابقيهم من الفلاسفة الراسخين أمثال فريديريش نيتشه Friedrich Wilhelm Nietzsche ومارتن هايديغر Martin Heidegger وكارل ماركس Carl Marx وهيغل Hegel، وفي معارضة جميع أشكال السلطة (السياسية ،الدينية، الاجتماعية). - [المُترجِمة].

(36) « المُحافَظَة» Conservatism هي الميل للإبقاء على ما هو قائمٌ أو سائدٌ سياسياً أو اجتماعياً أو فنياً أو أدبياً وعدم تغييره، ومن ثم مُقاومة التجديد، وهي أساس الصراع الدائم بين القديم والحديث. انظر: جبّور عبدالنور، *المعجم الأدبي* (بيروت: دار العلم للملايين، 1984)، ص. 241. - [المُترجِمة].

conservatism. يقول صديقنا الطيّب هذا إنه «ديمقراطي اجتماعي» a social democrat: إنه «مُحافِظٌ ولكن» conservative, but . . . بالنسبة له، يكفي مناصرة «الدول التي تحاول بَلْوَرَة قواعدَ مشتركةٍ باسم «المبادئ العليا». في هذه النقطة - وفيما يحاول التفرقة بين موقفه النظريّ والمدارس المُحافِظة الأخرى - فإنه يتصرّف، في الحقيقة، مثل ليبرالي. «إن موقف المُحافِظ هو، بالدّرجة الأولى، موقفٌ نقديٌّ نحو جميع هذه الحركات التقدميّة التي تدّعي أنها وَجَدَت معنى التاريخ».[37] موقفي «أنا» المحُافِظ؛ وكأن الفكر المحُافِظ - وهو الآيديولوجيا التي تدّعي تجسيد القِيَم الأخلاقيّة والتقاليد المُشتَرَكة بين الجميع - يمكن أن يُشكَّل وفقاً للتفضيلات المُختارة لشخصٍ ما، في حين أن هذه التفضيلات، في حقيقتها، لا تعدو أن تكون مُفسَّرةً من خلال علاقتها بمرجعياتٍ جَمعيّة، بالضرورة. ليس هذا هو الخلل الوحيد في تفكير بيدار Bédard: ففيما يتعلق بالحركات التي يتحدّاها، يفشل بيدار Bédard في فرز تلك التي خلقت الدولة الديمقراطية الاجتماعية ووقفت إلى جانب القِيَم المُشتَرَكة، التي يريد - رغم أنه يدّعي اعتناقها - حصرُها ضمن محتوىً وشكلٍ محددين. إنه يُغفل حقيقة أن هذا الماضي المحفِّز، المتحرّك، والعنيد لم يكن موجوداً في أيّ مكانٍ عدا في الحيويّة المُتغيّرة للتحوّلات الراديكاليّة. إن «المُحافِظين» من هذا القبيل يقومون بتغيير حقيقةٍ ثابتةٍ ما، لا يعرِف المرء ما هي، من خلال التقاط صورةٍ لفترة تاريخيّةٍ كما لو كانت اللّحظة التي قبضوا عليها حقاً مكتسباً لهم، يسمح لهم وحدهم بحفظه أياً ما كان الثمن. إنهم يُجمِّدون حركات الماضي، فيُحدّدون أشكالها الحقيقيّة بصورةٍ اعتباطيّةٍ وتعسّفية. ومع ذلك، فما زلنا بانتظار أن تمتد عواقب هذه الحركات الماضوية فتتجاوزنا إلى المستقبل. لقد ضلّت الثورة الفرنسية طريقها فلم تستكمل عملها بعد: فالجمهورية هي مفهومٌ لم يتشكّل كاملاً حتى الآن، والمساواة بين

---

(37) Érik Bédard, 'òtre conservateur aujourd'hui', *L'Inconvénient* (Summer 2016).

المواطنين لم تصبح واقعاً بعد، مثلما هي الحال أيضاً مع المبدأ القائل بأن المواطنين يجب أن يكونوا قادرين - بشكلٍ جمعيّ - على تحقيق إراداتهم من خلال المؤسّسات العامة، وبصورةٍ مناسبة. كما أن الثورة الأمريكيّة هي أيضاً غير مكتملة. وهكذا، فالسلطة العامة، التي يُنظر إليها دائماً كآخر، لا يمكن رفضها إلا بأسلوبٍ موصومٍ بجنون الارتياب، يعوق تطوّر دستورٍ جديدٍ يجد أساسه في المكان والزمان الحاضِرَين، ففورات التاريخ هذه تدعنا مع حقوقٍ تنتظر الاستحواذ عليها وأشكالٍ مؤسسيّةٍ ما زالت بصدد التطوير. إن أفضل طريقة لقتل فكرةٍ ما سوف تتمثل دائماً بمحاولة «الحفاظ» عليها.

(12)

يجادل الفليسوف الفرنسيّ ومؤرخ القانون بيير لوجوندر Pierre Legendre بأن الطقوس الدينيّة القديمة هي مكاشفاتٌ revelations مستَخرجةٌ من بئرٍ عميقةٍ تتضمّن معنى جميع الأشياء. ومع ذلك، فهو أول من يُقرّ بأن هذه الطقوس القديمة قد تمّ تحريفها من قبل الإدارة المعاصرة، التي تستخدم مفرداتٍ دينيّةً لتأطير خيارات المستهلك المعرّفة، واقعياً، من خلال استراتيجيّات علم التسويق. لكونهم مُرغمين على الاعتراف بفشل الإدارة العلميّة لسنوات ما بعد الحرب، فقد بحث المُنَظّرون التنظيميون organizational theorists عن الإلهام في الخطابات والمبادئ الموجودة في أماكن العبادة وفي النّصوص الدينيّة الكُبرى. ورغم أن الحرب قد أُعلِنت حصراً على الإرهابيين الذين تم وصمهم بكونهم متعصّبين دينيين، مسيحيين مولودين من جديد born again Christians، متطرّفين باسم الرّب radicalization in God's name، أو رجال الله المجانين Allah's madmen ومن شاكلهم، فإن الرأسمالية ما زالت تَستَحْضِر - في الوقت ذاته - الإحالات الدينيّة. في عام 2009، صرّح لويد بلانكفين Lloyd Blankfein، الرئيس التنفيذي لبنك جولدمان ساكس Goldman Sachs، بأن

البنوك «تقوم بعمل الرب».[38] كما أن الشركات الناشئة Start-ups - المُحاطة بالمدرّبين، المُرشِدين، المعلّمين الروحيّين gurus، وغيرهم من حواريّي الإدارة - محميّةٌ بملائكةٍ من المُستثمرين الذين يساعدونها على أخذ علاقاتها التجارية إلى خيمة الواعظ. بهذا الصدد، يُذكر أن جيسبر كوند Jesper Kunde، كواحدٍ من أبرز المتخصّصين في هذا المجال، كان قد وضع كتاباً مرجعيّاً بعنوان «دِين الشركة» *Corporate Religion*، يقوم من خلاله بتعليم قادة الأعمال ومُدراء الموارد البشريّة كيفيّة تحويل شركاتهم إلى طوائفَ دينية sects، والهدف هو «توحيد كل شيءٍ في دِين للشركة».[39] وقد وافقت صحيفة الفاينننشال تايمز *Financial Times* على نشر هذا الكتيّب الإرشاديّ الضخم بالاشتراك مع دار Prentice Hall للنّشر. ولإشباع عطشه للتّعبيرات المجازيّة، قام خبيرنا المتخصّص في الإدارة الثيولوجية باختزال دِين الشركة إلى ثلاثة جوانب: فأما الأول، فهو خلق شيءٍ من الشّغف الخياليّ حول الشركة وعلامتها التجارية المقدّسة، بما يفصلها عن أيّ واقعٍ اجتماعيٍّ أو تاريخيٍّ أو سياسي، وبهذا، تحيط طائفةٌ بالشركة وبعلامتها التجارية. بعد ذلك، ما دام الدِّين - كما تبيّن إيتمولوجيّة الكلمة - يُفترض به خلق الروابط، فإن الدِّين المُقاولاتي entrepreneurial religion هذا سوف يستخدم أشكالاً حقيقيةً من التشارك لتوحيد سِرب المؤمنين به، وهو سِربٌ لا يشمل الموظفين فقط وإنما المُورّدين والمُستهلِكين أيضاً. وتأخذ هذه الفعاليات شكل التجمّعات العَرَضيّة، الصالونات العامّة، أو الاحتفاليّات، ولعل في قائدي الدّراجات المُكرَّسين في السباقات الرسمية لعلامةٍ تجاريةٍ بعينها مثالاً ممتازاً على ذلك. وأخيراً، فإن الدِّين هو أداةٌ ممتازةٌ للتّلاعُب، فالمجتمع المُغلق الذي يُخلق حول شعارٍ يكون

(38) Dealbook, ‘Blankfein Sys He’s Just Doig God Work’, *New York Times*, http://dealbook.nytimes.com, Nov 9, 2009.

(39) Jesper Kinde, *Corporate Religion* (London: Financial Times and Prentice Plan, 2002).

من السهولة بمكان التّلاعُب به من خلال الاعتقاد. ويمكن تمثيل ثيولوجيّة الشركات هذه برسمٍ بيانيٍّ تصاعدي، تتحول فيه البضاعة - المُصنّفة مبدئياً باعتبارها «مُنْتَجاً» بسيطاً - إلى عنصر خلاصٍ agent of redemption كجزءٍ من «دِين العلامة التجاريّة» brand religion. باتّباع هذه المُقاربة، لا يعود المُنْتَج يُعرف وفق ما هو عليه فعلاً (أصبع حلوى، كِنزة، منصّةٌ لألعاب الفيديو) وإنما صار ينبغي أن يُعرف وفق «مفهوم الشركة» عنه corporate concept. فما إن توضَع عليه العلامة التجاريّة، يصبح المُنْتَج معبأً بالمشاعر، أو كما يقال بالرّطانة الدارِجة «ذا قيمةٍ عاطفيةٍ مُضافة» added emotional value. لم يعد الأمر يتعلّق بمناديلَ للحمام، أو ساعةٍ لليد، أو علبةٍ من الحساء المُجفّف: ذلك أنه الآن، وقد ارتبطت بالعلامات التجارية لكلينكس Kleenex، رولكس Rolex أو ليبتون Lipton، صارت هذه الأشياء تشعّ بشيءٍ مألوفٍ ومُطمْئِن؛ إحساسٌ بالثقة أو بالحبّ الأمومي. ولكن الأمر لا يتوقف هنا، فالرابطة الروحيّة يجب أن تمتدّ إلى خارج الشركة؛ لأن المستهلكين، الذين صاروا الآن مؤمنين، ينبغي أن يشعروا بالارتباط ليس تجاه المُنْتَج وحده، بل أيضاً تجاه الشركة التي وفّرته. ويتبع ذلك فعلٌ من أفعال الاعتراف: على مستوى الإعلان، سيتمثل ذلك في «شكراً» مُخلصةٍ توجّه إلى اسم العلامة التجارية! إن المُنْتَج يصبح عنصراً أساسياً في ثقافةٍ للعلامات التجارية brand culture، عندما يُستشعَر - في العقل الباطِن - كجزءٍ يمثل موروثاً كامناً ما ضمن المشهد الثقافي. وأخيراً، فإنه يصبح دِيناً للعلامة التجاريّة brand religion؛ لقد وصلنا الآن إلى المرحلة الأخيرة، مرحلة النيرفانا Nirvana:[40] بفضل العلامة التجاريّة، يَعرِف المستهلكون/ المؤمنون بأن لهم وجوداً، وككيان، يصل «دِين الشركة» الآن - وهذه ليست مُزحة - إلى «جنّة العلامات التجارية». إن كلاً من العلامة التجاريّة والشركة التي تجعل هذه

---

(40) النيرفانا Nirvana، في الاعتقاد البوذي، هي الانعتاق الكامل للروح، الذي يتحقق بعد تأملٍ طويلٍ جداً، والذي يصل عنده الفرد إلى حالةٍ من النّشوة الروحيّة القصوى. - [المُترجِمة].

العلامة متاحةً هما الآن موضِع عِبادة، حرفيّاً: «هما ضرورةٌ للمستهلك؛ إيمان».
جميع هذه التعابير المُستَعارة من شأنها أن تعطينا شعوراً بعدم الراحة. كُن غبيّاً!
هذا ما يتم إخبارنا به في كل صفحة. إن نشر «الأخبار السعيدة» يجعل من
الناس مجانين إلى درجة أن هذه المقاربة - كما تشير ماري-كلود إيلي-موران
Marie-Claude Elie-Morin في كتابها حول «دكتاتوريّة السعادة» *The Dictatorship of Happiness* -[41] تُجبِر الموظّفين على تبنّي ممارسات الطّائفة.
إنهم يأخذون دوراتٍ في التفكير الإيجابيّ ويطالَبون بأن يكونوا بشوشين وأن
يؤمِنوا بنشاط الشركة، حتى وإن قُدِّمت لهم سفسطاتٌ هي بمثابة إهانةٍ لذكائهم.
في هذا العالم الشجاع الجديد،[42] حدث في إحدى الشركات الملتزمة بهذه
الممارسات - شركة لولو ليمون Lula Lemon - أن فقدت إحدى الموظفات
عقلها ذات مرة فقتلت أحد زملائها هناك.[43]

(13)

إن طيف اليسار/ اليمين يأخذ الآن عدّة أشكالٍ إلى درجة أنه هو أيضاً يبدو
وكأنه يُعرَض كجزءٍ من الوفرة السوقيّة التي يُمجّدها النظام اللّيبرالي. إنه قادرٌ
على أن يُلخّص، بوضوح، التوتّر الدياليكتيكيّ dialectical tension بين

(41) Marie-Claude Élie-Morin, *la dictature du bonheur* (Montreal: VLB Editeur, 2015).

(42) يبدو أن هذه إحالةٌ إلى الكاتب الإنجليزي ألدوس هكسلي Aldous Huxley (1894-1963) وروايته الشهيرة «عالمٌ شجاعٌ جديد» *Brave New World* التي نشرها عام 1931. وتدور هذه الرواية حول شكل المستقبل البشري، وهي ما زالت تثير دهشة الناقدين باستمرار من حيث ما تنبأ به هكسلي Huxley آنذاك من مظاهر حياتنا المعاصرة، كالعولمة وسيطرة الإعلام وتجارة الجنس والمخدرات والتواصل الاجتماعي والهندسة الجينية وصناعة القمار وغيرها. - [المُترجِمة].

(43) Chavie Lieer, 'The Self-Help Movement Behind Lululemon's Eerie Dogma', *Racked*, www.racked.com, Jan 9, 2014.

التوجّهين: المُسالم pacifism والعسكري militarism، التنظيم القانونيّ للنّظام الصناعيّ أو سياسة «دعه يعمل دعه يمر» *laissez faire, laissez passer*، [44] فرض الضّرائب أو إعفاء الثروة منها، تأميم أو تخصيص الهياكل الاقتصاديّة، دولةٌ علمانيّةٌ أو إدراج المُقدّس ضِمن الحياة المؤسسيّة، تطوير قانون العمل أو

---

(44) أدّت الثورة الفرنسية (1789) إلى إلغاء امتيازات الطّبقة الأرستقراطية والترجمة العمليّة للمُثل العليا للثورة من حريةٍ ومساواةٍ وإخاء (*liberté, égalité, fraternité*). وقد استتبع ذلك الأخذ بحرية الإرادة، من خلال فلسفةٍ عمليةٍ مفادها أن العلاقات العقديّة السويّة هي السبيل الوحيد نحو تهيئة المصالح الفرديّة في مجتمع خالٍ من الفوارق الطبقية، مما يتطلّب المساواة في القدرة التفاوضيّة وحرية الإرادة في التّعاقد. ومن ثمّ ظهر مبدأ *laissez faire, laissez passer*، وهو مبدأ يشير إلى السّياسات الحكوميّة العاملة على ترسيخ مبدأ الاقتصاد الحرّ من خلال عدم تدخّل الدولة في عمليات السّوق وترك الحريّة للاعبين فيه لترتيب علاقاتهم من تشريعاتٍ سلطوية، وذلك كردّة فعلٍ لما كان شائعاً في السابق من الكمّ الخانِق من التشريعات الاقتصاديّة التي قيّدت المجتمع برمّته وكبّلت حركته. ومع ذلك، ينبغي دائماً تذكّر أن هناك عدّة عوامل اقتصاديةٍ وسياسيةٍ كانت قد ساهمت، سابقاً، في تراكم رأس المال في أوروبا بيد الطّبقات المتنفّذة هناك (مثل الكشوف الجغرافيّة الكبرى، الفصل بين الكنيسة والدولة، السيطرة على المستعمرات، الاستغلال المنظّم للمصادر الطبيعيّة للثروة، تطوّر عمليات الإنتاج، وغيرها). وهكذا، فلما كانت السّياسات الحكوميّة السائدة في النّظم الأوروبية قد عمِلَت على ترسيخ مبدأ الاقتصاد الرأسمالي الحرّ من خلال عدم تدخّل الدولة في عمليات السوق، فإن هذه الحريّة غير المنّظمة لاقتصاديات السّوق قد أدّت الى ظهور فروقاتٍ طبقيّةٍ كبيرةٍ بين المواطنين من طبقة أصحاب رأس المال من جهة وطبقة العمّال من جهةٍ أخرى، نتيجة لاضطرار الطبقة الأخيرة الى بيع قوّة عملها نظير أجورٍ زهيدة، مقابل تكدّسٍ لرأس المال وإثراءٍ فاحشٍ لملّاك وسائل الإنتاج. وبطبيعة الحال، فمن المعروف أنه، في القرن العشرين، أخذ هذا النقاش بُعداً يتمثل في الخلاف التقليديّ المعروف للاقتصاديين بين الفلسفة التدخليّة لجون كينز John Keynes (أو ما يعرف بالإجراءات الكينيزيّة Keynesian measures، أي المطالبة بتدخّل الدولة في السّوق بناءً على وظيفتها «الحمائية» protectionism)، وبين فلسفة فريدريك فون هايك Friedrich von Hayek (الذي نادي بفكرة النّظام التلقائي للسّوق الحرّة المدارة بأقل قدرٍ من التنظيم الرسمي، أي تحجيم دور الدولة بحيث تقوم بأقل الوظائف minimal state، فتقتصر على السّهر على المرافق الأساسّية الثلاثة، وهي الأمن الخارجيّ والأمن الداخليّ والقضاء، أو ما يُعَبّر عنه بـ «وظيفة الحارس الليلي» night guard model، وترك كلّ ما عدا ذلك لآليّات السّوق). - [المُترجِمة].

التفاوض الحرّ بين أرباب الأعمال والعمال،[45] اللامركزية [46] الإقليمية للمؤسّسات العامة أو تركيزها في العاصمة، منح مراكز انتخابيّة لأعضاءٍ في طبقاتٍ اجتماعيّةٍ متعدّدةٍ ومختلفةٍ أو احتكار هذه المراكز من قِبَل نُخبةٍ مُعرّفةٍ لهذا الغرض تحديداً، الاعتراف بأقليّاتٍ مختلفةٍ أو التشديد على تمثيلهم التقليدي، إسناد القرارات السياسيّة لكياناتٍ منبثقةٍ عن المجتمع المدنيّ أو قصر جميع المناقشات على المؤسّسات الكُبرى للسلطة، التحيّز لمصلحة الصناعة مقابل التّوجه البيئي، الترحيب بالمهاجرين أو إغلاق الحدود، الإيمان بالتجارة الحرّة أو مناصرة الاتّجاه الحمائي protectionism، وهكذا. هذه قائمةٌ لا نهاية لها، كما أنها يمكن أن تخلق تشكيلاتٍ لا حَصْرَ لها. وهكذا، فهناك أسبابٌ عديدةٌ تحدو بقيادات الوسط المتطرّف extreme centre إلى القول بأنهم ينتمون إلى «اليسار» أو إلى «اليمين»، إلى درجة أن يفقد الناس العاديون القدرة على تمييز أيّة تفرقةٍ أساسيةٍ أو نظام قيميّ يمكنهما هيكلة الواقع على أساس من المبادئ المستقرّة.

(45) هناك علاقةٌ موضوعيةٌ ومطّردةٌ بين جودة تشريعات العمل والازدهار الاقتصادي. على سبيل المثال، يذهب كثيرون إلى أنه لولا الثورة المتمثلة بنظام الحاويات shipping containers - التي غيّرت وجه صناعة النقل البحري خلال حياة جيلٍ كاملٍ من العمال - لما تسارَعت وتيرة معدّل نمو التجارة العالمية على النّحو الذي نشهده اليوم. انظر: «العمل اللائق من أجل التنمية المستدامة: مقدم من المدير العام إلى مؤتمر العمل الدولي»، الدورة 96-2007، التقرير الأول / ألف (جنيف: مكتب العمل الدولي، 2007)، ص. 15. - [المُترجِمة].

(46) بصفة عامة، يُقصد بـ «اللامركزية» انتقال جانبٍ من السلطة من الهيئة المركزيّة إلى هيئة أخرى أصغر، تتمتّع بقسطٍ من الاستقلال. واللامركزية قد تكون سياسيّة (كإقليم يتمتع بحكم ذاتي) أو إدارية (كبلديةٍ محلية). انظر: ماجد راغب الحلو، «الإدارة المحلية بين اللامركزية وعدم التركيز»، *مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية* (مصر)، العدد 1، السنة 17، 1975، ص. 6. - [المُترجِمة].

(14)

بصفتنا ما بعد حداثيّين postmodernists، نحن نجد أنه من الصّعب التأكيد بأن هناك معاييرَ إحاليّة referential criteria تنطبق على اليسار واليمين. لنتبع جيرارد فيلوش Gérard Filoche، الذي كان عضواً راديكالياً في الجناح الوطنيّ التنفيذيّ للحزب الاشتراكيّ في فرنسا Socialist Party عام 2014، والذي بلغت به المشاكسة أن وقف معارضاً للحكومة التي شُكّلت بواسطة حزبه. كما أنه رغم كون رئيس الوزراء الفرنسي مانويل فالز Manuel Valls اشتراكياً، إلا أنه اختار، تحت قيادة رئيس الجمهورية، أن ينفّذ سياسةً مطابقةً لمطالبات أرباب الأعمال؛ فهل كان بذلك لاعباً سياسياً منتمياً إلى الجناح اليميني؟ بريئاً من أي جهدٍ فكري، ردّ فيلوش Filoche قائلاً بأن فالز Valls ما زال محتفظاً ببطاقة انتمائه إلى الجناح اليساري؛ وبذلك فإن الانتماء السياسيّ يصبح مسألة تتعلّق بما يُعلنه المرء حصراً، بحيث يمكن لأيّ شخصٍ أن ينتمي لجناح اليسار، إن شاء.

تجاوباً مع مخاوفَ من فترة اقتتالٍ أخويّ fratricidal era تتّسِم بحرمانٍ كَنَسيٍّ مُتَبادَلٍ reciprocal excommunication[47] داخل العائلة المُمتَدّة لما يُسمى باليسار التقليدي، فإن طيفاً جديداً من اليسار/ اليمين تم خلقه، مما حدا بفيلوش Filoche إلى القول بأن فالز Valls هو «على اليمين المتطرّف من اليسار» on the left's extreme right، «على الحافّة» on the edge، وربما أكثر إلى اليمين من أكثر الأعضاء يساراً في عائلةٍ يمينيّةٍ نموذجيّة.[48] أوضح فيلوش Filoche كل

(47) في الدين المسيحي، يُعتبر الحِرمان الكَنَسيّ excommunication عقوبةً توقعها الكنيسة على أتباعها ممن تثبت بحقّهم المخالفة الدينيّة الكبرى، لدفعهم إلى إعلان التوبة. تقضي هذه العقوبة بقطع الكنيسة لصلتها بالفرد المحروم، ومن ثم إخراجه من دائرة الإيمان التي يشترك بها مع غيره من المؤمنين. ويمكن رفع الحرمان بإعلان المحروم لتوبته، وقبول الكنيسة ذلك، إن رأت له مقتضى. - [المُترجِمة].

(48) في النّص الإنجليزي:
"Probably more to the right than the most left-wing member of the nominal family of the Right".

ذلك في مناظرةٍ نظّمتها شركة قناة France 24 للبثّ العام France 24 Broadcasting corporation في 27 أغسطس 2014: في هذه المناظرة، أعلن فيلوش Filoche معارضته لمشروع القانون الذي قدّمته الحكومة المُشكّلة من الحزب الاشتراكي Socialist Party الذي ينتمي له هو شخصياً، وهي المبادرة التي تُنشئ مشروعاً واسع النّطاق لدعم أرباب العمل، فيما دافع عن هذا المشروع أحد قياديي القطاع التجاري. ثم نتساءل لماذا تختلط الأمور على المواطنين.

(15)

يُقدّم اليمين المتطرّف far right نفسه كنوعٍ من الأطراف الصِّناعيّة العقليّة للناخبين المُتْعَبين من هذه التعقيدات. إنه مسكونٌ بنزعةٍ الى الموت، يتطلّع إلى نهاية الفكر المعقّد، ويؤمن بإن إزالة كل اختلافٍ هو أمرٌ كفيلٌ بحل كل المشكلات. ويتمثّل هدف اليمين المتطرّف بالمطالبة بأن يكون الناس محصورين في نظامٍ تمثيليٍّ يُمْسَكُ مثل مرآة، أكثر منه بالرغبة في «بناء» هؤلاء الناس (أياً ما كانت انتماءاتهم). بذا، فهو يطلب من الناس الإيمان بأن هذه الصورة الممسوخة والمبسّطة التي يرونها في المرآة إنما تكشف لهم جوهرهم كشعب، وأن كل ما يناقض هذه الصورة هو شكلٌ من أشكال العدائيّة التي ينبغي طردها من المشهد العام. وفيما يتعلق باليهود، العرب، مثليي الجنس، المسلمين - أو أيّة شخصياتٍ أخرى من هذا القبيل الذي لا يتوافق مع فكرة الذّات الموحّدة the unified subject، كالنخبة الفاسدة مثلاً - فوفقاً للفترة الزمنيّة، يسود هذا اليمين وهمٌ أنه بمجرّد استيعاب assimilation هذه الشخصيّات أو طردها expulsion، فإن الشعب - وقد أُخْتِزُل أخيراً إلى نفسه بالمعنى المفاهيمي - سوف يختبِر، في نومٍ عميق، راحة التوحّد مع نفسه.

(16)

رغم أن الوسط المتطرّف يهدف إلى وقف العداء بين اليسار واليمين، ورغم أنه قد نجح في ذلك إلى حدٍّ ما - من خلال دعواته إلى العقلانيّة، الاعتدال، التزام الجانب العملي، والواقعيّة - إلا أنه قد قام، من ناحيةٍ أخرى، بخلق ردود أفعالٍ عَدائيّة كان ما تسبّب فيها هو عقيدته القاضية بـ «تسمية الأشياء بأسمائها» telling it as it is. هذه العَداوات، التي تمجّد كل شيءٍ لا يتّسِم «بالحصافة السياسيّة» political correctness، سوف تنظر إلى أيّ نوعٍ من اللّغة السيّئة foul language كدليلٍ على الأصالة. بذلك، فوسائل الإعلام التي لا استعداد لدينا لوصفها بصفتها الحقيقية كفاشيّة صارت تُسمى بـ «راديو القمامة» Trash Radio أو Alt-Right[49] في أمريكا الشمالية، في حين أن ذات الإطناب المَرَضيّ نراه موجوداً في أوروبا، لاسيّما في المناظرات الضاريّة التي تدور في وسائل الاتصال الاجتماعي.

وهكذا، فإن سياسةً من الخطاب الفظ، العدائي، والمُفرط تحلّ محلّ الحوار المعارِض الصِحي، إلى حدّ أن المرشحين لأعلى المناصب المُنتَخبَة في بلدانهم يُعيدون إنتاج هذا الخطاب بثقةٍ مُذهلةٍ بالنفس. قلّة من الأشخاص الذين تغويهم مقاربة الزواحف هذه سوف يتذكّرون المحتوى الفعلي لصخب المتحدّث، سواء كان ذلك على منصاتٍ أكبر من حجمهم أو من خلال إعدادات كاميرا كمبيوتر صغيرة.

طالما أن «حديثهم المباشر»، «منطقهم الواضح»، و«تسميتهم للأشياء بأسمائها» هي أمورٌ مرتبطةٌ بالوضعيّة الجماليّة aesthetic posture لما يُفترض أنه

---

(49) مصطلح alt-right هو اختصارٌ لتسمية «اليمين البديل» alternative right، وهو فكرٌ سياسيٌّ يمينيٌّ محافظٌ شعبوي، حمائيٌّ وأقرب للعنصريّة، وهو جديدٌ نسبياً، حيث ظهر عام 2008 من خلال معاداته للفئات المجتمعيّة ذات الخصوصيّة (النساء، المهاجرين، المثليين، الأجانب وغيرهم). ويتجه هذا اليمين البديل إلى رفض المحافظين والجمهوريّين الموجودين على الساحة حالياً، ويقدّم نفسه بديلاً عنهم. - [المُترجِمة].

التصريح - بصوتٍ مُرتفع - بما تفكّر فيه الأغلبيّة بصمت، فسيكون هناك مناصرون يدّعون الفوز على النّخب الراسِخة، مع ما تتسم به هذه الأخيرة من حصافةٍ سياسيّةٍ وامتثالٍ مؤسّسي؛ هناك إحساسٌ بأن الشعارات كافية. عندما تواجهك مثل هذه العقليّة ذات النزعة إلى الهيمنة، يظهر الاستسلام العقليّ وكأنه الخيار الوحيد، ويقود التسرّع الثقافيّ إلى العنف الذي سيتولّى العناية بما تبقى. إن القوّة الرئيسيّة لهؤلاء الأبطال هي أنهم لن يلاقوا خصماً أبداً؛ كل من يشتبك معهم سوف يكون فاسداً إلى درجة مشابهتهم.

(17)

مثل موضوعٍ مُضْمَر، فإن العنف قضيّة. إنه يحيط بالجدل العام بين التقليديين، الذين يبتهجون عندما تستخدم الدولة العنف باسم مبدأ الواقع الفظّ الذي يستدعي «خياراتٍ صعبة» tough choices، ويناصر الوسط المتطرف، الذي يستمتع هو أيضاً بالعنف بدوره فيما يُظهِر أنه مجبرٌ عليه.

ليس من المدهش، إذاً، أن التيارات الرّاكدة للوسط المُتطرّف ينبغي تحدّيها بانتظامٍ من قبل الانتهازيّين المتحمّسين للإثارة المُتوَلّدة من قِبَل مصادر العنف للقوى الغربية. لاعبين أدوار صنّاع المشكلات وبشيري الحقيقة النّاصعة بشكلٍ تبادلي، ليس لهؤلاء اللاعبين المُخيفين الآتين من الهامش ما يمنعهم من استحضار الأصول المُظلِمة للدولة، التي يريد الوسط المتطرّف تقديمها وكأنها أمرٌ باعثٌ على الثقة. ألم ترسّخ السلطة نفسها من خلال الحرب، الاحتلال، الإذلال، الإخضاع، أو حتى الترحيل والإبادة؟ ألا يجب علينا العودة إلى هذا الأصل لتزويد الدولة بالقوة والسلطة، أو ربما حتى رفع فحولتها، التي ينظر إليها دائماً وكأنها إما غير مؤكدةٍ بما يكفي أو مفقودة؟ إن إثارة هذا الدياليكتيك هي هبةٌ من السّماء للوسط المتطرّف. بفضل المحرّضين، هو يأمل بمتابعة نفس

السّياسات تماماً، في ذات الوقت الذي يدّعي فيه أن الاحترام هو ما يهتمّ به فعلاً وأنه هو السبب وراء تحركاته.

(18)

إن سياسيات الجناح اليساريّ المُستحِقّة لهذا الاسم لن تتكوّن من الحديث بلغةٍ لا تزوّد الجدل إلا بالقليل من الذّخيرة اللغوية، وبشكلٍ خجول. إنها، على العكس من ذلك، سوف توفّر طريقةً للتفكير بشأن المنظمة الاجتماعيّة المبنيّة على قواعدَ تجسّد القبضة البرولتياريّة المميّزة على مسار التاريخ. فاليسار، إن كان يساراً حقيقيّاً، سوف يعمل بالضّرورة نحو تطوير وسائط تعطي معنىً لإرادة الذّوات الجمعيّة، حتى ولو تطلّب الأمر منا مراجعة النّقاش العام حول هذه الصورة، باستمرار.

وقد أظهركُتّابٌ مميزون، مثل جاك رانسيير Jack Rancier وبيير روزانفالون Pierre Rosanvallon كلٌّ وفق طريقته، أن الناس لا يمكن السيطرة عليهم مرّةً واحدةً وإلى الأبد من قِبَل سلطةٍ ذات قوّةٍ مؤكدة، وأن الناس يمكنهم تزويد أنفسهم بالوعي الذاتيّ من خلال الأشكال الجماليّة أو الاعتبارات الاجتماعيّة التي ينبغي دائماً النقاش حولها. من هنا تأتي السياسة. على جانب اليسار، فإن المبادئ التي تُؤَسّس عليها هذه الديناميكيّات تحاول تعريف كيف يمكن للذات الجَمعيّة التعبير عن إرادتها من خلال المؤسّسات الاجتماعيّة المُقامة وفق صورة هذه الذات. هذه المؤسسات، التي تقوم من خلال الحرفنة العميقة للسياسة deep professionalization، تُحدِّد بالمعنى العملي كيف تكون الارتباطات بين المشكلات والحلول، بين الدوافع والأشياء محل الرغبة.

على جانب اليسار، فإن العمل والنشاط يتم التفكير فيهما في نطاق التطلّعات الجمعيّة، المعاناة، والاحتياجات. على جانب اليمين، فإن التركيز

على العمل والنشاط يستخدم أيضاً لخلق تمثّلاتٍ مبنيّةٍ على مصالح مشتركة، ولكن هيكلياً، فإن هذه التمثّلات تعطي الأفضلية، في حقيقة الأمر، لكلٍّ من الحّكام وملّاك العقار. على سبيل المثال، يُقال إنه من الصالح العام توفير التدريب للطبقات الدُّنيا حتى يتمكنوا من الحصول على الوظائف التي يوفّرها أصحاب رأس المال، الذين يعرفون كيف «يخلِقون» الوظائف؛ إن هذا لا يعدو أن يكون محض احتيال Misappropriation. كثيراً ما يستخدم لفط «الأمّة» nation أيضاً لإخفاء المعايير الاجتماعيّة الاستغلاليّة والحملات العسكريّة المصمّمة بشكلٍ حَصريٍّ لتعزيز مصالح الأوليجارشية. تحت ذرائع مختلفة (جعل الأعمال التجارية الوطنيّة أعمالاً تنافسية، الدّفاع عن العِرْق الذي تنتمي له، القيام بواجبك المُستَحق) فإن المواقع المحدّدة سلفاً للأقليّة القويّة تكون لها الأولوية على مواقع الأغلبية. لو كان مقدراً للحركات التحرريّة أن تقوم لها قائمة، فإنها ستتأسّس حتماً على الديناميكيّات الطبقيّة، ولو كان من المقرر لحكومة ما أن تصدر قواعد ومعايير لإضعاف علاقات قوة غير متوازنة، فإننا يمكن أن نراها كحكومة جناحٍ يمينيٍّ معتدل، ولكن ليس لجناح يساريٍّ بعد. يبحث اليسار عن تحرير نفسه من الأشكال التي تتّسِم بالأنانية والانحراف معاً، فيما هو يعمل نحو تحديد إطارٍ يمكن للذات الجمعية التعاطي مع نفسها من خلاله بطريقةٍ سيادية. هذه هي الطريقة التي سوف نستطيع من خلالها، كشعب، تحديد القيود التي اخترنا أن نضعها على أنفسنا في معرض إدارتنا لاختلافاتنا؛ مع فهم أن حريتنا ستحدّد حصراً بطريق هذه القيود. إن هذا المشروع غير مسبوق، بالمعنى الحرفي، من حيث إنه لم يتم التسويق له في أي مكان، حتى هذه اللحظة.

(19)

وحيداً ومُعرَّضاً لخطاباتٍ رماديّة، ثم مبتذلة، طَمَسَت بالنّهاية جميع النقاط المرجِعيّة التاريخيّة historical reference points، فإن «المُواطن» citizen الذي انحدرت به الحال إلى مركز «الفرد» individual، تتقلص قيمته أحياناً إلى حدٍّ يضطرّه إلى التساؤل حول مصدر السلطة (من أين تأتي السلطة؟) من يقرّر ذلك؟ في مشهدٍ مثل هذا، يصعب التعرّف على السلطة السيادية sovereign authority، التي تعني - بالنهاية - قوة عدائية.

عندما نذهب للبحث عن السلطة، فإننا لا نتعرّف على أي خصمٍ واضح، وإنما نصطدِم بأجهزة الشركات، أو بـ «الأشخاص القانونيين» legal persons (بالفرنسية: *persons moral*)[50] للمال أو برجال القش في قطاع الصناعة، الذين يتصرّفون تحت ضغطٍ يُمارس عليهم من العالَم أجمع بواسطة سوقٍ غامضةٍ وحَمَلة أسهمٍ طائِشين. تخضع الشركات للقوانين، والقوانين تصدر بضغطٍ من الناشطين السياسيين، والناشطون السياسيون يتحرّكون بناءً على الإعلام، والإعلام يُصغي بانتباهٍ إلى الأسواق وكيفيّة تطورها، والأسواق عُرضةٌ للأوضاع الجارية، والأوضاع الجارية تتأثّر بأفعال البنوك المركزيّة central banks، والبنوك المركزيّة مستقلةٌ عن الحكومات، والحكومات تُدار من قبل أحزابٍ

(50) ينقسم الأشخاص الذين يخاطبهم القانون إلى فئتين؛ فأما الفئة الأولى فهي فئة الأشخاص الطبيعيين (أي الأفراد)، وأما الفئة الثانية فهي فئة الأشخاص الاعتباريين. والشخص الاعتباري هو مجموعة من الأشخاص أو الأموال الرامية إلى تحقيق غرض معين، والتي يسبغ عليها القانون الشخصية القانونية المستقلة، وذلك بالقدر اللازم لتحقيق هذا الغرض، فلا يثبت له من الحقوق إلا ما كان لازماً لتحقيق ما قام من أجله، ومن ثم فهو مجرد كيان افتراضي أو حكمي. بذلك، فإن نطاق الشخصية القانونية للشخص الاعتباري يتحدد باستقلال شخصيته القانونية عن شخصية الأشخاص المؤسسين له، وبكونه لا يكتسب الحقوق المعنوية غير المالية (كحقوق الأسرة أو الحقوق السياسية). - [المُترجِمة].

سياسيّة قريبةٍ من الجريمة المُنظّمة، والجريمة المُنظّمة «تغسل»[51] أموالها في كيانات الأوفشور offshore، وكيانات الأوفشور أصبحت جزءاً من الشركات متعدّدة الجنسيات، والشركات متعدّدة الجنسيات مُعتَمَدَةٌ من وكالات التّصنيف rating agencies، ووكالات التّصنيف تُبدي آراءً في الميزانيّات الحكوميّة، والميزانيات الحكوميّة مبنيةٌ على الواقعيّة والبراجماتيّة.

منتشرة مثل الجذامير rhizomes،[52] فإن القوى التي تكون جزئيةً دائماً ولكن تعسفيّة تغذّي تطوّر نوعٍ فكريٍّ يُعرف عند العامّة بنظريّة المؤامرة conspiracy theory. هذا التعبير بحدّ ذاته هو من أعراض الفراغ العميق الذي سقط فيه الخِطاب العام المُعاصر. إن كلمة «مؤامرة» هي مصدرٌ للتّنافر الإدراكي cognitive dissonance.[53] فهذه فكرةٌ تُستخدَم في القانون إما لحماية الاعتراف

---

(51) غسيل الأموال money laundering، أو تبييض الأموال كما يسمى أحياناً، هو أخذ الأموال المتحصلة من أنشطة إجرامية مشبوهة (كبيع المخدرات أو السرقة أو التهريب) ثم تطهيرها من خلال إسباغ المظهر القانوني عليها (من خلال تمريرها في قنوات مشروعة كإصدار الشيكات والإيداعات والتحويلات المصرفية وفتح الحسابات العادية أو الاستثمارية) وذلك لإبعاد الشبهات عنها وإظهارها وكأنها متحصلة من خلال طرق «نظيفة» كالتجارة أو المضاربة أو الاستثمار. - [المُترجِمة].

(52) الجذمور (و جمعها جذامير rhizomes) هو أحد مصطلحات علم النبات، وهو يعني ذاك الجزء من بعض النبات الذي ينمو تحت الأرض وبشكل موازٍ لها، ثم ينتشر في جميع الاتجاهات (كما هي الحال مع الجزر والبطاطس واللبلاب). وقد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أن الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز Gilles Deleuze (1925-1995)، في كتاباته، كان يستخدم فكرة «الجذمور» للتعبير عن التعدّد المفاهيمي وتداخل الفكر وانتشاره. - [المُترجِمة].

(53) «التّنافر الإدراكي» (أو المعرفي) Cognitive Dissonance هو نظرية في علم النفس السياسي خرج بها عالم النفس الاجتماعي ليون فستينجر Leon Festinger (1919-1989)، وهي تقرر أن الناس عندما يُحمَلون على التصرف بطريقة تتعارض مع معتقداتهم أو عندما يجدون أدلة مثبتة تتناقض مع افتراضاتهم، فإن توتراً نفسياً سوف ينجم عن ذلك، سوف يقودهم إلى تغيير معتقداتهم بما يتناسب وسلوكهم الواقعي الجديد، بخلاف ما كان متصوراً حول طبيعة السلوك الإنساني (أي تغيير السلوك بما يتوافق والاعتقاد). - [المُترجِمة].

بجريمة إبادةٍ ضدّ من ينفونها، أو - في منطقةٍ مختلفةٍ تماماً - كأداةٍ بيد القُضاة لتحديد العقوبات التي ستطبّق على المجرمين في مجال التمويل الضخم high finance. عندما تُستخدم بشكلٍ أكثر حريّة، فإن هذه الكلمة هي واحدةٌ من اللّعنات anathemas المُحبّذة من قِبَل أيّ شخصٍ يرغب في خنق نقاشٍ ما. «المؤامرة» هي كلمةٌ تستخدم أيضاً لوصف عددٍ مقلقٍ من القِصَص الخياليّة التي تغذّيها الآلاف من وسائل الإعلام الصّغيرة. المُناظرات المُحيطة بأسباب هجمات 9/ 11 في الولايات المتّحدة الأمريكيّة هي مثالٌ ممتازٌ على الطّريق المسدود الذي تقود إليه. فالتّصريحات الرسميّة تصِف مخطّطاً مُدبّراً حيكَ بواسطة اتّحادٍ إرهابيٍ لا شكل له، يمتدّ من المملكة العربية السعودية عبر العراق وأفغانستان وصولاً إلى باكستان، أما معارضو هذه النسخة من الرواية فيمكنهم دحضُها بسهولةٍ من خلال تحدّي مدى إمكانيّة تحقّق صورها وسرديّتها على أساسٍ من الفيزياء الأوليّة. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتّفق عليه هنا هو أنه كان هناك مخططٌ مُدبّر.

يظلّ الفكر مُعلّقاً عندما يدور الأمر حول التّساؤل عن الكيفية التي يُدار بها هذا العالم. مُعتنقو «نظريّة المؤامرة» - الخائفون من مدى نطاق ما لا نعرفه، المُسرعون إلى ملء الثّغرات، المتلهّفون على تزويد السرديّة بعمقٍ مكانيٍّ / زماني spatio-temporal depth، والشّغوفون بالتّعرف على الأطراف المُذنِبة واسترجاع الحقيقة - هم أُناسٌ مثيرون للاهتمام، ليس من حيث أشخاصهم، بل باعتبارهم عارِضاً مَرَضيّاً لعالَمْ فَقَد، تماماً، مَحامِل اتّزانه.

(20)

إن موضوعات المُناظرات السياسيّة للوسط المتطرّف تتعلّق بظاهرتَي الإزاحة displacement والتكثيف condensation[54] اللتين حلّلهما فرويد Freud كعناصرَ للنّشاط النّفسي الذي يدور أثناء الحلم. في الحالتين، يتمّ التعرف على العالَم، عقلياً، باعتباره يرتبط برموزٍ معزولة displaced symbols يكون المرء قد حمّلها بالمعنى عِوَضاً عن التعامل مع الموضوعات الجادّة الكامنة خلفها. فالانبعاثات الكاربونيّة carbon exchange هي موضوع مُغطىً إعلامياً بشكل واسع، وذلك بدلاً من التصدّي لتغطية التراجيديات البيئيّة التي تسبب فيها الاستغلال الصناعي؛ مُهَجّرو الحرب السوريّة الهاربون من منطقة النزاع، بدلاً من خطوط أنابيب البترول التي تمثل أصل الصراع؛ التصوّرات حول سُبُل دفع الدَّين اليوناني، بدلاً من الترتيبات الإجراميّة التي جعلت من الشعب مسؤولاً عن هذا الدَّين؛ المشاحنات البرلمانية، بدلاً من سلطات الشركات متعدّدة الجنسيات؛ الصراع المُربِح حول أنواعٍ معيّنة من السرطان، بدلاً من التغييرات الغذائيّة البسيطة التي قد تكون كفيلةً بالوقاية من هذا المرض؛ إدارة فريق لعبة الهوكي المحلي، بدلاً من إدارة صندوق الثّروة السياديّة للدولة، وهكذا. وتتناول النقاشات العامة الملابس التي ترتديها أو لا ترتديها القلة أو الكثرة من النساء - النساء، سواء كن مسلِمات أو من ناشِطات حركة «فيمن» Femen،[55] من الذين

(54) «الإزاحة» Displacement هي فكرةٌ خرج بها المحلّل النفسي سيجموند فرويد، وهي تذهب إلى أن للنّفس آليةً دفاعيةً من طبيعةٍ لاشعورية، يستبِدل العقل فيها الأهداف التي يراها خطرةً أو غير مناسبةٍ بهدفٍ آخر جديد (فالموظف الذي يتعرّض للتقريع من رئيسه ينفّس عن غضبه في مرؤوسيه الأدنى منه مرتبة، لا في هذا الرئيس، حمايةً لنفسه). أما في حال تكرّر عمليات الإزاحة نحو ذات الفكرة فهو يسمي عندئذٍ بـ «التّكثيف» Condensation. - [المُترجِمة].

(55) «فيمن» FEMEN هي حركةٌ احتجاجيةٌ نسويةٌ أوكرانية، معنيةٌ بالدفاع عن حقوق المرأة في مواجهة الاستغلال الجنسيّ والاضطهاد الدينيّ والعَسَف السياسي. وعادة ما تلجأ ناشطات هذه الحركة إلى الاحتجاج العام من خلال كتابة الشعارات على أجسادهن العارية، ثم

لا نعرف عنهن شيئاً ولا يُتَوقّع مِنّا ذلك - أو تركّز على الهمجيّة المُفتَرَضة لأُناس مُعَرّفين بلون بشراتهم أو بأصولهم.

انطلاقاً من أعماقهم الروحية، يتناقش كثيرون بطريقة تحوم حول تخوم الهذيان المتعلّق بموضوعاتٍ تستخدم لإخفاء القضايا الحرِجة: الكتل الجليدية تذوب، التصحّر يتَزايد، التربة الزراعيّة تتآكل، الإشعاع يتسرّب من النفايات النوويّة، درجة الحرارة حول العالم ترتفع، النُّظُم البيئيّة تتداعى، الدّولة الاشتراكيّة تتهاوى، الاقتصاد الذي تم اختزاله الآن إلى التمويل تم استبعاده كليةً، ما عاد هناك قوّةٌ يمكنها التّصدي للقوّة الماليّة، احتلال المصادر الطبيعيّة والأسواق يستدعي الحرب، النِّقاط المرجعيّة الفلسفيّة ضاعَت، وكل ذلك ضمن نظامٍ يسمح الأفراد فيه بأن يُداروا من أسبوعٍ إلى آخر من قِبَل أشخاصٍ تافهين يعرفون كيف يستفيدون من ذوي السلطة.

وفق ما يشير إليه فرويد Freud، فإن العناصر المَنظورة من حلمٍ سيّئٍ مثل هذا لا يمكن تفسيرها بحيث تعني شيئاً مُحدداً بعينه، ولكنها مع ذلك تنقل - بطريقةٍ مستترة - الآثار المُرتبِطة بالموضوعات التي لا تستطيع استدعاءَها إلى وعينا. نظرةٌ سريعةٌ إلى أيّة صحيفةٍ تم تداولها على نطاقٍ واسعٍ هي أمرٌ كافٍ لتأكيد ذلك. إن صحف «التابلويد» tabloids[56] تشبع الرّغبات التي تحملنا على

الظهور بشكلٍ مفاجئٍ في المحافل العامة، لجذب الأنظار للقضايا التي يُنادين بها. - [المُترجِمة].

(56) صحافة التابلويد Tabloid هي نمطٌ صحفيٌّ يهتم بموضوعات الفضائح والترفيه وقصص الاهتمام الإنسانيّ وأخبار المشاهير (الذين يأتون من مجالات الترفيه على الأغلب، والذين تجتذب حياتهم الخاصّة اهتماماً يتساوى مع أو يفوق حياتهم المهنية)، إدراكاً من ووسائل الإعلام للعوائد التجارية التي تجنيها من وراء إشباع شهيّة الجمهور لقصص المشاهير وصورهم. ويُنتقد هذا الضرب من الصحافة بكونه يعتمد على الأخبار التافهة من حيث الأسلوب والمحتوى، بما لا يتوافق مع منظومة القيم العليا للصحافة التقليدية. وبالمقابل، فهناك آراءٌ محبذةٌ للتابلويد Tabloid باعتبارها صحافة تقرّب بين كل من المشاهير والمواطنين العاديين، وبذا، فإن هذه المقاربة الأكثر احتفاليةً تمثل فتحاً لمنصات نقاشٍ جماهيريةٍ فلا تقتصر على النّخب التقليدية فقط. - [المُترجِمة].

قراءة صحيفة - رغبتنا في التعلّم، في التأثّر، في التّعبير عن أنفسنا، في التّحليل، في الاعتراف - ولكن هذه الرّغبات تم الانحراف بها عن مقاصدها. إن تَعَلُّمَنا يتمّ من خلال الصفحات الأولى؛ تلك التي تُشدّد على وصف الظّواهر التي تبدو غريبة وغير الممكن التّحكم فيها. إننا نتأثّر بالعمود الخاص بالنّصائح الشخصيّة، أو صفحات الفنون؛ نحن نعبّر عن أنفسنا من خلال أعمدة كتّاب الرأي وحوافزهم الصغيرة، نحن نحلّل، ولكن فقط المعلومات المُستَفيضة في الصّفحات الرياضيّة؛ ونحن نشعر بالارتياح أخيراً من اضطرابات العالم من خلال حَلاوة الإعلانات. إن الصّحيفة تقدّم لنا ما نتوقّعه، إلا أنها تُشظّي ردودنا الذاتية من خلال توجيهها نحو موضوعاتٍ غير ذات ارتباطٍ ببعضها أو بأيّ شيءٍ تسبب في ردودنا أصلاً. تخلق الصحيفة توتّراً من خلال أقسامِها المولّدة للقلق، ثم تقوم بتهدِئة هذا القلق من خلال تغطيتها لموضوعاتٍ تافِهة. إن هذا الوسيط الإعلاميّ لا يساعد على حمل قُرّائه على التفكير في التقلّبات التاريخيّة وإنما على غمرِنا في عالَمٍ من الظلام والحنق الذي يمكن لهذا الوسيط وحده مُساعدتنا على احتماله.

(21)

يمكننا أن نفهم أنه ليس هناك من شخصيةٍ نيتشويةٍ Nietzschean figure ستتقدّم اليوم بشجب «تفاهة» mediocrity «الأشخاص الصغار» small people الذين يُحاولون أخذ موقفٍ «في المنتصف» in the middle، على مسافةٍ متساويةٍ من الجميع.[57] إن الاحتقار الذي كان الناس يستشعِرونه في السابق للأشخاص الجبناء الذين كانوا يُفضّلون التسوية والوسطيّة هو شيءٌ من الماضي؛ فلم تعد

(57) Fredrich Nietzsche, *Thus Spoke Zarathustra*, part 3, tr. Graham Parkes (oxford: Oxford University Press, 2005), p. 147.

الحداثة هنا. إن كلمة التّفاهة mediocrity ما عاد يمكن استخدامُها بهذا المعنى. وإن حدث أن استُخدِمت في هذا المعنى المذكور، فإن علماء الاجتماع الشرعيّين legitimist sociologists[58] مثل لوك بولتانسكي Luc Boltanski سوف يقومون، على عجل، بتعريف المُتحدّث المُتَعجرِف باعتباره «رجلاً ساخِطاً» man of resentment،[59] وهي تسميةٌ يُراد بها المُثقّف الفائِض عن حاجة المؤسّسات التعليميّة؛ منظِّرٌ مُحْتَمَلٌ لنظريّة المؤامرة، هو بحدّ ذاتِه شخصٌ تافهٌ قام بتحويل كُرْهَهُ لذاتِه إلى كراهِيةٍ للمجتمع ككل.[60]

اليوم، نحن لا ننتقد الناس الذين يتعثّرون في طريقهم في الحياة بسبب افتقارهم إلى الحزم والحيويّة: إننا نعرف أنهم يتصرفون وفقاً لتعليمات. إن القوى الراسِخة لا تستاء من السّلوك المُعتاد، بل تجعله إجبارياً؛ فهناك نوعٌ جديد من التفاهة هو في طور وضعِ أساساته. ما عادت التفاهة ترتبِط - كما كانت النُّخَبُ تتخيّل في القرن التاسع عشر - بالمثقّفين ذاتيي التعليم وبمُلّاك الدكاكين، الواثقين من دونيتهم، والذين يحُاولون بمشقةٍ الحصول على المعرفة ويشاركون في الفنون المقصورة على النُّخبة. لقد صارت التّفاهة تتجسّد الآن بالمعايير المِهنيّة، بروتوكولات البحث، عمليّات مراجعة الحسابات،

(58) هنا لَعِبٌ على المسمّيات من خلال الإحالة إلى مسمّى «الشرعيّين» *Les Légitimistes* في فرنسا، الذين كانوا مناصرين للحكم الملكي مع التمسّك بحقوق التعاقب الأسري right of succession لأفراد الفرع الأكبر من أسرة بوربون المالكة في فرنسا House of Bourbon. - [المُترجِمة].

(59) Luc Boltanski, *Mysteries and Conspiracies: Detective Stories, Spy Novels and the Making of Modern Societies*, tr. Catherine Porter (Combridge, UK: Polity Press, 2014), chapter 5.

(60) بهذا الصدد، يُذكر أن ماكس شيلر Max Scheler كان قد أطلق على هذه العقليّة التي تريد أن تخفي الحقائق والثوابت وصف «العقلية الحاقدة على كلّ صحيحٍ، وثابت، وحقيقيّ وقيمي»، مشيراً إلى أن السّخط resentment المُعيق لمن هم أقلّ ذكاءً مَن سواهم هو ظاهرة معروفة، انظر: هاني يحيى نصري، *الوجود والموت والخلود* (دار القلم: بيروت، د. ت)، ص 96. - [المُترجِمة].

والمعايرات المنهجيّة methodological calibrations التي تطوّرها المُنظّمات المهنيّة حتى تجعل من مرؤوسيها قابلين للتغيير بصورةٍ تبادليةٍ interchangeable.

هذا هو النّظام الذي تُفسِح فيه «الحرفة» craftwork الطّريق لـ «الوظيفة» function، المُمارسات practices للتكنيكيات techniques، المَهارة skill للتّطبيق implementation. لقد كُتِبَ تاريخ هذا النظام من قِبَل ميشيل فوكو Michel Foucault (الذي قام بتحليل كيف شكّل الجَيش معنى أن يكون المرء جُندياً *l'air du soldat*)،[61] كارل ماركس Karl Marx وفريديريك تايلور Frederick Tylor (بشأن الأشكال القصوى للتقسيم الصّناعي للعمل Division of Labour)،[62] حَنّة آرنت Hanna Arendt (حول التّنفيذ الأعمى للتّعليمات

(61) Michel Foucault, *Discipline and Punishment*, tr. Alan Sheridan (New York: Vintage Books, 1995), p.135.

(62) تتضمن الفقرة إشارة إلى آدم سميث، ثم إلى ما يُعرف بـ «التايلرية» و«الفوردية». ففي مؤلفه الشهير «ثروة الأمم» *The Wealth of Nations* (1776) أوضَح مؤسّس علم الاقتصاد الحديث آدم سميث Adam Smith الفوائد التي تترتّب على تقسيم العمل من حيث زيادة الإنتاجيّة. فذكر أن عاملاً بمفرده قد يصنع عشرين دبوساً في اليوم، فإذا ما قُسّم العمل إلى عددٍ من المهام البسيطة، فإن فريقاً مؤلفاً من عشرة عمّالٍ ممن يتعاونون على إنتاج الدبابيس، كلٌّ في ما يخصه، سيكون بوسعهم أن ينتجوا 48 ألف دبوسٍ في اليوم، بما يعني أن إنتاج العامل الواحد المتخصّص سيتضاعف 240 مرة قياساً على ما كان يقوم به بمفرده. وبعد سميث Smith بمائة سنة، ظهرت ذات الأفكار بصورةٍ أوضح في كتابات خبير الإدارة الأمريكي فريدريك وينسلو تايلر Frederick Winslow Taylor (1856-1915)، لاسيما كتابه *The Principles of Scientific Management* (1911)، الذي طرح فيه نظريته في «الإدارة العلمية» من خلال دراسة العمليّة الصناعيّة وتجزئتها إلى عمليات تشغيلٍ بسيطة يمكن تنظيمها وتوقيتها على نحو دقيق وصارم. ثم أتى الصناعي الشهير هنري فورد، فأسس فورد عام 1908 أول مصنع للسيارات لصنع منتج واحد فحسب، وهو «نموذج تي» T Model، إدراكاً منه لأهميّة السّرعة والتخصّص في التصنيع، من خلال إقامة نظام خطّ متحركٍ للتجميع، مع تكليف كل عاملٍ على خطّ التجميع هذا بواجبٍ تخصصيّ صغير ومحدّد، مما يعني أن فورد Ford قد تنبه للرابطة بين الإنتاج وحجم السوق، فأصبحت الفوردية Fordism تمثل نظام الإنتاج بالجملة مع ربطه بتنمية الأسواق بالجملة. وبهذا المعني، فإن الفوردية تمثل امتداداً للمبادئ التي طرحها كل من سميث Smith وتايلر

الإداريّة)،[63] وجورج سيميل Georg Simmel وسي. رايت ميلز C. Right Mills (حول الأداء الخالي من التفكير الذي يقوم به العلماء من مُتلقّي المِنَح). عندما يُصبح العمل سبيلاً لكسب الرّزق للفقراء ووسيلةً لإنتاج السّوق للأغنياء، فإنه من الواضح أن هذا، أيضاً، سوف يتطلّب صيغةً تافهة.

(22)

كلما أسّست سلطتها على أيّ اعتبارٍ عدا قُدرة العقل على إنتاج المعنى، يكون واضحاً أن الجامِعة قد ضَلَّت الطريق. هذه هي الحال، مثلاً، عندما تُحيل الجامِعة الأساتذة فيها إلى مجرّد سماسرةٍ يبيعون نتائجَ الأبحاث للمُمَوِّلين. ومع ذلك، فإن الأساتذة قد يتسامَون على أنفسهم - حتى عندما يفتقرون إلى أية مسافةٍ حرجة critical distance - عندما يكون الغرض المُراد من أبحاثهم هو تحقيق مشروعاتٍ منحرفة. كان كلٌّ من ماتس ألفيسون Mats Alvesson، وأندريه سبايسر André Spicer من جامعة Lund University وجامعة City

Taylor. انظر: أنتوني غدنز، *علم الاجتماع*، ترجمة فايز الصياغ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005)، ص. 444. - [المُترجِمة].

(63) تقصد العبارة كتابات المُفكّرة حَنّة آرنت Hanna Arendt (1906-1975) التي كانت، كصحافية، تحضر جلسات محاكمة الضّابط الألماني أدولف آيخمان Adolf Eichmann (1961) ، الذي اتهم - بصفته رئيساً لجهاز البوليس السري الألماني- بلعب دورٍ في عمليات التعذيب وفي جرائم الإبادة التي تمّت في معسكرات الاعتقال النازيّة خلال الحرب العالمية الثانية، والذي صرّح إنه لم يفعل ذلك إلا تنفيذاً للأوامر التي صدرت إليه من قيادة الجيش. على إثر تلك المحاكمة، خلُصَت آرنت Arendt بأن إيخمان Eichmann، في جرائمه البشعة تلك، لم يكن إلا مجرّد موظفٍ ينفذ الأوامر تنفيذاً أعمى، فهو - رغم منصبه الرّفيع في الرايخ الثالث - كان «محض رجلٍ تافه» على استعدادٍ أن يفعل أيّ شيء، لا على أساسٍ من تفكيرٍ واعٍ أو آيديولوجيا جادّة، وإنما لغرض الحفاظ على وظيفته في الجيش فقط. انظر: حنة آرنت، إيخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشر، ترجمة نادرة السنوسي (بيروت: دار الروافد الثقافية، 2014). - [المُترجِمة].

University في لندن، جادّين تماماً أثناء تحليلهم للكيفيّة التي ساد فيها «الغباء الوظيفي» functional stupidity على العقل في المنظّمات التي يسيطر عليها الجشع؛ بل إن هذه المنظّمات توفّر حُجَجاً علميّةً لمصلحة مثل هذا الغباء. «الغباء الوظيفيّ يعني غياب القدرة على التأمّل، رفض استخدام المَلَكات الثقافيّة إلا بطرقٍ قصيرة النّظر، مع تفادي تقديم التبريرات».[64] لقد أصبح ابتذال الشر علماً الآن، لأن الفضول في محل العمل ينبغي إخصاؤه. علينا أن لا نحاول الفهم، وإنما أن نحصر تفكيرنا، عِوضاً عن ذلك، في الدروب المَطروقة للمؤسّسة حتى نتأكد أننا نعمل وفقاً لمتطلباتها. إن هذا يساعدنا على فهم السبب وراء كون كثيرٍ من ممثّلي السلطة يَعرِفون أنهم أغبياء، ووراء كون المرؤوس الذي يقوم بفعلٍ شنيع - مثل الاقتباس من كتاب «نظام التفاهة» *Mediocracy* هذا - يمكن أن يُستدعى للمثول أمام لجنة تحقيقٍ تُوجِّه له، بسببه، توبيخاً مهيناً. لا يتعلّق الأمر تحديداً بكون السلطات لا تريد للحقيقة أن تُقال، فلا أحد ملتزمٌ بشكلٍ مُخْلِصٍ بحمل مُعجم المنظّمة على مَحْمَل الجِد.

ومع ذلك، فمن المهمّ جداً إخماد الضحك السّيادي الذي تثيره مفردات هذا المُعجم، حتى لا يتهشّم عرضه الاختيالي هذا. ينبغي عدم جعل «مستشار التوحيد القياسي» standardization consultant يشعر وكأنه مجرّد محاسب. إن الخواء السيميائي semantic emptiness هو أمرٌ إجباريٌّ على المدراء الذين يجب عليهم التعويل على قيام موظّفيهم بكل أمر يُطلَب منهم. هذا هو السّبب في أنه - أثناء المقابلات الوظيفيّة - يمكن للمدير أن يسأل المرشّحين للوظيفة عما إذا كانوا قادرين على «تحمّل الغموض» tolerate ambiguity. في مفردات الإدارة managerial vocabulary التي وثّقها ألفيسون وسبايسر Alvesson and Spicer، هناك - حرفياً - حاجةٌ لمعرفة ما إذا كان الناس مغفّلين، أي ما إذا كانوا قادرين

(64) Mats Alvesson and André Spicer, 'A Stupidity-Based Theory of Organizations', *Journal of Management Studies*, 49, 7 (Nov. 2012), p. 1194.

على حصر الفكر في المرحلة التي تسبِق التفكير، حتى لا يصلوا إلى مرحلة التفكير ذاتها. يُذكّرنا الأمر بالمسلك الذي مكّن سماسرة الأسهم المُسَرْنَمين، خلال العقد الأول من هذا القرن، بالاستمرار في شراء منتجات سوق المال السّخيفة التي تحمل تصنيف AAA المُخادع، متسبّبين بذلك بغرق الكوكب في واحدةٍ من أسوأ الكوارث الماليّة في التاريخ. وفقاً لألفيسون وسبايسر Alvesson and Spicer:

> الغَفْلَة هي أمرٌ مطلوبٌ في البيئات المعقّدة ذات التفضيل للأهداف الغامضة. الغَفْلَة هي شكلٌ استكشافيٌّ من أشكال التفكير، نقوم خلاله بالتصرّف في الأمر قبل أن نفكّر فيه. الأفعال «المغفّلة» تساعدنا على توضيح، تشكيل، واختبار التفضيلات preferences. إنها تسمح بالتجربة من خلال الفعل والمناعة ضدّ الملاحظات والتعقيبات feedback. إن هذا لمما يسهّل النّشاطات الجديدة التي لم تظهر الأدلّة على نجاحها بعد. هنا، فإن المستوى العالي من الغموض يقصِد - ببساطة - إلى منع الناس من تعبئة مَلَكاتِهم الإدراكية إلى درجةٍ كاملة، ومن التصرّف بشكلٍ عقلاني.[65]

(23)

هناك تصنيفٌ من خمس شخصيّات مفاهيميّة تظهر لتجسد ردود الفعل المُحتملة لهيمنة النّظام الذي يتطلّب التفاهة. إن رجل الروائي بيير لوفيبر Pierre Lefebvre الذي يسميه «الكَسير» broken[66] ونظيره «الرجل النائم» الذي خرج

---

(65) Alvesson and Spicer, 'A Stupidity-Based Theory of Organizations', p. 1197, citing James G. March, 'Learning to be Risk Averse', *Psychological Review* 103 (1996), pp. 308-319, and 'Rationality, Foolishness, and Adaptive Intelligence', *Strategic Management Journal* 27 (2006), pp. 201-21.

(66) Pierre Lefebvre, *Confessions d'un cassé* (Montréal: Éditions du Boréal, 2015).

به جورج بيريك Georges Perec[67] هما الاثنان يرفضان النّظام الرّاسخ من خلال الانسحاب منه. إنهما يركَعان تحت الزمن. تحت الردار، يختار هذان المتطفّلان أو الزّاهدان - من دون تردّد - وضع انعدام الاستقرار، رافضين هَزَلّية المنظّمات المعاصِرة وانمساخها. كما يوضّح لوفيبر Lefebvre «السبب الحقيقي والوحيد لعدم قدرتي على الاستمرار في معظم الوظائف التي عملت بها كان بسيطاً: لم أعتد أبداً على مركزي كمَورِدٍ بشريّ human resource».[68] إنهما غير مدفوعين بالرّغبة في المقاومة السياسيّة بالدّرجة الأولى، إنهما يتصرّفان كذلك بسببٍ من تقزّزٍ غَريزيّ ومن أجل حفظ نفسيهما.

الشخصيّة الثانية هي الشخصيّة التافهة بطبيعتها. هذا الشخص التَعِس يصدّق ما يُروَى له من أكاذيب لأنه، منذ الطّفولة، لم يكن له حقٌّ في أيّ شيءٍ آخر. إنه شخصٌ طيّب، يحبه الآيديولوجيّون، وهو يعتنِق نظريّاتهم لأنها أصبحت جزءاً من بُنيته الذاتيّة. كل ما ينتِج عن ممارسات زماننا تبدو له طبيعيّة جداً. صحيح، هو يُعاني؛ فقد يأخذ حبوباً مُنَوّمةً ليلاً ويُسرف في شرب القهوة صباحاً. ولكن عندما يفوز الفريق الرياضيّ المَحَلّي بالبطولة، يشعر بشعورٍ طيب، والتّخطيط لرحلةٍ سياحيّةٍ إلى وجهةٍ مغمورةٍ بالشّمس المُشرقة (بناءً على نصيحة وكيل السفريات) يُساعده على احتمال وضعه. على أية حال، لا شيء يمكنه إيقاظ العقل من نومه عندما يحين الوقت للتّسجيل في ساعة العمل في التّاسعة صباحاً. قد لا يكون سعيداً بشكل تام، ولكنه سيحرص على القول إنه كذلك.

الشخصيّة الثالثة تتمثل في الشخص التافه المتعصّب. إنه مِحنَةٌ حقيقية؛ يطلب المزيد دائماً. إنه شخصٌ يعرف جميع الحِيَل، إنه يستيقظ من نومه وهو يتساءل عن الحيلة المشبوهة التي يمكنه ابتكارها لنيل الحظوة لدى سلطةٍ ما، عن طريق تبنّيه لرأيها، بالتأكيد، وفي الوقت المناسب تماماً. هو يفكر أيضاً في

---

(67) Georges Perec, *A man Asleep*, tr. Andrew Leak (Boston: David R. Godine, 1990).

(68) Lefebvre, *Confessions d'un cassé*, p. 62.

كيفيّة إزالة أيّ منافسٌ قد يقف في طريقه. كأستاذٍ في المكائد، إنه محميٌّ دائماً بفن عدم الاقتناع العميق بأي شيء، مما يعنى أنه متاحٌ باستمرار لأن يصبح جزءاً من أيّ اصطفافٍ تفرضه الظروف. إنه مرآة لزمانه، والمستقبل ينتمي له. لا شيء سيوقفه؛ إن حكمةً ما سوف تزوّده بمظهرٍ أخلاقيٍّ في كل مرحلةٍ من مساره. تكمن قوّته الأهم في أنه غير قادرٍ - تماماً - على التفكير التأملي.

الشخصيّة الرابعة هو شخصٌ تافهٌ رغماً عنه. إنه لا يخفي عن نفسه، بأية طريقة، الطبيعة العقيمة لما يفعل أو حتى الأذى الحقيقيّ الذي قد يتسبّب فيه عمله لو كان يعمل في مجالٍ كالصّناعات الكبرى، الزراعة أحاديّة المحاصيل monoculture، الصّناعات الاستراتيجيّة، القانون، أو علم النفس التنظيمي organizational psychology. إن على عاتقه أفواهاً يجب إطعامها ورهناً ينبغي دفعه. ينفّذ عمله تحت الضّغط، ومع ذلك فهو ينفّذه مع شعورٍ بالعار أيضاً، وإدراكاً تاماً لابتذال الشر الذي يمثّله؛ هو يعي شرّ هذا الابتذال. في أفضل الأحوال، سوف يجد طريقةً ما يكون قادراً من خلالها على أن يكون فاعلاً من ضمن نقابة عمّالٍ أو أن يساعد في إدارة عملٍ خيريٍّ ما، إلى أن يجد في هذه البيئات نفس المشكلات الذي يجدها في عمله. إنه يظلّ يمرّ في حالةٍ عميقةٍ من عدم الارتياح.

وأخيراً، فإن عدداً صغيراً من الرّعناء الطائشين يمثلون الطائفة الرمزيّة الأخيرة. هؤلاء هم الأشخاص الذين يندفعون إلى الأمام، مندّدين بأعمال مؤسّسات السلطة، التي تكون أجرتها الوحيدة هي شرف عدم المشاركة فيها. إن مقاتل المقاومة سوف يقدّم نفسه باعتباره سوط التفاهة إلى أن يقوم نظام النجوم The Star System،[69] يوماً ما، بضمّه كعضوٍ في الفريق المساند، مدركاً لقيمته

(69) المراد هنا هو نظام صناعة النجوم في هوليوود Hollywood، والذي يتم من خلاله اختيار وتدريب واستغلال الممثلين الذي يصنع منهم نجوماً في أفلام هوليوود، وخلق شخصياتٍ اصطناعيّةٍ وغير حقيقيّةٍ لهم، وذلك من أجل تسويق الأفلام. - [المُترجِمة].

كمرشحٍ يمكن أن يملأ، بأدب، منصِباً هاماً: شخصيّة الملعون the figure of the damned.

(24)

إنه نداء شغِفٌ من القلب، وليس سؤال. «نعم، ولكن ما الذي أستطيع عمله بهذا الصدد؟» إنه يُسمع، باستمرار، في ختام أي حديثٍ عامٍّ حول شرور زماننا. أغلب أنظمة العالم البيئيّة مُهَدَّدة؛ لشركات البترول اقتصاديّاتٌ أشبه ما تكون بالمافيا، أقوى من أية دولة؛ الإنتاج الإعلاميّ مصممٌّ للتلاعب بناءً على أساسٍ من التجارب العصبيّة؛ الأجناس الطبيعيّة (species) تنقرض؛ هناك قارةٌ من البلاستيك المرميّ تتشكّل الآن في المحيط الهادئ؛ والتوتّرات تثور بلا هوادةٍ في مناطق الصّراع الجيوسياسي حول العالم. ولكن السؤال الذي يثور نتيجةً لذلك يُحبِط أيّ جوابٍ ممكن. إنه يتمثل بالآتي:

«ما الذي أستطيع عمله، أنا، الشيء الصغير *Petit Chose*؛ [70] النَكِرَة poor Little Nothing؛ السّجين بداخل فرديّتي العميقة؛ المُجبَر على أكل البيتزا المجمّدة؛ بداخل شقتي المكوّنة من نِصف سِرداب؛ والذي أعيش في محيطٍ من مُعدل البَطالة المُرتفع؛ والإيجارات العالية؛ وحشيّة الشرطة؛ وجميع المبالغ التي أُدين بها للآخرين؟». هذا سؤالٌ خِطابيّ rhetorical question، [71] وهو يعني: «أرجو تأكيد أنه ليس باستطاعتي عمل أيّ شيءٍ بهذا الصّدد، فأنا لا أعتقد أنني قادرٌ على فعل المقاومة الذي يتطلّبه الموقف». متقوقِعةٌ على نفسها

---

(70) رواية «الشيء الصغير» *Le Petit Chose* هي سيرةٌ ذاتيةٌ كتبها الروائي الفرنسي ألفونس دوديه Alphonse Daudet (1868) عن سنوات طفولته المبكرة. - [المُترجِمة].

(71) السؤال الخطابي rhetorical question هو سؤال لا يُطرح بقصد الحصول على إجابة، وإنما لتقرير حقيقةٍ ما أو لإيقاع التأثير في نفس المستمع أو القارئ، وذلك عِوضاً عن طرح عبارةٍ تقريريةٍ مباشرةٍ وبسيطة. - [المُترجِمة].

في الزاوية، تتساءَل هذه الشخصيّة بصورةٍ تدعو إلى الرّثاء: «أين الديغول De Gaulle[72] الذي سيجيب النداء؟ الغاندي Ghandi[73] الذي يمكننا اتباعه؟ وفي هذه المرحلة من التقصير السياسي، ما الذي يمكن عمله؟».

«ما الذي يمكن عمله؟» هو سؤالٌ كان له صدى التعجّب في السّابق؛ لقد كان مقدّمةً للتفكير الاستراتيجيّ حول نظامٍ جديد. أما نسخة اليوم الفردانية individualist version فهي «نعم، ولكن ما الذي يمكنني *أنا* القيام به في هذا الصدد؟» وهي تخبرنا أن الشّخص المتسائِل لا أمل لديه في جدوى أي تصرّف: مثل الشيء الصّغير *Petit Chose*، لا يمكننا القيام بأي شيءٍ ذي جدوى. هذا السؤال الفقير يكشِف عن الحالة التي قام النظام الحالي باختزالنا إليها. ومع ذلك، وبطريقةٍ ضمنيّة، فإن السؤال يرفع من وعينا الاجتماعي والسياسي. إنه نقطة الصفر ground zero التي يمكننا، انطلاقاً منها، بَلْوَرَة أسبابنا الدّاعية إلى الهروب من أنفسنا، البحث عن سُبُلٍ للتّصرف بشأن البِنى الجَمعّية التي تحدّد ظروفنا، وفهم إلى أي مدىً يُعتبر هذا الشيء الذي نُسميه - تعجّلاً - «الضّمير الفردي» individual conscience نتاجاً لسياقٍ ثقافي، اجتماعيّ وآيديولوجي ما.

كانت شخصيّة «الشيء الصغير» *Petit Chose*، التي خرج بها الروائي ألفونس دوديه Alphonse Daudet، تؤمن بأنها غارقةٌ إلى أقصى درجةٍ بنكبات زمانِها. كان هذا الرّجل يُشير إلى نفسه بصيغة الغائب in the third person[74]،

(72) الجنرال شارل دي غول Charles de Gaulle (1890-1970) هو من قاد فرنسا نحو التحرّر من الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، ليصبح رئيساً لها بعد ذلك. - [المُترجِمة].

(73) كان المهاتما غاندي Mahatma Gandhi (1869-1948) مصلِحاً اجتماعياً هندياً وزعيماً للعصيان المدني في الهند في سبيل تحرير البلاد ضد الاستعمار البريطاني. - [المُترجِمة].

(74) في الكتابة الرّوائية أو القصصيّة، قد تتعدد زوايا السّرد التي يتاح للكاتب الاختيار منها، ومنها أن يتم الكتابة بصيغة الغائب third person (باستخدام ضمائر مثل «هو» و«هي»)، وذلك بخلاف الكتابة بصيغة المتحدّث أو صيغة الشخص الأول first person كما تسمى (وهي التي يشير السارد لنفسه فيها بلفظ «أنا»)، أو الكتابة بصيغة المُخاطَب أو صيغة الشخص الثاني second person (أي أن يستخدم السرد ضمائر «أنتَ» و«أنتِ» و«أنتم»). - [المُترجِمة].

ليس بداع الفخر، وإنما من قبيل الأسى على الشّخص الذي يدّعى كونه شخصاً لا سيطرة له على الويلات الفتّاكة التي تُصيبه، خصوصاً عندما يعتقد أنه وجد شيئاً لإراحة قلبه الجريح. لقد روّض نفسه على نسيان التعبيرات والمُبادرات التي كان من شأنها أن تغيّر في قَدَرَه بشكلٍ راديكالي. كيف يمكننا تفسير أننا في وضع ساكِن static، في عالَمٍ كانت فيه أفظع الكوارث مُتَوَقّعةً منذ عقود؟

«أنا، النّكِرَة، المِسكين poor Little Nothing، ما الذي يمكنني عمله بهذا الصّدد؟». توقّف عن السّخط وانتقِل إلى السؤال التالي: اعملْ بلا هوادةٍ لخلق توليفٍ synthesis من القضايا الوَجيهة؛ التقِ مع آخرين في تجمعاتٍ بخلاف تلك الطائفيّة والشلليّة؛ اسخَر من الآيديولوجيات؛ اختَزِل المصطلحات التي تريد البروباغندا كتابتها في جوهر ذواتنا وحَوّلها إلى موضوعاتٍ مجرّدةٍ للتفكير؛ تجاوز أساليب السّيطرة التي تمارسها المنظّمات، وحاول خلق بِنىً تُشبِهُنا.

كُن راديكاليّاً!

د. آلان دونو

نظام التفاهة

«صارت السلطة في يد التافهين، وصارت إمبراطوريّتهم تمتدّ إلى جميع جوانب الحياة: الاقتصاد، العلوم، القانون والسياسة. في عملهم الجاد وسرعتهم في التّكاثر، هم مُغالون جداً، إلى درجة أنهم خلال زمنٍ غير بعيد سوف يقضون على كل شَغف، يقمَعون كل إحساسٍ بالمخاطرة، يمزّقون كل فكرةٍ سياسيّةٍ أصيلةٍ إلى مُزَقٍ صغيرة. في هذا الكتاب، يقدّم دونو تحليلاً ثاقباً -كاوياً في بعض الأحيان- لعهد التفاهة هذا، الذي يؤدي إلى إصابة العقل البشري بالعُقم من خلال نشر الميل الحاد للفُتور الثقافيّ والسياسي. التفاهة هي نظامٌ اجتماعيٌّ يؤدّى إلى تهديدٍ دائمٍ بالسّقوط في الوسط».

Lux Éditeur

«أصبح آلان دونو واحداً من أهم الفلاسفة الكنديين الذين لم يسبق للعالم الناطق بالإنجليزية أن سمِع بهم من قبل... الكتابة الجريئة حول (موضوعاتٍ عدّة) وضعت دونو في قلب خارطة الجدل في كندا».

The Bullet

«أسلوبٌ ذكيٌّ ونقدٌ حاد».

Montreal Review of Books

